من هدى القرآن

٨

تفسير سور

الحج إلى الفرقان

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

عن أبي عبد الله عليه السّلام قال :

«**من قــرأ ســورة الحج في كل ثلاثة أيــام ، لم تخـرج سـنة حـتى يخـرج الى بيت الله الحـرام. وان مات في سفره دخل الجنة**»

الاسم :

وانبثق اسم الســورة من أحكــام فريضة الحج الــتي وردت في هذه السورة.

الإطار العام

أولى آيات سورة الحج تصور لنا أهوال الساعة بهدف بث روح التقوى من الله.

ولعـلّ التقـوى من الأهـداف الـتي تحققها كل السـور القرآنية ، الّا ان انعكاساتها على الحياة تختلف ، وقد سبق الحديث عند التدبر في سورة البقرة انّ آياتها تهدف بيــان صبغة الله التي جعلها للامة المسـلمة ، والـتي تتجسد في التقوى. وتكاد تكون سورة الحج تأكيدا على تلك الصـبغة ، حيث أنها تشـرع بـأمر النـاس بـالتقوى ، وتـذكرنا بمناسك الحج ، وواجبــات الجهــاد ، وتنتهي ببيــان خصــائص الامة الاسلامية.

ولكن هذه السـورة الـتي اختلف المفسـرون في أنها نــــزلت بمكة أو المدينة ، أو فيهما معا تتميّز عن ســـورة البقرة ـ فيما يبدو لي ـ في انها شـفاء للقلب من أمـراض الغفلة والجدل والجهل والنفاق ، وهي تعالج أيضا الأعــذار التي يلجأ إليها الإنسان هربا من المســؤولية! مثل التظنّي والتمنّي ، والاتكال على عبادة الأوثان ، والخوف من

الطغاة ، والخشية من الهزيمة أمام قوتهم.
كيف يشفي الله بآيات هـذه السـورة تلك الأمـراض ، ويطهر القلب من الأعذار والمانعة عن التقوى؟
فيما يلي نتذكر معا الحقائق التي نستوحيها من التدبر في آيات هذه السورة التي تفيض هيبة وجلالا :
نرى في بدايتها هزة عنيفة تزلزل قناعـات الإنسـان ، السـادر في الغي ، الغافل عن المصـير الفظيع الـذي ينتظره.
ثم يعـالج السـياق التـبرير القـديم الجديد ، الـذي تلجأ اليه النفس البشـرية هربا من عظمة المسـؤولية وهيبة الجزاء .. وذلك هو الجدل في الله بغير علم ، والـريب في البعث باعتباره مستحيلا.
وبعد التـذكرة بقـدرة الله على النشـور ــ أو ليس قد خلق الإنسان أطـوارا؟! ــ يعـالج حالة الجـدل بغـير علم ، وحالة الايمـان الحـرفيّ ، حيث يهـدف صـاحبه المصـالح العاجلة ، ويحذره بأنه الخاسر في الدنيا والآخرة.
ويهدينا السياق القرآني الى ضلالة من يظن بـان الله لا ينصره في الدنيا والآخـرة ، أو ليس هو السـلطان الحق للسموات والأرض ، وهو الذي يفعل ما يشاء؟!
وهو الذي يفصل بين الناس ـ على اختلافهم ـ بالحق.
ثم يبين جـزاء المؤمـنين ، وعقـاب الكفـار ، وبالـذات الذين يصدون عن المسجد الحرام .. ذلك البيت الذي بناه إبراهيم ويجب قصده ابتغاء مرضاة الرب.

ان من أعظم حكم الحج بث روح التقوى في القلب ، لتطهيره من درن الشرك ، وذلك عـبر ذكر الله ، وإطعـام البائس والفقير ، وتطهير البدن من التفث.

وهكذا يبدأ السياق بذكر الحج من آية (26) ، ويستمر ببيـان جـانب هـام من التقـوى ، هو تعظيم حرمـات الله واحترام شعائره ، وينهى عن الأوثان ، ويأمر برفضها عـبر الحنفية التي تعنى الطهارة والنقاء.

ان تعظيم شـعائر الله من تقـوى القلـوب ، والهـدف من الـذبح تنمية التقـوى ، عـبر ذكر الله عليهـا. وقد حـدد الله لكل امة منسكا ، ليذكروا الله على نعمائة.

وأسـمى درجـات التقـوى حالة الإخبـات حيث يـذكرنا السياق بصفات المخبتين ، من خشية الله والصـبر واقامة الصلاة والإنفاق.

وخلال آيات (38 ـ 41) يذكرنا السـياق بالجهـاد الـذي هو حصن المقدسات ، ودرع الحرمات. والعلاقة وثيقة بين الحج الــذي يســمى بجهــاد الضــعفاء والجهــاد ، أو ليسا يهـدفان معا إعلاء كلمة الحق ، أحـدهما بصـورة سـلمية ، والثاني بالدفاع الدامي؟!

ولعل الإذن بالجهـاد في هـذا السـياق لتكميل جـوانب التقوى ، حتى لا يتبادر الى الذهن ان التقوى تعــني العزلة والتقوقع والرهبنة .. وعموما يبــدو ان هــذه الآيــات هي سنام السورة.

ثم يعــالج الســياق تــبريرا شــيطانيا آخر حيث يظن المكـذبين بالرسـالات ان تـأخير العـذاب دليل إهمـال الله لهم. بينما ينبغي الســير في الأرض للنظر في عــواقب المكـذبين الـذين أملى الله لهم ثم أخـذهم أخـذا شـديدا ، بينما أسبغ على الصـالحين نعمه ظـاهرة وباطنـة. والسـير في الأرض لا ينفع الذين يسعون في آيات الله معـاجزين ، وهم

يعاندونها ويتحدونها ولكن لهم عذاب شديد.

ويداوي الـذكر الحكيم قلب البشر من التمنيـات الـتي هي أرضية وساوس الشيطان ، والله سبحانه يؤيد أنبيــاءه فينسخ ما يلقي الشيطان. ثم يحكم آياته.

وعلينا ان نعالج هذه التمنيات بآيات القـرآن ، حـتى لا تكون فتنة لنا.

ولكن القلب المـــريض والقاسي يســـتقبل ما يلقيه الشيطان فيه عند التمني فيضل عن الصراط السوي.

والكفار يترددون في ريبهم. ولهم عذاب شديد.

وهنـاك عـذر شـيطاني آخر تعالجه آيـات الـذكر وهو اليــأس ، حيث يتســاءل المــرء : مــاذا ينفع القيــام لله والمطالبة بالحقوق الضائعة؟.

بلى .. الذين يهاجرون في سبيل الله ، ويـدافعون عن أنفسهم ضد البغي ينصرهم الله ، ولا يعجز الله شـيء في الســـموات والأرض ، أو ليس هو الملك الغـــنيّ الحميد الرؤوف الرحيم ، وإنه يحيي ويميت؟!

ولكي نعــالج حالة اليـأس لا بــدّ من النظر في آيــات قدرة الله ورحمته.

ولعــلّ ما يعــوق الإنســان عن العمل هو الجــدل في الدين ، والله نهى عنه ، ونبّئنا بأنه قد جعل لكل امة منهجا ومنسكا ، وانه عليم بكل شيء.

والشـرك ملجأ المـبررين حيث يـزعم المشـرك بـأنّ الاعتمــاد على الشــركاء ينجيه من المســؤوليات ، ولكن القرآن يذكرنا بان أولئك لم يخلقوا ذبابا ، وانهم لا يقدرون على مقاومته.

وفي الــدرس الأخــير من الســورة يــبيّن الله كيف يصطفي الرسل من الملائكة ومن

النــاس .. وانه المهيمن عليهم ، فلا يــزعم البعض بــأنهم انصاف آلهة.

وفي ختام السورة نقـرأ آية كريمة تحـدد ملامح الأمة الاسلامية ، وتأمر بالجهاد كما ينبغي.

سورة الحج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَـةَ السَّـاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُـلُّ مُرْضِـعَةٍ عَمَّا أَرْضَـعَتْ وَتَضَـعُ كُـلُّ ذاتِ حَمْـلٍ حَمْلَها وَتَـرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَـدِيدٌ (2) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِـعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ

---

1 [زلزلة] : الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة وقيل ان أصـله زلّ فضوعفت للمبالغة.

2 [تذهل] : الذهول عن الشيء دهشا وحيرة.

3 [مريد] : المتجرد للفساد ، وقيل ان أصله الملاسة فكأنه متملس من الخير.

وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (4) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنـاكُمْ مِنْ تُـرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَـةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْـغَةٍ مُخَلَّقَـةٍ وَغَيْـرِ مُخَلَّقَـةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِـرُّ فِي الْأَرْحـامِ ما نَشـاءُ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى ثُمَّ نُخْـرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُـوا أَشُـدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَـوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُـرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُـرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْـدِ عِلْمٍ شَـيْئاً وَتَـرَى الْأَرْضَ هامِـدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

---

5 [نطفة] : المني ـ ماء الرجل.
[علقة] : قطعة دم جامد.
[مضغة] قطعة لحم بمقدار ما يمضغ من اللحم.
[مخلقة] : مستوية الخلقة.
[أرذل العمر] : أسوء العمر وأخبثه (الهرم).
[ربت] : أي زادت وأضعفت نباتها.
[البهيج] : الحسن الصورة.

ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُـوَ الْحَـقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَـوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

معايشة الساعة سبيل الإصلاح

هدى من الآيات :

في الآيــات الاولى من هــذه الســورة يهــزّ الســياق القــرآني ضــمير الإنســان هــزّا عنيفا بتصــوير اللحظـات الحرجة الاولى لوقوع الساعة ، حيث يذهل الإنسان ويبتعد ذهنيا عن كل العوامل التي كانت تضله في الحياة.

ونسأل : لماذا يضل الإنسان؟

لأنه يحب المال والجاه والولد وما أشبه ، فـاذا به في تلك اللحظات يذهل عن ماله وولده .. ، لان الساعة أدهى وامر ، وأكبر وأعظم من كل تلك الأمـور ، فـالمرأة تـذهل عمن ترضعه ، والحامل تضع ما تحمله ، وكل إنسان يكون كالســـكران ولكن ليس بنشـــوة الخمر وانما هو ســـكر العذاب ، وهيبة الساعة.

بعد ان يهز القرآن ضمير الإنسان بهذا الهول الـرهيب يقول له : أتعرف لماذا تتورط في مثل هذا الهول؟ وكيف تخلص نفسك منه؟!

انما تتــورط لأنك اتبعت إلها غــير الله من دون علم ، وكـذلك لأنك غفلت ولهـوت حينما يريد الإنسـان ان يختـار فراشا لبيته أو لونا لغرفته أو سـاعة يلبسـها أو اي شـيء آخر ، تراه يفكر ويخطط و يسأل ويستشـير ، ولكن حينما يريد أن يعبد إلها غـير الله ، فانه يعبـده من دون تفكـير أو بحث ، وبالتـــــالي يتــــــورط في ذلك الموقف العظيم بالاسترسال.

اما كيف يتخلص الإنسان من هذا الهول؟ فهو لا يكون إلّا عبر الايمان بالله وحده ، والايمان بالبعث والنشور.

ان كل إنسان مفطور على الايمـان بـالبعث ، وبما انه معرّض لوساوس الشـيطان الـذي يـزرع الشك في قلبه ، فهو يكفر ان لم يحـــاول قمع تلك الوســـاوس ، ويقمع القرآن هذا الشك بقوله : «**كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**».

ان النظر الى سلسـلة الحيـاة الماضـية يهـدينا الى المســـتقبل ، لأن الســـنة واحـــدة تنطبق على الماضي والحاضر والمسـتقبل ، فـاذا أردت ان تعـرف المسـتقبل فارجع قليلا الى الوراء وانظر اليه كيف كان؟

خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ، فعلقة فمضغة ، وبعد الــولادة كـان في حالة تطــور ، فمن الطفولة الى الشباب الى الهرم الى الوفاة ، وهذا التطور يسـير حسب قانون وتدبير رشـيدين ، من لـدن اله قـدير مبـدع ، فلكي تعـــرف مســـتقبلك انظر الى بداية خلقك ، فبعد ما كنت ضعيفا في رحم أمك قويت وسـوف تعـاد كـذلك في أرذل العمر ، أو ليس الذي انشـأك في ظلمـات الأرحـام ، وفي الحياة خلقا بعد خلق بقادر على انشائك من بعد موتك؟!

ورد في بعض الأحـاديث عن يـوم القيامة : ان الأرض تصبح كرحم الام ينشأ الإنسان فيها كما ينشأ في رحم أمه ، وإذا كان الإنسان يولد من بطن امه ولادة ،

فانه في ذلك اليـوم ينبت من الأرض نباتـا. والفـارق : ان النـاس في الـدنيا يولـدون بالتـدرج اجيـالا الا انهم يـوم القيامة يولدون جميعا.

وقــدرة الله في الأرض تتجلى في شـــيء يأمرنا ربنا بالتـدبر فيه وهو ان الله يصـنع الأشـياء بمختلف الصـور ، فهم لم يخلق نوعا واحـــدا من الحيوانـــات وانما خلق كل شـيء بمختلف الاحجـام والألـوان ، كل هـذه الحيوانـات والكائنـات خلقها ودبّر أمرها وصـورها حـتى أننا لا نتصـور شيئا الا وقد خلقه الرب ، أو ليس الذي اسـتطاع ان يخلق كل شيء بقـادر على ان يبعث الإنسـان في الآخـرة مـرة أخـرى ، كما خلقه اولا في رحم أمـه؟! وفي نهاية الآيـات يذكرنا الله بأمرين :

الاول : ضرورة الايمان بقدرة الله.

الثاني : ضرورة الايمان بيوم القيامة.

ذلك ان الايمان بقدرة الله هو الطريق للايمان بالبعث ، فكلما شـككنا في البعث لا بد ان ننظر الى آيـات قـدرة الله ، لان الشك في البعث نـــــــاتج من الشك في الله ، والذي يعرف الله حقا لا يشك في البعث.

بينات من الآيات :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾

تشـير بسم الله الى ان الحيـاة وما فيها مخلوقة من قبل الله سـبحانه ، وقائمة به ، لـذلك فاننا كلما بسـملنا على أمر فان توجّه هـذه البسـملة يكـون نحو ذلك الأمر ، فاذا قلت بسم الله أقوم يعـني ان قيامك بالله ، وإذا قلت : بسم الله أنام ، يعني ان نومك

بالله ، و هكذا.

وتختلف ســـور القـــرآن الحكيم في معانيها العامة ، لذلك فان كل (بسملة) في بداية كل سورة تشـير الى ان كل شـــيء هو قـــائم بالله ، فعند ما نحج فانه باسم الله ، وهــدف الحج هو تقــوى الله ، والتقــوى بــدورها من الله وبالله ، وعند ما نصــوم فــإن صـيامنا باسم الله ، وهـدف الصيام هو تقـوى الله ، والتقـوى بـدورها من الله وبالله .. وهكذا عند ما نصلّي ونقوم بأي واجب آخر.

[1] **يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**

الهدف من سورة الحج هو تكريس التقـوى الـتي هي أعلى درجات الايمان بالمسـؤولية. ففي سـورة الأنبيـاء ـ التي سبقت سورة الحج ـ كـان الحـديث عن المسـؤولية ، اما هــذه الســورة ، فالحــديث فيها عن التقــوى باعتبارها مرحلة متقدمة من الايمان.

من الصعب على الإنسان ان يؤمن بمسلّمات ، ويظن انها قواعد راسـخة يسـتطيع ان يقيم عليها بنـاء أفكـاره ، من الصعب عليه ان يؤمن بغيرها ، حتى ولو كانت أقوى ، وهنا ـ بالضبط ـ يمكن خطأ الإنسـان إذا تأسـره مسـلمات فكرية توجه كل حياته ويــزعم انه ضــعيف امامها ، كلا ان الإنســان أقــوى من مســلّماته ، وعلم الإنســان أنفذ من ســابقياته الذهنية ، ومما يعتقد به مجتمعة وآبــاؤه ، وان الايمــان بالســاعة وزلزالها وأهوالها يحطم المســلمات ، والسـابقيات الذهنية ، ويعطي البشر قـدرة هائلة للتفكـير من جديـد. عـبر جسر الشك المنهجي فيما يـزعم انه من الحقائق المسلمة.

[2] **يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**

فلا تستطيع المرضعة ان تفكر انئذ ـ لهول السـاعة ـ برضيعها.

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾

ان الحامل تجهض ويسقط جنينها ، والمرأة لا تجهض الا إذا كانت تمر بهول عظيم ، وترى كل إنسان كالسكران ، لا يستطيع ان يستوعب ما يجري حوله ، قد شغلته نفسه عن الآخرين ، واسكره العذاب حتى صار فاقدا لقدراته الفكرية.

ان تصور هذه الأهوال المروعة كفيل بايقاظ القلب الغافل. وهكذا كان السلف الصالح فقد جاء في قصة نزول هاتين الآيتين من سورة الحج ما يلي :

نزلت الآيات من أول السورة ليلا في غزاة بني المصطلق وهم حيّ من خزاعة ، والناس يسيرون ، فنادى رسول الله (ص) فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله (ص) فقرأها عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب ولم يضربوا الخيام والناس بين باك أو جالس حزين متفكر ، فقال لهم رسول الله (ص) : أتدرون اي يوم ذاك؟ قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار من ولدك ، فيقول آدم : من كم كم؟ فيقول عز وجل : من كل الف ، تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحدا الى الجنة ، فكبر ذلك على المسلمين وبكوا فقالوا : فمن ينجونا يا رسول الله؟ فقال (ص) : أبشروا فان معكم خليقتين : يأجوج ومأجوج ما كانتا في شيء الا كثرتاه ، ما أنتم في الناس الا كشعرة بيضاء في الثور الأسود ، أو كرقم في ذراع البكر ، أو كشامة في جنب البعير ، ثم قال : اني لأرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ، ثم قال : اني لأرجو ان تكونوا ثلث أهل الجنة ثم قال : اني لأرجو ان تكونوا ثلثي أهل الجنة فان أهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها أمتي ، ثم قال : ويدخل من أمتي سبعون ألفا الجنة بغير حساب.

[3] ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾

وقوله «**يُجـادِلُ فِي اللـهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ**» اي من دون تفكير في ذلك الإله الذي يجب عليه ان يطيعه.

ان الجـــدال بالباطل لشـــاهد على حالة الاســـتقرار الكاذب ، الذي لا يرضى صاحبه التحـول عنه ، حيث يـزعم انه يهدم أساس حياته ، أو يخـالف عزته الشخصـية ، بينما الاحساس بزلـزال يـوم القيامة ، يجعل المؤمـنين قـادرين على مراجعة افكارهم في ضوء العقل والوحي واسـتقبال الحقائق الجديدة بلا حمية ولا اعتزازٍ بالإثم ، والباطل.

ويـزعم الكفـار انهم يحـافظون على كـرامتهم ، حين يعـــتزون بأفكـــارهم الباطلة بينما يفقـــدون اســـتقلالهم وكرامتهم بذلك ، إذ انهم يتبعون شيطانا مريدا.

﴿ **وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ** ﴾

متجردا عن كل خير متمحضا في الفساد والإفساد.

[4] ﴿ **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ** ﴾

بإرادته وجعله واليا عليه.

﴿ **فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ** ﴾

من المسـتحيل ان يكـون ذلك الشـيطان المريد هاديا لاتباعه ، لان الله قـــدر ان يكـــون مضـــلّاً لمن اتبعه ، وان نهايتهما هي السعير.

[5] ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ**

تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ

ان كنتم في ريب من البعث فـانظروا الى ماضـيكم هل باسـتطاعتكم ان تقولـوا : ان الله لا يقـدر على خلقنا من جديد؟ فكيف استطاع إذا ان يخلقكم أطـوارا ، بعد ان لم تكونوا شيئا؟!

وجاء في القرآن والسنّة ان الإنسان قد خلق مرتين ، مرة في عالم الذر حيث خلق كل الناس من تراب ، ومرة أخرى حينما أودعهم الأصلاب ، ثم الأرحام. فبعد ان تقذف النطفة في رحم الام ، نجدها تتحـول بعد فـترة الى قطعة دم ، تعلق بـرحم الام (علقـة) ثم الى ما يشـبه اللحمة الممضوغة (مضغة).

 مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ

قد تحددت معالمهما كالعينين والرأس والأطراف ، أو غـير مخلّقة لا تلبث ان تسـقط من الـرحم قبل ان تتحـدد معالمها.

 لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ليفهم الإنسان بـأن التطـورات الـتي تحكم وجـوده ، دليل على انه مـدّبر وان الله هو المـدّبر الحكيم له وللخلق.

 وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى

ان المضـغة تسـتمر في الـرحم الى ان يشـاء الله ويـأذن للجـنين بـالولادة ، وبقـاء الجـنين في الـرحم ليس محدودا بمدة تسعة أشهر ، فقد يولد قبل هذا لذلك قال : (ونقرّ في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمّى). ومن معاني (ونقـرّ) اي نكتب ، لأنه كما ورد في الأحـاديث ان سـعادة الإنسان وشقاءه يكتبان عليه وهو في بطن امه.

﴿ **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ** ﴾

كانت بداية الآية تـبين تطـور الجـنين في الـرحم ، اما هنا فتـبين تطـوره بعد ان يولد طفلا ، حيث يتحـول بعدئذ الى شاب يافع قد بلغ أوج قوته (أشده).

﴿ **وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى** ﴾

كـأن يمـوت بمـرض أو بحـادث أو بقتل ، وليست له حيلة في وفاته ، انما تكون بـأمر الله وتقـديره. وقد يبقى طويلا في الحياة ليعود ضعيفا كما بدأ.

والواقع ان الـزمن ليس دائما في مصـلحة الإنسـان ، وان الإنسان ليس أبـدا في تكامل ذاتي ، كيف وهو إذا بلغ أرذل العمر يعود كالطفل فلو كان تكامله ذاتيا ، كـان لا بد ان يعود دائما ولا ينتكس.

حقا : ان أهم ما يفقـده البشر بكـبر سـنه هو علمـه. العلم ـ في ذات الوقت ـ أعظم نعمة يسـعى البشر نحوها ويحـاول المحافظة عليها ، لأن العلم يميّـزه عن سـائر الخليقة ، وحين يفقد علمه لا يعـود ذا كرامة في أهله وولـده ومجتمعة ، أو لا يكـون ذلك شـاهدا على ان تكامل البشر ليس من ذاته؟!

﴿ **وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً** ﴾

كأنها موات.

﴿ **فَـإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْمـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾

ان تلك الأرض الميتة عند ما تسـتقبل الأمطـار فانها تزيد وتنمو عليها النباتات.

والنباتات ليست ذات شكل واحد ، ولو كـانت الطبيعة هي التي تحكم الحياة اذن لكانت عمياء ولكـان كل شـيء على صورة واحدة ، ولكن تلك المواد الواحدة ـ الـتراب ــ الأملاح ـ الماء ـ النور ـ تتحول الى عدة أنواع من النباتـات ، بل ان الله يخلق من كل نـوع زوجين لضـمان اسـتمرار كل فصيل ونوع ـ ثم ان متانة الصنع لا تمنع جماله.

[6] ﴿ ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُ ﴾

إذ لا حق لســواه ، وانه حق لا ريب فيه وفي قدرته ، وبما انه الحق ـ كل الحق ـ فهو أحق ان يتبع.

﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[7] ﴿ وَأَنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللـهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾

أولئك الذين كانوا في القبور يبعثون للحسـاب بقـدرة الله سـبحانه ، تلك القــدرة الــتي تتجلى اليــوم في بعث البذور ـ الكامنة في جوف الأرض ـ بالنسبة للبـذور كـالقبر للميت؟ ولكن فكما يحيي ربنا بالماء البذرة وكـذلك يحـيي سبحانه الإنسان وهو في قبره.

من هنا جاء في الحديث :

«**إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صــباحا فــاجتمعت الأوصــال ونبتت اللحوم**»

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللـهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُـدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَـهُ فِي الـدُّنْيا خِـزْيٌ وَنُذِيقُـهُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ عَـذابَ الْحَرِيـقِ (9) ذلِـكَ بِما قَـدَّمَتْ يَـداكَ وَأَنَّ اللـهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيـدِ (10) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللـهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْـرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِـهِ خَسِـرَ الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةَ ذلِـكَ هُـوَ الْخُسْـرانُ الْمُبِينُ (11) يَـدْعُوا مِنْ دُونِ اللـهِ ما لا يَضُـرُّهُ وَما لا يَنْفَعُـهُ ذلِـكَ هُـوَ الضَّـلالُ الْبَعِيـدُ (12) يَـدْعُوا لَمَنْ ضَـرُّهُ أَقْـرَبُ مِنْ نَفْعِـهِ لَبِئْسَ الْمَـوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِـيرُ (13) إِنَّ اللـهَ يُـدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (14)

الايمان بين المجادلين والحرفيين

هدى من الآيات :

تبين آي الذكر هنا جانبا من حقيقة الايمـان ، ومواقف الناس تجاهه. فمنهم المجادلون ، ومنهم الحرفيون الـذين لا يصمدون امام الفتنة ، ومنهم المؤمنون حقا الصـالحون عملا.

وتشـير الآية الاولى الى الحجة الـتي بـدونها يصـبح الجـدال في الله بـاطلا. وهي العلم والهـدى ، أو الكتـاب المنير.

ومن لا يملك حجة فهو غير مـؤمن ، بل مسـتكبر عن الحق يثني عطفه ويسعى لإضلال الناس عن سـبيل الله ، وجزاؤه الخزي في الـدنيا حيث يشـمله الصـغار والهـوان. اما يوم القيامة فله عـذاب الحريق ، جـزاء وفاقا بما جنته يداه.

اما الذين لم تترسخ في افئدتهم حقيقة الايمـان الـتي تقـاوم الفتن ، وتتحـدى الضـغوط ، فـتراهم يعبـدون الله على طرف السبيل ، تطمئن نفوسهم إذا أصابهم الخير

بايمـانهم وينقلبـون الى هاوية الجحـود ان أصـابتهم الفتنة وتعرضـوا لضـغط. فيخســرون الــدنيا والآخــرة ذلك هو الخسران المبين.

ان هؤلاء يميلون مع ريـاح السـلطة والـثروة فيـدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، من أصـنام حجرية أو بشرية ـ ذلك هو الضلال البعيد.

بلى انهم يضـرون أنفسـهم بـدعوة الأصـنام الـتي هي قيادة سوء وصحابة سوء. أما الذين يعبدون الله باطمئنان وســكينة ، ويتحــدون الفتن والضــغوط ، فلهم من ربهم الجــزاء الحسن ، جنـات تجـري من تحتها الأنهـار ان الله يفعل ما يريد.

بينات من الآيات :

[8] الحجة بين الله وخلقه العقل ، ومنه العلم والمعرفة ، ومنه الهـدى ، والعقل يـدل صـاحبه الى اتبـاع الكتاب المنير ومن لا يملك هذه الحجة ، فانما يجـادل في الله باطلا.

 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ

فيقــول : هل الله قــادر على ان يبعث المــوتى ، أو يفعل ذلك؟ ولماذا؟

ونستوحي من الآية : ان الايمان بالنشور فرع الايمـان بالله ، وبأســمائه ومنها القــدرة والحكمة ، بل الايمــان بسائر حقائق الدين انما هو فــرع لمعرفة الله ، كما ينبغي ان يعرف ، بعظمته وحكمته ورحمته بعباده.

 بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ

ما هي حقائق هذه الكلمات الـتي من تمسك بواحـدة منها فاز؟

أ: العلم ، وهو ضـوء العقل ، وهو انكشـاف الحقـائق للقلب بنور الله ، حيث

يغني صاحبه من اتباع دليل أو التماس حجة.

ب : الهدى وهو مستوى أقل من العلم ، كمن يمشي في الصــــحراء تائها وإذا به يجد علامة من بعيد تدلّه على الوجهة التي يجب عليه ان يتبعها. والفرق بين المسـتويين (العالم والمهتدي) ان العالم يمتلك خريطة مفصـلة يمكنه الاعتمــاد عليها في مســيره الى الله ، فهو لا يحتــاج الى علامة ، اما المهتدي فهو كمن يتبع وميض نـور يسـير على هداه.

ج : الكتــاب المنــير قد لا يكــون الإنســان عالما ولا مهتـديا ، فيكـون سـائرا على هـدى عـالم آخر ، كما لو ان جماعة من النـــاس يســيرون في صـــحراء خلف دليل ، والـدليل هو العـالم ، وقد يكـون الـدليل هو الكتـاب فهم يسيرون معه انى اتجه.

[9] ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ

اي مـــــائلا ما بين منكبه ورقبته تعبـــــيرا عن التكبّر والاعراض ، لما يواجه به من الحق ، فهو أبـدا مـولّ عنه ، ويسـعى لإضـلال النـاس عن سـبيل الله ، وسـبيل الله هو الايمان به والعمل الصالح خالصا لوجهه.

 لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ

لعلنا نســـتوحي من الآية : ان من يجــادل في الله ، يبتلى في الدنيا بخزي أعـده الله له لا يمكنه الفـرار منه ، فاما فشل ذريع ، أو ميتة سـوء ، أو فضـيحة عند النـاس ، أو لعنة ابدية. أو ليس قد اختـار لنفسه الذلّة باتبـاع إبليس وطاعة الطغاة ، والخضوع للأثرياء؟

 وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ

النتيجة في الآخـرة لن تكـون أحسن منها في الـدنيا ، بل هي أشد واسوأ .. كلما

تنضج جلـــودهم تبـــدل بجلـــود غيرها ، ليـــذوقوا العـــذاب الحريق.

[10] **ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ**

واليدان تعبير عن كل الجوارح ، فهذه حكمة الله ، انه يترك الإنسان في الـدنيا يقـترف ما يريد ويجـرم ما يشـاء ولكنه يقف له بالمرصاد يأخذه بذنبه حين يشاء.

 وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ

لأنه ســـبحانه قد أعطـــاك عقلا ، وبعث إليك رسلا ، وأوضح لك طريقك ، وبيّن لك كيف تعمل ، وكيف تـــــوفّر لنفسك العزّة في الدنيا والنعيم في الآخرة ، ان الـرب قد أراد العـــزة للخلق حين أمـــرهم بعبادته ، ورفض عبـــادة المخلـوقين ، ولكنهم ظلمـوا أنفسـهم فاخـذهم بما كـانوا يكسبون.

وربما تــوحي هــذه الآية بــان الله لا يأخذ عبــاده بما ينـوون القيـام به من السـيئات ، بل بما يقومـون به فعلا. ولذلك جاء التعبير بما قدمت يداك.

الاتباع على حرف :

[11] كـــان ذلك واقع المجـــادلين في الله بـــاطلا .. وهناك طائفة ثانية يتحـدث عنها السـياق هنا ، وهم طائفة الحرفين التي تـؤمن بالله ظـاهرا ولكنها على شك ، فـان أصابهم خير اطمـأنت نفوسـهم وركنت اليه ، وان أصـابهم شر تـــردوا الى مهـــاوي اليـــأس وســوء الظن ، انهم كمن يمشي على طـرف الهاوية يسـقط فيها بأقل زلة قـــدم ، ويـــزعم هـــؤلاء : ان مقيـــاس الحق ما يحصـلون عليه من المنافع ، فاذا ما أوتوا قدرا من المال والسلطة إذا هم مع الحق امّا إذا محّصـــوا بـــالبلاء من قبل الله نكصـــوا على أعقابهم.

 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ

والحرف هو : الحافة والطرف.

 فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ

ان هذا الاطمئنان ليس بالله ، وانما بذلك الخير الـذي اصابه ، فهو يتبع قيادة الرسول ما دام يسبغ عليه الخير.

 وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ

ولعل الانقلاب على الوجه تعبـــير عن التغيـــير كليا وبصـــورة فجائية ، حيث يقطع علاقته بـــالمؤمنين تماما ، ويقف في صفوف الكفار كاملا.

يتحدث الله عن هؤلاء قائلا :

 خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ

لان الإنســان الــذي يمشي على شك لا يصــيب من الدنيا متاعا ، ولا ينال في الآخرة اجرا ، لأنه في الدنيا كان مع المؤمــنين وهم عــادة ما يكونــون مبتلين بالشــدائد ، ويعيشون ظروفا صعبة من الفقر والحرمان والمطـاردة ، اما في الآخرة عند ما يهب الله الأجر للمؤمـنين لا يحسب منهم ، لأنه ممن كـــان قلبه متعلقا بالكفـــار فهو نائل ما ينالونه.

ويؤكد القـرآن وبشـدة على عـذاب هـؤلاء ، لان أكـثر الناس الـذين يـدّعون الايمـان انما هم من هـذه الطائفة ، فهم يصلون في ظروف السلم والهدنة ، اما إذا جدّ الجـدّ وأصبحت الصلاة جريمة يعاقب عليها القانون ، فهم ليسوا مستعدين للصـلاة ، انهم مع تقلبـات السياسة أو الاقتصـاد أو المجتمع ، كالريشة في مهب الرياح.

ولقد فسرت كلمة (حرف) في الأحـاديث بأنه الشك ، وابرز مظاهر الحرفية في

حيـاة هـؤلاء ان انتمـائهم الى القيـادات الرسـالية يخضع لقانون الحرفية ، فمتى ما وجدوا القيادة في حالة انتصـار كانوا معها ، ومـتى ما كـان العكس انفضـوا عنهـا. ولـذلك جاء في أحاديث كثـيرة ومـأثورة : ان الحرفـيين هم أولئك الـــذين يشـــكون في القيـــادات الالهية ، إذ ان الطاعة المطلقة للرسول وأوصـيائه من الائمة وبعـدهم الفقهـاء ، هو ابرز مظـاهر الايمـان. ولـذلك تجد السـياق يحـدثنا عن مسألة الولاء في الآيات التالية.

[12] مقيــاس الايمــان الحق الانتمــاء الى القيــادة الالهية ، والثبات معها وطاعتها في الظروف الصـعبة رغم مخالفتها للأهواء والمصالح الذاتية.

وابرز مظاهر الحرفية في الايمـان الشك في القيـادة الربانية عند ما تأمر بعمل صعب ، أو يخالف قرارها هــوى النفس ، أو حينما تتعــرض لنكسة أو هزيمــة. وان مصــير الحرفـــيين الارتمـــاء في احضـــان القيـــادات الجاهلية ، كالسلطات الطاغوتية ، أو الأحـزاب الملحـدة ، أو الفئـات المنحرفة. وهـذا يعتـبر شـركا ظـاهرا في منطق القـرآن. وهو في ذات الوقت ضلال بعيد.

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ

اي من دون الله ، والقيادة التي أمر الله باتباعها. من نبي مرسل أو امام معصوم ، أو قائد منصوب من قبله.

ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ

أحيانا يتبع الإنســـان قيـــادة لا تنفعه وهو يحسب أنها تفيده بل هو ينفعها باتباعه لها ، أو ليس الضـلال أن يعـبئ الإنســــــان طاقاته من أجل لا شــــــيء ، فلا نفع ولا دفع للضرر؟!

وأبعد من هذا الضلال أن ينتمي البشر الى قيادة تضر ولا تنفع.

[13] **يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ**

حيث يــتراءى لهــذه الفئة من النــاس ان القيــادات الجاهلية تــوفر لهم قــدرا من العــزة ، والــثروة ، الا ان العاقبة هي الفقر والاستعباد.

 لَبِئْسَ الْمَوْلى

القائد.

 وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ

الصاحب.

ولعل هــذه الآية تكشف لنا انه لا يجــوز للإنســان ان يأذن للآخـرين باتباعه ان لم يعـرف في ذاته الكفـاءة ، ولا يجـوز له ان يعتـذر بقوله : ان النـاس هم الـذين نصـبوني إماما وقائـــدا لهم ، بل يجب عليه ان يعـــتزل عن هـــذا المنصب ، وإذا لم يعــتزل فانه ممن يقـــول الله «**لَبِئْسَ الْمَوْلى**».

[14] **إِنَّ اللــهَ يُــدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**

وهم الذين آمنوا بالله ايمانا راسخا ، وترجموا ايمانهم الى ممارسات عملية ، وسلوك صالح.

 إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ

لأنه قادر مريد مطلق القـدرة والارادة ، يفعل ما يريد ، لا ما يريده غيره ، ومن

مظاهر إرادته الحكيمة حسن جزائه للمؤمنين الصـالحين ، وســـوء عقابه للمجـــادلين فيه ، والشـــاكين في أنبيائه وأوليائه.

أو ليس الأولى بنا إذا ان نسعى الى جنان الرب الـتي وعدنا إيّاها ان كنا مؤمنين صادقين؟ وأيّة جنـات هي الـتي بشر الله عبـاده بـالغيب؟ دعنا نسـتمع الى أئمة آل الـبيت عليهم السّلام وهم يفسرون القرآن ، وينقلوننا الى رحاب تلك الجنات التي بشر بها القرآن.

 إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ الى قوله تعـالى **وَلِباسُـهُمْ فِيها حَرِيـرٌ** حـدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله (ع) : جعلت فـداك شـوقني فقـال : يا أبا محمد من أدنى نعيم الجنة أن يوجد ريحها من مســـيرة ألف عـــام من مســافة الــدنيا ، وأن ادنى أهل الجنة مــنزلا لو نــزل به الثقلان الجن والانس لوسـعهم طعاما وشـرابا ، ولا ينقص مما عنــده شــيئا ، وان أيسر أهل الجنة منزلة من يــدخل الجنة فيرفع له ثلاث حـدائق ، فـاذا دخل أدنـاهن رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهـار والثمـار ما شـاء الله مما يملأ عينه قرة وقلبه مسرة ، فـاذا شـكر الله وحمـده قيل له : ارفع رأسك الى الحديقة الثانية ففيها ما ليس في الاولى ، فيقـول : يا رب اعطـني هـذه ، فيقـول الله تعـالى : ان أعطيتكها سألتني غيرها ، فيقول : رب هذه فاذا هو دخلها شكر الله وحمده ، قال : فيقال : افتحوا له بابا الى الجنة ويقـــال له : ارفع رأسك فـــاذا قد فتح له بـــاب من الخلد ويــرى أضـعاف ما كـان فيما قبل فيقــول عند مضـاعف مســـراته : رب لك الحمد الــــذي لا يحصى إذ مننت عليّ بالجنان ، وأنجيتـني من النـيران ، قـال أبو بصـير : فبكيت وقلت له : جعلت فـــداك زدني قـــال : يا أبا محمد ان في الجنة نهرا في حافتيه جوار نابتات ، إذا مر المؤمن بجارية أعجبته قلعها وأنبت الله عز وجل مكانها أخـــــرى ، قلت : جعلت فـــداك زدني قـــال : يا أبا محمد المـــؤمن يـــزوج ثمانمـأة عـذراء ، واربعة آلاف ثيب ، وزوجـتين من الحـور العين. قلت : جعلت فداك ثمانمـأة عـذراء؟ قـال : نعم ما يفترش منهن

شيئا الا وجـدها كـذلك. قلت : جعلت فـداك من أي شـيء خلقن الحور العين؟ قـال : من تربة الجنة النورانية ويـرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة كبدها مرآته وكبـده مراتها ، قلت : جعلت فداك ألهن كلام يتكلمن به في الجنة قــال : نعم. كلام لم يسمع الخلايق اعـذب منه ، قلت : ما هـو؟ قـال يقلن بأصـوات رخيمة : نحن الخالـدات فلا نمـوت ، ونحن الناعمـات فلا نبـأس ، ونحن المقيمـات فلا نظعن ، ونحن الراضـــيات فلا نســـخط ، طـــوبى لمن خلق لنا ، وطوبى لمن خلقنا له ، ونحن اللواتي لو أن قرن أحد بنا ، علق في جو السماء لأغشى نوره الأبصار [1]

(1) بح ج 8 ص 120.

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّـماءِ ثُمَّ لْيَقْطَـعْ فَلْيَنْظُـرْ هَـلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (15) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هـادُوا وَالصَّـابِئِينَ وَالنَّصـارى وَالْمَجُـوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِـلُ بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ إِنَّ اللـهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْـجُدُ لَـهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّـمْسُ وَالْقَمَرُ

---

15 [بسبب] : السبب كل ما يتوصل به الى الشيء.

[يغيظ] : ما أوجب غيظه من المشكلة والفتنة التي وقع فيها.

17 [الصابئين] : هم خليط من الأديان ، وقيل لكل خارج من الدين الى دين آخر صابئ.

[المجوس] : عبدة النار كان لهم نـبي وكتـاب ، فقتلـوا نـبيهم وأحرقـوا كتابهم.

وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَـقَّ عَلَيْـهِ الْعَـذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللـهُ فَما لَـهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللـهَ يَفْعَـلُ ما يَشـاءُ (18) هـذانِ خَصْـمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيـابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِـهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْـهَرُ بِـهِ ما فِي بُطُـونِهِمْ وَالْجُلُـودُ (20) وَلَهُمْ مَقـامِعُ مِنْ حَدِيـــدٍ (21) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُـــوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (22)

هكذا يحيط تدبير الله بالإنسان

هدى من الآيات :

تطـرقت الآيـات السـابقة عن ان هنـاك من يؤمنـون بالله ايمانا حرفيا ، فاذا أصابتهم نعمة اطمأنوا بها ، أما إذا امتحنـوا بفتنة انقلبـوا على وجـوههم وقـالت : ان هـؤلاء يتبعون قادة يضرون ولا ينفعون.

وفي هذا الدرس يذكرنا القرآن بـأن الحـاكم الحقيقي للكون ، ومن له الولاية الحق على الإنسان هو الله ، ليس فقط في المجال التشريعي وفي الآخــرة ، وانما أيضا في الدنيا وفي المجال التكويني.

ولتأكيد هذه الفكرة تذكرنا الآيات بعدة حقائق :

أولا : ان الذين يزعمون انهم منفصلون عن ارادة الله وتـدبيره فليفعلـوا ما يشـاءون ، وليكيـدوا ما يريـدون ، ثم لينظـروا ، هل باسـتطاعتهم ان يخرجـوا من حـدود قـدرة الله وملكوته؟

ثانيا : هل باسـتطاعة الإنسـان ان يهتـدي الى سـواء السـبيل ، ويعـرف الطريق القـويم ، من دون هـدى الله المتمثل في آياته ورسوله وفي توفيقه للهدى؟

ثالثا : هل بالإمكــان توحيد البشر على أســاس غــير رسالة الله الحق؟ كلا ..

ان رسالة الله والعمل بها هو الأسـاس الوحيد لتوحيد الناس.

ثم يؤكد الذكر على ان كل ما في السماوات والأرض خاضع لله وساجد له ، كالشمس والقمر والنجوم والشجر والـدواب ، ولكن تبقى مجموعة من البشر تشذ عن هـذه السنة لفترة محدودة ، وفي مجال محدود ، ينتهون بانتهاء الفرصة التي أعطاهم اللـه. فليس بإمكـان الإنسـان ان لا يأكل أو لا يشرب أو لا ينام ، وكـذلك ليس باسـتطاعته ان يخرج نفسه من الأرض ، أو يتمرد على سنن الحيـاة ، نعم بإمكانه ان لا يصوم أو لا يصلي ، في هذا المجال المحدود فقط اعطي الحرية لكي تمتحن إرادته ، اما في ســــائر المجالات فلا بد له من الخضوع طوعا وكرها؟

اذن ما دمت لا تسـطيع الخـروج عن ولاية الله ، فلما ذا تتمرد عليه وتتخذ غيره وليا؟

هذا في الدنيا ، اما في الآخرة فيساق المجرمون الى جهنم سوقا وتفصّـل لهم ثيـاب من نـار ، ويصب من فـوق رؤوسهم الحميم فيصهر ما في بطونهم وأجـوافهم ، ولهم مقامع «مطارق» من حديد ملتهب ، وكلما حـاولوا الفـرار من النار أعيدوا إليها مقهورين.

اذن فبداية الإنسان ونهايته محدودتان بتدبير الله ، انه لا يخرج من ملكوت الله وسلطانه ، فحري بالإنسان ان لا يتخذ غير الله وليا وقائدا.

بينات من الآيات :

[15] ﴿ **مَنْ كـانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُـرَهُ اللـهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَـعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ** ﴾

(الهاء) في كلمة (ينصره) تعـود الى أحد معنـيين ، اما الى نبينا محمد (ص) واما الى من في جملة «**مَنْ كـــانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ**».

ففي الحالة الاولى يكون المعـنى : انه من كـان يحقد على محمد (ص) ، وما جـاء به من رسـالة الله ويشك في نبوته ، ولا يعتقد بـان الله ناصـره في الـدنيا والآخـرة ، فليبـذل كل ما في وسـعه ، وليجـرب كل حيلة الى ذلك ، حتى لو استدعى ذلك ان يمد حبلا من أعلى ويشنق نفسه ، ثم لينظر : هل اسـتطاع ان يتحـدى ارادة الله بمنع رسوله أو بمنع رسالته فيشفي بذلك حقده وظنه؟

اما في الحالة الثانية فان الآية تعـني ان الله سـبحانه ينصر الإنسـان ، ويحفظه ويعينه في الـدنيا والآخـرة. ومن كان يظن غير ذلك ، فليذهب انى يشاء ، وليفعل ما يريد ، حـتى ولو شـاء خنق نفسه (بمد حبل الى السـماء ثم قطعه) فانه لن يقدر على تحدي سلطان الله ، ولن يذهب عمله وحقده على الله.

ولعل الآية تتضـمن تحـديا اعجازيا للبشر ، فـاذا كـانوا يشـكون في قـدرة الله اذن فليخرجـوا من ملكـوت الله ، ومن سـننه وقوانينه الثابتة الـتي اخضع لها كل شـيء ، والتي يكرهون على الخضوع لها ، ومن ثم لينظـروا ـ بعد ان يستخدموا كل امكاناتهم وعلومهم ـ هل اسـتطاعوا ان يخرجـوا من ملكـوت الله ، أو هل تحـرروا من قـوانين الحياة المادية والمعنوية ، فيشفوا بذلك غيظهم النـابع من جهلهم الموجه ضد ارادة الله وسـننه الـتي وضـعت لمصـلحتهم ، والـتي كـان ينبغي عليهم ان يعملـوا بموجبها ويشـكروا الله عليها لأنها أهم مظـاهر رحمة الله بعبـاده. فيكون معنى الآية : مدّوا

بحبل الى السماء ، فهل تقدرون على ذلك؟ والله العالم.
عند ما صـعد رائد الفضـاء (ارمسـترونغ) الى القمر .. هل اســـتطاع ان يخـــرج من ارادة اللـــه؟! كلا .. انه لا يستطيع ذلك حتى انه لم ينس مشـاكله العائلية مع زوجته ، فقد صـــرّح بعد نزوله الى الأرض : كنت أفكر وانا على سـطح القمر في خلافـاتي مع زوجـتي .. وهل هي راضـية عن عملي هذا الذي أقوم به أم لا؟

هكـــذا يبقى الإنســـان محكوما بالانظمة والقـــوى الطبيعية حوله ، مادية كانت أم معنوية ، شـاء ذلك أم ابى ، ولا يمكنه والحالة هذه الا ان يمتثل لأمر مولاه. وان تكبر واستنكف فلا يضر الا نفسه.

وأخيرا لو تفكر الإنسان : من الذي يرزقه ويسبغ عليه النعم ، ومن الذي يدفع عنه آلاف الاخطار الـتي تحمل في طياتها الموت والدمار ، لوجد انه هو الله الرزاق ذو القوة المتين ، وما عداه ليس الا أسبابا مخلوقة ..

الله يهدي من يريد :

[16] ﴿ **وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ** ﴾

كما ان الجانب المادي من حياتنا محكـوم بـإرادة الله سبحانه فكذلك الجـانب المعنـوي منها كالهداية ، ولو كـان العقل والفطــرة كافيــان لهداية الإنســان ، فلما ذا يضل البعض ويهتدي الآخـرون والجميع يمتلك العقل والفطـرة؟ كلا .. ﴿ **أَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ** ﴾. وما دامت الهداية من الله فلنتخذه وليا ، لا نعبد سواه.

[17] ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِـلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ** ﴾

ثم ان الاختلاف الناشئ بين البشر دليل واضح على ان الإنسان بحاجة الى

الله ليهديه الى الطريق القــويم وان الله هو الــذي يقضي بالحق ، ويفصل بين اتباع المذاهب المختلفة.

 إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

إنّ فصل الله بين المـــــــــــذاهب والآراء المختلفة ، وبالتالي بين الحق والباطل في كل قضية صغيرة أو كبيرة ، انما هو تجل لشهادته الشاملة لكل شيء ، وانه المهيمن الذي لا يعزب عن علمه شيء في السموات والأرض.

ولأنه شـــهيد على كل شـــيء ، فلا بد من احـــترام محضره المبارك ، والتحسس برقابته المباشرة واشــرافه الدائم ، وان يسـأل كل إنسـان نفسه عند ما يهم بعمل أو قــول ، أو حــتى عند ما يجيل بخــاطرة فكــرة ، ويريد ان يتخذ قـــرارا أو يصـــدر رأيا ، هل الله راض عن ذلك ، انه يحاسبه غدا عليه. ان هـذا الاحسـاس هو الـذي يبعث نـور الهـدى في ضــمير البشر ، ويشد أزر العقل ضد الهــوى ، ويســـاعد على منهجية التفكـــير دون الفوضى ، ويقـــوم سلوك الفرد دون التطــرف .. ويجعل له من نفسه واعظا مرشدا.

لقد جـاء في الأثر : ان زليخا عند ما طلبت الفحشـاء من يوسف (ع) وغلقت الأبـــواب رأت في جـــانب الغرفة صـنما ، فقـامت وغطته ، فسـألها يوسف : لمـاذا صـنعت هكذا؟ فقالت : لكي لا يرانا ، فقال يوسف : تستحين أنت من صــنمك وهو لا يســمع ولا يبصر ، ولا اســتحي انا من ربي؟!

[18] ثم يوجه القـــرآن الحكيم نظر الإنســـان الى السماء والأرض .. الى آيات الله الـتي تشـهد جميعها على هيمنة الله المطلقة وخضـــوع كل شـــيء في الوجـــود له سبحانه.

** أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللـهَ يَسْـجُدُ لَـهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ **

ان هذه الأشياء تخضع خضوعا للّه.

** وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ **

لكن كثـــيرا من النـــاس لا يســـجدون لله وهـــؤلاء لا يشكلون في الواقع سـوى نسـبة ضـئيلة إذا ما قيسـوا بما في الكـــون من مخلوقـــات هائلة ، واعـــداد غفـــيرة تعجز الكمبيرترات عن إحصائها وتسجيلها.

ان كرامة الإنسـان تقتضي السـجود لـرب تسـجد له الســـــــموات والأرض ، ومن فيهما ، ذلك الله الفاعل ما يشاء ، اما السجود لصنم لا يضر ولا ينفع بل يضر ولا ينفع ، أو لبشر ذليل حقير كالسلاطين المغرورين ، أو كأصحاب الثروة المفسدين فانه يستتبع اهانة وذلة وصغارا.

والله ســـبحانه حين لا يهـــدي البشر يبتليه بعبـــادة الأصـــنام الصـــامتة أو الناطقة ، فيهينه بـــذلك ، ومن اهانه الله لا مكرم له من بعده.

ولا يقـدر أحد تحـدي ارادة الله ، والخـروج عن اطـار الاهانة الشركية الى عز التوحيد ، لان الله يفعل ما يشاء ، ولا يفعل ما يشاء غيره سبحانه.

** وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ **

من اهانة هؤلاء ، أو إكرام أولئك الذين يسـجدون له ، من هنا كان علينا الالتجـاء اليه ليهـدينا اليه ، ويجعلنا ممن أكرمهم بالسجود له.

[19] ** هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ **

فريق هدى وفريق حق عليهم الضلالة ..

 فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ

الذين كفروا تقطع لهم ثياب من نار فصّلت بمقدارهم ، حـتى تكـون النـار أكـثر ملامسة لكل جـزء من أبـدانهم كذلك ليذوقوا العذاب الشديد.

 يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ

عند ما يحيط الثـــوب النـــاري بالجسم تبقى بعض الأعضاء مكشـوفة كـالرأس فيصب عليه الحميم السـاخن ليكون العذاب شاملا لكل أجسامهم.

[20] **يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ**

ان الحميم من شدة حرارته (والذي قيل في شأنه انه الرصاص المذاب) يصهر ما في أجوافهم القلب ــ الكبد ــ الأمعاء.

[21] **وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**

المقمعة : آلة تســـتعمل للـــدق ، تحملها الملائكة لتضرب بها رؤوس المجرمين.

[22] **كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُــوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ**

بـالرغم من ان الكفـار في جهنم يعلمــون ان لا أمل لهم في النجـاة منها الا أنهم من شـدة العـذاب يحـاولون الخروج منها بسبب غمّها وكدرها ، وفي كل مرة يحـاولون ذلك يفشلون ، وهذا بحدّ ذاته عذاب نفسي لهم.

هكذا يتبين مدى خطأ الفكرة التفويضية التي تـرى ان الله لا ينصر العبد في

الـــدنيا والآخـــرة ، وانه لا يرتبط به شـــيء من التقـــدير والتـــدبير ، كلا .. ان الله هو الـــذي ينعم ويهـــدي ويكـــرم ويجازي ، فالى كهفه نلتجئ ، ومن غضبه الى رحمته نفر ، وبه من عذابه نستعيذ.

إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَسـاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُـهُمْ فِيها حَرِيـرٌ (23) وَهُـدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ وَالْمَسْـجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبـادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقـائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّـجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى

---

25 [بإلحاد] : الإلحاد العدول عن القصد.
26 [بوّأنا] : وطّأنا.

كُلِّ ضـامِرٍ يَـأْتِينَ مِنْ كُـلِّ فَجٍّ عَمِيـقٍ (27) لِيَشْـهَدُوا مَنـافِعَ لَهُمْ وَيَـذْكُرُوا اسْـمَ اللـهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومـاتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَـــةِ الْأَنْعـــامِ فَكُلُـــوا مِنْها وَأَطْعِمُـوا الْبـائِسَ الْفَقِـيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُـوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

---

27 [فج عميق] : طريق بعيد.

29 [العــتيق] : هو الكعبة ، وانما ســمّي عتيقا لأنه أعتق من أن يملكه العبيد.

واذن في الناس بالحج

هدى من الآيات :

انتهت آيات الدرس السابق بإنذار بـالغ الشـدة للـذين كفروا ، وذلك بتصوير مشهد من مشاهد العـذاب في يـوم القيامة ، ولأنه كلما ورد إنــذار في القــرآن الحكيم شــفع بترغيب وبشـارة فقد جـاءت هـذه الآيـات تبشر المؤمـنين بــان لهم عند ربهم ثوابا يتجلى في جنة تجــري من تحتها الأنهـار ، وفي زينة يـتزين بها هـؤلاء في تلك الجنة ، ومن قبل هداهم الله الى القـول الطيب والصـراط الحميـد. ثم يتنـاول موضـوع الحج باعتبـاره منسـكا من مناسك الامة الإسلامية الواحـدة ، ويهـدف تكـريس التقـوى في نفـوس ابنائها ، أما الكفـار الـذين يصـدون عن سـبيل الله ، ومن أبرز مصاديقه المسجد الحرام ، فلهم عذاب اليم ، بل كل من ينحرف فيه بظلم الناس ، فله عذاب اليم.

ويعيدنا القرآن الى اليوم الاول الذي بني فيه المسجد الحرام ، وكيف أمر الله تعالى إبراهيم عليه السّـلام ببنـاء البيت للناس جميعا ، لا من أجل طائفة أو قوم. انما البيت للقريب والبعيد ، للقاصي والداني.

ولم يوضع الحرم لكي يشــرك بالله عــبره ، انما وضع لكي يعبد الله وحــــــــــــــــــده هنــــــــــــــاك.
(بإقامة الصلاة وبالركوع والسـجود) فقد أمر الله إبـراهيم (ع) ان يطهّر بيته من الأصــنام الــتي كـانت تعبد من دون الله ، في أيــام الجاهلية ، والأصــنام البشــرية الــتي تعبد اليوم هناك وباسمه.

وآيات هذا الدرس هي سنام هذه السورة ـ فيما يبـدو لي ـ لأنها تتحدث عن وسـيلة تكـريس التقـوى ، والحج هو أفضل وسـيلة لـذلك ، وقد عرفنا مسـبقا أنّ التقـوى هي أعلى درجات الاحساس بالمسؤولية.

بينات من الآيات :

الجنة نعيم شامل :

[23] ﴿ **إِنَّ اللــهَ يُــدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ** ﴾

الذين آمنـوا ايمانا صـادقا بالله ، هم المؤمنـون حقا ، وهم الــذين ينعكس ايمــانهم في واقع حيــاتهم ، بالقيــام بالأعمال الصالحة. والجنات التي يدخلها هـؤلاء هي ترجمة لعملهم الصالح ، ولهـذا جـاءت كلمة (جنـات) بلفظ الجمع باعتبــار ان عملهم الصــالح على درجــات وان لكـلّ عمل جنة.

﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَســاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُــؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ** ﴾

اي يزينــون بأســاور من الــذهب ، كما يتوجــون أو يقلـدون بـاللؤلؤ النفيس ، ويلبسـون ملابس خضـراء من حرير فـاخرة وتصـور هـذا المنظر يشّـوق الإنسـان الى الجنّة.

[24] ثم لا يكتفي الســياق ببيــان النعم المادية ، بل يضيف إليها النعم المعنوية

أيضا حيث يقول :

 وَهُـدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَـوْلِ وَهُـدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ

الطيب من القـول هو : (السّـلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه) وجـاء في بعض الأحـاديث ، انه كلمة التوحيد ، وقد ورد في بعض النصـــوص : أنّ الله يرسل الى أهل الجنة كل وقت بهدية وانها هي الطيب من القـول ، وهـذا هو المعنى الذي ذهب اليه المفسرون ، وكـأن الهداية تتم في الجنة ، ولكن يبـدو لي ان معـنى الآية : ان المؤمـنين قد هـداهم الله في الـدنيا الى الطيب من القـول ، وهو كلمة التوحيد والإخلاص. والى الصـــراط الحميد ، وهو طريق الأنبياء والائمة الهداة ، عليهم جميعا صلوات الله.

الصد عن السبيل :

[25] بعد ذلك يبدأ القرآن بنبـذة عن الكفـار ، وما هو عملهم ، بالمقارنة مع المؤمنين ، وعملهم فيقول :

 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ

ليس الكفر هو الكلام النظـري أو العقيـدة المجـردة فحسب. بل هو أيضا ما نبع من ذلك كله كالعدوان والعمل الشـيء ، لـذلك لا يلبث القـرآن بعد ان ذكر الكفـار ، ان يبين واقع كفـرهم قـائلا : «وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ» يعني ان هؤلاء قد كفروا في قـرارة أنفسـهم ، اما عملهم فصد عن سـبيل الله ، ولـذلك تجد كلمة «كفـروا» جـاءت بصـيغة الماضي ، بينما جـاءت كلمة «يصـدون» بصـيغة المضـارع الدالة على الحـال والمسـتقبل ، فـالكفر قـرار واحد ، اما الصد عن سبيل الله فهو عمل دائب ومستمر.

والصد عن سـبيل الله ، يقف حـاجزا بين الإنسـان وقيامه بالعمل الصالح ، أيا كان هذا العمل ـ امرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو بناء مساجد الله وأداء فرائضه

ـ لان الصد عكس ذلك تماما كخلق العراقيل الـتي تمنع الحجـاج عن أداء فرائضـهم ، أو منع السـلطات عمـارة الأرض ، وكبت حرية العمل والتجارة ، وعموما فـان الكفر يقف حجر عـثرة في طريق الإنسـان لكي لا يصل ذرى التقدم والتكامل المادي والمعنوي.

﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ ﴾

اما الصد عن المسجد فهو نوعان :

النوع الاول : تكبيل الناس بالقوانين الادارية الجائرة ، ومنعهم من السفر الى الحج أساسا.

النوع الثاني : هو ان يتمكن الحجاج من الوصـول الى المسـجد الحـرام ، ولكنهم لا يـتركون ليـؤدوا شـعائرهم الدينية ، كما فرضها الله عليهم بحرية تامة ، بسبب هيمنة وضـغط السـلطات الجـائرة المتحكمة على الأمـاكن المقدسة.

ضمان حرية الإنسان في الحرم :

وقبل ان يسـوق القـرآن الحـديث حـول بيت الله ومنـاهج الحج اليه ، يفـرض احـترام المسـجد الحـرام ، ويتوعد الذين يظلمون فيه ، ويعتدون على حرمات النـاس ، ويصادرون حرياتهم ، بالعذاب الأليم.

والحرية هنالك تعـني كل شـيء ، إذ من دونها تكـاد تتفـرغ منـاهج الحج من محتوياتها ، فكيف يشـهد الحجـاج منافع لهم وسـيف الظلم مسـلط عليهم. وكيف يتفكـرون في شـؤون الامة ، واجهـزة القمع المتسـلطة تلاحقهم ، وكيف يخلعـون ثيـاب الشـرك ، ويتحـررون من خـوف الجبابرة ليعبدوا الله وحده ، وشياطين السـلطة يحيطـون بهم.

وهكذا نفهم ان أي انحراف يتم بالظلم تشـمله الآية ، حـــــتى ولو لم يكن من قبل الدولة ، بل من أصـــــحاب السلطة الصغار كالزوج والمالك والمدير و .. و .. جاء في حديث مأثور على الامام الصادق ـ عليه السّلام ـ :

«**كل ظـالم يظلم الرجل نفسه بمكة من سـرقة أو ظلم أحد أو شـيء من الظلم فـاني أراه إلحـادا. ولذلك كان ينهى ان يسكن الحرم**». [1]

أي كـانت الاقامة الدائمة بمكة مكروهة شــرعا ، لان الإنســـان لا يخلو من ظلم نفسه بواحـــدة من هـــذه المحرمات فاذا سكن البيت اعتبرت معاصيه هذه إلحـادا ، وضاعف الله عليها العقاب.

﴿ **الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ** ﴾

فالمسجد الحـرام ليس ملكا لأحد ، لا لعائلة معيّنة ولا لدولة خاصة انما هو للناس جميعا ، وقد جعله الله كذلك.

﴿ **سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ** ﴾

أي يتســـــاوى فيه المقيم المعتكف بمكة ، مع ذلك الــذي يأتيه من البــدو أي الصــحراء ، ثم يؤكد الله هــذه الحقيقة ، مرة اخرى ، قائلا :

﴿ **وَمَنْ يُـرِدْ فِيـهِ بِإِلْحـادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْـهُ مِنْ عَـذابٍ أَلِيمٍ** ﴾

ان أصـحاب السـلطات الظالمة الـتي تتخذ المسـجد الحرام وحاجة الناس إليها سببا لتحريف الناس وتضـليلهم ، أو التي تفرض على الآخـرين منهجا معينا في التفكـير .. سوف يذوقون عذابا أليما. ومعنى (بإلحاد) بانحراف.

---

(1) تفسير نمونه ج 14 / ص 65.

ولكي يمرر الجاهليون ظلمهم وتسلطهم وافسادهم في الحرم تراهم يحرفون الكلم عن مواضعه وهذه هي مشكلة الإنسان الرئيسية. حيث ان أصحاب السلطة قادرون على تحريف المناهج التي وضعت لانقاذه منهم ، بحيث لا تنفع أو تكون اداة لتسلطهم عليه من جديد. ويبدو ان الآية هنا تحذر من هذه الحالة لكي لا يتحول المسجد الحرام الى مكان للظلم والإلحاد باسم جديد!

[26] وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً

لقد حدّد الله سبحانه وتعالى مكان البيت الحرام ، لإبراهيم عليه السّلام لكي يرفع قواعده عالية شامخة ، ولهدف معين هو : ان يكون البيت القاعدة الرئيسية لنسف فكرة الشرك اولا. ولاقامة منهج التوحيد الصحيح ثانيا. والواقع ان الكعبة المشرفة كانت موجودة من قبل إبراهيم (ع) ولكنها مع مرور الزمان ، اندرست أثارها ، ولم يبق لها رسم يدل عليها ، ولم يكن إبراهيم (ع) ليعلم حدود البيت. كما انه لم يكن باستطاعته ان يختار بيتا حسب رأيه الخاص ، لان هذا الأمر يختص بالخالق العظيم ، جل شأنه ـ الذي له الأمر والخلق .. فحدد الله مكانها له ثم أمره قائلا :

 وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

أي طهر بيتي من الأدران المادية والارجاس الوثنية. وقد ذكرت هذه الآية الحالات الأربع للعبادة عند المسجد الحرام ، وهي : الطواف والقيام .. (الاقامة أو الدعاء والذكر) والركوع والسجود وهما يرمزان الى الصلاة ويعبران عن الكثرة ، وهذه العبادات ترمز الى التوجه الخالص لله ، والخضوع له والتسليم لأمره ، واتخاذ شريعته محورا للحياة.

نداء الحج :

[27] ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ** ﴾

جاء في الأثر عن هـذه الآية انه لما فـرغ إبـراهيم من بناء البيت أمره الله ان يؤذن في الناس بالحج ، فقال : يا رب! ما يبلغ صوتي؟ فقـال له : اذن .. عليك الأذان وعلينا البلاغ ، وارتفع على المقــام وهو يومئذ ملصق (ملتصــق) بالبيت ، فارتفع به المقام حـتى كـان أطـول من الجبـال ، فنــادى وادخل إصـبعه في اذنه واقبل بوجهه شـرقا وغربا يقول : ايها الناس كتب عليكم بـالحج الى الـبيت العـتيق ، فأجيبوا ربكم ، فأجابوه من تحت البحور السبع ، ومن بين المشــرق والمغــرب ، الى منقطع الــتراب من أطــراف الأرض كلها ومن أصــلاب الرجــال ، ومن أرحــام النســاء بالتلبية : لبيك اللهم لبيك .. أولا تـرونهم يلبّـون؟ فمن حج من يومئذ الى يـوم القيامة فهم ممن اسـتجاب الله وذلك قوله : «**فِيهِ آيـاتٌ بَيِّنـاتٌ مَقـامُ إِبْـراهِيمَ**» يعـني نـداء إبراهيم على المقام.

﴿ **يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾

رجالا : أي مترجلين على اقدامهم ، وضامر : الـدواب المضمرة التي أضمرت بكثرة التدريب أو لطول المسـافة ، وهذه الآية ترمز الى ان الحجاج يأتون الى الحج متلهفين اما راجلين أو ممتطين دوابهم الضامرة.

[28] ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ** ﴾

المنـافع المادية والمعنوية المختلفة الـتي فيها صـلاح معاشهم واستقامة حياتهم ..

﴿ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ** ﴾

أي في أيام الحج من شهر ذي الحجة.

﴿ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ ﴾

الاضحيات التي تنحر في منى يوم العاشر.

﴿ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ ﴾

أي كلوا منها أنتم وقراباتكم ، وأطعموا الفقير الذي قد بؤس وجاع. وهذه دعوة صريحة للموسرين ، من أجل ان يخرجوا من حدود انانيتهم وشحهم ، كي يقضوا حاجات المعسرين المحتاجين ..

[29] ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾

حيث تصبح شعورهم شعثاء غبراء من كثرة الترحال والمسير ، كما تطول اظافرهم ، وفي نهاية موسم الحج يقصون شعورهم ويقلّمون اظفارهم. ويطهرون أبدانهم من الأدران ، والتفث في اللغة الدرن.

﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

وتلمح هذه الآية الى ان ضرورة قضاء النذور وهي ـ عادة ـ تلك التي يلزمها الفرد على نفسه ان بلغ مكة سالما ، أو ان قضيت حاجاته. ولعلنا نستفيد من هذه الآية التأكيد بتطهير القلب والتخفيف عنه بالوفاء بالنذور ، حتى يعود الحاج الى بيته بصفحة جديدة. اما الطواف بالبيت العتيق ، فقد جاء في الأحاديث انه الطواف الأخير الذي يسمّى بطواف النساء لان النساء لا يحللن الا بعده ، ويسمّيه البعض بطواف الوداع ، لأنه آخر تطواف حول البيت ، الذي سماه الرب هنا بالبيت العتيق ، لأنه حر عن ملكية الإفراد وعن سلطة الجبابرة ومركز لحرية الناس. وهو

أول بيت وضع للنــاس (جميع النــاس) وقد أعتقه الله من الغـرق عند الطوفـان الأعظم على عهد النــبي نــوح عليه السّلام.

وكلمة اخيرة :

لقد فســرت في أحــاديث أهل الــبيت عليهم السّــلام كلمة (ليقضوا تفثهم) باللقاء مع (الامام) أو ليس الحضــور عند الامام والالتقاء به في اجواء الحرية عند البيت الحرام يقضي على الأدران المعنوية لقلب الحجاج ، ويؤهلهم لبدء رحلة جهادية جديــدة ، وهــذا التفســير يؤكد على الجــانب الحضــاري للحج ، المتمثل في تطــوير الحيــاة السياســية والاقتصادية والاجتماعية للامة عــبر الحج وذلك باللقــاء مع امام الامة ، وقائد مسيرتها ، ورائد حركتها المباركة.

وفي حــديث آخر : يجعل الامــام احــدى حكم الوفـادة الى بيت الله التفقه في الــدين. ونقل أنبــاء القيــادة ، الى الأقطــار. جــاء في الأثر المــروي عن الامــام الرضا عليه السّلام وهو يبيّن علل الحج : قال : لعلة الوفــادة الى الله تعــالى ، وطلب الزيــادة ، وأضـاف : ونقل اخبــار الائمة ــ عليهم السّــلام ــ الى كل صــقع وناحية ، كما قـال الله عز وجل :

«**فَلَــوْ لا نَفَــرَ مِنْ كُــلِّ فِرْقَــةٍ مِنْهُمْ طائِفَــةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الــدِّينِ وَلِيُنْـذِرُوا قَـوْمَهُمْ إِذا رَجَعُـوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**» ، وليشهدوا منافع لهم. [1]

---

(1) المصدر / ص 490.

ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللـهِ فَهُـوَ خَيْـرٌ لَـهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعـــامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَـــاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكـانٍ سَحِيقٍ (31) ذلِـكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَـعائِرَ اللـهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْــوَى الْقُلُــوبِ (32) لَكُمْ فِيها مَنــافِعُ إِلى أَجَـلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيـقِ (33) وَلِكُـلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْـمَ اللـهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِـدٌ فَلَـهُ أَسْـلِمُوا وَبَشِّـرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذا ذُكِــرَ اللــهُ وَجِلَتْ قُلُــوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصـابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّـلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا

هدى من الآيات :

التقـوى تنبت في ارض التوحيد ، وفروعها تشـمل كل حقـول الحيـاة ، وأهم وأبـرز مظاهرها هو تعظيم حرمـات الله وشعائره.

والذين يخالفون التقـوى هم الـذين يرتكبـون الـرجس من الأوثـان ، فيفعلـون ما ينبغي تركه ويـتركون ما ينبغي فعله ، ويتبعون قول الزور والباطل ، فاذا بهم يرتكبون ما حــرم الله كعبــادة الأوثــان ، ومن جهة اخــرى يقبضــون أنفســـهم عما أحل الله لهم زورا وبهتانا ، وهـــذا منـــاف للتقوى.

ويعود القرآن ـ مرة أخرى ـ ليذكرنا بان جـذر التقـوى في النفس هو تحــدي الضــغوط ، بحيث يكــون الإنســان حنيفا ، مائلا عما يريده الآخـرون له ، وما يحـاولون فرضه عليه. ومن يشرك بالله يكون كمن يهوي من الســماء الى الأرض ، فإمّا ان يلتقطه الشـيطان فيبتلع قدراته وقـواه ، كما تخطف الطيور فريستها من الســماء ، أو يـترك حـتى يهوي الى مكان سحيق.

والدرجة العليا للتقـــــوى هي تعظيم شـــــعائر الله ، بتعظيم كل ما يرتبط بالله تبارك وتعالى احتراما له.

ويعود القرآن فيـبين بعض مناسك الحج الـتي هي من شـــعائر الله : كالإبل الـــتي تســـاق الى الحج لتنحر فيـــه. ويؤكد : ان عمل الإنسان هو الذي ينمّي التقوى في قلبه.

بينات من الآيات :

تعظيم الحرمات :

[30] **ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ**

لان تعظيم حرمـــات الله وشـــرائعه يعـــود نفعه الى الفـــرد نفسه ، إذ يحتســـبه الله له ، فيجازيه خـــيرا منه ، سواء في الدنيا بزيادة البركات ، أو في الآخرة بالجنات.

 وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ

ان الله أحل لنا بهيمة الانعـــام الا الـــنزر اليســـير ، كـــالموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل الســـبع ، وان الالتزام بما أحل الله وبما حـــرم ، هو جـــوهر التقـــوى وأهم مصاديقه.

 فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ

هذا الشـــطر من الآية يـبين الابعـاد المعنوية للتقـوى ، فتنقل الإنسان من اجتناب اللحوم المحرمة ، الى اجتنـاب الرذائل الخلقية الـــتي تضر بكرامة الإنســـان ، بل تضر المجتمع وتسيء اليه كله.

ونسأل ما هو الرجس؟

لقد وقف المفسرون طويلا عند هـذه الكلمة ، فمنهم من قال : انها القمار والنرد والشطرنج ، ومنهم من قال : انها الأوثان التي تعبد من دون الله ، باعتبار ان الحج كـان ملوثا عند الجاهلية بعبـادة الأوثـان ، وقد أمر الله سـبحانه ان يطهر الحج من عبـادة الأوثـان. وقـال بعضـهم : ان الرجس هو مجرد قبول فكـرة وجـود الصـنم في بيت الله الحرام. وقال بعضـهم : انها تلك الـذبائح الـتي تـذبح لغـير اللـه. وقد سـبق ان قـال الله تبـارك وتعـالى : **وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعـامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ** وفي أمـاكن متفرقة من القـرآن يؤكد الله على ان ما ذبح لغـير الله حـرام ، وانه رجس.

كل ذلك صـحيح ومقبـول ولكن يبـدو ان هنـاك فكـرة اعمق وهي : ان الإنسان اما ان يعبد الله وحـده لا شـريك له ، ويلـتزم بـالقيم الـتي أمر بها الله سـبحانه ، واما ان يخضع للشيء أي شيء كان. بتعبـير آخر : النـاس اثنـان ، فاما إنسان قيمي يقدس القيم ويؤمن بالغيب ، أو إنسـان شـيئيّ لا يـؤمن الا بالشـهود ، وهو يقـدس الأشـياء ، ان الرذيلة .. الانحـــراف .. الظلم .. إلخ كل ذلك نـــاتج عن شيئية الإنسان وعدم تقديسه للقيم ، وقد يحول في بعض الأحيان القيم الى الشـيء ، فـتراه يـذهب الى الحج ولكنه ليس بهـــدف الوصـــول الى الله من خلاله ، بل ينظر الى مناكسه نظرة شيئية ، فيتوجه قلبه الى هذه الأشـياء دون ان يجعلها سـبيلا ورمـزا الى القيم الـتي وراءها ، فالكعبة يجب ان تكون عندنا رمز التوحيد والوحـدة ، والـذبح يجب أن يرمز الى ان كل شيء فـداء لله ، ورمي الجمـار يجب ان يرمز الى ضرورة مقاومة الشياطين ... إلخ.

والذي ينحرف فيعبد الشيء لا شك انه سوف ينحرف انحرافات أخرى ، ومنها الشطرنج ، الذي يشبه الى حد ما تلك العـادة الجاهلية التافهة ، الـتي كـانت تقضي بالقرعة عند الأوثان ، ثم العمل بمقتضى ما يستخرج منها.

لـــذلك جا في الأثر : عن أبي عبد الله الصـــادق عليه السّلام ، قال في قول الله عز وجل :

«**فَـاجْتَنِبُوا الـرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثـانِ وَاجْتَنِبُـوا قَـوْلَ الزُّورِ**
قال :
الـرجس من الأوثـان الشـطرنج ، وقـول الـزور الغنا» [1]
و في حـديث آخر عن الامـام الصـادق عليه السّـلام أيضا : ان من قول الزور :
«**قول الرجل للذي يغنّي : أحسنت»** [2]
و في رواية أيمن بن خزيم عن رسول الله صـلّى الله عليه وآله انه قال : خطبنا فقال :
«ايها الناس عدلت شـهادة الـزور بالشـرك بالله «ثم قرأ» **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثـانِ وَاجْتَنِبُـوا قَـوْلَ الزُّورِ** » [3]
ومن مجموع هذه الأحاديث نسـتوحي ان قـول الـزور هو كل قول باطل.
 وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ
صحيح ان كلمة (قول الزور) فسّرت بالغناء والطـرب واللهو ، ولكن أهم وأعظم من قــول الــزور هــذا هو : ان يقــول الإنســان كلاما فينســبه الى الله تعـالى ، ويتعبد به فيحلل ما حرم الله ويحرم ما أحلّ الله سبحانه.

(1) نور الثقلين ج 3 ـ ص 496.
(2) المصدر ص 495.
(3) المصدر ص 496.

الحنيفية دين الله :

[31] **حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**

الحنيفية تعـــني الطهـــارة من أدران المجتمع والميل الى ما يريـده الله منك ، كالميل عن سـلوك المجتمع ، أو عن ضغط الأهواء والشهوات خالصا لوجه الله.

فليس من الحنيفية المطلوبة ان تتحـــــدى ضـــــغطا اجتماعيا لضـــغط آخر ، أو هـــوى نفســـانيا لهـــوى آخر أو تحارب طاغوتا من الغرب ، من أجل آخر من الشرق ، كلا ، انما عليك ان تتحـــدى وتقـــاوم الضـــغوط كلها والأهـــواء جميعا وكل السلطات الظالمة لأجل الله الحق سبحانه.

فالحنيفية طريق واضح ومحجة بيضـاء ، تختلف تمـام الاختلاف ، وتتناقض تمام التناقض ، مع كل السبل الاخرى ولها وجهـان : ميل عن الشـركاء والضـغوط ، واتجـاه الى الله وحده.

والواقع : ان الحنفية هي فطـــرة الإنســـان الطـــاهرة النقية التي يئوب إليها المؤمنون ، من هنا جـاء في حـديث مأثور عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام حين ســـأله زرارة : عن قـول الله عز وجل : «**حُنَفـاءَ لِلَّهِ غَيْـرَ مُشْـرِكِينَ بِهِ**» وعن الحنفية قال :

«**هي الفطرة التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله قال فطرهم على المعرفة**»[1]

 وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللــهِ فَكَأَنَّما خَـرَّ مِنَ السَّــماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكـانٍ سَـحِيقٍ

(1) المصدر ص 496.

بفعل الجاذبية يخر الشيء من السماء ، فاذا كان هذا الشيء صيدا تسارع الطيـور لاصـطياده ، وان لم تصـطده يسـتمر في السـقوط الى ان يصل الى الهاوية ، وكـذلك الإنسـان الـذي يشـرك بالله ، اما ان يصـبح من نصـيب الطغاة يجيّرونه لمصلحتهم وينتفعـون من طاقته ، واما ان يكون من نصيب الوادي السحيق ، البعيد القعر في جهنم.

اهداف شعائر الله :

[32] **ذلِـكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَـعائِرَ اللـهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**

الالتزام بحرمات الله جانب من التقـوى ، اما الجـانب الأكمل منها فهو تعظيم شـعائر الله ، الـذي يعـني تعظيم كل شيء يدلنا على الله. ان تعظيم قطعة قماش منصوبة على طـرف عمـود ليس تعظيما لـذاتها ، انما هو تعظيم للـوطن الـذي يمثله هـذا العلم ، كـذلك تعظيم المسـجد ، والعـالم والقـرآن انما هو تعظيم لله ، فالله سـبحانه هو الحق ، وسـائر الحرمـات والشـعائر وسـائل اليه ، وكل شيء محترم أو شخص مقرّب ، يقدر لله ، لا لأجل ذاته.

والشـعائر : جميع شـعيرة بمعـنى العلامة الـتي تـدلك على الشـيء. وشـعائر الله هي الواجبـات الدينية الـتي تشهد على عظمة الرب مثل مناسك الحج وصـلاة الجمعة والجماعة ، وسائر مظاهر التوحيد. والشعيرة التي جـاءت هذه الآية في سياقها : هي الأنعام التي يسوقها الحاج من منزله الى بيت الله. وقد علّمها بعلامة تدل على أنها هدي ، بالغ الكعبة.

[33] **لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى**

باسـتطاعتكم ان تسـتفيدوا من الانعـام الـتي تنـوون تقديمها الى الله ، من حليبها

وصـفوها ووبرها ، الى ان تصـلوا مكـة. كما أكـدت ذلك أحاديث عديدة.[1]

 ثُمَّ مَحِلُّها

اي منزلها الأخير.

 إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ

العتق هو التحرير بعد العبودية ، ولقد أعتق الله البيت الحرام من ملكية الإفـراد أيا كـانوا وجعله للنـاس سـواء ، وهو في نفس الـــوقت مكـــان العتق ، اي ان الإنســـان يستطيع ان يحرر نفسه من ذنوبه ، ومن كل من يستعبده من شياطين الجن والانس.

[34] **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ** .

لكل امة من الأمم شـــعائر ، وضــــعت من أجل ذكر اسم الله ، فتقـديس هـذه الشـعائر لـذاتها هو نـوع من الـــرجس والوثنية ، اما نحن فعلينا الّا نقـــدس المناسك لـذاتها ، انما نقـدس المناسك لأنها تـدعونا الى ذكر الله ، وقد ســبق القــول : بــان المناسك المــذكورة في هــذه الســورة تهـدف ـ فيما تهـدف ـ الى بيـان خلفياتها ، لئلا تقدس المناسك ذاتها ويهمل ما وراءها من قيم واهداف ، والهدف من الانعام الـتي تـذبح لله ليس إهـداء لحمها الى الله ، لان الله لا ينـــال لحومها ولا شـــحومها ، بل تناله التقوى وذكر الله ، فذكر الله هو الهـدف الرئيسي من كل المناسك ، لـذلك قـال : «**لِيَـذْكُرُوا اسْـمَ اللـهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعـامِ**» وذكر الله ليس ذلك الـذكر اللساني ، بل نيّة القلب ، وإخلاص العمل ، كذل قـال الله : «**وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ**» والمنسك حسب الـراغب ـ العبادة. وحسب الطبري والـرازي يقـال المنسك ويقصد الذبيحة.[2]

---

(1) راجع نور الثقلين ج 3 ص 497.
(2) تفسير نمونه ج 13 ـ ص 102.

﴿ **فَإِلٰهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ** ﴾

ليس إلهكم الانعام التي تفدونها ، وليس إلهكم الزينة التي تـتزينون بها في يـوم العيد ، وليس إلهكم مجتمعكم. كلا .. انما إلهكم اله واحد ، وكل هـــــــذه النعم من الله وتحترم بأمر الله.

﴿ **فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** ﴾

المخبتــون : الــذين ســلّموا لا وأمــره ، وســلّموا لوحدانيته.

[35] ويتميز المخبتون بعدة صفات هي :

1 ـ وجل القلب بذكر الله. وهو تعبير عن قوة الروح ، وعمق الايمان ، وقد بلغت تقوى الله في أنفسـهم ، درجة تجــري عــبراتهم بمجــرد ذكــره ، اي وصــلوا الى درجة العرفـان ، فكـان الله اجلى وأعظم حقيقة في نفوســهم كما جاء في الـدعاء المـأثور عن سـيدهم الأمـام الحسـين عليه السّـلام : «**الهي كيف يسـتدل عليك بما هو في وجـوده مفتقر إليك ، أيكـون لغـيرك من الظهـور ما ليس لك حـتى يكـون هو الـدليل عليك ، مـتى غبت حتى تحتاج الى دليل يدّل عليك ، ومتى بعـدت حـتى توصــلنا الآثــار إليك ، عميت عين لا تــراك عليها رقيبا**»

2 ـ الصبر على الرسالة ، وعلى ظلم الناس ، والصبر أيضا على قمع الأهواء والشهوات.

3 ـ اقامة الصلاة التي هي رمز لسائر العبادات.

4 ـ حرصـهم ومحـافظتهم على بنـاء صـرح المجتمع بالإنفاق.

كذلك قال ربنا وهو يصف المخبتين :

﴿ **الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَالصَّـابِرِينَ عَلى ما أَصـابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّـلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنـاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾

وَالْبُـدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَـعائِرِ اللـهِ لَكُمْ فِيها خَيْـرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللـهِ عَلَيْها صَـوافَّ فَـإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَـخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ (36) لَنْ يَنـالَ اللـهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَـذلِكَ سَـخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَـداكُمْ وَبَشِّـرِ الْمُحْسِـنِينَ (37) إِنَّ اللـهَ يُـدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ كُـلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَـوْ لا دَفْـعُ اللــهِ النَّاسَ بَعْضَــهُمْ بِبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صَــوامِعُ وَبِيَــعٌ وَصَــلَواتٌ وَمَســاجِدُ يُــذْكَرُ فِيهَا اسْــمُ اللــهِ كَثِــيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ

عَزِيــــزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقـــــامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكـاةَ وَأَمَـرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

الجهاد حصن المقدسات

هدى من الآيات :

هكــذا جعل الله البــدن ، وهي الإبل ، من شــعائره ، حيث تساق الى الـبيت الحـرام ، من شـقة بعيـدة ، فـاذا صـفت أيـديها وارجلها للنحر ، التف حولها النـاس ، ومنهم الجـــائعون ، يـــذكرون اسم الله عليها ، حـــتى إذا وقعت منحورة أكلوا منها وأطعموا الفقير والمسـكين ، وشـكروا الله.

لمن هــذه اللحــوم الــتي تطعم ، وتلك الــدماء الــتي تراق؟ انما هي للناس ، وفائدة الذبح والنحر تنمية التقـوى في النفوس. والهدف من تسـخيرها لهم تـذكيرهم بعظمة الله. وان يكبروه على ما هداهم ، ويحسنوا الى الناس ..

وبمناسـبة الحـديث عن الحرمـات والشـعائر ، يـبين السياق حكم الدفاع عنها ، فالله سبحانه يدافع عن الــذين آمنــوا انه لا يحب كل خــوان كثــير الخيانة دائم الخيانة ، الكفور بنعم الله. والخونة هم الـذين يقـاتلون المؤمـنين ، ولا يفـون بعهد ولا ذمـة. اما المؤمنـون فعليهم ان يقـاتلوا الكفار لأنهم قد ظلموا ويتوكلوا على الله واثقين بنصره ،

أو لم يخرجوا من ديارهم بغير حق ، وانما لأنهم يقولـون : ربنا اللـــه؟ بلى وانما تبقى للمقدســـات حرمة بـــدفاع المؤمنين عنها. والا هـدمت بيـوت العبـادة والله ينصر من ينصر دينه وهو القوي العزيز.

وانما يهـدف المؤمنـون بقتـالهم التمكن في الأرض واقامة حكم الله فيها.

بينات من الآيات :

اهداف الشعائر :

[36] **وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ**

البدن هي الإبل التي تقلّد لتنحر في منى ، وهـذه من الشـعائر المقدسة ، ولنا فيها وأمثالها من الشـعائر خـير ، خـير مـادي ومعنـوي ، بالاسـتفادة منها اولا ، وبالحصـول على التقوى من خلالها ثانيا.

 فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَ

اي اذكـروا اسم الله عليها حين تصف أيـديها وارجلها اســـتعدادا للنحر ، وذكر الله واجب عند النحر ، وليست هنالك صيغة خاصة له. الا ان الأثر جـاء بنص يعتـبر الأكمل ، ففي حـــديث مـــروي عن أبي عبد الله الصـــادق عليه السّلام جاء هذا الذكر عند النحر.

«**وجهت وجهي للـــذي فطر الســـموات والأرض حنيفا مســـلما وما انا من المشـــركين ، ان صـــلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شـــريك له وبـــذلك أمـــرت وانا من المســـلمين ، اللهم منك و لك ، بسم الله وبالله ، والله أكـــــــبر ، اللهم تقبل مني**». [1]

---

(1) تفسير نمونه ج 14. ص 107.

وفائــدة هــذه الشــعائر هي أنها تزيد من الكمــالات الروحية والمعنوية.

﴿ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾

اي خـرت صـريعة بعد نحرها ، حـتى اسـتقرت جنباتها على الأرض بالكامل كناية عن انتهاء حركتها.

﴿ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾

كلمتي (القانع والمعتر) تدلان على معنيين هما الفقير والمسـكين. والفقـير هو الـذي لا يملك قـوت سـنته ، اما المسـكين فهو الـذي أسـكنه الفقـير بيته ، وهو أشد فقـرا منه.

وأصل كلمة القانع هو الفقـير الـذي يقتنع بما تعطيه ، فهو كما قال الرب سبحانه في آية أخرى : تحسبهم أغنياء من التعفف .. بينما أصل كلمة المعتر الـذي لا يملك تعففا من الســؤال. والكلمة مشــتقة من (العــرّ) وهو مــرض الجرب يصيب جلد البعير ، وكـان المعـتر قد أصـاب وجهه مـرض فسـقط جلـده كناية عن ذهـاب مـاء وجهه وعـدم الحياء لديه. وجاء في رواية ان المعتر هو الــذي يعتريك .. ولا يســأل. و في حــديث آخر عن أبي عبد الله الصــادق عليه السّلام :

«**القانع الذي يرضى بما أعطيته ولا يسـخط و لا يكلم ولا يلــوي شــدقه غضــبا ، والمعــتر المــار بك لتطعمه**» [1]

﴿ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

الهدف من تسخير الله الانعام للإنسـان هو الشـكر له سبحانه ، وعموما فان

---

(1) نور الثقلين ج 3 / ص 498.

الهدف من النعم المادية هو التكامل المعنوي.

ونستوحي من هذه الآية : ان النعم المادية في الحياة الدنيا وسيلة للتكامل المعنوي ، فالإنسـان الجـائع الـذي لا يمتلك مــأوى يــأوى اليه ليحميه من قيظ الصــيف وبــرد الشـتاء ، من الصـعب عليه ان يسـعى من أجل بنـاء كيانه المعنـــوي ، ان ينمي علمه وايمانه وتقـــواه ، اما الـــذي استطاع ان يتجاوز ضـرورات حياته ، فـان باسـتطاعته ان يتفرغ لما هيئ له.

وضرورات الحياة تشبه وقود السـيارة ، فحينما تمتلئ السيارة بالوقود آنئذ تصبح مهيأة للسـير ، فسـير السـيارة هو الهـدف بينما الوقـود ضـرورة الهـدف ، فالسـيارة لم تصنع لكي تبتلع الوقود ، انما صنعت لكي تنطلق ، وكـذلك الإنسان لم يأت الى الحياة لكي يأكل ويشرب وينام ، و .. و .. انما أتى الى الحيـاة وفرضت عليه تلك السـنن ، لكي يسمو بروحه ويعرج في مـدارج الكمـال .. وهـذه الفكـرة نستوحيها من الآيتين الاوليتين من هذا الدرس.

[37] ثم ان التقـوى كالشـجرة الـتي تنبت في القلب بحاجة الى تنمية ، والاضــحية تنمي شــجرة التقــوى في القلب.

 لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها

ثم يـــبين الله ســـبحانه بأنه ليس لربها نصـــيب في لحومها أو دمائها ، انما النصــيب راجع الى النــاحر الــذي يزداد بذلك تقوى وايمانا.

 وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ

كذلك جـاء في الحـديث الشـريف : ما علة الاضـحية؟ قال :

الإنسان ، هل هو مستقر أم مستودع؟

حينما ينزل في حلبة الصـراع ، فيعـرف مـدى إيمانه ، وللصراع فوائد كثيرة أهمها :

1 / انه يجعل الإنســـان مؤمنا صـــادقا ، ويزيل عنه رواسب كفـــره وشـــكه ، وجهله وغفلته ، كما انه يكشف الإفـــراد الضـــعفاء ايمانا وارادة في المجتمع الاســـلامي والذين لا يستحقون ان يكونوا أعضاء مؤثرين فيه. وبكلمة موجزة : ان الجهاد يكرس الواقع الايماني في المجتمع.

2 / والجهـــاد حصن المقدســـات ودرع الحرمـــات والشـعائر ، فـاذا كـانت الحرية مكفولة لجميع النـاس عند حرم الله ، وإذا كان المؤمنون يقصدون ـ بكل أمان ـ بيت الله ومعهم شعائرهم من أقصى الأرض ، فلأن المجاهدين يحمـون البلاد من أطرافها ، وإذا كـانت القـوى الكـافرة والمنافقة والمترفة لا تهتك حرمـــات النـــاس داخل البلاد فلأن المجاهدين يقفـون لهم بالمرصـاد. وإذا كـانت مراكز الطاعة المقدسة تعلو في آفـاق الأرض فلان حولها ليـوث الجهاد الأشداء. يحمونها كما يحمي الأسد عرينه.

وبالتـالي فـان المسـاجد ، والمعابد ، والكنـائس انما تقــوم على أســاس دفــاع المؤمــنين عنها ، ولو لا دفــاع المؤمــنين عن مراكز عبــادتهم ، ومحل اقامة شــعائرهم ومناســـكهم ، اذن لتهـــدمت هـــذه المســـاجد والمعابد والكنائس على ايدي أعداء الله وأعداء دينه.

فالكعبة مثلا قائمة على دفاع المؤمـنين ، عن وجودها وحرية العبادة فيها ، فاذا ترك المؤمنون الدفاع عنها فانها تزول حرمتها وقداستها.

ان ربط المقدسات بعمل المؤمنين وجهادهم هي أهم وابرز فكرة حضارية يحتاجها المسـلمون اليـوم ، ان بعض المسلمين اليوم يظنون ان وجود رسم القرآن بينهم

«انه يغفر لصـــاحبها عند أول قطـــرة تقطر من دمها الى الأرض وليعلم الله عز وجل من يتقيه بالغيب وأضـاف : انظر كيف قبل الله قربـان هابيل ورد قربان قابيل».

﴿ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ ﴾

ان نحر الانعـام أو ذبحها يهـدف شـكر اللـه. وفي آية سابقة ، ذكر الله. إنّ هـدف الشـعائر هو تقـوى القلـوب ، اما هـدف التسـخير فهو تكبـير الله ، كل ذلك يـوحي بـان الهـــدف الأســـمى من النعم المادية التكامل المعنـــوي. وتكبـير الله هو إخراجه من حـدّ التعطيل والتشـبيه ، كما جـاء في الحـديث ، وتكبـير الله على الهداية تمجيـده على ان هـدانا للايمـان ، وأرشـدنا الى الحنيفية البيضـاء. والآية تشير الى التكبير أيـام التشـريق في الصـلوات بمـنى في عقيب خمس عشــرة صــلاة ، وفي الأمصــار عقيب عشر صلوات. [1]

﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

كيف يمكن للإنسـان ان يسـتفيد من النعم في مجـال تكامله المعنوي والروحي؟

يجيب القـرآن على هـذا السـؤال ويقـول : «**وَبَشِّـرِ الْمُحْسِنِينَ**» ، فبالاحسان تخرج من شح الذات الى فضاء الخير ، فالعطاء مفتاح الرزق ، وطريق الايمان.

شرعية الجهاد :

[38] الايمان ليس مجرد كلام يقال ، ولا حتى عقيـدة مقطوعة الجذور ، كلا ذلك لان الايمان حقيقة راسـخة في القلب يصدّقها العمل ، وانما يتضح إيمان

(1) راجع الكتب الفقهية. وأيضا نور الثقلين ج 3 ص 500.

يجعلهم أعزاء ، كلا .. ان ايمانهم بالقرآن ودفاعهم عنه هو الذي يجعل القرآن عزيزا بينهم وعزيزا في العالم أجمع.

فليس وجـود الكعبة يعز المؤمـنين فقط ، انما وجـود المؤمنين حولها يجعلها عزيزة أيضا ، ومن دون هذه العزة التي يسـبغها المؤمنـون على مقدسـاتهم ، فانها لا تبقى ، ونحن هنا نؤمن بـدور الغيب الـذي يظلل المؤمـنين بظلال من التأييد والرعاية ، ذلك ان الصـــراع بين الحق والباطل ليس بعيـــدا عن هيمنة الغيب ، أو ليس الله يـــدافع عن المؤمنين ، بلى. ولكنه قد يـدافع عنهم بأيـديهم ، وبكلمة : ان بداية أي تحــرك يكــون من النــاس ، ثم يــأتي التأييد والنصر من الله.

** إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ **

وهذه الآية تزرع الأمل والثقة والاطمئنـان في قلوبنا ، لان الله يــدافع عنا ، ومعلــوم ان الأمل وقــود الثــورة ، والثقة وقود العمل ، والاطمئنان قاعدة السعي.

[39] ان شـــياطين الجن والانس يحيطـــون بقلب الإنســان ويملأونه باليــأس والخــوف ، اما ذكر الله فهو ــ على العكس من ذلك ــ ينمّي فينا التطلع ، ويحفزنا للأخذ بحقنا ، كما انه يــزرع الخــوف والقلق في نفــوس أعــداء الـدين ، وسـرّاق الحرية ، الـذين لا يزالـون يخونـون امانة الله والناس ، ويكفرون بنعم الله.

** أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللـهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ **

يبحث الإنســان المـؤمن عن شــرعية الجهــاد ، والله يعطيه هنا الشـــــــــرعية بقوله : «اذن» فلقد اذن الله للمعتدى عليهم المظلـومين ، ان يرفعـوا راية القتـال لـرد ظلامتهم ، وذلك لأنك ، مهما أصـــــــــابك من الظلم والاستضــعاف ، لا يجــوز ان تيــأس من النصر ، بل جــدد العزم لان الله قادر على نصرك ، فما دمت تملك شـرعية الجهاد

وتحمل في جنبيك الأمل ، وكـــان هنالك من يـــدافع عنك ويحميك ، فما ذا تنتظر بعدئــــذ؟ اقتحم كل حصن ووكر ، وجاهد كل طاغية ، فــــان قــــوة الله وعزته تتجلى في سـواعد المؤمـنين وبهم يـدفع الله أعـداءه وأعـداء دينه ، وأعداء البشر.

[40] **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**

هـذه أبـرز صـورة من صـور الظلم الـذي قـال عنه سبحانه «**بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**».

ذلك لأنّ أولئك الذين قالوا ربنا الله بصدق ، هم الذين رفضوا تسـلط الطغـاة ، وقـاوموا هيمنة الجبـارين. الـذين أرادوا فرض قوانينهم وثقافتهم على النـاس. فكفـروا بهم وآمنـوا بالله الواحـد. ثم اسـتقاموا واخرجـوا من ديـارهم لأنهم احتفظـوا باسـتقلالهم. ولعل الطغـاة لم يفرضـوا عليهم الخـروج بل انهم هـاجروا خشـية بطش الجبـارين ، واسـتعدوا للقتـال حـتى تحرير الأرض من هيمنتهم. كما فعل المسلمون عند ما أمرهم الله ورسـوله بـالهجرة الى المدينة. حيث نزلت الآية فيهم وجرت في غيرهم.

جاء في الحديث المروي في كتاب الكافي عن الامام أبي جعفر الباقر عليه السّلام انه قال :

«**نـزلت في رسـول الله وعليّ وحمـزة وجعفر وجرت في الحسين عليهم السّلام أجمعين**» [1]

وكلمة (ربنا الله) هي هـدف الهجـرة وهـدف الجهـاد ، وهي في ذات الـوقت وسـيلة النصر وسـبب الفتح. إذ ان أهم شروط الانتصـار الاتجـاه الكلي الى الله ، والمحافظة على اسـتقلالية العمل في سـبيله ، والا نتصـور يوما ان النصر يمر عبر عواصم

(1) المصدر ـ ص 501.

الشرق أو الغرب ، لأنهما أعجز من ان يتوليا نصرنا ، وهم أعجز من نصر أنفسهم ، بل ان الله أمرنا بمقاومتهم لأنهم مصدر بلائنا ، وهم المسؤولون الحقيقيّون عمّا يجري علينا.

فهؤلاء المخرجون من ديارهم ـ هم المظلومون الذين تكفل الله بنصرهم وبتأييدهم ، شريطة أن يتجهوا اليه سبحانه.

﴿ وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً ﴾

صوامع : معابد يبنيها البعض في الأصقاع النائية يتعبدون فيها ، اما البيع : فهي معابد اليهود ، والصلوات : هي معابد النصارى وكنائسهم ، والمساجد : محاريب المؤمنين ، وكل هذه المراكز تهدف ذكر الله ، وذكر الله لا يتم إلّا بالتحشيد الاجتماعي ، وتعبئة الناس ايمانيا من خلالها ، فاذا هدمت فان سببا من أسباب تجميع الناس على الايمان سوف ينهار ، فالمسجد والكنيسة والدير هي رمز للمؤمنين فتحطم هذا الرمز يعني زوال سبب وحدة المؤمنين وتجمعهم حول مبادئهم ، لذلك فان المؤمنين مأمورون بالحفاظ على مقدساتهم هذه.

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

انصروا الله والقيم ، حافظوا على المقدسات وكرامتها ، دافعوا عن حرية الإنسان انكم حين تعملون كل ذلك ينصركم الله ، وإذا نصركم فلا غالب لكم ، ان الله قوي يمتلك أدوات القوة فهو : «**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ**» وهو عزيز «**تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ**» فهو يعزكم ان نصرتموه والا اذلكم ، وان نصرتموه حقا أذل أعداءكم.

اهداف الحركة الاسلامية :

[41] ﴿ **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾

تبين هذه الآية اهداف الحركة الاسلامية التي يجب ان يبصرها كل فرد رسالي ، ويخلص نيته في السعي ورائها ، والعمل الجدّي من أجل بلوغها وهي :

1 ـ اقامة الصلاة : إذ انها رمز لكل العبادات من ناحية ، ومن ناحية ثانية : فان اقامة الصلاة تعني توفير الشروط الموضوعية لإقامتها ، كبناء مساجد الله ، والسلامة الروحية ، و ...

2 ـ إيتاء الزكاة : وهو يشمل كل ابعاد الإنفاق الواجب والمستحب ويساهم في إرساء العدالة الاجتماعية ، بل وفي توفير الرخاء في المجتمع المسلم.

3 ـ الأمر بالمعروف : القيام بما أمر به الشارع المقدس ، من التشجيع على الصالح من الأعمال.

4 ـ النهي عن المنكر : القضاء على كل المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، و .. و ..

﴿ **وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾

ان الذي يجعل عمله وحركته متجهة الى الله ، فانه سوف يمسك بزمام الأمور وبالتالي فان له من الله العاقبة الحسنى ..

وهذه الآيات الكريمة توضح أهداف الحركة الاسلامية ، وشروط المجاهدين في سبيل الله ، الذين اذن لهم بالقتال ، وهم الذين يطبقون بأنفسهم التعاليم

الإسلامية ، ثم يندفعون لنشرها بين النـاس وفي الحـديث المفصل التـــالي تبيـــان بـــالغ الاهمية لاهـــداف الحركة الاسلامية ، وشروط القائمين بها ، ونكمل هـذا الـدرس به :

جاء في الكـافي مسـندا عن أبي عمـرو الزبـيري عن أبي عبد الله (ع)، قال : قلت له : أخـبرني عن الـدعاء الى الله والجهاد في سبيله أهو لقـوم لا يحل الا لهم ولا يقـوم به الا من كـــان منهم أم هو مبـــاح لكل من وحد الله عز وجل وآمن برسوله (ص)، ، ومن كان كذا فله أن يدعو الى الله عز وجل والى طاعته وان يجاهد في سـبيله؟ فقـال : ذلك قوم لا يحل الا لهم ولا يقوم بـــذلك الا من كل منهم ، قلت : من أولئك؟ قال : من قام بشـرائط الله تعـالى في القتال والجهاد على المجاهدين فهو مـأذون له في الـدعاء الى الله تعـــالى ، ومن لم يكن قائما بشـــرائط الله في الجهـاد على المجاهـدين فليس بمـأذون له في الجهـاد ولا الـــدعاء الى الله حـــتى يحكم في نفسه ما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد ، قلت : فبين لي رحمك الله.

قـــال : ان الله تعـــالى أخـــبر في كتابه الـــدعاء اليه ووصف الدعاة اليه ، فجعل ذلك لهم درجات يعرف بعضها بعضا ، ويستدل ببعضـها على بعض. الى ان قـال (ع) : ثم أخبر تبارك وتعالى انه لم يـؤمر بالقتـال الا أصـحاب هـذه الشـــــــروط ، فقـــــــال ســـــــبحانه وتعـــــــالى : **﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللـهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَا اللـهُ ﴾** وذلك ان جميع ما بين السـماء والأرض لله عز وجل ولرسـوله ولأتبـاعهم من المؤمـنين من أهل هـــذه الصـــفة ، فما كـــان من الـــدنيا في ايـــدي المشـــركين والكفـــار والظلمة والفجـــار من أهل الخلاف لرســول الله (ص) والمــولى عن طاعتهما مما كــان في أيــديهم ظلمــوا فيه المؤمــنين من أهل هـــذه الصــفات ، وغلبوهم عليه ما أفاء الله [1] على رسوله فهو حقهم أفـاء الله عليهم ورده إليهم [2].

---

(1) وفي المصدر «**مِمَّا أَفاءَ اللهُ**» وفي الوافي «فما أفاء الله».
(2) لعلنا نسـتفيد من هــذه الكلمة : ان السـلطة في العـالم يجب أن تكون للمؤمنين الصادقين فهي لهم حقا.

ثم قـال عليه السّـلام : وانما اذن للمؤمـنين الـذين قاموا بشرائط الايمان الـتي وصـفناها ، وذلك انه لا يكـون مأذونا له في القتــال حــتى يكــون مظلوما ، ولا يكــون مظلوما حـتى يكـون مؤمنا ، ولا يكـون مؤمنا حـتى يكـون قائما بشـرائط الايمـان الـتي اشـتراط الله تعـالى على المؤمـنين والمجاهـدين ، فـاذا تكـاملت فيه شـرائط الله تعالى كان مؤمنا ، وإذا كان مؤمنا كان مظلوما ، وإذا كان مظلوما كــان مأذونا له في الجهــاد ، لقوله عز وجل : **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللـهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** وان لم يكن مستكملا لشـرائط الايمـان فهو ظـالم ممن يبغي ويجب جهـاده حـتى يتـوب ، وليس مأذونا له في الجهاد والدعاء الى الله عز وجل ، لأنه ليس من المؤمنين المظلـومين الـذين اذن لهم في القـرآن في القتـال ، فلما نـزلت هـذه الآية : «**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقـاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**» في المهـاجرين الـذين أخـرجهم أهل مكة من ديارهم وأموالهم أحل لهم جهادهم بظلمه إيـاهم واذن لهم في القتال.

فقلت : فهـذه نـزلت في المهـاجرين بظلم مشـركي أهل مكة لهم فما بــالهم في قتــال كســرى وقيصر ومن دونهم من مشركي قبائل العرب؟ فقال : لو كان انما اذن لهم في قتـال من ظلمهم من أهل مكة فقط لم يكن لهم الى قتال جموع كسرى وقيصر و غـير أهل مكة من قبائل العرب سبيل ، لان الذين ظلموهم غيرهم ، وانما اذن لهم في قتـال من ظلمهم من أهل مكة لإخـراجهم إيـاهم من ديــارهم وأمــوالهم بغـير حق ، ولو كـانت الآية انما عنت المهــاجرين الــذين ظلمهم أهل مكة كـانت الآية مرتفعة الفــــرض عمن بعــــدهم ، إذ لم يبق من الظــــالمين والمظلــومين أحد ، وكــان فرضــها مرفوعا عن النــاس بعدهم إذا لم يبق من الظالمين والمظلـومين أحد ، وليس كما ظننت ولا كما ذكـرت ، ولكن المهـاجرين ظلمـوا من جهتين ظلمهم أهل مكة بإخراجهم من ديارهم وأمـوالهم ، فقــاتلوهم بــإذن الله لهم في ذلك ، وظلمهم كســرى وقيصر ومن كان دونهم من قبائل العرب والعجم بما كـان في أيديهم ، مما كان

المؤمنـون أحق به منهم ، فقد قـاتلوهم بـإذن الله تعـالى لهم في ذلك. [1]

وبحجة هذه الآية يقاتل مؤمنـوا كل زمـان ، وإنما أذن الله للمؤمنين الـذين قـاموا بما وصف الله ــ تعـالى ــ من الشـرائط الـتي شـرطها الله على المؤمـنين في الايمـان والجهاد ، ومن كان قائما بتلك الشرائط فهو مـؤمن ، وهو مظلوم ، ومأذون له في الجهاد بذلك المعـنى ، ومن كـان على خلاف ذلك فهو ظالم وليس من المظلومين ، وليس بمـــأذون له في القتـــال ، ولا بـــالنهي عن المنكر ، والأمر بـــالمعروف ، لأنه ليس من أهل ذلك ، ولا مـــأذون له في الـــــدعاء الى الله تعـــــالى ، لأنّه ليس يجاهد مثله ، وأمر بدعائه الى الله ، ولا يكون مجاهدا من قد أمر المؤمنون [2] بجهـــاده ، وحضر الجهـــاد عليه ، ومنعه منه ، ولا يكـــون داعيا الى الله ـ تعـالى ــ من أمر بـدعاء مثله الى التوبة ، والحق ، والأمر بـالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولا يـأمر بـالمعروف من قد أمر أن يـؤمر به ، ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه ، فمن كـــــــــانت قد تمت فيه شرائط الله ـ تعـالى ــ الـتي وصف بها أهلها من أصـحاب النبي (صلّى الله عليه وآله) وهو مظلـوم ، فهو مـأذون له في الجهـاد ، كما أذن لهم [3] في الجهـاد ، لأن حكم الله ــ تعــالى ـــ في الأولين والآخـــرين ، وفرائضه عليهم ســواء الأمن علة أو حادث يكـون ، والأولـون والآخـرون أيضا في منع الحـوادث شـركاء ، والفـرائض عليهم واحـدة ، يسـأل الآخـــرون عن أداء الفـــرائض عما يســأل عنه الأولـــون ، ويحاسبون عما به يحاسبون.

و من لم يكن على صـفة من أذن الله له في الجهــاد من المؤمـنين فليس من أهل الجهـاد ، وليس بمـأذون له فيه حـتى يفيء بما شـرط الله ـــ تعــالى ـــ عليه ، فــاذا تكــــاملت فيه شـــــرائط الله تعـــــالى على المؤمـــــنين والمجاهدين فهو من المأذون لهم في

(1) قـال المجلسي (ره) : حاصل الجـواب انا قد ذكرنا ان جميع ما في ايــدي المشـــركين كــان من أمـــوال المســلمين ، فجميع المســلمين مظلومون من هذه الجهة المهاجرون ظلموا من هذه الجهة ، ومن جهة إخراجهم من خصوص مكة.

(2) وفي بعض النسخ «أمر المؤمـــنين» ولعله الأوفق بالســـياق لقوله «ومنعه منه».

(3) اي لأصحاب النبي صلّى الله عليه وآله.

الجهاد ، فليتق الله ـ تعالى ـ عبد ، ولا يغتر بالأماني التي نهى الله ـ تعالى ـ عنها ، من هذه الأحاديث الكاذبة على الله ، التي يكذبها القرآن ويتبرأ منها ، ومن حملتها ورواتها ، ولا يقدم على الله بشبهة لا يعذر بها ، فانه ليس وراء المعترض للقتل في سبيل الله منزلة يؤتى الله من قبلها ، وهي غاية الأعمال في عظم قدرها ، فليحكم امرء لنفسه ، وليرها كتاب الله ـ تعالى ـ ويعرضها عليه ، فانه لا أحد أعرف بالمرء من نفسه ، فان وجدها قائمة بما شرط الله عليه في الجهاد فليقدم على الجهاد ، وان علم تقصيرا فليصلحها وليقمها على ما فرض الله عليها من الجهاد ، ثم ليقدم بها وهي طاهرة مطهرة من كل دنس يحول بينها وبين جهادها ، ولسنا نقول لمن أراد الجهاد وهو على خلاف ما وصفنا من شرائط الله عز وجل على المؤمنين والمجاهدين لا تجاهدوا ، ولكن نقول : قد علّمنا كم ما شرط الله ـ تعالى ـ على أهل الجهاد ، الذين بايعهم واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنان ، فليصلح امرء ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك ، وليعرضها على شرائط الله ، فان رأى انه قد وفّى بها ، وتكاملت فيه فانه ممن أذن الله ـ تعالى ـ له في الجهاد ، وإن أبى أن لا يكون مجاهدا على ما فيه من الإصرار على المعاصي والمحارم ، والاقدام على الجهاد بالتخبيط والعمى ، والقدوم على الله ـ عز وجل ـ بالجهل والروايات الكاذبة ، فلقد لعمري جاء الأثر فيمن فعل هذا الفعل ان الله ـ تعالى ـ ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ، فليتق الله امرء ، وليحذر أن يكون منهم ، فقد بين لكم ولا عذر لكم بعد البيان في الجهل ، ولا قوة إلّا بالله ، وحسبنا الله عليه توكلنا وإليه المصير[1]

(1) المصدر ص 502 / 505.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ

---

45 [كأيّن] : كم من.

[خاوية على عروشها] : يقال خوت الدار أي خلت من ساكنيها.

[قصر مشيد] : المرتفع من الأبنية.

قَرْيَـــةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَـــةٌ ثُمَّ أَخَـــذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِــيرُ (48) قُــلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَــذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَــعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51)

فكيف كان نكير

هدى من الآيات :

في اطـار الحـديث عن اهـداف الحركة الاسـلامية ، والـدعوة الى الله ، (موضـوع الـدرس السـابق) يـذكرنا السـياق بالتأييد الالهي للرسـالة ، وخذلانه لاعـدائها المكذبين بها.

لم يكن الرسـول بـدعا من الرسل ، ولم يكن تكذيبه جديدا ، فلقد كذبت رسالات الله قوم نـوح وعـاد وثمـود ، كذلك قوم إبراهيم وقـوم لـوط وأصـحاب مـدين ، وهكـذا كذب فرعون وقومه موسى عليه السّلام.

ان الرسالة وتكذيبها حقيقة تكررت ، وتـراكمت حولها تجارب غنية ، أفلا ندرسها لنعتبر بها ، فلما ذا لا نسـير في الأرض ، وننظر في عاقبة ذلكم التكـذيب المتكـرر ، على أولئك الكافرين ولا نغتر بتـأخير العـذاب ، إذ ان ربنا يملي لهم ، فيستدرجهم ليأخذهم بغتة؟

فارغة من ســكنتها ، وهنالك البــئر المعطلة لا تســتقي ، والقصر المبني لا يسكن.

إن التجــارب التاريخية كثــيرة ، والأبصــار الــتي تراها كثــيرة ، الا ان القلــوب الــتي تعقلها وتســتفيد منها هي القليلة. قد أصابها العمى وأنكر العمى عمى القلوب الـتي في الصدور.

ولان أفق البشر ضــيق ، فهو لا يحسب لمســتقبله حسابا ، فتراه يسـتعجل الرسـول بالعـذاب ، ولا يعلم بـان صـبر الله وإملاءه عظيم ، فـاليوم هنالك كـألف سـنة مما يعــده البشر هنا ، وان وعد الله لا يتخلف ، وها هي أمامنا القرى التي امهلها الله ، واملى لهم بالرغم من انها كـانت ظالمة ثم أخذها واليه المصير!

وهذه رسالة الله تنـذر النـاس ، بمثل ذلكم العـذاب ، وتبلغهم الإنذار ببيان واضح.

فالمؤمنون الذين يعملون الصالحات جـزاؤهم مغفـرة الــذنوب الــتي ارتكبوها ، ورزق كــريم للصــالحات الــتي كســبوها. اما الــذين يســعون في آيــات الله معــاجزين يتحــدونها ، ويعوقــون طريقها ، ويحســبون انهم يســبقون الـــرب ويعجزونه ، فأولئك أصـــحاب الجحيم ، يملكونها وتمتلكهم.

لقد غــرتهم الفرصة ، فأخــذهم الله في لحظة ، أخذ عزيز مقتـدر ، وفي نهاية هـذا الـدرس تأكيد على مهمـتي التبشير والإنذار في رسالات الله (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، فالانذار عادة ما يسبق البشارة ، لان الإنذار يهــدف الى خلق الارضــية في نفس الإنســان ، فخشــية الإنسان من فقده ما في يـده ، أكـثر من خشـية فقـده ما في يد غـيره ، فالانـذار مؤشر خطر عند الكفـار لأنه ينـذر بزوالهم وزوال نعمهم ، فلذلك يندفعون الى الايمـان خوفا ، ومن ثم فـان البشـارة تـأتي لتسد هـذا الخـوف مبشـرة بالجنة.

بينات من الآيات :

عاقبة المكذبين :

[42 ـ 43 ـ 44] **وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ* وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ* وَأَصْحابُ مَدْيَنَ**

التكذيب عادة جرت عليها إسلاف هؤلاء المذكبين ، وهذه امثلة من التاريخ حيث كذب هؤلاء الرسل وأصروا على منكرهم ، فلا ينبغي ان ننتظر ما دمنا في خط الرسل القبول السريع والمؤكد من أقوامنا ، ولكن لنطمئن ، فان طريقنا وتحركنا ينسجم والخط العام للحياة. لان الخط العام للكون وطريقنا آنئذ يسيران معا في اتجاه واحد ، الى (الله).

ليس من مسئوليات الرسول ان يكره الناس على قبول رسالته ، كما انه ليس عليه ان يقلق لتكذيبهم ، فانه عادة الناس ، ولكن واجب الرسول الصبر وانتظار الفرج ، وسواء استمع اليه الناس أم اعرضوا .. صدّقوه أم كذّبوه ، فدوره ينتهي بتبليغ الرسالة ، ومن ثم ، فالنتيجة بيد الله ، ان شاء عذبهم ، أو أمهلهم حتى حين.

 وَكُذِّبَ مُوسى

لم يكذب موسى (ع) من قبل قومه وانما كذّبه فرعون وملائه ، ولذلك لم يعطف السياق على السابق وانما قال : «**وَكُذِّبَ مُوسى**».

 فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ

اي أعطيتهم مهلة من الوقت قد تطول أو تقصر «**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ**» فاجأهم العقاب المدمر.

﴿ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ﴾
لقد سـلط الله عذابه عليهم ، فمحقهم محقا ، ووضع حدا لما هم عليه من التكذيب والجحـود ، وهكـذا ينكر الله على الناس تكذيبهم إنكارا عمليا. أرأيتم كيف يكـون نكـير الله؟

[45] ان الله سـبحانه قد جعل في التـاريخ حتمية لا محيص عنها ، وهي حتمية الانتقـام من أعـداء الله ، إذ ان سـنن الله في الطبيعة تلتقي مع الحق في كل النقـاط ، وتجـاوز الحق ، تعد على تلك السـنن ، فلا بد لها ان تنتقم بإرادة الله سبحانه ، وبأي شكل كـان ، سـواء على شـكل صاعقة تنزل ، أو في صورة بر كان يتفجر ، أو حرب تدمّر ، أو قحط شـامل ، أو طـاعون ينشر المـوت. وعلى الإنسـان ان لا يـأمن مكر الله ، فينسى نقمته ، ويظن ان ما يحيط به من نعمه وفضله وآلائه ، هو كل ما في الحياة ، كلا بل ان للحياة وجها آخر ، يتمثل في الانتقام الشديد.

بلى. من الصـعب على الإنسـان ان يصـدق بـان ذلك الإله الـرحيم الكـريم ، الـذي تـولى خلقه طـورا فطـورا ، وكـان معه في كل حركة من حركاته ، والـذي تتجلى رحمته وفضـله عليه في كل شـيء ، انه تعـالى يمكر به وينتقم منه أشد الانتقـام ، لـذلك نجـده تسـتدرجه النعم ، وتغـرّه الامـاني ، حـتى إذا أحـاط به ذنبه قـال : ﴿ رَبِّ ارْجِعُـونِ لَعَلِّي أَعْمَـلُ صـالِحاً ﴾. فلكي لا يصـبح هكـذا يجب عليه ان يـذّكر نفسه بما مضى من الام ، وما جـرى عليهم ، وان يسـير في الأرض بحثا عن تلك الحضـارات التي سادت ويتساءل لماذا بـادت. ان السـير في الأرض ، وزيارة المتاحف الاثرية ، واطلال المدن الكبرى ، ودراسة التاريخ ، لا سيما تاريخ الحضارات البائدة ، كل ذلك يـوحي إلينا بتلك الحقيقة الـتي لا تسـتهوينا ، ولا نريد معرفتها ، وهي ان الله يمكر بالإنسـان إذا ظلم وطغى. وينتقم منه بأشد العذاب.

وتؤكد آيات هـذا الـدرس على هـذه الفكـرة ، وتشـير أيضا الى مصير أولئك الذين كذّبوا هذه الحقيقة الناصـعة ، ولم ينفعهم النهي عن المنكر الذي قام به أنبياء الله (ع) ، ومن سار على دربهم.

 فَكَـأَيِّنْ مِنْ قَرْيَـةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَـةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ

تبيد الحضـارة في بعض الأحيـان بصـورة طبيعية كما يمـوت الإنسـان بعد ان يشـيخ وتضـعف بنيته الجسـدية ، فتنطفئ شمعة الحياة شـيئا فشـيئا ، وقد تبـاد الحضـارات بصـورة فجائية وبعـذاب الهي فتكـون كما يمـوت الشـاب بموت الفجأة بالرغم من ان جميع أعضاءه تبـدو سـالمة ، كل ما في الأمر ان الـروح تفـارق جسـده ، هكـذا حـال الحضارات ، فعند ما تنحرف عن اهدافها المرسـومة لها ، فان الله يوجه إليها ضربة قاضية في صورة زلـزال مـدمّر أو صاعقة من السماء ، فتبيد حضارتهم البشرية ، بـالرغم من ان المظـاهر المادية لهـذه الحضـارات تظل سـالمة لتبقى عبرة للاجيال.

ولعلنا نسـتوحي هـذه الفكـرة من قوله سـبحانه **وَهِيَ ظالِمَةٌ** الـتي تـدل على ان الهلاك نـزل بهم حين ظلمهم.

لقد خلق الله سـبحانه الطبيعة بحيث لا تتلائم مع الانحـراف والجريمة ، فهي تصـبر زمنا ثم تتفجر غضـبا ـ حين يشاء الله ـ لتعيد الأمور الى نصابها.

« **فَهِيَ خاوِيَـةٌ عَلى عُرُوشِـها** » اي خالية من سـاكنيها بـالرغم من سـلامة أبنيتها وعمرانهـا. « **وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ** » هي الـتي ما زال ينضح ماؤها ، ولكن امست بلا رواد. اما القصر المشـيد فانه يرمز الى مبـاني الملـوك والحكام الظلمة ، حيث ذهبوا ولم تغن عنهم قصورهم من الله شيئا.

لقد هلك القـــوم وتـــداعت الـــبيوت فيها فهي خالية ، وعروشها قد تهاوت ، اما البئر الـتي هي محـور الحضـارة في الصحراء ويعتبر مالكها سيد النـاس ، فقد تعطلت بعد ان كـانت مركز التجـاذب وسـبب الصـراع ، بينما بقيت القصور المشيدة الـتي تعـالت وتجصصت خالية ترمز الى فناء أهلها.

وفي الأحاديث ان العالم الصامت ، هو البـئر المعطلة ، بينما العــالم النــاطق هو القصر المشــيد [1] ، ولعل المناســبة بين هــذا التأويل وذلك التفســير ليست مجــرد التشـبيه ، بل وأيضا : لان هلاك الظـالمين انما هو بتعطيل العلم ، وذلك بعدم الاسـتفادة من العـالم الصـامت (البـئر المعطلة) ولا من العالم الناطق (القصر المشيد).

ترى كيف يصور القـرآن هـذه الحقـائق تصـويرا بـديعا بحيث لو أخـذت ريشة وصـورتها لخـرجت مكتملة الملامح معـبرة عن الفكـرة ، أبلغ تعبـير خذ الآن ريشة وحـاول ان ترسم قرية خالية بأبنيتها وشـــوارعها ، ثم ارسم بـــئرا قد تـدلى عليها دلوها وعليها بكرتها ولا أحد عنـدها ، ثم صـور قصرا فخما مهجورا ، ثم انظر ماذا تـرى ، انك تـرى لوحة تنطق بـالموت الـرهيب وتعطي للـذين غـرّهم تقلبهم في الحياة ، العبرة الزاجرة.

حين يعمى القلب :

[46] **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**

اي لمـــاذا لا يســـيرون في الأرض ، ليعتـــبروا بآثـــار السابقين انهم يسيرون فيها ولكن لا يعتبرون.

(1) نور الثقلين / ج 3 ـ ص 506 / 507.

﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ﴾

قد يكـون اشـتقاق (قلـوب) لغويا من الفعل (قلب ــ يقلب) اي تقليب الأمر بشــتى وجوهه واحتمالاته فيكــون مـدلول القلب قريبا من مـدلول (الفكـر) ، فيكـون معنى الآية : أفلا يتفكرون في الحياة ، ويعقلون حقائقها ، وكيف حلّ بمن قبلهم لما عصوا وكانوا يعتدون.

﴿ أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ﴾

الإنسان : اما ان تكون له القـدرة على فهم الحقـائق شخصيا ، واما ان يسـمعها ويتلقاها ممن تفكر بها ، لـذلك يقـول القـرآن : ﴿ **فَتَكُـونَ لَهُمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِها** ﴾ بصورة مباشرة ، ﴿ **أَوْ آذانٌ يَسْـمَعُونَ بِها** ﴾ بالاسـتفادة من علوم الآخرين وتجاربهم.

﴿ فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصـارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُـوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

حينما لا يوجد عند الإنسـان فكر ، وينطفئ نـور قلبه ، ولا يســتوعب العــبر ، فما ذا تنفع العين ، ومــاذا تعــني الأذن؟!

ان تعبير «**الَّتِي فِي الصُّدُورِ**» يشير الى ان الفســاد لا يصـيب الظـاهر من الإنسـان ، ولكن الـذي يفسد ــ في الحقيقة ـ هو داخل الإنسان ، نفسيته وروحه وكيانـه. جـاء في الحــديث الشــريف : عن أبي عبد الله الصــادق عليه السّلام : وهو بـذكرنا بعمى القلب وكيف يتم اتقـاءه : تـاه من جهل ، واهتــــدى من ابصر وعقل : ان الله عز وجل يقــول :

﴿ فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصـارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُـوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾.

و كيف يهتــــدي من لم يبصـــر؟ وكيف يبصر من لم يتدبر؟!

اتبعوا رسول الله وأهل بيته ، أقـروا بما نـزل من عند الله واتبعوا اثار الهدى ،

فإنهم علامات الامانة والتقى [1]

الزمن عند الله :

[47] ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَـذابِ وَلَنْ يُخْلِـفَ اللـهُ وَعْدَهُ** ﴾

من المشـاكل النفسـية الـتي يعالجها القـرآن الحكيم في آياته المرة تلو الاخرى هي مشكلة الاغترار بالفرصة ، فترى الإنسان يقول ، عند ما يرى ألوان النعم تصـبّ عليه : اين هو عـذاب اللـه؟ ولمـاذا لم يـأت؟ فيكفر بالعقـاب أساسا لأنه يبطئ عليه.

لقد وعد الله بالعـــذاب وعـــدا حتما ، ولكن يعطي الإنســان مهلة كافية لعله يكتشف خطـأه ، ولو بعد حين ، فيتوب الى الله متابا ، فاذا لم يكن للاعـتراف والاسـتغفار في قلبه محلا ، وحـــان اجله آنئذ لا يســتقدم ســاعة ولا يستأخر.

جاء في الـدعاء : (**سـبحانك ما أعجب ما اشـهد به على نفسي ، واعدده من مكتوم أمري ، وأعجب من ذلك أناتك عني وابطاؤك عن معـاجلتي ، وليس ذلك من كـــرمي عليك ، بل تأنيا منك لي ، وتفضلا منك على لان ارتدع عن معصيتك المسـخطة ، واقلع عن سيئاتي المخلقة ، ولان عفـوك عـني أحب إليك من عقوبتي ...**).

﴿ **وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** ﴾

لو كـــان للـــزمن عند الله قيمة إذا لاهلكنا عند أول ذنب. ولكن الله الذي لا يقدر أحد على الفرار من حكومته ، ولا يفوته شيء في السموات والأرض ، لا يبادر بــالجزاء ويكون اليوم الواحد عنده كألف سنة.

(1) المصدر / ص 507.

انه سـبحانه ليس كما نحن ، اننا محـددون بالزمـان والمكان ، وعلومنا وقـدراتنا محـدودة ، بينما الله على كل شيء قدير ، وهو مهيمن على خلقه ، قادر على ان يقبض المكـذبين مـتى شـاء كيف شـاء ، فلما ذا العجلة ، وانما يعجل من يخاف الفوت ، سبحانه؟

[48] ان تـأخير العـذاب ، وتلاشي قـانون الـزمن عند الله ، لا يعـني ان العـذاب لن يـأتي ، فكم من امة أعطاها الله مهلة بالرغم من انها ظالمة ، ثم أخذها بالعـذاب حين حقت عليها كلمته.

﴿ وَكَـأَيِّنْ مِنْ قَرْيَـةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَـةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

اين يذهب هؤلاء أو ليس الى الله؟ بلى انه سـبحانه لا يخشى الفوت ، ومن لا يخشى الفوت لا يبادر بالانتقام.

[49] ان وظيفة الرسول هي تبليغ الرسـالة للنـاس ، لتكـون لهم نـذيرا بين يـدي عـذاب شـديد. ان هم أصـروا على المعصية. وبالرغم من ان الرسول بشـير أيضا الا ان السياق أكد على جانب الإنـذار لان الإطـار العـام للحـديث هنا التكذيب والعذاب.

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

[50] **﴿ فَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾**

من يقف بجانب الرسالة ويؤمن بها وبالرسول ويعمل الصـالح بموجبها ، فانه يفـوز بجـائزتين : أولهما المغفـرة وحط الذنوب ، وثانيهما الرزق الكريم ، انها جـائزة معنوية تتمثل في التطهير من الذنوب وأخـرى مادية وهي الـرزق الكريم ، اي يـوفر كرامة الإنسـان ذلك لأن من الـرزق ما يذهب بها ، ويسبب له الهوان.

وليس في الآية ما يـدل على الآخـرة فقط بل يشـمل الـدنيا أيضـا. ذلك ان المغفـرة وكفـران الـذنوب وتطهـير الواقع الفردي والاجتمـاعي من أثـار الانحـراف والفسـاد ، وتزكية النفس من قذر العقد والأحقـاد ، ان كل ذلك نعمة عظيمة يسبغها الله على المؤمنين في الدنيا أيضا.

كـذلك الـرزق الكـريم يـوفره الله لعبـاده المؤمـنين ، الـذين يرفضـون الخضـوع لأصـحاب السـلطة والـثروة ، ويتعالون على الذلة والهوان ، أو لم يقل ربنا سبحانه :

«**وَمَنْ يَتَّقِ اللـهَ يَجْعَـلْ لَـهُ مَخْرَجـاً وَيَرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**»؟

[51] **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ**

أولئك الذين يبذلون قصارى جهدهم في سبيل تعجـيز آيـات الله ، حسب ظنهم ، اي عرقلة مسـيرتها ، وتعويق تطبيقها ، وتحـديها والتكـذيب بها أو تأويلها ، انهم أصـحاب الجحيم.

ويسـعى هـؤلاء نحو الحـاق العجز بالآيـات ، بتحـديها ومواجهتها ، فهم بعكس المؤمنين الذين يسـلّمون بالآيـات ، ويقولون : **كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا** بلا مكابرة ولا جدال.

ويدخل ضمن هؤلاء :

أولئك الذين يكذبون بالآيات رأسا.

وأولئك الذين يأولونها ويحرفون مواضعها ، مثل خـدم السلاطين من علماء السوء.

وأولئك الذين يعوقون تطبيقها كالحكام الظلمة.

وأولئك الذين يحبسونها في حدود ضيقة.

وكلمة «معـاجزين» من معـاجزة ، على وزن مفاعلة وهي صرف الشيء عن وجهه.

والإنسان الـذي لا يريد ان يطبق أوامر الله وشـريعته يبـــدأ بتأويل الآيـــات القرآنية المحتوية على الأحكـــام والشرائع فيبعدها عن مقاصدها ، وهذه هي المعاجزة.

يؤكد القرآن مثلا على محاربة الطاغوت ، اما المعاجز فيقـول : صـحيح ان القـرآن يؤكد على محاربة الطـاغوت ولكن الطاغوت المقصود في القرآن هم (فرعون ، نمرود ..) وليس هؤلاء طغاة اليوم ، والقرآن يحرم الربا ، ويقول المعاجز انما نأخذ الفائدة.

ان الآيـات من الوضـوح بحيث لم تـدع سـبيلا لتحريف مـدلولاتها ، ان الطـاغوت هو الطـاغوت ، ولا سـبيل الى التستر عليه بعد ان سلطت عليه الآيـات القرآنية الاضـواء الكاشـفة ، ففرعـون قـال : انا ربكم الأعلى ، وفلان (...) حاكم قال مثل ذلك بعمله وتصرفاته. وهما سواء ، كما انه لا فرق بين الفائدة والربا.

ان في القـرآن الحكيم العلاج النـاجح لأدواء الإنسـان وامراضه ، فالقرآن لا يشـير الى العلاج فقط ، بل ويقـوم أيضا بمعالجة الإنســان مباشــرة ، بشــرط ان يتفاعل مع آياته ولا يعاجزها فيزداد مرضا على مرض.

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (57)

---

55 [عقيم] : أي لا مثيل له في عظم أمره.

كيف نتحدى التمني بالذكر؟

هدى من الآيات :

في اطــار تــذكرة ســورة الحج بمواقف النــاس من الهدى ، وبعد الحديث عن موقف التحدي (المعـاجزة) عند البعض ، تــبين آيـات الــدرس : خطأ التمــنيّ ، وانه حــتى الأنبيـاء والرسل لو تمنّـوا ، القى الشـيطان في أمـانيهم ، بيد ان ربنا يعصـــمهم مما يلقيه الشـــيطان بآياته الحكيمة الــتي تنسخ إلقــاءات الشـــيطان ، الــتي هي فتنة يتبعها مرضى القلب ، وقساته من الناس ، وذلك بسـبب ظلمهم الذي يضلهم عن الطريق السوي بعيدا بعيدا.

اما المؤمنون فان هـدى الله ينّـور قلـوبهم ، ويطهّرها من أمـــاني الشـــيطان ، فيعلمــــون انه الحق من ربهم فيؤمنون به ، فتصبح قلوبهم خاضعة للحق ، مســلمة لأمر الله ، ويهـديهم الله بإيمـانهم الى صـراط مسـتقيم ، بينما يفقد الكفـار نعمة اليقين فـتراهم لا يزالـون في ريب منه برغم كل آيات الصدق ، حتى تأتيهم الساعة بغتة بــالموت ، أو يأخذهم الرب ، بعذاب يوم عقيم.

ويوم القيامة ، يتجلى ملكوت الله الـذي يحكم بينهم ، ويكرم الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم كما يهين الكفار الذين كـذبوا بآيـات الله ، فيلقيهم في عـذاب أليم.

بينات من الآيات :

[52] تعـالج آيـات هـذا الـدرس الكـريم ثلاثة مواقف للإنسان تلقاء الذكر الحكيم :

الف : موقف التحدي والمعاجزة.

باء : موقف التمني.

جيم : موقف التسليم.

والموقفــان الأولان خاطئــان ، وهما متطرفــان ذات اليمين وذات الشمال والمحجة السالمة ، الموقف الثالث.

ان على الإنسان ان يســلم نفسه للحق كله ، ويـؤمن بحلـوه ومـره ، ثوابه وعقابه ، سـهله وصـعبه ، ويكيف ـــ بالتالي ـ واقعه له انى كان.

ومن الناس من يصارع الحق ويسـعون في آيـات الله معاجزين متحدين. ومنهم من يتمـنى فيخلط بين الحقـائق والأحلام ، بين ما هو حق وواقع ، وبين ما يصـــــــبو اليه ويتطلع نحوه.

ولعل العلاقة بين المعــــاجزة والتمــــني ، هي ان كلا المــوقفين نابعــان من عــدم التســليم للحق كما هو ، مع فارق في الطريقة ، فأصـحاب المعـاجزة يتحـدون الحق ، ويكفرون به ، بينما اولي التمــني يرفضــون طريقة تحقيق الحق ، وتكريسه ، من

السعي والاجتهاد والقتال .. ثم القبول بالنتائج.

ولا ينبغي ان يسترسل المؤمن مع زخم امنياته فيذهب مع رياح الأحلام ، انى اتجهت ، وحتى الأنبياء العظام ، والرسل الكرام لو تمنوا بطبعهم البشرى ، تمنوا مثلا ان لو هدى الله الناس جميعا ، أو أهلك الظالمين فورا ، أو أسعد الخلق بوافر نعمائه بلا سعي ولا عسر ، أو اخلد الصالحين ولم ينزل عليهم مصيبة الموت ، أو ما الى ذلك من أحلام تنبع من فرط حسم للخلق وللقيم الرسالية ، فان الشيطان يلقي في امنياتهم ، الا ان الله يعصمهم ويحكم آياته في واقعهم.

ولكن على المؤمنين ان يعرضوا هذه التمنيات على الحق الذي أنزله الله في آيات الكتاب فيلزموا أنفسهم حقائق الكتاب ويعرفوا ان الله قد خلق الدنيا دار ابتلاء ، ولم يجعلها دار جزاء ، حتى يعجل للكفار العذاب ، أو للمؤمنين بالثواب!

وان الهداية ليست كرها على الناس ، وان الله قد فرض القتال على المؤمنين لحكمة بالرغم من انهم له كارهون.

وهكذا جاء في الأحاديث ـ اضافة حكمة ولا محدث ، ولعله للدلالة على ان الربانيين من العلماء هم بدورهم معصومون من القاءات الشيطان ، مؤيدون بروح الايمان.

﴿ وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

ويبدو ان معنى ذلك ، ان النبي والرسول والامام المحدث يكاد يتمنى ، ولكنه لا يتمنى لقوله سبحانه :

﴿ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ﴾

في روع الرسول لمقامه البشري الضـعيف لـولا تأييد الله ونصره.

 ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ ﴾

بالعصمة التي تجعل الرسـول لا ينطق عن الهـوى بل هو وحي يوحى.

 ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

فهو يحيط علما بالقلب البشري ، والقاءات الشيطان فيه وهو ينسخها من ضمير المؤيـدين كـالنبي والرسـول و المحدث بحكمته. وهذه الآية أكبر شاهد على عصمة أنبياء الله وأئمة الهـدى. ذلك لان الله لا يسـمح للشـيطان بـأن يوسـوس إليهم في صـدورهم ، بل يعصم عـزائمهم ، وامنياتهم وافكارهم من القـاءات الشـيطان. وتشـبه هـذه الآية آيات اخرى في القرآن الحكيم ، كقوله سبحانه :

«وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِها لَـوْ لا أَنْ رَأى بُرْهـانَ رَبِّهِ» حيث تـدل على ان يوسف عليه السّلام تعـرض لطائف من الشيطان فعصمه الله رأسا ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَـيْئاً قَلِيلاً ﴾.

حيث ان الله لم يـدع الضـغوط الجاهلية تـؤثر على مسيرة النبي المستقيمة.

ومن المفارقات الغريبة اننا نجد تلفيقات من القاءات الشيطان حول هذه الآية.

حيث جـاء في بعض الاخبـار المروية : ان رسـول الله صـلّى الله عليه وآله جلس في أحد نـوادي مكة ، وقـرأ على المشركين سورة (النجم) حتى إذا بلغ قوله تعـالى :

﴿ أَفَـرَأَيْتُمُ اللّاتَ وَالْعُـزَّى وَمَنـاةَ الثَّالِثَـةَ الْأُخْـرى ﴾

أضاف إليها : وانهن لهن الغرانيق العلا وان شفاعتهن لهي الـتي تـرتجى ومضى في قـراءة السـورة حـتى انتهى الى السجدة في آخرها فسـجد وسـجد المشـركون معه ، ولم يتخلف منهم أحد ، فاعلنت قريش

رضاها ..!!!
وفي بعض الروايـات ان رسـول الله صـلّى الله عليه وآله كـان يقـرأ سـورة النجم في الصـلاة ، فعند ما كـان يقرؤها فـــاذا بأحد خلفه يــــردد آيـــات الغرانيق فردده الرسول عدة مرات على غفلة منه ، فنزلت هذه الآية.
وان هــــذه الرواية وأمثالها لا تحتمل التصـــديق لان ســورة الجن نــزلت في مكة وســورة الحج نــزلت في المدينة ، عوضا عن ان الرســـــول يعلم علم اليقين ان سورة النجم الـتي تحتـوي على سـجدة واجبة لا تقـرأ في الصلاة.
المهم جــاءت هــذه الآية لتؤكد بــان شــفاعة هــذه الغرانيق لا ترتجى ، وان هـذه القصة ليس سـوى امنيـات ألقاها الشيطان ليختبر بها الله عبـاده المؤمـنين ، فما هي الا اسـطورة لا أكـثر ولا أقـل. لان الرسـول أرفع من ان ينزل الى مستوى الجهل با هم أصل من أصـول رسـالته ، الذي يعتـبر الركـيزة الاولى الـتي قـام عليها الـدين بأكمله وهي التوحيد ، فحتى لو أغمضنا العين بقول ان رسل الله معصومون عن الذنب ، والخطأ والسهو النسيان وبالـذات رسول الله محمد خاتم النبيين صـلّى الله عليه وآله الـذي يقول عنه الـرب سـبحانه : «**وَما يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوى إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحى**». ان هـذه الآية نقرأها في سـورة النجم بالــذات الــتي حولها هــذه الاســطورة ثم هل من الممكن ان نتصور رسولا يبعثه الله لا بلاغ رســالة التوحيد ثم ينسى هذه الحقيقة ، ويبدلها بخرافة الشرك؟!
ان هذا الحديث الذي يقول عنه أبو بكر الزار لا نعلمه يــروى عن النـبي بإسـناد متصل يجـوز ذكـره ، انما تقوّله الجـــاهليون الحاقـــدون على الرســـول نكاية به ، وتناقله الجـاهلون الـذين لم يعرفـوا رسـول الله بل لم يعرفـوا رسالات الله.
ولو افترضـنا ــ جـدلا ــ صـحة هـذه الرواية فلا بد ان يكون هذا الكلام من

القاءات الشيطان في قلوب المشـركين ، الـتي أضـافوها الى الآيات ، واشاعوها بين الناس ، ليشبهوا على الناس ، الا ان الله سـبحانه ــ الـذي وعد بحفظ القـرآن عن عبث العابثين وتحريف المبطلين ـ احكم آياته ، وفضح القــاءات الشيطان ، وقد ذكر كثير من المفسرين هذا الاحتمال في هذه الرواية التاريخية.

[53] ان قلـوب النـاس على ثلاثة أنـواع : السـليم ، والمـريض ، والقاسي ، والقلب السـليم يعصـمه الله عما يلقي الشـــيطان في امنياته ، بينما القلب المــــريض والقاسي يلقيان ما يلقيه الشيطان ، ويصبح بالنسبة إليهما فتنة تستهويهما ويصعب عليهما التخلص منها.

﴿ لِيَجْعَـلَ ما يُلْقِي الشَّـيْطانُ فِتْنَـةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾

ما هو القلب المريض والقاسي؟

لعل امــراض القلب هي تلك العقد النفســية ، الــتي تظهر في الصفات الرذيلة كالحسد والحقد والكبر واليأس ، وحب الرئاسة ، والجدل في الله بغير حق.

واما قسوة القلب فهي التي تنشأ بسـبب تـراكم اثـار الذنوب عليه ، فاذا به لا يستجيب للحق ، ولا يهـتز للانـذار والتبشـير ، ولا يعتـبر بمصـير المجـرمين ، ولا ينتفع بآيـات الله في الافاق.

وكيف تصبح القاءات الشيطان بالنسبة إليهما فتنة؟

لأن القلب المريض أو القاسي يبحث أبدا عما يتوافق معه ، فأنه يسـتجيب سـريعا لوسـاوس الشـيطان ويكـون مثله مثل الجسم المـريض الـذي تكـاثرت فيه الجـراثيم ، وضعفت مناعته الذاتية ، فاذا به يتلقف الجـراثيم الجديـدة بسهولة ، ان

مقاومة هذا الجسم للمرض ضعيفة ، فخطر المـرض عليه شـديد ، كـذلك القلب المـريض أو القاسي ، يصـعب عليه مقاومة الاشاعات الشيطانية التي تنتشر وتلقى هـوى في النفس.

مثلا : انك تـــرى قلــوب الجـــاهليين المريضة بحب «الغرانيق العلى» ، والــتي تــراكمت عليها أثــار عبــادة الأصـنام ، وتحن الى أيـام الصـبا حيث كـانوا يتسـاقطون امـام الأصـنام المزخرفة ، ويسـحرون على وقع الاناشـيد والطبــول ، وفي احتفــالات اللعب واللهو وبانتظــار موائد الطعام والشرب والمسكرات ، ومع صبايا الحي الجميلات والصبيان الحسان.

انك تراها اليــوم تتلهف الى اشــاعة تــروج في مكة ، بــان النــبي قد مــدح هــذه الأصــنام ، ووقع ســاجدا لها ، واعطى الشـــرعية من جديد لها ، وتتناقل الأفـــواه هـــذه الشـائعة المفضـوحة بشـوق عظيم ، وإذا بها تصـبح مـادة اعلامية لكل من سولت نفسه النيل من مقام سـيد البشر ومنار الهـداة وقـدوة الصـالحين محمد بن عبد الله الطهر الطـاهر المطهر ، الـذي عصـمه الله من كل ذنب ، صـلى الله عليه وعلى آله المعصومين.

وتستمر الأفواه تتناقلها حتى اليوم حيث تتلقفها أقلام المستشــرقين وتنسج حولها بيــوت العنكبــوت ومن راجع كلمات المستشرقين ومحـاور تركـيزهم وجـدها تـدور في الأغلب حــول تلك الاشــاعات الكاذبة الــتي روجتها أفــواه الحاقدين على الرسول (ص) ، ثم دخلت في كتب التـاريخ اما بسهو أو عبر أصحاب القلوب المريضة الذين تظـاهروا بالإســلام ، وهم ينـــوون النيل من الإســلام كبـــني أمية ، وأحزابهم.

ومع الأسف استرســـلت أقلام بعض المفســـرين مع هذه التقولات الكاذبة حتى صـنعت من الرسـول شخصـية مفروزة ، ولم تلتفت الى الحديث المجمع عليه والمأثور

عن النبي صلّى الله عليه وآله : (ستكثر من بعدي القالـة) ولم تلتفت الى حذر أصحاب الرسول من بعده عن قبــول الأحـاديث الا إذا شـهد عليها شـاهدان ، وقد طـردوا بعض الرواة وضـربوهم بالـدّرة ، لأنهم أكـثروا من نقل الحـديث غثة وسمينة.

وقد تصــدى أئمة أهل الــبيت بحــزم لهــذه الظــاهرة الخطيرة وأصروا بان يعـرض كلام الرسـول وكلامهم أيضا على كتاب الله. فما وافق كتاب الله أخذ وما خالف كتـاب الله ضرب به عرض الحائط ، واستطاعوا ان يفندوا الكثير من الاشاعات الضالة بهذا المقياس الرشيد.

 وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ

ان الـذين ظلمـوا أنفسـهم بارتكـاب المعاصي ، حـتى مرضت قلـوبهم وقست واسـتجابت لفتنة الشـيطان انهم بعيدون عن الحق كثيرا.

ويستوحي من الآية الكريمة : ان قسوة القلب مرحلة تالية لمرضه ، وان ما يسبب مرض القلب هو الظلم فـاذا فحش وازداد قسى القلب.

[54] **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**

يتمــيز الــذين أوتــوا العلم ، بــأن مــوقفهم أخذ في التكامل فمن العلم الى الايمــان الى الإخبــات ، ذلك لان العلم هو اكتشــاف الحقيقة والايمــان هو الاعــتراف بها ، والإخبات هو ان تتبعها بكل كيانك.

وهذا التكامل يتم عبر الصـراط المسـتقيم الـذي كلما مشى فيه الإنسان ظهرت له معالم الحق ، والله هو الذي يهـدي المؤمـنين الى هـذا الصـراط ، ولا أحد سـواه قـادر على الهداية اليه.

﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[55] اما الـذين كفـروا فهم بـاقون أسـارى شـكهم النـابع من جهلهم. ولا يمكنهم التخلص من هـذا الشك الى اليقين بسبب كفرهم.

﴿ وَلا يَـزالُ الَّذِينَ كَفَـرُوا فِي مِرْيَـةٍ مِنْـهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾

الســاعة هي يــوم القيامة ، اما العــذاب العقيم فهو العقاب في الدنيا.

[56] هنالك عند قيام الساعة ، يتجلى ملكوت الربّ ، وقضــاؤه الفصل وجــزاؤه العــادل ، فهو الملك والحــاكم والمدبّر.

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾

فله السـلطان الظـاهر ، حيث يطـوي بعزته سـلطات الجـور الـتي نشـرها الشـيطان ، وامهلها الله بحكمته الى أجل مسمى.

﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾

فلا أحد يسـتطيع رد حكمه ، والادعـاء كـذبا بأنه على حق كما هو اليوم في الدنيا.

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

[57] ذلك هو مصـير المؤمـنين العـاملين للباقيـات الصالحات ، اما مصير الكافرين فهو العذاب المهين.

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَــرُوا وَكَــذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ** ﴾

كلمة المهين تــوحي بــان أهم العوامل الــتي تــدعو الإنســان للشك واتبــاع الامــاني هو التكــبر ، والاهانة هي العذاب النفسي الـذي يصـيب المتكـبرين. ولعله أشد ألما من العذاب المادي.

وَالَّذِينَ هـاجَرُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ ثُمَّ قُتِلُـوا أَوْ مـاتُوا
لَيَـرْزُقَنَّهُمُ اللـهُ رِزْقـاً حَسَـناً وَإِنَّ اللـهَ لَهُـوَ خَيْـرُ
الرَّازِقِينَ (58) لَيُـدْخِلَنَّهُمْ مُـدْخَلاً يَرْضَـوْنَهُ وَإِنَّ اللـهَ
لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ
ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُـورٌ (60)
ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي
اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذلِـكَ بِـأَنَّ اللـهَ هُـوَ
الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُـوَ الْباطِـلُ وَأَنَّ اللـهَ
هُـوَ الْعَلِيُّ الْكَبِـيرُ (62) أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللـهَ أَنْـزَلَ مِنَ
السَّماءِ ماءً فَتُصْـبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَـرَّةً إِنَّ اللـهَ لَطِيـفٌ
خَبِيرٌ (63) لَهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ
اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ
ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَـعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِـهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (66)

هكذا ينصر الله المظلوم الذي يتحدى

هدى من الآيات :

هنالك هجرتـــان : هجـــرة معنوية واخـــرى مادية ، فالهجرة المادية عادة ما تتبع الهجرة المعنوية ، لذلك نجد القرآن الحكيم حينما يحدثنا في هـذا الـدرس عن الهجـرة المادية من دار الكفر والكبت والحرمـان ، الى دار الحرية والإسلام ، لا يلبث ان يحـدثنا عن الجـوانب المعنوية لهـذه الهجرة.

وبمناسبة الحديث عن الهجرة يحـدثنا القـرآن الحكيم عن قـدرة الله ، وأهم وأبـرز مظـاهر هـذه القـدرة حركة الليل والنهـار ، وإيلاج كل واحد منهما في الثـاني ، فكما يبدل الله ـ سبحانه ـ الليل نهـارا ، فانه كـذلك يبـدل ظلام الإرهـاب والكفر والجاهلية الى نـور العدالة والإسـلام والحرية.

تلك القـدرة المهيمنة على الكـون هي ذاتها القـدرة المهيمنة على المجتمع ، لأن قيـادة هـذا الكـون ، وولايته سواء في السماء أو في الأرض لله الحق وحده.

بينات من الآيات :

[58] بعد ان ذكرنا الــرب ســبحانه ببعض حقــائق الايمـان في آيـات آنفة ، جـاءت هـذه الآية تـذكرنا بـدور الهجرة في الله. لماذا؟

لان الطريق الى الايمان يمر عبر الهجـرة والجهـاد. إذ أنّ الطغـاة لا يـدعونك حـرا تـؤمن بالله وحـده ، وتطبق منهجه فقط ، إنّما يريــدون أن تميل عن عبــادة الله الى الشرك به بعبادتهم ، ولا بد من تحدّيهم حـتى تصـبح مؤمنا بالله وحده. ومن هنا تبدأ مرحلة الجهاد بـالهجرة من ديـار الكفر الى بلاد الإســلام. والواقع فـــالهجرة ذاتها مرحلة متقدمة من مراحل الإيمـان ، فليس كل مـؤمن مسـتعدا للهجـرة الى الله بعيـدا عن اهله ووطنه ، والهجـرة لا تتم من دون معاناة ، فالمهاجر عادة يتعـرض للقتل بسـبب أو بآخر.

وليس هنـاك ما يعـوض القتل أو المـوت إلا الـرزق الحسن من الله ، فهذا المهاجر الذي ترك موارده الخصبة في بلــده ، يعوّضه الله خــيرا منها دار الخلــود ، وبــدل خروجه من وطنه ساخطا يدخله تلك الدار راضيا مرضيا.

هذا لمن يهاجر ويلقى حتفه ، اما الذي يبقى حيّا فـأن الله سوف ينصره نصرا مؤزّرا على من كانوا السـبب في تهجيره وتشريده ، وبما أن الهجـرة من دار الكفر الى دار الايمــان تنشأ من الســخط على الأوضــاع الفاســدة ــ السياسية أو الاقتصـادية أو الاجتماعية ــ فـان الهجـرة في عرف الطغـاة تشـكل سـنّ الحربة لـذا فهم يسـعون لـوأد هـذه الحركة بقتلهم المهـاجرين ، أو التضـييق عليهم كـأن يــبرموا الاتفاقـات مع الدولة الاخـرى كي يسـلموهم ، أو يضـيّقوا عليهم ، حـتى يسـتحيل عليهم النصر فيموتـوا بعد سنيّ النضال الطويل.

وَالَّذِينَ هـاجَرُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ ثُمَّ قُتِلُـوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ

رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

هكذا يعرفنا الله نفسه.

من الآية (58) الى الآية (65) يذكرنا القرآن ب (15) اسما من الأسماء الحسنى ، هي خـير الـرازقين ، العليم ، الحليم ، العفو ، الغفور ، السميع ، البصير ، العلي ، الكبير ، اللطيف ، الخبير ، الغني ، الحميد ، الرؤوف ، الرحيم.

ونسـتوحي من منهج القـرآن في ذكر أسـماء ربنا هنا وفي سـائر السـور ، ان الله يريد ان يعرفنا نفسه في مختلف جوانب الحيـاة التشـريعية والاجتماعية ، أو المادية التكوينية ، وان هناك مسافة تفصل بين الايمـان والمعرفة ، كما تفصل مسافة مماثلة بين الإسـلام والايمـان ، فليس كل مسـلم مؤمنا ، وليس كل مـؤمن عارفا وان للعرفـان درجات.

ان الله سـبحانه وتعـالى قد تجلى في آيـات القـرآن لعباده ، وكما تجلى في آيات الحياة ليعرفنا نفسه ، فكيف نعرف الله؟

باسـتطاعتنا ان نعـرف الله سـبحانه عـبر صـفاته وأسـمائه الحسـنى ، المبثوثة في آياته القرآنية والكونية ، فكل شيء ، وكل آية هي تجلّ واضح لأسماء الله وصفاته.

جمـال الربيع ، وبهجته ، وعبق أزهـاره ، يقودنا الى جمال الله ، وعظمة الليل والنهار ، ودوران الفلك العظيم بشموسه وأقمـاره ، يهـدينا الى عظمة الله ، وانه عليّ كبير.

وقطرات المطر التي تـنزل من السـماء ، ثم تسـتقر في رحم الأرض ، وتتفاعل مع حبـات الـتراب ، وإذا بتلك البذرة الصغيرة ترتفع نحو السماء ، فتصبح شجرة عظيمة ، كل ذلك يقودنا الى لطف الله في صنعه.

اما إذا نظرنا الى ما في الجبال من خــزائن ، وما في البحــار من ثــروات معدنية وحيوانية ، وما في الأرض من كنوز ومعادن ، فسـنعرف آنـذاك أن ربّنا غـنيّ حميد ، وانه على كل شيء قدير.

وحين نعرف بأن ربنا سـبحانه قد جعل في السـموات والأرض أنظمة وسـننا ــ يحفظنا بها ــ ولو لا ذلك لانتهت حياتنا على الأرض ، أو تحــولت في أحسن الظــروف الى جحيم لا يطاق.

ان نظام الغلاف الجـوي كـأبرز مثـال من الدقة بحيث لو انه كان أقل سمكا لتهافتت النيازك والشهب فـأحرقت الأرض ، ولو انه كـان اسـمك قليلا لما اسـتطاعت الأرض ان تأخذ قـدرا كافيا من اشـعة الشـمس فكـانت تتجمد ، وهكـذا الجاذبية ، وسـماكة الأرض .. أقـول إذا عرفنا كـلّ ذلك هدانا الله الى انه سبحانه رؤف رحيم.

وكـذلك تحـولات حياتنا من المـوت الى الحيـاة ، ومن الحياة الى الموت ، يدلّنا على ان تدبير الأمـور بيد غيرنا لا بيدنا نحن ، وان الرحمن على العرش استوى. وهكـذا نجد في هذه الآيات منهجا قرآنيّا عظيما. حيث يــذكرنا بآية من الآيات ، ثم بصفة من صفات الخالق ، واسم من أسمائه ، وهذا هو الأسلوب المناسب لمعرفة الله سبحانه ، وبتعبير آخر التحول من درجة الايمان الى درجة المعرفة.

جزاء الهجرة :

[59] ﴿ **لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ** ﴾

قد يكون هذا المدخل الذي يرضونه في الـدنيا ، لأنهم خرجـوا غاضـبين في سـبيل الله ، وقد يكـون المـدخل هو الجنة لان اللّام في قوله : ﴿ **لَيُدْخِلَنَّهُمْ** ﴾ تفيد المستقبل.

﴿ **وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾

فهو يعلم عملك وسـيجازيك عليه ــ ولكن بعد حين ــ لأنه حليم لا يعجل ، فمن جهة يعطي الكــــــــافرين مهلة أطول ، ومن جهة أخرى يطلب من المؤمنين الصبر حــتى يعلم صدق ايمانهم.

[60] ﴿ **ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُـوقِبَ بِـهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ** ﴾

ذلك لان الذين خرجوا من ديـارهم مهـاجرين الى الله سـوف يرجعـون إليها فـاتحين بإذنه ، فيقتلـون أعـداء الله وأعـداءهم ، لأنهم تعرضـوا للبغي ، والبغي هو ان تطـالب بحقك المغصوب فلا تعطى إيـاه ، بل وأيضا تواجه بـالقمع والإرهاب. إذ لا يجد غاصـبوك سـبيلا لاسـكاتك الا بالقضـاء عليك.

«**ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ**» اي مواجهة الاعدام بالاعدام .. مثلا بمثل ، «**ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْـهِ**» اي ظلم بعد أخذه لحقه المشروع (لينصرنه اللــه) في هـذه الكلمة تأكيدان على تحقيق النصر ، أولهما يدل عليه لام التوكيد ، وثانيهما تعبر عنه نون التوكيد.

﴿ **إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾

عفوّ غفور عما تجاوزتم ، ودلالة عفوه وغفرانه نصره لكم.

اســتوحى بعض المفســرين من الآية فكــرة هامة ان الصراع في الإسلام ليس قاعدة مطــردة كما في النظرية الماركسـية ، انما هو حالة اضـطرارية ، فالإسـلام يـدعوك الى ان تضــرب صــفحا عمن يظلمونك أو يســلبون بعض حقوقك البسيطة ، اما حين يتعدى هؤلاء الحدّ في السـلب والظلم ، آنئذ يجب عليك ان ترفع عقيرتك في وجـــوههم وتـواجههم فيكـون صـراعك لا من أجل الصـراع ذاته ، بل من أجل العدالة ، وحالما يعـــود إليك حقك آنئذ تقف عند هذا الحد. ومثل هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً ﴾.

إذا وقبل كل شيء يجب ان يكون الصراع في الله وبالله ، نهبّ متى استنهضنا ونقف عند ما يأمرنا بذلك.

الليل والنهار :

[61] **﴿ ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ﴾**

ما يحدث في الطبيعة مثل حيّ تمر به الأمم ، فمرة يمتطي صهوة التاريخ كفرة فجرة ، فيصيب المؤمنون جام انتقامهم عليهم ، فتعود مؤمنة كما كانت ، لكنها لا تلبث ان تضمحل وتتلاش وتعود من جديد كافرة فاجرة .. وهكذا تتعاقب الأمم حتى يأذن الله لأوليائه الصالحين بالنهوض لازالة الجاهلية والضلال من ارض الانسانية جميعا.

ان معنى الإيلاج هو الإدخال ، فمرة يلج الليل في النهار ويدخل فيه ، ومرة يلج النهار في الليل ويدخل فيه ، ففي المرة الاولى يكون الفصل شتاء ، وفي المرة الاخرى يكون الفصل صيفا ، لان إيلاج الليل في النهار يعني اقتطاع الليل قطعة من النهار فيصير الليل أطول ، وهذا فصل الشتاء ، والعكس من ذلك إيلاج النهار في الليل.

﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

اي ان الله قريب من السنن الجارية في السموات والأرض ومن مظاهر قربه سمعه وبصره ، واحاطته بكل صغيرة وكبيرة.

أسماء الله :

[62] ﴿ **ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ** ﴾

سـلطته أعلى من سـلطة الآخـرين ، هـذا إذا سـلمنا جـدلا بـأن للآخـرين سـلطة ، والافهم في الحقيقة سـراب يحسبهم الظمآن ماءا والله هو الحق المبين.

﴿ **وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾

فما سـواه ليس عليا ولا كبـيرا ، الا به والعلو والكـبر تعبير ان عن قدرة الله وسعة سلطانه ، فلتسقط الأصنام البشـــرية والحجرية الـــتي تعبد من دون الله ، وليخلص العارف نيته وعمله لله الذي يـولج الليل في النهـار ويـولج النهار في الليل لأنه وحده الحق وما سواه هو الباطل.

[63] وانه لطيف خبـير ، لطيف بعبـاده يـرزقهم من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ، وخبير بحاجاتهم.

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَتُصْـبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾

السماء تمطر والأرض تستقبل حبات المطر ، لتتحول تلك الحبـات الى بسـاط أخضر ، فطعـام لنا ولأنعامنـا. ان كل ذلك يدل على ﴿ **إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾.

ان علمـاء النبـات يعرفـون ، كم هي دقيقة وعظيمة تلك القوانين الـتي تنظم نمو النبـات ، الـتي عـادة ما نمر نحن عليها بلا تأمل أو اعتبار. فبعد ان صرفوا الملايين من الدولارات في المختبرات النباتية لم يعرفوا والى الآن سرّ التمثيل الضـوئي .. كيف ان شـعاع الشـمس يتحـول الى ثمرة كالتفاح مثلا التي تعتبر أكثر مواده من نور

الشمس.

[64] ﴿ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

ان الله سبحانه وتعالى يمتلك كل الأشياء ، ويسيّر قوانينها ، وهو بالرغم من انه يمتلك الأشياء وقوانينها فهو غني عنها ولا يحتاج إليها ، فهي لا تعطيه القوة ، بل هو من جهة غني عنها ، ومن جهة اخرى حميد يعطيها الوجود والحركة تبارك وتعالى.

[65] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾

كل ما في الأرض مسخر لنا .. بقسميها البريّ والبحريّ ، فالقسم البري يحوي المعادن والكنوز ، والأشجار والحيوانات ، ويحوي القسم البحري الحيوانات والمعادن ولعل أهم فائدة نستفيدها من البحر ، هي جريان سفننا بأمر الله فيه وان من أمر الله الرياح التي تدفع السفن وتحركها الى الامام.

الجاذبية :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

ان النجوم والكواكب وسائر الاجرام السماوية تبقى في مساراتها بقدرة الله ، ولو لا ان الجاذبية موجودة لاختل نظام الأفلاك ولاصطدمت ببعضها وتناثرت على الأرض فدمرتها. وربما يكمن التفسير الصحيح في الآية ذاتها في قوله : «الا باذنه» اي من الممكن ان تسقط إذا اذن الله لها بالسقوط ، وما هي السواقط تلك؟

ان السواقط التي يعبر الله عنها بالسماء هي : النيازك والشهب التي تهبط الى الأرض بإذن الله ، ولم يكتشف العلم الحديث والى اليوم سر الجاذبية ، ما هي؟

واين هي؟ ولكن الله يعبر عنها بقوله :

«وهو الذي **يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَـعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِـهِ** » اي ان الجاذبية بيد الله ... وضـعها حسـبما شـاء وباسـتطاعته ان يعـدمها ، ولكن كلمة «الا باذنـه» لا تـــدل على ان الله يعـــدم الجاذبية بل هو إثبـــات لها ، فالنيازك والشهب التي تسـقط على الأرض بفعل الجاذبية نفسها.

ومعلـــوم ان تقلص الأرض هو نتيجة طبيعية لاعمـــال الإنسان ، بسبب صرفه لطاقات الأرض إذ تزايد في الآونة الاخيرة اسـتخدام الطاقة ، واسـتحلاب الأرض من معادنها وغير ذلك.

كما قال تعالى :

«**ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ**». (41 / الروم)

ولعلنا نستوحي من هذه الآيات ان الله لا يأذن للأرض بالدمار الا بسبب فساد الناس.

 إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

آية رأفته ورحمته انه سـخر لنا ما في الــبر والبحر ، وأمسك السماء ان تقع على الأرض الا باذنه والا فهو قادر على ان يجعل كل ذلك جحيما علينا ، فهنـــاك احتمـــالات رهيبة في الكـون لا يمكن ان تصـدق ، وأبـرز مثـال على ذلك ان هناك الكثـير من الشـهب والنيـازك تتسـاقط على الأرض وباعـــــــداد هائلة ، ولكنها لا تلبث ان تتلاشى إذا اصطدمت بالغلاف الجوي وهكذا نقرأ في الدعاء ، سبحان من لا يأخذ أهل الأرض بـألوان العـذاب سـبحان الـرؤوف الرحيم.

[66] ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ** ﴾

ثم بعد عــرض آيــات الله ، وبعد عظيم علمه ورأفته ترانا نكفر بنعم الله. ان المشكلة في الإنسان انه محــدود النظرة ، فلو نظر الى ما حوله من آيـات الله ، بل لو رأى خلقه .. وتقلبات كل ذلك من حياة الى موت لآمن ، ولكن الإنسـان كفـور بنعم ربه ، وبعطائه ، ولعل كفـره هـذا هو علة كفره بالله رأسا.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68) اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ

---

72 [يسطون] : إظهار الحال الهائلة للاخافة.

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)

الطغاة لن يخلقوا ذبابا

هدى من الآيات :

لكي يــزداد البشر تقــوى وإحساسا بمســؤولياته في الحياة ، لا بد ان يــزداد معرفة بالله وبأنه محيط به علما ، ولا بد ان يشعر بان هناك رقيبا يراقبه ، ويحيط به ، وهـذه المعرفة تعطيه التزاما أكثر بمسؤولياته.

وفي هذا الدرس ما قبل الأخير من سورة الحج الــتي تركز حــول موضــوع التقــوى نجد ـــ في هـذه الآيـات ـــ ايحــاءات تــدل على علم الله بــالكون ، وان المســؤولية ليست امام الرسول ولا امام المؤمنين بقـدر ما هي امـام الله رب العـــالمين ، فالله هو الـــذي يشـــرع لكل امة مناسكها ، وهو الـذي يطالبها بأدائها ، ويحاسب على تركها ، فلما ذا اذن يجادل هؤلاء الكفار الرسول؟

ان مســئولية الرســول هي الــدعوة الى الله عــبر الصراط المستقيم ومسئولية الرسول لا تتجاوز هـذا الحد ، أما حساب الناس فهو على ربه وربهم.

ان الله محيط علما بما في الســموات والأرض ، وان كل شيء عنده مكتوب في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، وذلك على الله يســير. لان تســجيل حــوادث الــدنيا ومتغيراتها وإدراجها في كتــاب أمر بســيط ، فــاذا حــانت ساعة الحساب فان يـدك كتـاب ، وجلـدك كتـاب ، وعينك كتــاب ، وكل ما فيك كتــاب شــاهد عليك ، فما تفعله لا يـذهب هبـاء ، ومع كل ذلك ، فانك تجد أناسا يعبـدون من دون الله أناسا عاجزين مثلهم ويخضعون لاصنام بشرية أو حجرية.

ان الإنسان ينبغي له ان يتبع أحد أمــرين : اما ان يتبع شريعة الله ويخضع لأوامـره ، ونواهيه ، واما ان يتبع العلم ، فمن لم يتبع أحد هذين الأمرين فهو ظـالم لنفسه ، ومن يظلم نفسه ، أيحسب آنئذ ان الأصنام الحجرية أو البشرية ستشفع له؟! انها ستكون عليه ضــدا ، وسيحشر معها في جهنم كما قال تعالى :

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ حَصَـبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ .

وانك لترى مدى التعصب للباطل عند عبد الطاغوت ، حيث تتبين في وجوههم المنكر .. فــاذا بها تظلم وتعبس ، كلما تليت عليهم آيــات الله ، البالغة الوضــوح ، حــتى ان اعصــابهم تتحفز وكــأنهم يســتعدون لمعركة ، ويكــادون يرفعــون أيــديهم للســطو على من يتلــوا عليهم الآيــات ، ودون النظر الى محتـوى الآيـات ، وان التـالين لها ليسـوا سوى مبلغين وان قول الحق إذا كـان مـرا لان فيه تهديـدا وإنذارا بالعقاب الواقعي ، فان ذات العقاب وهو النار التي وعدها الله الذين كفروا انه أشد حرارة وأسوأ مصيرا.

وبمناسبة الحديث عن الأصنام التي تعبد من دون الله ، يتحـدى الله الأصــنام البشــرية موجها إليها المقـال بـان ليس في إمكانها خلق ذبابة واحدة حــتى لو احتشــدت كل القـــوى العظمى اليـــوم مثلا (امريكا ، روســـيا ، أوروبا ، اليابان وأذنابهم) ما

استطاعوا اليه سبيلا.

انهم يعجزون عن صنع حشـرة صـغيرة كالذبابة ، وان تسلبهم الذبابة شيئا ، فأنهم أعجز من ان يستنقذوه منها ، بالرغم من ضـعف قوتها «**ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُـوبُ**» اذن فلما ذا الطغيان ، ولماذا عبادة هؤلاء الضعفاء؟!

بينات من الآيات :

اختلاف الشريعة ووحدة المشرّع :

[67] **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ**

ذكر المفسرون : ان لكل امة مناسك وطقوسا خاصة ، تختلف من امة الى أخـرى ، وهـذه الاختلافـات لا تـدل على اختلاف المشرع ، أو على اختلاف الشريعة الاسلامية الـــتي أتى بها كل الأنبيـــاء وغاية ما في الأمر هو ان الله الذي أوحى بشريعة نـوح قد نسخ هـذه الشـريعة بشـريعة إبـراهيم ، ثم نسخ هـذه الشـريعة بشـريعة موسى ، ثم بشريعة عيسى ، ثم نسخها بشريعة محمد (ص).

هذا التفسـير صـحيح لكنه ليس كافيا ، فهنـاك أحكـام المختلفة بالرغم من وحدة الرسالة ووحدة النبوة ، وهناك واجبـــات تختلف من فـــرد لآخر حسب أحواله وظروفه المكانية والزمانية والمعاشية وغيرها ، ومن بـاب اولى ان تنسحب هذه المسـألة على الشـعوب والأمم ، والمقيـاس الوحيد لتقـــدير هـــذه الظـــروف المختلفة هو وحي الله سـبحانه ، وما على الإنســان الا الانصـياع لمن له الخلق والأمر ، وما دام الله هو رب الشـــــرائع جميعا ، فلما ذا الاختلاف اذن؟! لنتوجه اذن لاصـــلاح ما بيننا حـــتى يعم السّلام والأمن ربوع المعمورة.

ولعل الآية تـوحي بـأن البحث عن جزئيـات المناسك العبادية لا يجدي نفعا ، بل

لا بد ان يكون الحديث حول أصل صدق الرسـالة ، فمـتى ما أيقن المــرء ان الرســول يــدعو الى الله عــبر طريق مستقيم. فلا يجوز ان يجادل في الفروع.

وانه لمــاذا الصــلاة الى الكعبة ، وليس الى المســجد الأقصى ، ولمــاذا الصــوم في شــهر رمضــان ، وليس في أيــام عيد الفطر ، ولمــاذا لا يحــرم الإســلام ما نهت عنه شــريعة موسى ، وما الى ذلك مما كـان الكفـار يجـادلون فيه ، ويتخذونه ذريعة لجحــــودهم ، ومما لا يــــزال بعض انصاف المثقفين يتخذونه مـادة للجـدل العقيم ، ويـبررون به فسقهم عن الدين وكفرهم به.

وأساسا كلما منعت البشر العصبية عن منهج ســليم ، ولم تفلح أدلته في رده ، أخذ يناقش في الجزئيات التي لا علم له بها والتي لا يستطيع أحد اقناع أحد فيها.

ولعلنا نســــتوحي من الآية : ان الامة الواحــــدة مهما اختلفت طرائق وشــيعا فانها تقــوم على أســاس منسك واحد ، فالمنسك هو رمز مبدئية الامة ووحـــــــــــدتها ، فالمسلمون قد يختلفون في اي شيء الا في الصــلاة الى الكعبة والحج إليها والصوم و .. و. والمسـيحيون يختلفـون كـــذلك في كل شــــيء الا في بيت المقـــدس ومجموعة مناسك يتفقون عليها مثلا.

﴿ **فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ** ﴾

أنت لا تملك ايها الرسـول سـوى البلاغ وليس لهـؤلاء حق في ان ينــازعوك أو يناقشــوك فيما أمــرك به الله ، خصوصا في المناسك ، وفي هـذا نهي حتمي عن الخـوض في مثل هذا الجدل.

﴿ **وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ** ﴾

انك على هـدى ، تعـرف الغاية وتعـرف أيضاً الطريق المستقيم إليها ، فلا تلتفت

الى جـدلهم ونـزاعهم ، وأمعن في طريقك داعيا الى الله سبحانه.

[68] ﴿ **وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ** ﴾

لا تحاول ان تـورط نفسك في الجـدال العقيم معهم ، بل اتـــركهم الى ربهم فهم مســئولون امامه ، وليســوا أمامك الا بمقدار الدعوة والبلاغ.

[69] ﴿ **اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾

إذا وضع الإنســــان الله مقياسا له وانه رقيب عليه ، فـان الخلافـات سـوف تتبـدد وتنتهي ولعل الآية تـدل أيضا على ان هنــاك اختلافــات لا تســتدعي الصــراع ، بل ان الإنسان هو الذي يسبغ على هذه الاختلافات الطبيعية لون العداء.

[70] ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللـهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّـماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ** ﴾

ان الله يعلم كل ما يجري في السـماء والأرض ، وكل شـيء عنـده مكتـوب في اللـوح المحفـوظ الـذي يسـميه القرآن هنا بالكتاب ، وهذان الامران ــ علم الله وتسـجيله للاحداث ــ يمثلان موعظة بليغة للإنسـان إذا التفت إليهما جيــدا ، حيث يــراقب جميع أقواله وأفعاله ، ومعتقداته ، فيعمل على إصلاح شؤونه ، ويبتعد عن كل انحراف يجـرح فطرته.

﴿ **إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ** ﴾

بالرغم من ان الإحصاء الـدقيق في اللـوح المحفـوظ فــوق تصــورات البشر الا انه بــالرغم من ذلك على الله سهل يسير.

ان الأفعال تطبع اثارا لا تمحى في صحائف شـتى ، لا يقرأها الا أصحاب

العلم .. وكلما زاد العلم تقـــــــدما كلما توغل في معرفة الآثـار الـتي تخلفها الظـواهر .. وأبـرز مثل لـذلك المـرض فانه يخلف آثـاره على كل جــوارح الفــرد. وعلى نظــام دورته الدموية ، وشـــبكة غـــدده ، وافرازاتها ، ومختلف انسـجة جسـمه. الا ان علمـاء الطب يختلفـون من عصر لعصر في قـدرتهم على اكتشـاف المـرض من خلال تلك الآثار ، فمنهم من يكتشـفها من النبض ودقـات القلب ، أو من لـــون البشـــرة أو من خطـــوط الكف ، ومنهم من يكتشفها بالموجات الكهربائية المنبعثة من حركة القلب أو الــدماغ أو من تحليل الــدم والافــرازات. وهكــذا تجد ان التـأثيرات مكتوبة على لوحة الطبيعة ، وانما الاختلاف في القدرة على قراءتها.

وهكـــذا كل أعمالنا تكتب على عشـــرات الألـــواح ، وتتجلى يوم القيامة أمامنا فتعقل ألسنتنا عن الإنكـار .. الا فلتستعد لذلك اليوم الرهيب الذي تبلى فيه السرائر.

﴿ **ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾ :

[71] ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ ما لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُلْطاناً** ﴾

اي انهم يعتقــدون ان بامكــانهم ان يفلتــوا من قبضة الحق ، ومن نطاق المسؤولية عبر عبادة غير الله الـتي ما انـــزل بها من ســـلطان ، فلم يعط إذنا صـــريحا بيّنا لهم بعبادتهم.

﴿ **وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** ﴾

ان تتعبد بعلم هذه حجة قطعية وفي غـير هـذه الحالة لا بد ان تتعبد باتبـــاع من تعـــرف يقينا ان الله جعله وليا عليك ، اما ان تتعبد بلا علم ولا شــريعة ، فعبادتك باطلة ، وعملك هباء.

﴿ **وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** ﴾

اي ان هذه الأصنام لن تكــون المنتصــرة لهم من الله سـبحانه إذا أخـذهم ، فهـذه الأصـنام الـتي تعبد لن تخلص نفسها فكيف تخلص الآخرين.

[72] ﴿ **وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَـرَ يَكـادُونَ يَسْـطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا** ﴾

حينما يسـمعون آيـات الله تبـدو على وجـوههم آثـار الاستنكار والرفض ، عميقة و شـديدة الى درجة يظن فيها الناظر انهم يهمون بالبطش بمن يتلون عليهم تلك الآيـات ، وكأن هؤلاء لو لم تتلى عليهم هذه الآيات سـيكونون في حل من القيام بمسؤولياتها.

﴿ **قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَـدَهَا اللـهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾

ان انحرافكم هـذا يـؤدي الى النـار ، وإذا كـان مجـرد إنذارهم بالنار لا يعجبهم ولا يستطيعون تحمله فيا ترى هل ان النار نفسها تعجبهم ، ويمكنهم احتمال حرها؟!

[73] ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ لَنْ يَخْلُقُـوا ذُبابـاً وَلَـوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُّبابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾

كما هو ثـــابت علميا ان الـــذباب إذا أكل شـــيئا فأنه يتحول بسرعة عبر عدة تفاعلات كيمياوية الى مواد أخرى تسـتفيد منها هـذه الحشــرة ، ويســتحيل آنئذ إعادتها من جديد ، وهكذا يكون عجز البشر ظاهرا إذ انهم لا يقــدرون على استعادة ما يأخذه الذباب عنهم ، اضافة الى ان حجم الذبابة صغير ، بحيث لا تسـتطيع أدق الآلات ان تسـتخلص المـــواد من جوفها ، علما بـــأن المـــواد الســـكرية ، والكربوهيدراتية والبروتينية تتكـون من مـادتين رئيسـيتين هي : الاوكسجين والكربون فاذا تحللت هذه

المـواد في بطن الذبابة الى موادها الاولية ، آنئذ يسـتحيل على البشر ان يعيد العناصر الاولية الى مادة.

وأخيرا فالقرآن يؤكد ــ المـرة تلو الاخـرى ــ على ان الطـــاغوت لا قـــوة له الا في النفـــوس المريضة ، فقد يضــخمه اتباعه حــتى يصــير عنــدهم ربهم الأعلى ، وقد يقزمونه حتى يصيرا حقر من الذبابة.

ما قَدَرُوا اللهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ إِنَّ اللـهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ (74) اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللـهَ سَـمِيعٌ بَصِـيرٌ (75) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللـهِ تُرْجَـعُ الْأُمُـورُ (76) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْـرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ (77) وَجاهِـدُوا فِي اللـهِ حَـقَّ جِهـادِهِ هُـوَ اجْتَبـاكُمْ وَما جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْـلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَـهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُـوا شُـهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكـاةَ وَاعْتَصِـمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78))

هكذا يصطفي الله الدعاة اليه

هدى من الآيات :

في سياق الآيات التي جاءت في سـورة الحج يـذكرنا ربنا تعالى بأسمائه الحسـنى الـتي لما عرفنا اسـما جديـدا منها كلما ازددنا ايمانا بالله ومعرفة به وبما خلق ، وكلما ازداد الإنسـان معرفة بالخـالق والمخلـوق كلما كـان أكـثر استقامة وهدى.

ان المحور الاساسي الـذي تلتقي فيه كل الخطـوط ، هو توحيد الله ومعرفة أسمائه الحسنى ، لذلك فان الآيات الاولى من هذا الدرس تؤكد مجددا على أسماء الله تبارك وتعالى ، ان من الواجب على العباد ان يعرفوا خـالق هـذا الكون ، وموجد هـذه الحيـاة ، ولكنهم لم يقـدروا الله حق قدره إذ عدلوه بخلقه.

ان الله ليس لا يقــاس فقط بالأنــداد ، بل لا يقــاس حـتى بتلك القـوى الـتي هي أعظم من الأنـداد كالملائكة والرسل الا ان من النــاس من جهل الله ولم يقــدره حق قدره ، فقاسه بالطغـاة فعبـدهم ، ومنهم من أشـرك معه الملائكة فتوجه إليها ، ومنهم من عدله برسله.

ان الله هو الـــذي يصـــطفي من الملائكة رسلا ومن الناس لينقلـوا شـريعة الله ورسـالته الى النـاس ، ويقوما فيهم بأمره في الوقت الذي يحيط بهم سمعا وبصـرا دون ان يستطيعوا التقول عليه سـبحانه وإذا عرفنا الله معرفة حقيقية فــان جوارحنا وجوانحنا تهفو الى عبادته قربة له ، لان من يعــرف الله ســبحانه يتصل بنــوره ، ومن يتصل بنــوره ينعكس ذلك على كيانه كله ، فينــدفع الى مرضــاة ربه بصورة عفوية.

فجــــوهر العبـــادة إذا المعرفة ، وإذا تمت المعرفة اتصـلت روح الإنسـان بنـور الله ، وتحـركت جوارحه في طاعة الله بصـــورة عفوية ، لـــذلك يأمرنا الله بـــالركوع والسـجود وفعل الخـير ، ثم يأمرنا بحمل رسـالة السـماء الى الحياة.

ان الإنسان الذي يجد حلاوة الايمان في قلبه ويعــرف حقيقته وفوائـــده الجليلة ، ينبغي له ان ينـــدفع في توجيه الآخرين الى الايمان ، وبيان فوائده ومنافعه لهم ، وكـذلك يأمرنا سبحانه بالجهاد فيه حق الجهاد ، انك بقـدر معرفتك بالله يكـــون جهـــادك وتضـــحيتك في ســـبيله ، لأنك كلما ضــحيت في ســبيله وأنت عــارف به كلما شــعرت بــان تضحياتك أقل واحقر من مقام ربك الأعلى.

ثم يعـــدد ربنا ســـبحانه بعد ذلك نعمه علينا كمجتمع فيقول : ايها المسلمون أنتم مجتمع فاضل ، اختـاركم الله لتحملوا رسالته الى الناس جميعا ، فيجب ان تكونوا كذلك «ان الـــدين يسر لا عســـر» ، «**وَما جَعَـــلَ عَلَيْكُمْ فِي الـــدِّينِ مِنْ حَــرَجٍ**» ومن ثم فـــأنتم مجتمع قائد لســـائر المجتمعــات مثلما كــان الرسـول قائـدكم وأخـيرا فــان مجتمعكم يحمل تجربة جهادية منذ عهد إبـــراهيم (ع) قبل خمسة آلاف عـام أو أكـثر حيث ابتـدأ المسـيرة التوحيدية الجديـدة في العــالم ، فعليكم ان تقيمـوا الصـلاة وتؤتـوا الزكــاة وتعتصــموا بالله وتتمســكوا بحبلــة. (كتــاب الله ورسـوله خلفائه بمعـنى آخر شـريعة الله وامـام مؤيد من تلك الشــريعة) وآنئذ تكونـون قد اخلصــتم عبــادتكم لله ، مولاكم ونصيركم «**نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**»

بينات من الآيات :

ما قدروا الله :

[74] ﴿ **ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللـهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾

ما قـدروا الله حق قـدره بـان قاسـوه بعبـاده ، ولم يعبدوه حق عبادته ، وكل الفسـاد والضـلال والـويلات انما نشأت بسبب عدم معرفة الله حقا.

ما هو الفرق بين القوة والعزة؟

يبـدو ان الفـرق بين القـوي والعزيز هو ان القـوي يسـتخدم ـ بسـبب أو آخر ـ قوته في السـيطرة على الآخـرين ، ولكنه ليس بعزيز ، اما إذا كـان قويا واسـتخدم قوته وقدرته في الساحة الاجتماعية ، فآنئذ يسمى عزيـزا اي مرهوب الجانب ، والله سبحانه كـذلك الا انه لا يقـاس بخلقه فهو قوي مطلق القوة ، وعزيز يستخدم هذه القوة في تـدبير شـؤون الخلق ، فلا يتصـور أحد انه قـادر على تحـدي الله أو ان باسـتطاعته بعد ذلك ان يفلت من عقابه ، وعموما فان القوة والعزة توحيان بضرورة التقـوى حيث يعاقب الله من لا يقدّره حق قدره.

رسل المسؤولية :

[75] ﴿ **اللهُ يَصْـطَفِي مِنَ الْمَلائِكَـةِ رُسُـلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾

ان الله سـبحانه وكما جـرت سـنته لا يعـذب قوما من دون ان يرسل إليهم رسولا حتى ولو لم يقدروه حق قدره ، «**وَما كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـولاً**» ، فالله وقبل كل شـيء يصـطفي رسلا من الملائكة ومن أهل الأرض ، فيرسل بالوحي هؤلاء الى هـؤلاء ، فرسل الله في الأرض هم رسل المسـؤولية ، وهـذه الآية تـوحي بـان رسل الله سواء كانوا ملائكة أو بشرا هم على درجات.

﴿ **إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾

وعند ما يصـطفي سـبحانه من الملائكة ومن النـاس رسلا فانه لا يتخلى عن عبـاده ، بل هو سـميع بهم وبصـير بما يعملون ، يدبر أمورهم ، ويسـجل أعمـالهم ، ويعلم ما في سرائرهم وضمائرهم ، وان اصطفاءه للرسل انما يتم بعلمه ، وبسمعه وبصـره فلا يكـون عبثا ، ولعلنا نسـتوحي من قوله سـبحانه : «**وَمِنَ النَّاسِ**» ان الله يصـطفي من المؤمنين من يحمل الرسالة ، فهنـاك الرسـول ، ورسـول الرسول ، وهكذا ودليلنا على هذه الفكرة قوله تعـالى في آخر آية من هــذا الـــدرس ، حين يتحـــدث عن المجتمع الاسلامي : «**وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**» وآية أخرى يقول فيها سبحانه : ﴿ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْـرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ** ﴾ فالله سبحانه يختار من سائر عبيـده ، من يحمل الكفــاءة العلمية والعملية والقيــادة ، ويحمله مسئولية نقل رسالته.

[76] والله ســبحانه يحيط علما بمن يصــطفيهم من الرسل فلا يقـدرون على مخالفته ومعصـيته ، ونقل مـالا يرضى من القول الى الناس وانه لضـلال مـبين ان نقيس ربنا بمن يجتبيهم من رسله الذين :

﴿ **يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ** ﴾

ان علم الله شامل لرسـله أيضا ، فهو معهم ويعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

﴿ **وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** ﴾

أمور الأنبياء وأمور النـاس ، وحينها يأخذ للمحسن من المسيء ، ويجازي المحسن بإحسانه ، والسيء بإساءته.

[77] ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا ارْكَعُـوا وَاسْـجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا**

الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

من هـذه الآية وما بعـدها يلخص الله السـورة مجملة كما انه يذكر الخلاصة التي يريد طرحها.

هذه الآية تبين مراحل الايمان وهي :

1 ـ الخضوع ، ودليله الركوع لله.

2 ـ الخشوع بكل الجوارح ، والشـعور بالحقـارة امـام الله ، ودليلها السجود.

3 ـ استمرار الخضوع والخشـوع والاسـتقامة عليهما ، وهذا هو معنى العبادة.

4 ـ العطـاء المسـتمر سـواء بالإنفـاق أو العلاقـات الحسنة أو .. أو .. ، وهذا معنى قوله : **وَافْعَلُـوا الْخَيْـرَ** .

ونتيجة هذه السلسلة من الأوامر هي سعادة الإنسـان ، ووصــــــوله الى غاياته وتطلعاته ، وهو قوله : **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** .

وهكـذا جـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام أمـير المؤمـــنين في وصـــيته لابنه محمد بن الحنفية رضي الله عنه :

«يا بني لا تقل ما لا تعلم ، بل لا تقل كلما تعلم ، فـان الله تبـارك وتعـالى قد فـرض على جوارحك كلها فرائض ، وأضـاف بعد ذكر هـذه الآية المباركة : فهذه فريضة جامعة واجبة على الجوارح». [1]

وعن الخــير الــذي أمرنا به في خاتمة الآية جــاء في الحديث النبوي :

---

(1) نور الثقلين ج 3 ص 520.

«رأس العقل بعد الايمــان التــودد الى النــاس واصطناع الخير الى كل بر وفاجر» [1]

الاجتباء وحق الجهاد :

[78] **وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ**

هنالك علاقة بين الأمر بالجهـاد وقوله سـبحانه : **ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَـدْرِهِ** ، وهـذه العلاقة هي انه بمقـدار معرفتك بالله يكون جهادك في سبيله.

 هُوَ اجْتَباكُمْ

اي اختاركم ، ويبدو هنا ان الاجتبــاء هو درجة أقل من الاصطفاء ، لان الله قـال عن الرسل بأنه يصـطفيهم ، اما المؤمنين فيجتبيهم ، وربما السبب ان الله يصطفي رسله بـالغيب اما المؤمــنين فانه يجتــبيهم إذا ما تــوافرت فيهم الشروط المطلوبة وحسب السنن الجارية.

ان الايمان مستوى رفيع لا يصل اليه كل إنسان ، فاذا ما وصل اليه فلا بد ان يعـرف ان الله قد وضع على عاتقه المســؤولية بعد ان اجتبــاه ، والاجتبــاء لا يكــون بالإخبــار المباشر ولكن بالقذف في القلوب والإلهام.

من هنا جـاء الحـديث المـأثور عن الامـام الرضا (ع) حين سأله المأمون العباسي عن زيد بن علي (ع) فقـال : كان زيد والله ممن خـوطب بهـذه الآية : «**وَجاهِـدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ**». [2]

---

(1) المصدر ص 521.

(2) المصدر ص 522.

﴿ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

احكـام الإسـلام احكـام سـهلة ، فالـذين لا يصـلون يتصورون ان الصـلاة صـعبة ، ولكن الـذين يـؤدون الصـلاة بخشـوع لله فـإنهم ليس فقط يرونها سـهلة ، بل يجـدون فيها اللـــذة أيضا ، وقد يسر الإســلام كل العبــادات فلم يجعل من الصـلاة حركـات رياضـية صـعبة مرهقة كتسـلق الجبـال انما جعلها خفيفة ، وكـذلك فانه لم يجعل الصـيام عملية تجويع متعبة ، وانما هي سويعات صبر وبعدها نعـود الى ما كلنا ومشاربنا ، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فان الإسلام يخفف بعض الأحكام في الحرج ، حيث لا يستطيع الإنسان ان يؤدي الفرض كاملا.

جاء رجل الى الامام الصادق (ع) وقال : جرح اصبعي فوضعت عليه مرارة حتى ينـدمل الجـرح ، فكيف أتوضـأ؟ فقال الامام (ع) : هذا وأمثاله يعرف من القـرآن ، ان الله سـبحانه وتعـالى يقـول : «**وَما جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**» امسح عليه.

صفات القائد :

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾

ان هـذا الـدين له جـذور تاريخية ومجد تليد ، ابتـدأه أبوكم إبراهيم (ع).

﴿ وَفِي هـذا لِيَكُـونَ الرَّسُـولُ شَـهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

اي في هذا الدين الاسلامي تكون مسئولية الرسول ، حيث من مهمة الرسـول ان يصـنع منكم قـادة للاجيـال وشـهداء على تطـبيق الرسـالة ، وهـذا المقطع من الآية يجسد لنا الطموحـات الـتي يجب ان نسـعى إليها ، فلا تجعل هدفك ان تكون فردا كسائر

الناس ، بل اجعل هدفك ان تكون قائدا ، وشاهدا عليهم.

قد يســـمى القائد في الإســـلام إماما ، لأنه أول من يجب عليه تطبيق الدين فيؤمه الناس ، واما سبب تســمية القائد بالشـــهيد فلأنه يكـــون شـــاهدا على النـــاس في تطبيقهم للرسالة.

 فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ

إنّ أهم صفات القيادي :

1 ـ اقامة الصلاة.

2 ـ إيتاء الزكاة.

3 ـ الاعتصام بالله والتمسك بحبله.

هــذه الكلمــات الثلاث هي احكــام اجتماعية ، حــتى الصـــلاة بـــالرغم من أنها علاقة بين الفـــرد وربه الا أنها وخاصة الجمعة والجماعة تركز الـــــــــروح الاجتماعية ، وعموما فـــان أهم شـــرط يلـــتزم به القيـــادي هو تقوية ارتباطه بالله ، عـــبر إقامته لفرائضه ، اما الزكـــاة فواضح مردودها الاجتماعي ، من سد فقر المعوزين ، والاحساس بآلامهم و .. و .. ، والاعتصام بالله اي التمسك بحبله الذي مـــدّه لخلقه ، وهم أئمة الهـــدى وقـــادة أهل التقى .. وبتلخيص شــديد فــان صــفات الإنســان القيــادي : اتصــال روحي بالله ، وعلاقة حسنة مع الناس ، وخط سليم.

 هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

هــذا المقطع يفسر آية في ســورة محمّد (ص) وهي «**ذلِكَ بِأَنَّ اللـهَ مَـوْلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَأَنَّ الْكـافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ**».

ان الله هو مولانا الــذي نتلقى منه الأوامر بـــاعتزاز ، فنعم المولى هو الله إذ لم يكلفنا فـوق طاقاتنا ولم يتركنا بدون هدى ، ونعم النصير ينصرنا على أعدائه وأعدائنا.

سورة المؤمنون

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة :

عن النبي صلّى الله عليه وآله انه قال :

(من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان ، وما تقربه عينه عند نـزول ملك المـوت)[1].

و عن الامام الحسين عليه السّلام أنه قال :

(من قرأ سورة المؤمـنين ختم الله له بالسـعادة ، إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعة ، وكـان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين)[2].

(1) مجمع البيان ص 98 ، ج 7
(2) نور الثقلين ص 527 ، ج 3

الإطار العام

ما هو الإطار العام للسورة؟

قد نجيب بسرعة : الإطار العام لسورة المؤمنـون هو الايمان ، أو صفات هذه الطائفة المتمـيزة من البشر وهم المؤمنون.

بلى ولكن يبقى السـؤال عن علاقة موضـوعات هـذه السورة بهذا الإطار العام؟ دعنا نذكر أولا موجزا منها :

1 ـ مراحل خلق الإنسان (الآيات : 12).

2 ـ ان حركة الشـــمس ، والقمر ووجـــود المطر ، والزرع ، والثمرات ، والانعام.

كل ذلك يخدم حياة البشر (الآيات 17).

3 ـ كـذب قـوم نـوح بالرسل ، وكـذلك قـرون بعـدهم كثيرون ، فاهلكهم الله

باستكبارهم. كما أهلك فرعون وملأه حين كذبوا برسولهم موسى بن عمران (الآيات : 23).

4 ـ ولقد اوى الرب مريم الصديقة وابنها الكريم ربوة ، وأمر الرسل بأكل الطيبات ، والقيام بالأعمـال الصـالحة (الآيات : 49).

5 ـ لقد اغـتر الكفـار بـالنعم الالهية فكـانت عـاقبتهم النار (الآيات : 53).

6 ـ والصفات المثلى للمؤمنين (الآيات : 57).

7 ـ جزاء الكفار في الدنيا (الآيات : 63).

8 ـ موقف النبي من ذلك الجزاء (الآيات : 92).

9 ـ عقاب الكفار في الآخرة (الآيات : 99).

10 ـ مشاهد من يوم القيامة ، وثـواب المؤمـنين فيها (الآيات : 116).

ولعلنا نجد في الجـواب التـالي على هـذا السـؤال ، ليس فقط الرابط بين هــذه الموضــوعات وبين الإطــار العام فيها ، بل وأيضا الرابط بين موضوعات سائر السـور القرآنية الكريمة وبين الاطر العامة فيها ، والجـــــواب هو التـالي : ان القـرآن ليس مجـرد دعـوة للإصـلاح ، بل هو الإصـلاح ذاته ، وليس وصـفة طـبيب ، بل دواء للمـريض ، وشفاء عاجل ، انه ضياء ونور وهدى.

أو ليست حقائق الايمان ظاهرة ، وشـديدة الظهـور ، أو ليس الله خالق السموات والأرض أكبر شـهادة من كل شيء؟!

فلما ذا ــ إذا ــ لا يـؤمن به أكـثر النـاس بـالرغم من حرص أصحاب الرسالات على هدايتهم؟!

لأن القلـوب مريضة ، والعيـون مصـابة ، وفي الأذان وقر ، إن ركـام العقد ، وحجب الغفلة ، وسـحب الكـبر ، والغرور ، والسخرية لا تدع أنوار الحق تغمر القلوب.

وبـــالقرآن يعـــالج المؤمنـــون كل هـــذه الأمـــراض ، وموضوعات السورة هذه تصب في هذا المجرى .. كيف؟ بعد ان حـدد الـذكر ملامح التجمع المـؤمن ، وبيّن انهم هم المفلحـــــــــون ، ذكّرنا بنفسه ، من خلال آياته في خلق الإنسان ، أو ليس أساس الايمان معرفة الـرب؟! ثم عـدد نعمه علينا ، وكيف أنها تحيط بالإنسـان ، وتهـدينا الى ذلك التـدبير الرشـيد في الخلق ، ولكن أو ليست هـذه الآيـات ظـاهرة ، وتشـهد على وحدانية الـرب ، من خلال وحـدة التـدبير؟! بلى. إذا لمـاذا يكفر أكـثر النـاس بـربهم؟ لأنهم مسـتكبرون ، وكيف نعـالج الاسـتكبار؟ انما بمعرفة عاقبة من اسـتكبروا من قبل ، وقـوم نـوح أبـرز شـاهد ، حيث أغرقهم الله بالطوفان العظيم ، وحمل المؤمـنين وحـدهم في الفلك المشحون ، وهكذا عاد وثمود ، وقرون متمادية ، حيث أتبع الرب بعضهم بعضا ، وجعلهم أحاديث.

وهكـذا اسـتكبر الملأ من قـوم فرعـون لما ذكّـرهم موسى ـ عليه السّلام ـ بـربهم ، فـأغرقهم الله في النيل ، ونجى بـــني إســرائيل من الغــرق ، وانــزل على موسى الكتاب فرقانا وضياء.

ان إنقـاذ المؤمـنين دليل رحمة الهية تخصـهم ، بينما الشـيطان يريد ان يغرينا بوساوسه الـتي منها ان الايمـان يضر البشر. كلا .. فهذه مريم وابنها البـارّ ، يؤويهما الـرب الى ربوة ذات قرار معين ، ويـأمر الأنبيـاء بـان يـأكلوا من الطيبــات ، ويعملــوا صــالحا ، ويعبــدوا ربهم الواحد ، ولا يتفرقوا شيعا. الا ان موقف الكفار من النعم ،

بل ومن رسـالات الله كـان خاطئـا. حيث تقطعـوا أمـرهم بينهم زبرا. لماذا؟ لأنهم اغتروا بالنعم وفرحوا بها وزعمــوا ان ذلك دليل سلامة خطهم وهم لا يشعرون.

ومن أبرز صفات المؤمنين : انهم لا يغـترون بـالنعم ، ولا بما يؤتون من الصدقات ، فما جـزاء أولئك الا العـذاب المباغت الذي يـنزل بمـترفيهم ، فـاذا هم يجـأرون ، وذلك جزاء استكبارهم.

ويعالج القرآن الحكيم في هذا السـياق (51) سلسـلة من الأمــراض الـتي تصـيب القلب بسـبب تـواتر النعم ، ويعطي بصــائر ينظر من خلالها المؤمنــون الى الحيــاة ، ومن نعم الله فيها ، فلا يزدادون بها الا ايمانا وتسليما.

ثم يعود ويـذكرنا بنعم الله علينا (78) ويخص السـياق جانبا هاما من دروس آخر السورة بالايمـان بـالآخرة ، لأنه بذاته جزء من الايمان ، وفي ذات الوقت ، مكمل للايمـان بالله ، وشرط للايمان بالرسالات.

فالله يحيي ويميت ، ويدبر الحياة ، وهو بالتـالي قـادر على أن يعيد الإنسان بعد ما كان ترابا وعظاما.

ويساعدنا الذكر الحكيم على تجاوز عقبات في طريق الايمــان كالجهل ، والغفلة ، والفسق ، والتــأثر بضــلالات الغواة (84).

ومن تلك العقبات الـزعم بـان الله شـريكا ــ سـبحانه وتعالى ـ والقرآن يذكرنا بسخافة هذا الزعم (91).

ولكي يتمـيز المؤمنـون عن الكفـار يـأمر الله رسـوله بان يستعيذ بالله من العذاب الذي يـنزل على الظـالمين ، ويأمره بالسـيرة الحسـنة ، وبالاسـتعاذة بالله من همـزات الشياطين ، بل وحتى من مجرد حضورهم (93).

ولعل كل ذلك يخـــــــــدم حالة التميّز المطلوبة بين المؤمن ، والمغوين الذين يسحرون النـاس ، ولا يـدعونهم يؤمنون بربهم الكريم.

ولا بد ان نحذر عاقبة هؤلاء الذين ينـدمون عند نـزول الموت بهم ، ويطلبون العـودة الى الحيـاة حـتى يصـححوا مسيرتهم ، ويأتيهم الجـواب : كلا .. بل سـوف يبقـون في البرزخ حـتى ينفخ في الصـور ، وانئذ لا أنسـاب بينهم ، ولا هم يتسـاءلون عنها ، ولعل الاعتمـاد على الأنسـاب عقبة في طريق الايمان (99).

ويحذرنا الرب من الموازين. حيث يخسر الـذين خفت مـوازينهم ، بينما يفلح المؤمنـون الـذين تثقل مـوازينهم ، ويبـدو ان ذلك أعظم وسـيلة لتربية النفس. حيث يسـعى المؤمن للتخلص من النار التي تصيب أولئك الـذين كـذبوا بآيات الله ، واعترفوا بشقائهم ، وطلبوا العودة الى الـدنيا ، فرفض طلبهم وأسـكتوا ، أو ليسـوا كـانوا يسـخرون من عبـــاد الله حين يـــدعون ربهم ، فنســـوا ذكر الله (بتلك السـخرية)؟! فأولئك المؤمنـون هم الفـائزون بصـبرهم (102).

ويبدو ان السياق يعالج ــ بعدئذ ــ حالة التسـويف في النفس والتي هي الاخرى عقبة في طريق الايمان.

فاذا بسائل يقـول : كم لبثتم في الـدنيا؟ فلا يعرفـون حساب بقائهم ، ولكنهم يعتبرونه يوما أو بعض يـوم ، بلى. لقد لبثـوا قليلا في الــدنيا (بالقيــاس الى زمن الآخــرة) ولكنهم لم يعلموا ذلك والا لما استهانوا بحيـاتهم الآخـرة (112).

ويعالج العبثية التي يزعم أصحابها ان الحياة بلا هـدف ، ويـذكرهم بـأنهم سـيرجعون الى ربهم للحســاب ، وانه تعــالى الــرب الملك الحق ، فلا عبث ولا لعب ولا لهو في الخلق.

ويــذكرنا الــرب بالتوحيد ، وان حســاب المشــركين عسير عند ربهم ، وانهم لا يفلحون ، وتنتهي الســورة بفتح باب التوبة والدعاء ، الى الله وهو ارحم الراحمين.

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (5) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (9) أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (11)

قد أفلح المؤمنون

هدى من الآيات :

تبين هذه الآيات ابـرز صـفات المؤمـنين والـتي تمتـاز بأنها سلوك متأصل في شخصيتهم ، وليست مجرد اعمال عارضة ، والفرق بين السلوك والعمل هو :

1 ـ ان العمل يمـــارس حينا ، ويـــترك حينا ، بينما السلوك يبقى مستمرا مع اختلاف الظروف والأحوال.

2 ـ ان الســلوك نـابع عن قناعة فكرية ، بينما العمل قد لا يكون كـذلك ، فانه يخضع لمختلف النيّـات والعوامل النفسية ، فلربما يصـدر من شـخص عمل ما في وقـتين ، ولكن بنيتين متناقضـتين ، فالصـلاة تكـون مـرة عبـادة لله ومرة اخرى رئاء الناس.

اما الصفات المثلى التي يتحلى بها المؤمنون فهي :

1 ـ الخشوع وهو الايمان حقا.

2 ـ الاعراض عن اللغو.
3 ـ العطاء (الزكاة).
4 ـ تحديد الشهوات.
5 ـ رعاية الأمانات والعهود.
6 ـ المحافظة على الفرائض والحدود.

ولا شك ان هذه الصـفات سـوف تنتهي بصـاحبها الى جنة الفردوس بفضل الله.

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ان فلاح المؤمــنين ووصــولهم الى ســعادتهم يكــون (ببسم الله) لا بذاتهم.

صفات المؤمنين :

1 ـ الخشوع لله :

[1] والخشــوع هو جــذوة الايمــان الــتي تلتهب في القلب ، وينتشر شــعاعها الى ســائر أنحــاء الســلوك ، فالإيمان حقيقة هو الخشوع الذي يعني تسليم النفس الى ارادة الله من خلال الالــتزام برســالته ، واطاعة أوليائه ، فقد يصــبح الإنســان عالما بشــيء ولكنه لا يــؤمن بــه. إذ الايمــان ليس مجــرد العلم ، بل المــؤمن هو الــذي تسـلم نفسه للمعرفة ، وتخشع للحق.

والنفس الخاشــعة لا تتكــبر ، لأنه لو وجد في قلب الإنسان ولو بمقـدار حبة الخـردل فانه سـيمنع الخشـوع ، كما ان النفس الخاشعة ابعد ما تكون عن القساوة ، لأن

القساوة تجعل النفس كالصخرة ، لا ينبت عليها الزرع ، ولا تستقبل أمواج النور.

اذن الخشوع هي الصّفة الاساسية التي يتحلى بها المؤمنون ، بل هو الايمان ذاته.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ ﴾

ان فلاح المؤمنين ، ونيلهم سعادتهم يكون بتأديتهم الصلاة بخشوع ، لان الخشوع يتجلى عند الصلاة أكثر من أيّ وقت آخر ، ولهذا كان الامام الحسن (ع) إذا توضأ لها اصفر لونه ، وتغيّرت ملامحه حتى ينكره الذي يعرفه ، وقد أمر الدين بالخشوع القلبي دون الظاهري في الصلاة ، فقد جاء في الأثر عن رسول الله (ص) انه قال :

«ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»

ونهى الدين عن العبث أثناء الصلاة لأنه يتنافى وخشوع القلب قال أمير المؤمنين (ع) :

«ليخشع الرجل في صلاته ، فانه من خشع قلبه لله عز وجل خشعت جوارحه ، فلا يعبث بشيء» [1]

2 ـ الاعراض عن اللغو :

[3] لان القلب المؤمن خاشع فهو يعي مسئوليته ، أو ليس يسلّم للحق ، ويعرف أنه سيسأل عن كل صغيرة وكبيرة ، ويحاسب عليها ، ويعلم أن الحياة جدّ ، لا عبث فيها ، ولا لغوا بينما الذي لا يعرف ان وراء حياته جزاء ، وانه يجب ان يكيف حياته على هدى ذلك الجزاء ، فانه يتخذ الحياة لهوا ولعبا.

---

(1) نور الثقلين ج 3 ص 528.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾

الذي يكون لديه مـريض في حالة خطـيرة لو مر على جماعة يلعبــون فهل ســيقف معهم؟ كلا .. وهكــذا حــال المؤمن فانّ قلبه مهموم بأهدافه ومسئولياته في الحياة ، مما يجعله يـترفع عن صـغائرها وتوافههـا. وحـتى لو جـاءه اللغو يسعى فانه لا يعـيره أي اهتمـام ، ولا يقـول القـرآن عنهم : انهم لا يفتشــون عن اللغو ، بل قـال «**عَنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُــونَ**» اي لو حــاول أحد ان يــؤثر عليهم ، فهم لا يتأثرون به وبلغوه.

وقد فسر اللغو في كلمــــات أئمة أهل الـــبيت (ع) بالاصغاء الى ما لا يحل الإصغاء له ، مما يشـمل الفحش ، والغيبة ، والخوض في آيات الله.

و جاء في حديث مأثور عن أبي عبد الله الصـادق (ع) في تفسير الآية :

«**ان يتقــول الرجل عليك بالباطل ، أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه الله**»

وجاء في حديث آخر تفسير اللغو بالغناء ، والملاهي ، وفسر في حديث آخر بالاستماع الى القصّاص ، اما الامام أمير المؤمنين (ع) فيقول :

«**كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو**» [1]

3 ـ العطاء :

[4] **﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ ﴾**

والزكاة التي يذكرها القرآن هنا ، ليست مجرد العشر الذي يعطيه المسلم على تسـعة أشـياء هي الغلاة الأربع ، والانعام الثلاث ، والنقدين ، وانما كل زكاة ،

---

(1) المصدر ص (529).

وزكـاة كل شـيء بحسـبه ، فزكـاة العلم نشـره ، وزكـاة الجاه بذله ، وزكاة المال إنفاقه ، وزكاة الصحة النشاط.

ان نظـرة المؤمـنين الى الحيـاة تنبع من خشـوعهم للحق المتمثل في رسـالات ربهم ، فلأنهم خاشـعون لله يعملون بشرائعه ، ويشكرون ربهم على نعمائه بالإنفـاق ، لأنهم يـرون كل نعمة منه ، وكلمة «فـاعلون» تختلف عن معطون. إذ توحي باستمرار الإنفـاق ، وانه سـلوك لا حالة طارئة ، اي ان فعلهم وعملهم هو الزكـــاة ، والواقع ان الزكاة قرينة الصلاة في القرآن دائما ، ولا تقبل الصلاة الا بها ، وقد أكد الإسـلام عليها ، و جـاء في الحـديث عن الامام الصادق (ع) :

«**من منع قيراطا من الزكاة فليس هو بمـؤمن ، ولا مسلم ، ولا كرامة**» [1]

4 ـ تحديد وتوجيه الشهوات :

[5] لقد خلق الله الإنسـان مـزوّدا بشـتى الغرائز ، وليس ذلك الا ليسـتفيد منها ، ولكن بالشـكل المناسب ، والمؤمنـون وحـدهم الـذين يسـتثمرونها لصـالحهم ، لأنهم يهيمنـون على أنفسـهم ، ويكبحـون جمـاح الشـهوات بالخشوع والتسليم للحق.

﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ** ﴾

وقد يعـني الحفظ هنا بالاضـافة للالـتزام بالشـريعة ، وتوجيه الغريـزة وفقها ، الحفـاظ على فـرج الإنسـان من الناحية الصحية أيضا ، وذلك بعـدم الإفـراط في الشـهوة ، والالتزام بالمنافذ الشرعية لها.

[6] ﴿ **إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ** ﴾

---

(1) المصدر ص (529).

من الإماء.

 فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

اي غير مؤاخذين عند الله ، لأنهم يصـرفون شـهواتهم في محلها المناسب ، ولعل في الآية اشـــــارة الى خطأ الابتعـاد كليّا عن الشـهوات ، وان وسـاوس الشـيطان هي التي تزرع اللوم في افئدة البعض إذا ما رسـوا الشـهوات بقدرها ، وعلى المؤمن الا يأبه بها.

[7] **فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ**

الذين يستحقون الجزاء في الدنيا بالحدود الشـرعية ، وفي الآخرة بالعذاب المهين ، والعادي أو المعتدي : الـذي يتجاوز الحدود.

وفي الآية بيان فسـاد كل اسـتغلال للشـهوة في غـير موردها مثل اســتثارة الشــهوة بـــالنظر الى الاجنبية ، والصورة الخليعة ، والأفلام الجنسـية ، أو باسـتماع قصص الغرام.

اما الشذوذ الجنسي ، والعـادة السـرية (الاسـتمناء) ، ونكاح البهائم ، فان الآية تنطق بحرمتها صراحة.

و جاء في الحديث : عن أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ :

«ابعد ما يكون العبد من الله إذا كـان همه فرجه وبطنه»

و عنه أيضا :

«تحل الفــروج بثلاثة وجــوه : نكــاح بمــيرات ، ونكاح بلا ميراث ، ونكاح بملك يمين» [1]

(1) المصدر ص 530 / 531.

5 ـ أداء الأمانات والعهود :

[8] وعلاقات المؤمنين مع النـاس قائمة على أسـاس الالتزام والمسؤولية ، وليس اللامبالاة ، فـاذا أخـذوا شـيئا من أحد تحول في نظرهم الى كرامة ، تتضرر شخصـيتهم لو لم يردوه إليهم ، وأكـثر من هـذا الـوازع يـدفعهم لـرده الخشوع والايمان خوفا من الله. دافع انساني ودافع ديـني ، لذلك يرعون الامانة والعهد.

والعهد والامانة هما شـيء واحد ، فالإنسـان مسـئول امام الآخرين فيما يأخذ وفيما يقول.

﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ** ﴾

والتعبـير في هـذه الآية دقيق جـدا حيث اسـتخدم القـرآن كلمة «راعـون» فلم يقل : ردوا الامانة وذلك لسببين :

الاول : حتى تشـمل الكلمـتين العهد والامانة ، فالعهد لا يرد لأنه شيء معنوي لا مادي.

الثاني : كلمة «راعون» أدق حتى في موضوع الأمانة من كلمة (الـرد) إذ تـبين حـرص المؤمـنين على أمـوال الآخـرين ، فليس همهم ان تـرد الامانة بأية صـورة ، وانما يظلّون يرعونها ويحافظون عليها ربما أكثر من ممتلكـاتهم الشخصـية حـتى تسـلم الى صـاحبها ، بينما نجد ان أكـثر الناس يكون حفاظهم على ممتلكاتهم الشخصـية أشد من ممتلكات غيرهم.

وهكذا يرعون العهد بالثبات عليه ، وتأكيد الالتزام به ، ومن أعظم العهـود الـتي يرعاها المؤمنـون حق رعايتها ، عهد الولاية. حيث يؤدونها الى أهلها ، وقد جاء في أحاديث آل البيت ـ عليهم السّلام ـ تفسير العهد بالولاية.

6 ـ المحافظة على الفرائض والحدود :

[9] بعد تبيـان هـذه المجموعة من الصـفات يـذكرنا القـــرآن باهمية المحافظة على الصـــلاة ، وربما تختلف الصلاة التي يـذكرها في أول الصـفات عن هـذه الـتي في آخرها ، فبينما الخشوع في الصلاة يعني في ذات الصلاة ، وهو أصل الايمــان وحقيقته ، اما المحافظة على الصــلاة فهي المحافظة على حدودها ، وهـذا يوضح ما للصـلاة من انعكاس على جميع أبعاد الحياة لدى الفرد ، فأيّ انحــراف في ايّ بعد يؤثر على صلاته ، وهكذا تعني المحافظة عليها الالتزام بسائر الحدود الشـرعية ، والمؤمنـون لا يتهـاونون في الأحكــام الشـــرعية بحـــدودها ، وشـــرائطها ، باسم جوهرهـا. فلا يـتركون الصـلاة مثلا بحجة ان الخشـوع هو الأصل فيها ، فاذا تحقق فلا أهمية للركوع والسـجود ، كما يتصور ذلك بعض المتصوفة ، إذ تراهم لا يحترمون الحدود الشـرعية بـزعم انها وسـائل للوصـول الى الحق ، وانهم يصـلون اليه عـبر وسـائل اخـرى ، وانهم إذا بلغـوا الحق واتصـــلوا به ســقطت عنهم التكــاليف لان الله يقـــول : «**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَـكَ الْيَقِينُ**» وهم ـ في زعمهم ـ قد أوتوا اليقين.

كلا .. المؤمنـــون حقا هم المحـــافظون على حـــدود الصلاة ، ولكنهم لا يلتزمون بالحدود فقط بعيدا عن جـوهر الصــلاة ، وســائر العبــادات ، فهم من جهة في صــلاتهم خاشـعون مراعـون لجوهرها ، وهم من جهة اخـرى على صلواتهم يحافظون ، ويراعون حدودها.

﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ** ﴾

وراثة الفردوس :

[10] لماذا يؤمن الإنسان؟

لأنه يعــرف ان ايمانه ســينتهي به الى جنة عرضــها كعرض السماوات والأرض ، ولهذا يأتي الحـديث بعد هـذه الصفات عن الجنة.

﴿ أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ ﴾

ولهذه الآية معنيان :

الأول : ما جــاء في الأحــاديث من ان لكل إنســان بيـتين. أحـدهما في الجنة ، والآخر في النـار ، فمن أصـبح من أهل النار ورث المتقون بيته في الجنة ، فقد روي عن النـــــــبي (ص) :

«**ما منكم من أحد الا له مـــنزلان ، مـــنزل في الجنة ، ومـنزل في النـار ، فـان مـات ودخل النـار ، ورث أهل الجنة منزله**» [1]

الثــاني : انهم يرثــون الفــردوس وهي أعلى مــراتب الجنة من دون عمل يذكر ، الا انتسابه للجنة ، كالذي يرث مال أبيه لا بعمله وكده ، بل لانتسابه اليه.

والله ســبحانه وتعــالى يريد من الإنســان ان يتصل بسبب الى الجنة ، حتى إذا مات ورثها.

﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴾

---

(1) المصدر ص 532.

وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْـغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْـغَةَ عِظامـاً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَـرَ فَتَبـارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُـونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (16) وَلَقَـدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (17) وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّـماءِ مـاءً بِقَـدَرٍ فَأَسْـكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهـابٍ بِـهِ لَقـادِرُونَ (18) فَأَنْشَـأْنا لَكُمْ بِـهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيـلٍ وَأَعْنـابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِـهُ كَثِـيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ

---

12 [سلالة : السلالة اسم لما يسلّ من الشيء وتسـمى النطفة سـلالة والولد كذلك والجمع سلالات وسـلائل ، فالسـلالة صـفوة الشـيء الـتي يخرج منها.

طُـورِ سَـيْناءَ تَنْبُتُ بِالـدُّهْنِ وَصِـبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعــامِ لَعِبْــرَةً نُسْــقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِـيرَةٌ وَمِنْها تَـأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)

فتبارك الله أحسن الخالقين

هدى من الآيات :

السبيل الى الايمـان معرفة الله ، معرفة تغمر أرجـاء النفس وتبلغ أعماقها ، ولكن كيف يتســنى للإنســان وهو المخلــوق الضــعيف ، المحــدود في عمله وقدراته ، ان يعرف الخالق القوي العزيز؟!

اننا لا نستطيع ان نتعرف على الله الا إذا عرّفنا نفسه ، و قد ورد في الـــدعاء(الهي بك عرفتك ، وأنت دللتـــني عليك ، ولو لا أنت لم أدر ما أنت) ولقد عرّف الله سبحانه نفسه إلينا حينما تجلى في آيـات الكـون بما فيها الإنسـان نفسه تارة ، وفي آيات القـرآن تـارة أخـرى ، بما في تلك الآيات ، وهذه من إثارة للعقول نحو أهم المعــارف وأجلّها ، وهي معرفة الله.

ان التفكـير في أطـوار خلق الإنسـان من طينة ، الى نطفة ، الى علقة ، فمضغة ، حتى يصير بشـرا سـويّا. بعد ان ينفخ الله فيه الروح ، ويزوده بالعقل والارادة ، وسـائر الجـوارح وهو يسـير الى المـوت ، وإنّ نظـرة عميقة الى الكون وما فيه من آيات الله تهدينا

الى معرفة الله وهي ـــ بــدورها ـــ تهــدي الى وعي حقيقة الحيــــــاة ، اما حين نفصل معرفة الله عن معرفة الأشياء فانها تظل ألغازا حائرة.

فاذا نظرنا الى حاجة الجسم الى قدر من المواد ، ثم وجدناها جاهزة في دهن الزيتون ، اولا يهــدينا ذلك الى ان هناك مدبرا لهذا الكون.

الا ان جهل البشر وتكبّـره ورجعيته تحجبه عن معرفة الخالق ، كمثل قوم نوح إذ دعاهم رسولهم الى عبادة الله وحده ، فحجبهم عن عبادته ومعرفته ، التكـبر. حيث قـالوا : «**مَا هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّـلَ عَلَيْكُمْ**» ، كما حجبهم التقليد فقـالوا : «**ما سَمِعْنا بِهـذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ**» ، ثم اتهمــوه فقــالوا : «**إِنْ هُـوَ إِلَّا رَجُـلٌ بِـهِ جِنَّةٌ**» ، ولكنه توكل على ربه ، وطلب منه النصر على تكذيبهم إيّاه.

بينات من الآيات :

[12] إذا عــرف الإنســان ربه حينئذ يكــون اتصــاله به أســمى من ذلك الــذي يـؤمن خوفا من النـار أو رغبة في الجنة ، فالإيمـــــان الحق انما هو الـــــذي يكـــون منطلقة المعرفة و القناعة كايمان علي (ع) والذي كان يقــول عنه :

«**الهي ما عبـدتك حين عبـدتك خوفا من نـارك ، ولا طمعا في جنتك ، وانما وجـــــدتك أهلا للعبــــادة فعبدتك**»

والسبيل الى المعرفة بالله هو :

1 ـ التفكر في النفس :

ومن هذا المنطلق يعرّف الله الإنسان حقيقته :

«**و من عرف نفسه فقد عرف ربه**»

فيقول :
 وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ
فالإنسان ينسل من طين الأرض انسلالا ، ومن الطين يحوله الله الى نطفة.
[13] **ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ**
في صـــلب الأب أولا ، وفي رحم الأم ثانياً ، والنطفة هي الماء القليل.
ان التفكر في خلق الإنسـان يهـدينا الى معرفة بعض أســماء الله الحســنى ، كيف خلق الله من الطين الميّت نطفة حية ، وكيف أودعها من صـــلب الى رحم في ذلك الموقع الآمن ، وأمّن له النمو حتى أصبح بشرا سـويا ، ثم ألهمه العقل ، وسخر له الأشياء سبحانه.
ويزعمــون انها الصـــدفة ، وهل يمكن ان تنبثق خلية واحدة بالصـدفة؟! يقـول بعضـهم : ان هـذا الـزعم يشـبه القول ، بان انفجارا في المطبعة ، سبب (صـدفة) صـدور الموسـوعة البريطانية ، بكل ما فيها من علـوم! ويقـول عـالم غـربي آخر ان تطـور الخلية الحية بالصـدفة يشـبه القصة الخيالية التالية :
(ان رجلا كــان يعيش على كــوكب الأرض ، ضــمن المجموعة الشمسية ، ضمن مجرتنا ، وكان بجانب مجرتنا مجـرة اخـرى ، وفي احـدى المجموعـات الشمسـية ، في احدى الكواكب ، وفي أحد الأقاليم نهر به سمكة ، فحـدث صـدفة ان أطلق هـذا الرجل طلقة ، فطـارت من كوكبنا متخطية مجموعتنا الشمســية ، متخطية مجرتنا ، لتــدخل في المجــرة التالية ، من المجموعة الشمســية المعينة ، في ذلك الكوكب ، لذلك الإقليم ، في ذلك النهر ، لتصـيب الطلقة رأس السمكة)!!
[14] **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً**

اي ان النطفة صـــــارت نطفـــــتين من الأب والام ، فتعلقتا ببعضهما وأصبحتا علقة.

﴿ **فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً** ﴾

والمضغة هي مقدار ما يمضغ من اللحم.

﴿ **فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْمـاً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ** ﴾

ويلاحظ ان في الآيات (12 ـ 14) سـبعة افعـال تـبيّن دور الارادة الالهية في التحولات التي يمر بها الإنسـان من كونه طينا حتى يصير بشرا سويا ، وهي (خلقنا ، جعلنـاه ، خلقنا ، فخلقنا ، فخلقنا ، فكسـونا ، أنشـأنا) وذلك حـتى لا يتصور الإنسان ان القانون الطبيعي هو الذي يخلق ، كلا .. بل الله هو المهيمن والمـدبر من فـوق القـانون «**وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ**».

ومن هنا نقول بان أمور الإنسـان بيد الله ، فهو يخضع لتـــدبيره تكوينيا ، فكيف لا يخضع لتــــدبيره تشــــريعيا و ســــــــلوكيا؟! وثمة ملاحظة هامة هي : ان الله في كل مراحل الخلق لم يقل «تبـــارك اللــــه» الا في المرحلة الاخــــيرة ، إذ اعطى فيها الإنســـان العقل ، وهنا يجب ان نجل صاحب هـذا الفضل ونقـول «**فَتَبـارَكَ اللـهُ أَحْسَـنُ الْخالِقِينَ**».

[15 ـ 16] ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِـكَ لَمَيِّتُـونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾

هكــذا ينلقنا القــرآن من معرفة النفس ، وتطــورات الخلق الى قـدرة الله الـتي لا يعجزها شـيء ، ومن قـدرة الله الى البعث بعد النشــور ، وبالتـالي الى المســؤولية ، وهكذا نرى ان منهج القرآن هو التـذكرة بالحقـائق العلمية من أجل إغناء وعي الإنسان

بالحقائق لكي يحس بدوره في هذا الكون.

2 ـ التفكر في الكون :

[17] **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ﴾**

سـبع سـموات لكل واحـدة منها طريقتها ، وفلكها ، وطبيعة الخلق عليها ، وحولها.

ماذا تعني الطرائق هذه؟ هل هي السـموات السـبع ، أم طرقها؟ وما هي السموات السبع هل هي سـبعة أغلفة لهذا الكوكب تحافظ عليـه؟ أم هي سـبع كـرات؟ أم سـبع مجرات؟ أم سبعة عوالم؟ تقع كل المجـرات الـتي عرفها أو سـوف يعرفها البشر في المسـتقبل ضـمن عـالم واحد منها فقط ، ولا يعلم الا الله ومن ارتضـاه لسـره مـاذا في العوالم الاخرى؟

المهم ان دقة خلق الله ، تـــرى في النطفة كما في السـموات ، وتنـاغم الخلق بين النطفة والسـموات ، دليل فطري على وحدة التقدير والتدبير ـ سبحان الله ـ!

﴿ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ ﴾

فالله خلق السـموات ، وهو يـدبرها ، ويهيمن عليها ، وهـذه سـنته في الخلق جميعا ، لا كما يـدعي اليهـود : انه خلق الكون ثم تركه هكذا ، فهو ـ تعالى ـ وان جعل للحياة سننا ، ولكنه هو الذي يجريها كما يشاء كيف يشاء.

[18] وتتجلى هيمنته على السـنن الجارية ، في حكمته البالغة ، فالمطر لا يـنزل صـدفة وبـدون حسـاب ، انما ينزل من السماء لمصلحة الأرض وإحيائها.

﴿ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّـماءِ مـاءً بِقَـدَرٍ فَأَسْـكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾

المطر الـذي يـنزل من السـماء يكـون بقـدر حاجة الأرض حـالا ومسـتقبلا ، فلو ان البحـار تبخـرت جميعا ، وتحـولت الى سـحاب ، ثم الى مطر لحـدثت الفيضـانات وأهلكت الـزرع والضـرع ، كما فعل طوفـان نـوح (ع) ، وعلى العكس من ذلك لو صـارت الأمطـار شـحيحة ، ولا تكفي النـاس لمـاتوا عطشا ، ولكن الـذي خلق حاجـات الإنسان خلق الى جانبها أشياء بقدرها ، فـأودع في الأرض مخازن تحفظ مياه الشتاء للصيف.

والذي شاهد المخازن تحت الجبال (كمغارة جعيتا في لبنـان) يعـرف كيف ان الله جعل في رحم هـذه الجبـال مخـازن ، تسـتقبل مطر الشـتاء ، ليتفجر نهـرا طـوال الصيف.

ولكن هل تعـني هـذه الحقيقة العلمية ان المطر بعيد عن ارادة الله؟ كلا ..

وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ

وكمثال على ذهـاب الله بالامطـار ، ما يقوله الخـبراء عن الصحراء الكبرى في افريقيا ، من انها كـانت في يـوم ما مزروعة ومعمورة ، بسبب هطـول الأمطـار عليها ، اما الآن فنـادرا ما تتلبد سـماؤها بـالغيوم ، ويـداعب المطر حبات الرمال فيها.

[19] بعد ان ذكر الله بـان المطر تحت إرادته ، ينزله ، ويذهب به متى يشـاء ، عـاد السـياق يوضح بعض منـافع المـاء والـتي من أهمها وأكبرها أثـره في الزراعة ، وذلك حتى لا يصـاب الإنسـان بـالغرور ، فيتكـبر عن الحمد حين يرى الخيرات.

فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيـلٍ وَأَعْنـابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ

فبالاضـافة الى الأكل الـذي يحصل عليه الإنسـان من الجنات والبساتين ، هناك

نعم اخــرى في الأشــجار ، أو ليست الغابــات والمــزارع تسـتمطر السـماء ، وتزيد من قـدرة الأرض على تخـزين المياه بسبب تكوّن الأحواض تحتها ، وتوفر لحـوم الطيـور وغـذاء الانعـام ، وتمنع زحف الصـحراء برمالها الخطـيرة على المـدن ، كما تحجز الريـاح السـامة ، وتلطف الهـواء في الصيف والشتاء وهي ـ بالاضافة الى كل ذلك ـ تعتـبر المواد الاولية للصـناعات المختلفـة. وكـان الإنسـان يعتمد عليها في بناء المساكن ، وتهيئة الملابس ، وتعبيد الطـرق ، وبناء الجسور ، وما أشبه؟!

وبعد كل ذلك تـزرع المسـاحات الخضـراء البهجة في افئدة الصغار والكبار.

هذا خلق الله ، فكيف ترانا نشكره؟!

[20] ﴿ **وَشَـجَرَةً تَخْـرُجُ مِنْ طُـورِ سَـيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ** ﴾

الشــجرة هي الزيتــون ، والطــور الجبل الصــغير ، وسيناء اسم للجبل الـذي فيه حقل الزيتـون ، وكل مكـان تزرع فيه أشجار الزيتون يسمى في اللغة العربية (سيناء) ، وهي شـجرة نافعة ، من فوائـدها : انها تعطي الـدهن ، وتشكل غذاء جيدا «صبغ للآكلين».

وفي هـذه الآيـات يـذكر الله بثلاث ثمـار هي (التمر ، والعنب ، والزيتـون) وهي في الواقع أنفع الثمـار للإنسـان وفيها حاجاته المختلفة.

[21] وكما الفواكه نجد ان الحيوانـــــات أيضا خلقت بشكل يمكننا الاستفادة منها ، وتسخيرها.

﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً** ﴾

والعبرة كلمة مأخوذة من العبـور ، ويعـني ان لا نقف على حدود الأشياء ، بل

نتحــول منها الى دلالاتها ، فـاذا رأينا الإبل يتحمل العطش والجوع مدة طويلة ، يساعده ذلك على حملنا في المفاوز المترامية الأطراف ، وان له من المنـافع الشـيء الكثـير ، فلا يجب علينا ان نقف إجلالا لهـــذا الإبل أو نعبـــده ، بل يجب علينا ان نكبّر خالقه.

﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها ﴾

من حليبها ومشتقاته.

﴿ وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾

من وبرها ، وصوفها ، وجلدها و .. و ..

﴿ وَمِنْها تَأْكُلُونَ ﴾

لحمها وشحمها.

[22] وبعضها كالجمال ، والحمير ، والبغال ، والخيول تصلح ان تكون وسيلة للتنقل عليها.

﴿ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾

وهكـذا نجد الحيـاة مليئة بنعم الله ، فالـدواب تحملنا في البر ، حتى إذا وصلنا الى البحر وجدنا السـفينة تحملنا في عرضه.

وكلمة اخيرة :

ان القلب الطاهر ، والاذن الواعية ، والعين البصيرة ، شـرط لاسـتقبال نـور المعرفة الالهية ، المنبثق من آياته الظاهرة ، فانّى نظرت ، رأيت تناسقا ، وتنظيما ، وتـدبيرا ،

ورأيت عمق الصلة بين المخلوقات ، وبالذات بين الإنسان ، وسائر ما خلق له.

انه يخلق من سـلالة من طين ، وتقيـده يد الـرب في تطوراته ، ثم إذا خـرج الى الـدنيا وجد امامه كل حاجاتـه. وجد السماء سـقفا محفوظا ، ووجد المـاء يهبط له منها ، وهو أصل كل خـــــــير ، ووجد الزراعة تتناسب وحاجاته المختلفة ، ووجد الحيوانات مسـخرة لـه. أفلا يـدعوه ذلك الى الخضوع والتسليم لرب العالمين؟!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (23) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ

---

25 [جنّة] : جنون.

**الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيـاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (
30) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنا
فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُـدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلـهٍ
غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُـونَ (32) وَقـالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِـهِ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقـاءِ الْآخِـرَةِ وَأَتْرَفْنـاهُمْ فِي الْحَيـاةِ
الدُّنْيا ما هذا إِلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُـلُ مِمَّا تَـأْكُلُونَ مِنْـهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ
إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (34) أَيَعِـدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ
تُرابـاً وَعِظامـاً أَنَّكُمْ مُخْرَجُـونَ (35) هَيْهـاتَ هَيْهـاتَ
لِما تُوعَـدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الـدُّنْيا نَمُـوتُ
وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُـوثِينَ (37) إِنْ هُـوَ إِلاَّ رَجُـلٌ
افْتَـرى عَلَى اللـهِ كَـذِباً وَما نَحْنُ لَـهُ بِمُـؤْمِنِينَ (38)
قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (39)**

ربي انصرني بما كذبون

هدى من الآيات :

في سـياق الحـديث عن الايمـان في هـذه السـورة يحدثنا هذا الدرس عن عاقبة الـذين اسـتكبروا على الله ، ولم يؤمنـوا بالرسـالة الإلهية أو من يمثلها ، ويـأتي هـذا الـدرس بعد تـذكير القـرآن بآيـات الله ، بهـدف تـذليل العقبـات الـتي تعـترض طريق الايمـان بالله ، وأبرزها الاستكبار ، وكان يمثل الولاية في الأرض آنئذ رسـول الله نوح (ع) حيث استكبر قومه فلم يسمعوا له ، زاعمين بأنه ما دام بشرا ، فلا يمكن الخضـوع له ، وعلـوا في الأرض ، فما ذا كانت عاقبتهم؟

لقد أمر الله نوحا ان يصنع الفلك ، فلما اكتملت جرى الطوفان ، فأنجى الله من في السفينة ، وأغرق البـاقين ، وقد تجلى علم الله ، وقدرته على يد نـــوح في الأرض ، وهذا يكفي دليلا على انه يمثل ولاية الله الحق.

اذن لا داعي للاسـتكبار على من يمثل هـذه الولاية ، ولا نعتقد يوما ان رفضـنا له سـيغير من الواقع شـيئا ، إذ سيبقى وليّا قبلنا أم رفضنا ، وإذا لم نقبل بولايته تشريعيا

بـالطوع. فسـنقبلها تكوينيا بـالإكراه ، ولنا في الماضـين عبرة.

ان ولاية نـوح لم تكن ذاتية ، وانما كـانت بـأمر الله وقدرته ، ولذلك دعا ربه ان ينزله منزلا مباركـا. فيه الخـير والامان.

وتكـررت قصة قـوم نـوح مع آخـرين بعـدهم ، إذ لم يتعظوا بمن قبلهم ـ وهذه سـنة الهية عامة ـ فقد اهلكهم الله لأنهم كـذبوا بالرسـول ، واسـتكبروا على الرسـالة ، والأسباب هي :

1 ـ انهم كانوا ينظـرون للرسـول نظـرة ماديـة. حيث أرادوه صـاحب مـال ومنصب ، أما ان يكـون مثلهم ، فقد زعموا انهم سوف يخسرون لو أطـاعوه ، وغـاب عنهم ان القيمة الحقيقية للإنسـان هي بما يملك من قيم وسـلوك صالح ، وبالتالي اذن الله.

2 ـ كـانت تلك عقبة الاسـتكبار ، والعقبة الثانية في طريق الايمان بالرسالات : الريب في البعث ، فقالوا : انه يعدكم بالنشور بعد ان تموتوا ، وتصـبحوا ترابا ، وعظامـا. انه وعد بعيد ، ثم قـالوا : بل هو وعد كـاذب ، وانما هي الحياة الدنيا نموت ونحيا فيها.

وتمادوا في غيهم ، فكـذبوه ، وقـالوا : انه مفـتر على الله ، وعقدوا العزم على عدم الايمان به أبدا.

لقد كـان التكـذيب عظيما على قلب نـوح (ع) ذلك العبد الصـالح ، الـذي غمـرت معرفة الـرب أرجـاء قلبه الخاشع ، ولم يجد لنفسه من نفسه قوة ، فـدعا ربه قـائلا : «**رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ**».

بينات من الآيات :

[23] في آيات آنفة رأينا نعم الله على البشر ، ولكن لماذا نجد الإنسان بالرغم

من تجلى الله له في كل شـــــيء ، يكفر به ، ويجعل بينه وبين معرفته حجبا زائفة ، معرضا عن آياته تعالى.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحـاً إِلى قَوْمِـهِ فَقـالَ يا قَـوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾

ان خضوع الإنسان لقـوى اخـرى هو الـذي يبعـده عن معرفة الله ، والطاعة له ، والآية تـبيّن مشـكلة قـوم نـوح انهم كـانوا يخضـعون لقـوى أخـرى ، وتتعـرض الآية التالية الى اثنتين منها :

[24] الاولى : تقديس الذات الذي يقودهم الى التكبر على الحق.

﴿ فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هـذا إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيـدُ أَنْ يَتَفَضَّـلَ عَلَيْكُمْ وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ﴾

ولو كـان الإنسـان يجعل الحق هو المقيـاس لا ذاته ، لما همه لمن يخضع ما دام يمثل الحق رسالة وسلوكا.

الثانية : تقليد الاباء.

﴿ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾

[25] وهذان السببان هما اللـذان حملاهم على اتهـام نبي الله نوح (ع) بالجنون.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِـهِ حَتَّى حِينٍ ﴾

ان المعرفة قريبة من الإنسـان ، وميسّـرة له ، ولكنه قد يبتلي بـالكبر أو التقليد الأعمى ، فيكـون ابعد ما يكـون عن الايمـان والمعرفة ، وحـتى نخلق الايمـان في نفوسـنا يلزم ان ننبذ الكبر ، وان نغـير طائفة من عاداتنا وتقاليـدنا السلبية التي درج عليها

الأولـون ، بل وحـتى بعض العـادات الجيـدة قد لا يكـون الأنسب توارثها تباعا لاختلاف الظـــــــروف بل الأنسب تطويرها أو تقديم غيرها عليها.

وبقي شيء لا بد من ذكره من خلال قصة نوح وقومه هو : انهم حينما أرادوا انكار القيـادة الالهية العادلة أنكـروا الله من الأصل ، ولكي يكتمل الايمــان لا بد من الالــتزام بقيادة الهية ، ولذلك قال رسول الله (ص) :

«من مـات ولم يعـرف امـام زمانه ، فقد مـات ميتة جاهلية»

و صدق الامام علي (ع) إذ قال :

«هلك من لم يكن له حكيم يرشده»

والذين ينكرون القيادة الالهية منحرفـون ، وعليهم ان يشككوا في ايمانهم ، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا لخضـعوا لمن وضـعه الله عليهم ، ولـبرمجوا حيـاتهم حسب ما أمر الله ، لا حسب الالـتزام بالماضي ، فالاصـالة جيـدة ولكن ليس على حساب الإبداع في حدود موضوعيّة حقة.

[26] ﴿ **قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ** ﴾

ان اطمئنان الرسول بحتمية نصره ، وتأييـده من قبل الله هو الـذي يدفعه نحو هـذا الـدعاء ، وان دل هـذا على شيء فانما يـدل على الايمـان المطلق بالله لـدى الرسل والأنبياء والأولياء.

[27] حينما أحس نــوح من قومه الكفر والجحــود ، طلب من الله النصر ليتـــبيّن لهم انه بالفعل يمثل الولاية الالهية ، فجـاءه النصر ، وهـذا يـدل على انه كلما ازدادت الضغوط على الرسالي وهو يؤدي مسـئوليته في الإصـلاح كلما قـــرب النصر ، ونصر الله قـــريب ممن لم تنصــره العوامل الذاتية ، والمادية شرط ان يبذل قصارى جهده.

ان نصر الله لا يأتي دائما على هيئة صيحات وزلازل ، بل يجـري قسم منه على يد المؤمـنين ، أو لم يكن الـرب الـــذي أمر الســماء والأرض ان تتفجر طوفانا هــائلا في لحظــات بقــادر على ان يخلق لنــوح ســفينة ، ثم يــأمره بالصـعود؟ بلى. ولكنه أراد ان يشـارك هو في نجـاة نفسه ومن آمن معه.

وفي الأحاديث انه بعد ان دعا نـوح ربه جـاءه جبرائيل بنـواة تمر ، وقـال له : نجاتك في هـذه ، ازرعها ، فزرعها حـتى صـارت نخلا ، وبعد ثلاثين سـنة أمـره ان يأكل الثمر ويزرع النوى ، وهكذا مرة ثانية ، ثم أمره ان يقطع جـذوع النخل ويصــنع الســفينة ، وعند ما بــدأ بصــنعها كـان الله يرعاه بعلمه ، وقدرته ، وكـان قومه يسـتهزءون به عند ما يمرون عليه ، لأنه كان يصنع السفينة في بلاد لا بحر فيها.

﴿ **فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا** ﴾

نحن قريبون منك ننظر إليك ، ونساعدك.

وأما قولنا : تحت عين الله فيعــني تحت رعايته وظله ، أما الوحي : فاشــارة الى العلم والمعرفة الـتي زود الله بها نوحا (ع).

﴿ **فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ** ﴾

روي في نور الثقلين «انه قيل لنـوح : إذا رأيت المـاء يفـور من التنـور ، فـاركب أنت ومن معك في السـفينة ، فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب». [1]

ولعل التنـور كـان يوضع في مكـان مرتفع ، فـاذا فـار مـاء دل على أن أمــرا خارقا للقــوانين الطبيعية قد وقع ، ولذلك جعل ذلك علامة لنوح (ع) ببدء الطوفان.

﴿ **فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُـلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَـكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ**

---

(1) ج 3 ص 543.

الْقَوْلُ مِنْهُمْ)

فإنهم سيغرقون.

﴿ **وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** ﴾

وهـذه اشـارة لحب نـوح الى قومه ، وكيف انه كـان يأمل هدايتهم ، ولكن الله نهاه ان يخاطبه في الظالمين.

[28] ﴿ **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ** ﴾

أي السفينة.

﴿ **فَقُـــلِ الْحَمْـــدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَـــوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾

حينما يـــأتي نصر الله يجب ان نشـــكره ، ونـــذكر ان النصر ليس من ذواتنا ، وذلك حتى لا نصاب بالغرور ، وقد امر الله نوحا ان يحمده حتى لا يتصور قومه انه إله ، وانه هو الذي أنقذهم.

[29] ﴿ **وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** ﴾

فلا تفكر ان حاجتك الى الله قد انتهت ، فأنت تحتاجه في كل لحظة ، فقد ترســـوا هـــذه الســـفينة في منطقة قاحلة ، لا زرع فيها ، ولا ضـــرع ، وكلمة البركة تـــدل على ما تـــدل عليه كلمـــتي التكامل والتنـــامي بإضـــافة مفـــاهيم وايحـــاءات أخـــرى ، وحينما نـــدعوا الله ان يبـــارك لنا في شـــيء ، ويكمل حياتنا به ، فلندعه ان يعطينا التكامل في أبعاد الحياة.

وسؤال نوح ربه بالمنزل المبـارك دعـاء بـان لا يجعل نزوله على الأرض نهاية لنعم الله عليه ، بل بداية لـــذلك ، وبالفعل حينما نزلوا الى الأرض شرعوا في بناء حضارة ،

لا ليـأكلوا على حسـاب مـيراث السـابقين ، والمؤمنـون حينما ينتصرون ، ويسقطون الطاغوت يعرفون بأنها نقطة البداية ، وآنئذ تبدأ مسئوليتهم الأصعب في البناء الحضاري والتكامل.

[30] ﴿ **إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ** ﴾

الـــدنيا ليست على شـــاكلة واحـــدة ، فهي مليئة بالمصاعب والمشاكل ، ومسئوليتنا الاستعداد لهذه الحيـاة ، لا ان نفقد عزيمتنا ، أو تخور ارادتنا إمام الشدائد.

وقوله «**وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ**» فيه تأكيدات على البلاء.

[31] ﴿ **ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ** ﴾

القرن في تعبير القـرآن هو الجيل أو الامـة. إذ يعاصر بعضـهم بعضا ، ويقــرن اليه ، ولا نــدري من هم هــؤلاء ، فلعلهم كـانوا قـوم ثمـود ، فهم الـذين اهلكـوا بالصـيحة ، ولعلهم قوم عاد ، إذ هم أقرب تاريخيا الى عصر نوح.

ولعل إخفـاء اسـمهم كـان بهـدف جعلهم أقـرب الى واقعنا ، وان عذاب المكـذبين سـنة الهية ، لا تختص بقـوم دون قوم ، ولا عصر دون عصر ، لذلك قال أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ وهو ينصح قومه :

«**ايها النـاس : ان الله قد أعـاذكم من ان يجـور عليكم ، ولم يعــذكم من ان يبتليكم ، وقد قــال جل من قائل : ﴿ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾**» [1]

فالله لا يجـور علينا ، ولكنه يبتلينا ، وعلينا ان نخشـاه أبدا ، لأنه لا يخص قوما دون قوم في الابتلاء.

---

(1) المصدر ص 544.

[32] ﴿ **فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴾

ونؤكّد مرة بعد مرة : ان دعوة الأنبياء لم تكن مجردة أو ناقصة ، بل كانت دعوة ذات وجهين : الاول : إسقاط الطغاة ، والثاني : اقامة حكم الله ، تحت ولاية أوليائه ، ويدل على ذلك جواب قومهم ..

[33] ﴿ **وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ** ﴾

الاشراف الذين كانت سلطتهم على الناس مهددة ، والذين يسميهم القرآن بالملإ ، هم الذين كانوا يعارضون الرسل قبل غيرهم ، ولماذا كانوا يعارضون؟ يقول القرآن :

﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا** ﴾

فالأسباب ثلاثة

1 ـ كفرهم ، وحجبهم أنفسهم عن الحقيقة.

2 ـ تكذيبهم بالآخرة.

3 ـ ترفهم في الحياة الدنيا ، وبطرهم ، وغرورهم بنعمها. حيث كان ترفهم مهدّدا بهذه الدعوة ، لأنه قائم على الظلم ، والابتزاز ، والاستغلال ، والرسالات تعارض كل ذلك.

﴿ **ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ** ﴾

اي ان هـذا من طبقتكم ، وطـبيعتكم ، فلا تطيعـوه ، وإذا عرفنا ان أكثر الطغاة كانوا يضللون النـاس البسـطاء بـأن عنصـرهم أفضل من عنصر النـاس ، وأنهم متميّـزون عنهم ذاتيّا ، ووراثيّا ، ولأنهم الأقـوى والأغـنى. إذن عرفنا بعدا من أبعاد مثل هذه الآية ، وكان الملأ يقولون للنـاس : بـأنهم اولى بالطاعة من الأنبيـاء ، لان الأنبيـاء من طبقة المحـرومين ، يـأكلون مثلهم ، ويشـربون مثلهم ، فهم لا يستحقون القيادة ، بينما هم ـ اي الطغـاة ـ يتمـيزون عن الناس في مأكلهم ومشربهم.

[34] ﴿ **وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَـراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ** ﴾

عند ما نـدرس حيـاة الأنبيـاء قد نتصـور أنهم رجـال ضـخام ، ونتخيلهم ضـمن هالة من القيم المادية ، اما إذا تصورناهم رعاة للغنم ، ثيابهم خلقة .. ويـأتي أحـدهم الى فرعـون وهو جـالس في قصـره ، تحيط به الجنـود ، وشـهرته طبّقت الافـاق ، ويطلب منه ان يطيعه ، ويسـلم الأمر اليه ، فاننا نعرف مدى صعوبة الايمان بهم.

[35] ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ** ﴾

هل من الممكن ان يعـود الـرميم ، وتصـير العظـام البالية بشرا؟!

[36] ﴿ **هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ** ﴾

اي بعيد ان يتحقق ما يعـده الرسل ، وان يعـود الإنسان ثانية بعد المـوت ، وهنا احتمـال آخر لهـذه الكلمة هو : ان الكفار كانوا يسوّفون ، فحتى لو كان البعث حقا ، فانه سـيكون في زمـان بعيد جـدا ، وهكـذا يسـوف أهل المعاصي ، و جـاء في الـدعاء : «**فـاعني بالبكـاء على نفسي ، فقد أفـنيت بالتسـويف والآمـال عمـري**» و جـاء في الحـديث ان أكـثر ما يشـكو منه أهل النـار «سوف».

[37] ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾

وهذه الفكرة منبعها الكفر بالله والتشـكيك في قدرته تعالى.

[38] ثم وجهـــوا التهمة لشـــخص الرســـول ، ففي البداية قالوا انه رجل مثلكم ، ثم ادعوا ان أفكـاره خاطئة ، والآن ينسبون اليه الافتراء.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

الايمان حق ، ويوم الآخـرة حق ، ولكن مـاذا ينفع كل هـذا ، ومن دون ان يتجسد عملا صـالحا ، ونظاما اجتماعيا في الحياة الدنيا؟!

هؤلاء بخبثهم ، ومكـرهم شـأنهم شـأن كل المضـللين عـبر التـاريخ ، حـاولوا أن يفصـلوا الـدين عن الـدنيا. بين الايمان بالله من جهة ، وبين تطبيق نظام دينيّ قـائم على الأرض من جهة ثانية ، فقـــالوا : ان الله حق ، ولكن هـــذا الرجل لا يمثله في الأرض ، ولا يملك ولايته.

[39] وعند ما يئس منهم نبيهم دعا ربه :

﴿ قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ ﴾

وهي نفس الكلمة التي قالها نوح (ع) وقد تـركت من الآثار ما هو آية للناس على مرّ الزمان ، وهكـذا ينصر الله كل من يجسد قيمه على نفسه.

قـالَ عَمَّا قَلِيـلٍ لَيُصْـبِحُنَّ نـادِمِينَ (40) فَأَخَـذَتْهُمُ الصَّـيْحَةُ بِـالْحَقِّ فَجَعَلْنـاهُمْ غُثـاءً فَبُعْـداً لِلْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَـرِينَ (42) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُـلَنا تَتْـرا كُـلَّ ما جـاءَ أُمَّةً رَسُـولُها كَـذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَـوْمٍ لا يُؤْمِنُـونَ (44) ثُمَّ أَرْسَـلْنا مُوسى وَأَخـاهُ هـارُونَ بِآياتِنا وَسُـلْطانٍ مُبِينٍ (45) إِلى فِرْعَـوْنَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عـالِينَ (46) فَقـالُوا أَنُـؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِـدُونَ (47) فَكَـذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتـابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49)

بعدا للقوم الظالمين

هدى من الآيات :

لأن القــرآن بذاته شــفاء ، ولان ســورة (المؤمنــون) تعـالج النفـوس المريضة ، بـذكر عـبر الماضـين لتصـفي القلوب ، وتتصل بنور الايمــان البهي ، ولان أمر التوحيد لا يخص قوما دون آخر ، فــان الســياق القــرآني هنا يــذكّر بعاقبة أولئك الــذين كــذبوا الرســول ، فأنــذرهم بــأنهم سيصبحون نادمين حين ينزل الله بهم العقـاب ، ويعرفـون انه جزاء أفعالهم ، وهكـذا أخـذتهم الصـيحة ، جـزاء عـادلا لغفلتهم ، وجحــودهم ، فــاذا بهم غثــاء كغثــاء الســيل ، تلاحقهم اللعنة ، فبعدا لهم لأنهم كانوا ظالمين.

وخلق الله قوما غيرهم ، ومضت سـنته تعـالى فيهم ، كلما كذبوا امهلهم حتى ينتهي أجلهم ، أما إذا جاء أجلهم ، فلا يتقدم ولا يتأخر ، والرسل يتعاقبون رسولا بعد رســول ، ولكنهم كـانوا يكـذبونهم ، فجعل الله بعضـهم يتبع بعضا في الهلاك. حـتى أصـبحوا جميعا أحـاديث تـروى ، ولا أثر لهم في الحيـاة الا ما تحمله ذاكـرة التـاريخ من عـبرهم ، وأمثالهم ، ولعنات الله لهم ، فبعدا لهم لأنهم لم يؤمنوا.

ويبدو أن حياة هؤلاء كانت متشـابهة ، ولكنها تطـورت عند فرعــون وملأه ولـذلك أفــرد بالــذكر ، فهــذا موسى وأخوه هارون ، يرسلهما الرب إليهم ، فيستكبرون ويعلون في الأرض طغيانا ويقولون : عجبا! كيف يأمراننا بالايمــان ، والطاعة لهما ، وقومهما يعبدوننا؟! وهذا التكبر أرداهم ، حيث أنهم كــذبوهما ، فجــرت عليهم ســنة الله في هلاك المكذبين.

ولكن الله لم يــرد هلاكهم انما أراد هــدايتهم. إذ بعث فيهم رسولا ، وآتاه كتابا.

بينات من الآيات :

[40] بعد ان دعا أحــدهما (هــودا أو صــالحا) قومه ، واســتكبروا عليه ، ســأل الله ان ينصــره عليهم ، فجــاء الخطاب الالهي :

﴿ **قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ** ﴾

فنهـــايتهم قريبة ، وســـيعرفون انها نتيجة لعملهم ، وســيندمون ، وقــال الله «عما قليــل» لأنهم اســتبعدوا الجزاء بقولهم «هيهات هيهات».

[41] ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِ** ﴾

كثــيرا ما تتكــرر كلمة «بــالحق» في القــرآن ، قــال تعالى :

«انا أرسلنا رسلنا بالحق».

«**إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً**».

وهكذا وتوحي كلمة «بالحق» بعدة أفكار :

1 ـ ان الحيـاة قائمة على أسـاس سـنن ، وقـوانين لا تحيد عنها ، وان علينا ان نكيف أنفســنا معها ، والا فــان ارادة الله اقتضت ان نتكيف معها ، كالكافر الذي لا يسجد الله ، ولكن ظلاله رغما عنه يسجد له.

2 ـ ان هــذه القــوانين والانظمة ليست عبثا ، وبلا حكمة ، وأنها لن تتساهل ، فاذا خالفها الإنسان هلك.

3 ـ ان قـدرة الله وتـدبيره غـير محـدودين ، ولكنه ــ تعـالى ــ لا يعمل شـيئا دون تلك القـوانين والسـنن الـتي وضــعها الا في حــالات خاصة لأنه فــوق كل ذلك ، فمن الناحية النظرية قـدرة الله فـوق كل قـدرة ، ولكنه عمليا أبى أن يجري العدالة في الكون الا برحمته وحكمته ، فاذا أراد العــذاب لإنســان ما أنزله بقــدر ذنبه ، وبالطريقة المتناسبة معه.

فالــذي كـان يعبد المـاء يغرقه بالنيل ، والــذي كـان يفتخر بـالقوة تقتلعه الريـاح ، والمتكـبر تأتيه الصـيحة من فوقه ، والصيحة التي يتحدث عنها هذا الدرس كانت حقّا ، وجاءت لتطبق الحق.

 فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً

الغثــاء هو ما يجتمع حين الســيول ، أو وراء حــواجز الأنهار. من أوساخ لا ينتفع بها الإنسان ، وهكذا تكون نهاية المتكبرين ، ولن يقرر هلاكهم عطف أحد ، لأنهم ظـالمون ، بل تلاحقهم اللعنة ليل نهار.

 فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

[42] والله حين يهلك هـــؤلاء فانه لا يعبأ بهم ، لأنهم لم يكونــوا يزيــدون في ملكه شــيئا ، ولم يحــدثوا فراغا بهلاكهم ، لأن «**أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ**»

لذلك فقد خلق غيرهم.

﴿ **ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ** ﴾

[43] ولكل امة من هذه القرون أجل محدود.

﴿ **ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ** ﴾

ان يقين الإنسان بأن فرصته في الـدنيا محـدودة وانه حين يـأتي أجله لا يقـدر على تـأخيره ، يجعله يخشى ربه ويتقيه ، علما بـــأن نهاية الأجل غـــــير معروفة له ، فقد يعاجله العذاب في أية لحظة.

والآيات القرآنية عادة ما تشـير الى الجماعة (الامة ــ الشـعوب ــ الطائفة ، ...) لان الإنسـان يتحمل مسـئولية امام الآخرين. شاء أم رفض.

[44] وســنة الله في الحيــاة انه يرسل الى كل أمّة هاديا ورسولا.

﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا** ﴾

يؤيد بعضهم بعضا في ذات النهج ، ولذات الهدف.

﴿ **كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَـهُمْ بَعْضاً** ﴾

كما ان الله يرسل الرسل واحــدا بعد الآخر ، كــذلك يهلك الأمم المكذبة الواحدة تلو الأخرى.

﴿ **وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ** ﴾

والأحـــــاديث جمع أحدوثة ، وليس جمع حـــــديث ، والاحدوثة هي الحادثة النكراء الـتي تتناقلها الألسن ، وهي عبرة لهم.

﴿ **فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

تعسا لهم وابعادا عن الرحمة والحق.

[45] ومن الأمم الـــــــــتي بعث الله إليها الرسل فكذبوهم امة فرعون :

﴿ **ثُمَّ أَرْسَـــلْنا مُوسى وَأَخـــاهُ هـــارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ** ﴾

الآيات هي التوراة ، اما سـلطان الله عند موسى فهو الثعبان ، وسائر الآيات.

[46] ﴿ **إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ** ﴾

وهنا مقابلة ، ففي طرف يقف موسى وهارون ، وفي الطـرف الآخر فرعـون وملأه ، وهكـذا أرسل كل الأنبيـاء الى طـــواغيت زمـــانهم ، ومن يلف لفّهم من المرتزقة وأصحاب المصالح.

والذي يتدبر في قصة موسى وفرعون يهتـدي الى ان القضية كانت كـبيرة جـدا. حيث يرسل الله اثـنين (موسى وهارون) وذلك لعظم المسـؤولية. حيث انها نقلة حضـارية من ذلك المســتنقع الآسن الــذي تــردّى اليه فرعـــون وجماعته ، الى القمة الســـامقة من التوحيد والايمـــان ، وموسى من أعظم أنبيـاء الله ، وقصص موسى قريبة من واقع الامة الاســلامية ، فلا تــزال البشــرية تعيش ظروفا مشـابهة لتلك الـتي عاشـها قـوم موسى ، حيث لا يـزال المســتكبرون من ملأ فراعنة الأرض يستضـعفون ســائر الناس ، ويجعلونهم شيعا ، ويعلون في الأرض بغير الحق ، فنحن بحاجة الى التـــدبر في هـــذه القصة لـــنزداد وعيا ، وعزما ، وجهادا حـتى يـأذن الله لنا بالنصر ، ولـذلك يـذكر القرآن هذه القصص زهاء سبعين مرة.

ولكن هل استجاب فرعون وملأه لرسول الله موسى ولأخيه هارون (ع)؟ كلا ..

﴿ **فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ** ﴾

الإنســـان ربما يســـتكبر ولكنه لا يملك شـــيئا من مقومـات الاسـتكبار ، فـنراه فقـيرا ، وذليلا ... إلخ ، وحينا آخر يستكبر الإنسان وهو يمتلك المقومات الظاهرية لذلك ، كفرعـون الـذي كـانت تجـري الأنهـار من تحت قصـره ، والذي يسيطر على شعب مصر.

[47] لذلك لما جاءهم موسى واخوه كذبوهما :

﴿ **فَقـالُوا أَنُـؤْمِنُ لِبَشَـرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ** ﴾

ولم يقل وهما لنا عابدان؟

لعله لأنهما في الواقع ما عبـــــدوا ، وما خضـــــعوا للطاغوت ، وانما قومهما (بنو إسرائيل) هم الذين خضـعوا لفرعون وملأه.

[48] ﴿ **فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ** ﴾

بالاغراق.

[49] ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾

الكتـاب الـذي أرسل إليهم عـبر موسى كـان يهـدف هدايتهم الى الصراط المستقيم ، ولكنهم لم ينتفعـوا بهـذا الكتاب.

ان الله لم يخلق النـــاس ، ليهلكهم ، بل لـــيرحمهم بـالفلاح ، والهـدى في الـدنيا ، والجنة في الآخـرة ، ولكن الناس هم الذين يرفضون ذلك.

وكل هذه الآيات دعوة لنا للتفكـير فيها وتطبيقها على أنفسـنا ومجتمعاتنـا. فبامكاننا ان نصـير موسى ، وبامكاننا أن نصير فرعون ، وذلك إذا حملنا رسالة موسى

في الحياة ، أو سلكنا مسلك فرعون جاء في الحديث :

«طـــوبى لمن عصى فرعـــون هـــواه ، وأطـــاع موسى تقواه»

ومهما اختلفت طرق العـذاب ، والانتقـام الالهي فـان الحقيقة واحدة ، ويجب أن لا نستبعد العـذاب عن أنفسـنا إذا انحرفنا عن هدى الله.

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَـةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْـوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ (50) يا أَيُّهَا الرُّسُـلُ كُلُـوا مِنَ الطَّيِّبـاتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَـاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُـوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْـرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَـبُونَ أَنَّما نُمِـدُّهُمْ بِـهِ مِنْ مـالٍ وَبَنِينَ (55) نُسـارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْـراتِ بَـلْ لا يَشْـعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيـاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُـونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِـرَبِّهِمْ لا يُشْـرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُـونَ (60) أُولئِكَ يُسـارِعُونَ فِي الْخَيْـراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (61) وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَلَـدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (62)

---

53 [زبرا] : كتبا.

من هم المؤمنون

هدى من الآيات :

لأن سورة (المؤمنون) تذكرنا بواقع الايمان ، فان هذا الدرس فيها ـ كما يبدو ـ قد خصص لبيـان المقيـاس الحق للمـؤمن. بعد ان ذكّـرت الـدروس الماضـية بعاقبة الإنكـار والجحود.

فهــذه مــريم وابنها آيتــان ، حيث آواهما الــرب الى مرتفع من الأرض فيه القرار والمـاء ، وهـذا دليل على ان لله ــ سـبحانه ــ انما أرسل الأنبيـاء لراحة البشر ، لـذلك أمرهم بان يأكلوا من الطيبات ويعملوا صالحا.

ومنهج الرسل واحد ، وانما اختلف أهل الكتـــــــاب ، وتفرقــوا أحزابا لفــرحهم بما أوتــوا من أمــوال وبــنين ، وزعمــــوا أن الله يســــارع لهم في الخـــيرات ، وهم لا يشعرون ، فلعله استدراج لهم حتى يأخــذهم عند ما يحين أجلهم.

أما قدرة الايمان فنجدها في الذين يشـفقون ، وجلين من خشية الله ، ويستجيبون لآياته ، ولا يشـركون بـربهم ، وحتى عطاؤهم في الله لا يطمئنون اليه ، بل لا يزالون

وجلين لإيمـــانهم بـــأنهم الى ربهم راجعـــون. فهم لـــذلك يسارعون في الخيرات ، ويتسابقون إليها.

ولا يعـني ذلك ان الله ينهكهم بالمسـؤوليات ، بل ربنا الـــرحيم لا يكلف نفسا الا ما تقـــدر عليه ، وتطيقه ، وان الله يكتب لهم أعمالهم كلها وهم لا يظلمون.

هذا هدى المؤمنين. دعنا نقتدي به.

ونجد في آيـــات هـــذا الـــدرس : مقـــاييس لا تخطئ للايمان.

بينات من الآيات :

[50] ان الهـــدف من التجمع المـــؤمن ليس اشـــقاء النـاس ، بل تـزكيتهم ، وجعلهم صـالحين لينتفعـوا أكـثر ، بنعم الله ، وبالتـــالي لـــيرحمهم الله ، وذلك بـــأن يجسد افـراده حيـاة عيسى وامه مـريم (ع) ، اللـذين جعل الله ربوة تحتضنهم ، وتسقيهم من معين سائغ شرابه ، وكذلك يريد الله للرسل ومن يشـــــكل امتـــــدادا لخطهم من المؤمـنين ، ان يـأكلوا الطيبـات ، ويعملـوا الصـالحات ، ويشكروا الله.

وحــرام على إنســان يأكل نعم الله ان يعصـيه بعمل الخبائث ، كما لا يستطيع آكل الحرام ان يعمل الصـالحات بصورة كاملة ، أو لم يقل ربنا سبحانه :

«**وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً**»؟!

 وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً

فمــريم ولـدت عيسى من غـير زوج ، كما ان عيسى كلّم الناس وهو في المهد صبيّا.

 وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ

بعد ان كانا يفتقـــران الى المســـكن ، وفر الله لهما الربـــوة ، وهي المرتفع من الأرض ، ولها مـــيزات : انها بعيــدة عن الهــوام والأســقام ، وهكــذا عند ما يــأمر ربنا بالتيمم يقول :

«**فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً**».

ومن معــاني الصــعيد المرتفع من الأرض ، وفي علم طبقات الأرض ان المرتفعـات الـتي فيها المـاء هي أفضل المواقع. أمنيا وزراعيا وصحيا.

ويتسـاءل المفسـرون : اين كـانت هـذه الربـوة؟ هل كـانت مدينة الناصـرة في فلسـطين. حيث التجـأت إليها مريم ـ عليها السّـلام ـ خشـية أعـداء ابنها عيسى ـ عليه السّلام ـ من اليهود؟

أم كانت منطقة خاصة في مصر. حيث عاشت مـريم وابنها هناك ردحا من الزمن؟

أم انها كـانت في (دمشـــق) أم مدينة (رملـــة) حيث عاشا فيهما أيضا فترة من الوقت؟

أم انها لم تكن سوى ذلك الموقع الذي وضعت مـريم ابنها فيه ، في أطراف بيت المقدس ذاته. [1]

و في رواية مـأثورة عن الإمـامين البـاقر والصـادق ـ عليهما السّلام ـ :

«**ان الربوة : حيرة الكوفة ، وسوادها ، والقـرار مسجد الكوفة ، والمعين الفرات**» [2]

---

(1) راجع تفسير (نمونه) ص 252 ج 14.

(2) نور الثقلين ج 3 ص 544.

وعلى اي حـــال : فـــان في الآية درسا في اختيـــار الموقع المناسب للمسـكن ، كما ان الآية التالية تـذكرنا : بضرورة اختيار الطيبات للطعام.

[51] ولم تكن هذه النعم الا لكي تقيم أود الإنسـان ، ولكن الهـدف الأبعد منها ان يسـتخدم جسـده في خـير نفسه والناس ، من خلال الصالحات.

وقد كـان هـذا نـداء الله لكل الرسل ، ومن بعـدهم للمؤمنين ، ان يأكلوا لا ليعيشوا أو يتلذذوا بالنعم ـ فحسب ـ بل ليعملوا الصالحات.

 يا أَيُّهَا الرُّسُـلُ كُلُـوا مِنَ الطَّيِّبـاتِ وَاعْمَلُـوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

كما ان المهم في العمل ان يكـــون خالصا لوجه الله حتى يأتي بثماره ـ دنيا وآخرة ـــ وهل يخلص لله الا الـذين يتحسسـون برقابته ، وعلمه بهم؟! ويجب على المؤمـنين ان يعملوا بما يمليه عليهم الشرع والعقل دون ان ينتظروا رضى الناس.

ويبدو ان الإسـلام يرجع النـاس الى عقـولهم. البعيـدة عن الهـوى والضـغوط ، والـتي جعلها الله حجة بينه وبين العباد ، فتكون الطيبـات الـتي تـدعونا إليها هـذه الآية هي الـــتي يحكم بها العقل ، وهكـــذا العمل الصـــالح ، وانما الشرع يثير العقل ويبلوره جاء في الحديث :

«**العقل رسول باطن والرسول عقل ظاهر**»

[52] ان المقاييس الايمانية التي وضعها الله سـبحانه ، هي التي تكشف حقيقة الكثير ممن يـدّعون الايمـان ، إذ ان مقياس الايمان وحقيقته ليس ما يدّعيه البشر أو يعتقد به ، بل ما يضـــعه الله ســـنّة ، وما يعلمه من واقع كل إنسان ومجتمع.

والمشكلة ان الإنسـان الـذي يغمـره احسـاس سـاذج بالايمـــان الصـــادق لا يكتشف خطأ ادعائه الا بعد فـــوات الأوان. حيث ينقله المـوت من دار البلاء والعمل ، الى دار الحساب والجزاء ، فلا يستطيع ان يغيّر من أمره شيئا.

اذن لا بد ان نضع مقاييسـنا الذاتية جانبا ، ونبحث عن الموازين الحق الالهية لتكـون حجة بيننا وبين الله سـبحانه ، عند الحساب والجزاء. لا لكي نقنع الآخرين باننا مؤمنون ، لأنهم يقتنعـــون منا ، بما يقتنعـــون من أنفســـهم من ممارسة الشعائر الظاهرة ، ثم ماذا تجدي الإنسـان قناعة الناس سـوى بعض المصـالح المحـدودة في الـدنيا؟ ولعله يظهر على حقيقته يوما عند النـــاس أيضا ان المهم هو ان يكون الله راضيا عنا.

وفي هـــذه الآية يضع القـــرآن الحكيم المقيـــاس الاجتماعي الذي يميز المنافق عن المـؤمن ، وهو مقيـاس الوحـــدة الايمانية ، فلو ادعى جماعة انهم مؤمنـــون ، ثم تفرقـوا أحزابا وشـيعا. انطلاقا من أهـوائهم ومصـالحهم ، فـان ادعـاء هم سـيكون بـاطلا وسـخيفا ، لان المؤمـنين تجمعهم كلمة واحـدة هي كلمة التوحيد ، وان التقـوى هي محور نشاطهم ، وصبغة أعمالهم وحياتهم.

﴿ **وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَـاتَّقُونِ** ﴾

[53] ﴿ **فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً** ﴾

لكي نعـرف المؤمـنين ، لا بد ان نعـرف المنـافقين الـذين يتناقضـون معهم ، فبينما يتجه المؤمنـون للوحـدة على أسـاس القيم والقيـادة الرسـالية. نـرى هـؤلاء في سعي حثيث للنيل من الوحدة بتمام معنى الكلمة ، وكلمة «فتقطعوا» مبالغة في التقطيع ، فهؤلاء يسيرون في نفق التقسيم ، والفرقة. بحيث تنقسم كل جماعة على نفسـها باستمرار.

﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾

ان الأســاس في هــذه الفرقة ، وهــذا الانقســام هو اغترار كلّ بما لديه من رجال ، ومال ، وأفكــار ، بينما نجد المؤمــنين مشــفقين من خشــية ربهم ، والفــرح هو آية الغرور ، ويبدو انه يعكس حالة الرضا عن النفس.

وان الفــرح هو الســبب المباشر للتحــزب. حيث ان قصر نظر الفرد ، وحرج صـدره ، وضـيقه ، وتفاهة اهدافه ، وتحقـــيره لنفسه ، ولقـــدراتها. كل ذلك يجعله معجبا بنفسه ، وبما يملك ، ويـــزعم انه وما يتصل به أفضل مما سـواه ، فيتقوقع على ذاته ، ولا يعـترف للآخـرين بفضل ، ولا يــرى الأهــداف العظيمة الــتي تحتــاج الى الوحــدة ، وتراكم الجهود.

[54] ويشـــبه القـــرآن هـــؤلاء حينما يطغى عليهم الاعجـاب ، والفـرح بـالغريق الـذي يغمـره المـاء من كل ناحية.

﴿ **فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ** ﴾

فلا توقظهم إلا صاعقة العذاب. تأتيهم بغتة.

[55 ـ 56] والسؤال لماذا يفرح هؤلاء؟

لأن غاية ما يطمحــون له ان يصــبحوا أصـحاب مـال وبنين ، ولفــرط حبهم لــذاتهم ، ولما يتعلق بهم خاصة من مـال وبـنين تـراهم يجعلونهما مقياسا للخـير والصـلاح ، ويزعمـون بأنه لو لم تكن أفكـارهم صـائبة ، ولم يكن الله راضيا عنهم إذا لم يكونـوا يحصـلون على المـال والبـنين ، وبالتـالي ان حصـولهم عليهما في الـدنيا دليل صـلاحهم ، وحصولهم على الفلاح في الآخرة ، كما قال قائل منهم :

«**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِـــــدَنَّ خَيْـــــراً مِنْها مُنْقَلَباً**».
ولا يـزال العـالم المـادي اليـوم يعتـبر مـيزان التقـدم الدخل القومي ، ويـزعم بعضـهم ان الله معه ، لأنه أصـبح أشد بطشا وارهابا في الأرض ، ويكتب على دولاراته ــــــ بالاعتمـــاد على الله ، ثم يتلاعب بمصـــير الشـــعوب بتلك الأموال ـ حاشا الله ـ انه لا يسلط الظالمين على البشرية ، ويرضى عنهم.
 أَيَحْسَـبُونَ أَنَّما نُمِـدُّهُمْ بِـهِ مِنْ مـالٍ وَبَنِينَ* نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ
هل يتصـــور هـــؤلاء ان الخـــير والكمـــال هو المـــال والرجـــال؟ واننا حين نعطيهم ذلك يعتـــبر حبا منا لهم أو رضى بهم؟!
 بَلْ لا يَشْعُرُونَ
لان الخـــير الحقيقي هو فيما يقوله القـــرآن ، لا ما يملكون ، وهو أيضا ما يجسده الذين تتحـدث عنهم الآيـات التالية :
[57] **إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**

فالمؤمنون يعملون ، ولكنهم لا يغترون بعطـائهم ، بل يشفقون على أنفسهم ، لأنهم يعرفون أن هذه الأجساد لا تحتمل لهب النار ، فيبقى همهم وشغلهم الشاغل هو إنقاذ أنفســهم من جهنم ، وتتكــرر في الــدعاء هــذه العبــارة : «**وَقِنا عَذابَ النَّارِ**» وفي الآية القرآنية :
«**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ**».
وتؤكد هـذه الآية وما بعـدها على الفـروق بين التجمع المؤمن ، والآخر المصلحي

القائم على أساس المال والرجال ، وهي :

الف / الإشــفاق من العمل ، فــدائما ما يســتقل المؤمنـون أعمـالهم ، ويسـاورهم هـاجس التقصـير ، بما يحسسهم انها قد لا تبلغ مرضاة الله ، مما يزيـدهم عزيمة وإصــرارا على العطــاء الأكــثر ، والإخلاص الأنقى ، أما المنافقون فإنهم يفرحون بأعمالهم ويكبرونها ، فلا يقبلون الانتقـاد بما يرونه في ذواتهم من كمـال وعصـمة ، بينما يرحب أولئك بكل انتقاد بنـاء. حيث أنهم يتهمـون أنفسـهم بالتقصير ، فلعلهم اخطأوا أو غفلوا ، ومحور هذه المقارنة هو الخشــية عند فريق دون الفريق الآخر ، فكلما عمل المؤمنــون لا تــزال فيهم بقية ارادة ، وعزيمة خشــية التقصير ، وانهم لما يفكوا رقابهم من النار.

جاء في نهج البلاغة عن الامام علي ـ عليه السّلام ـ وهو يصف المؤمنين :

«فلو رخص الله في الكــبر لأحد ، لــرخص فيه لخاصة أنبيائه ، وأوليائه ، ورســله ، ولكنه ســبحانه كـره لهم التكـابر ، ورضي لهم التواضع ، فالصـقوا بالأرض خـدودهم ، وعفـروا في الـتراب وجـوههم ، وخفضــوا أجنحتهم للمؤمــنين وكــانوا قوما مستضـعفين قد اختـبرهم الله بالمخمصة ، وابتلاهم بالمجهــدة ، وامتحنهم بالمخــاوف ، ومحصــهم بالمكــاره ، فلا تعتــبروا الرضا والســخط بالمــال والولــد. جهلا بمواقع الفتنة ، والاختبــار في موضع الغنى والاقتصار». [1]

و قد نصح لقمان ابنه فقال له فيما قال :

«خف الله ـ جل وعز ـ خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لعــذبك ، وارج الله رجــاء لو جئته بــذنوب الثقلين لرحمك». [2]

(1) المصدر ص 545.
(2) المصدر ص 547.

ونحن نقرأ في سيرة أولياء الله ما يجعلنا نتصاغر في أنفسنا. اين نحن من واجبنا ، والى متى نغفل عن مصيرنا ، ونحن لا نعلم هل خلقنا للجنة ، أم ان عاقبتنا النار؟!

فهذا زيد بن علي بن الحسين ـ عليه السّلام ـ يقص علينا سيرته سعيد بن جبير قال :

قلت لمحمد بن خالد : كيف زيد بن علي في قلوب أهل العراق؟ فقال : لا أحدثك عن أهل العراق ، ولكن أحدثك عن رجل يقال له النازلي بالمدينة قال : صحبت زيدا ما بين مكة والمدينة ، وكان يصلي الفريضة ثم يصلي ما بين الصلاة الى الصلاة ، ويصلي الليل كله ، ويكثر التسبيح ، ويردد :

«**وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ**» [1]

فصلى بنا ليلة ، ثم ردد هذه الآية الى قريب من نصف الليل ، فانتبهت وهو رافع يده الى السماء ويقول : الهي عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة ، ثم انتحب ، فقمت اليه ، وقلت : يا ابن رسول الله لقد جزعت في ليلتك هذه جزعا ما كنت أعرفه؟ قال : ويحك يا نازلي اني رأيت الليلة وانا في سجودي إذ رفع لي زمرة من الناس عليهم ثياب ما رأته الأبصار ، حتى أحاطوا بي وانا ساجد ، فقال كبيرهم الذي يسمعون منه : اهو ذلك؟ قالوا : نعم ، قال : أبشر يا زيد فانك مقتول في الله ، ومصلوب ومحروق بالنار ، ولا تمسك النار بعدها أبدا فانتبهت وانا فزع ، والله يا نازلي لوددت اني أحرقت بالنار ، ثم أحرقت بالنار ، وان الله أصلح لهذه الامة أمرها. [2]

---

(1) سورة (ق) ـ آية (19).
(2) بحار الأنوار ـ ج 46 ـ ص 308.

باء / الاسـتجابة للحق ، فلو كـانوا على خطأ سـرعان ما يتذكرون ويعـودون عنه ، لأنهم يجعلـون الحق ــ وليس ذواتهم ـ محور حيـاتهم ، لأنهم يعرفـون خشـوع الايمـان ، والتسليم للحق في الـدنيا خـير من خشـوع الـذل في نـار جهنم.

[58] ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾

فهم منفتحون على الحقـائق الـتي يجـدونها في آيـات الله ، ولا يمنعــون أنفســهم خــيرات الحق بالعصــبيات والتقاليد والتحزب ، بل يبحثون عن الحق انّى كان ، حـتى لو خالف مصالحهم أو تقاليدهم أو عزة أنفسهم.

[59] ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ** ﴾

جيم / وتوحيدهم لله يتجلى في سائر جوانب الحيـاة ، السياسية والاجتماعية و .. و .. ، فاذا اختـاروا قيـادة فانما يختارونها بدافع ايمـانهم لا بعامل الهـوى ، فليس لان فلان من بلده ، أو حزبه ، أو طائفته فاذن هو قائده ، كلا .. انما المقياس الوحيد عندهم هو ما يقوله الله وما يرتضيه.

خوف التقصير :

[60] ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ ما آتَـوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ** ﴾

دال / وبينما المنافقون يفرحون بقليل ما يصدر عنهم ، تجد هؤلاء في حالة عطاء دائم مصحوب بوجل ، وخـوف من التقصـير ، لان المسـألة لو كـانت متوقفة على رضى الناس عنهم لنالوه بعطائهم الظاهر ، ولكنهم يبحثــون عن رضى الله ، الـذي لا ينـال الا بـالإخلاص ، وانّى لهم اليقين بقبول الله لأعمالهم وهو القائل عز وجل :

«**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**».

ويدفعهم خوف التقصير الى المزيد من العطاء ، ذلك ان الشعور بالكمال يمنع مسيرة التقدم ، والاسـتمرار في العطـاء ، و حينما يسـأل رجل الامـام الصـادق عن سـبب خــوف هــؤلاء ، ووجلهم يجيبه «انهم يخشــون ان لا تقبل حسـناتهم ، وان لا تغفر سـيئاتهم» وما أكـثر الثغـرات في الحسنات التي نعملها ، وقد يكون بعضـها سـبب في عـدم قبولها.

فنحن لا نسـتطيع ان نتأكد من أننا قد فزنـا. اذن دعنا لا نقف عند حدّ في عطائنا وإنفاقنا ، ولا نفرح ، لان الفرح من جنود الشيطان.

[61] ان خوف هؤلاء من التقصير يدفعهم نحو العمل ، بل المبادرة اليه.

هاء / ﴿ **أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ** ﴾

التسـابق بين هـؤلاء ليس في الشـهرة ، بل في عمل الخـير ، وهـذه صـفة نقيضة لما يعيشه التجمع المنـافق ، فبينما يلهي أولئك التكاثر في الأموال والأولاد ، ترى هؤلاء يتسابقون الى الخيرات.

﴿ **وَهُمْ لَها سابِقُونَ** ﴾

وهذه الآية تحتمل معنيين :

الاول : ان أنفســهم مجبولة على الخــير ، والعطـاء ، والعمل ، وهـذه الصّـفات ليست وليـدة ظـرف معين ، بل وليدة صفة راسخة في النفس ، فمع أنهم يتصــدقون الآن مثلا ، ولكن أنفسـهم قبل هـذه الصـدقة كـانت تحمل هـذا المعنى الخيّر (مساعدة الضعيف).

الثاني : المبادرة فهم دائما يسبقون غيرهم للخير ، إذ يكتشفون مجالات ووسائل جديدة للعمل الرسالي ، وهـذا ناتج عن الهمّ الذي يحملونه لتطوير مسيرتهم

وتحـــركهم ، مما يـــدفعهم باتجـــاه البحث عن المجـــالات والابعـــاد الجديـــدة للتقـــدم بمســـيرة العمل ، أو لمواجهة العقبات والمشاكل التي تعترضه.

ان هـــؤلاء يســـعون دائما لنيل رضي الله ، فيفكـــرون في أساليب جديدة للعمل ويطبقونها.

[62] **وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها**

الله هو الـــذي خلق الإنســـان ، وهو أعـــرف بقدرته وطاقته ، فلا يكلفه إلّا بقدرها ، وعلى الإنســـان أن يســـعى في طريق الخير قدر جهده وتمكنه ، فإذا فعل ذلك سقط عنه التكليف ، وإلّا فما دامت به بقية مقدرة فهو مسئول.

فما دام الإنســـــان قـــــادرا يجب ان يعمل ، وبقـــــدر الاستطاعة يجب ان يعطي ، وبقدر وسعه يجب ان يسعى ، فلا يقل أحـــدنا : اني عملت ، وأنجـــزت المهمة الكذائية وكفى ، وانما ينجز مهمة لينتقل الى غيرها ، كما قـال الله تعالى :

«**فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ**».

فـــاذا انتهيت من عمل فانصب الى غـــيره ، ولا يقل أحدنا انه انتهى الواجب فقد قال تعالى :

«**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**».

فالعمل واجب حتى الموت.

ونســـتفيد من الآية الكريمة ان مســـئولية كل إنســـان حسب قدرته ، فـالقوي تختلف مســـئوليته عن الضـعيف ، والعالم عن الجاهل ، والمسؤول عن الفـرد العـادي و .. و .. ولعل الآية تشـير أيضا الى الرفق بـالنفس في العمل ، فلا يهلكن أحدنا نفسه ، ولا

يحملها فـوق طاقتها ، فقد قـال أمـير المؤمـنين لولـده الحسن ـ عليهما السّلام ـ وقد وجده يجتهد في العبادة :

«**يا بـني! ان هـذا الـدين مـتين ، فأوغل فيه برفق**»

والبعد الآخر للآية : الواقعية في الطموحـــــــــــات الرسالية. إذ ينبغي ان تكون اهداف المسلم بقـدر طاقاته ، فلا يتكلف ما لم يكلفه الرب به.

﴿ **وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِ** ﴾

فلو ادعى شخص انه تعب ، فان الله يحتج عليه : بأنه أعطاه القـدرة الـتي لم يسـتغلها كلها حـتى يـدعي ذلك ، ويحتج عليه بالآخرين الـذين يمتلكـون مثله من القـدرات ، ولكنهم لا يزالـون يعطـون ويعملـون دون تراجع ، وفي مقابل هذا التشدد في المسؤولية هناك رحمة الهية تتمثل في عدل الله ، وفضله.

﴿ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾

فالله يجـزي الإنسـان على كل خـير. صـغيرا كـان أو كبـيرا ، جـزاء مضـاعفا. حيث تتحـول الحسـنة الى عشر أمثالها.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمـالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عـامِلُونَ (63) حَتَّى إِذا أَخَـذْنا مُتْـرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْـأَرُونَ (64) لا تَجْـأَرُوا الْيَـوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَــرُونَ (65) قَـدْ كـانَتْ آيـاتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقـابِكُمْ تَنْكِصُـونَ (66) مُسْـتَكْبِرِينَ بِـهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَـوْلَ أَمْ جـاءَهُمْ ما لَمْ يَـــأْتِ آبـــاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُـــوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِـرُونَ (69) أَمْ يَقُولُـونَ بِـهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كـارِهُونَ (70) وَلَـوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71)

---

67 [سامرا] : السمر الحديث ليلا.

وأكثرهم للحق كارهون

هدى من الآيات :

في سـياق حـديث سـورة (المؤمنـون) عن محورية الحق في الحيـاة ، يـذكرنا القـرآن بـأن أولئك الكفـار يعيشـون في غمـرات الشـهوات والضـلالة ، بعيـدين عن الحق ، يمارسون أعمالا إجرامية ، ويستمرون عليها حـتى يأخذ الله مترفيهم (وهم قيـاداتهم المفسـدون) بالعـذاب ، فـإذ بهم يتضـرعون من هـول العـذاب ، ولكن من الـذي يعذب في الدنيا؟ انهم المترفون ، الذين يأتيهم الخطـاب : لا تتضرعوا ، فإن الضّراعة عند نزول العـذاب لا تنفع ، ولا ينصـرهم اللـه. أفلم يكونـوا يتولـون هـار بين كلما تليت عليهم آيـات الله وهم يسـتكبرون بها ، وعند ما يسـهرون بالليالي يقولون : كلاما تافها ضدها؟!

ولماذا الاسـتكبار على الحق ، ولمـاذا لا يتـدبرون في القـرآن ليجـدوا انه يهـديهم الى الحق الـذي دعا اليه كل الرسل والصـالحين (ممن تعـترف البشر بفضـلهم) وهـذا الرسـول يعرفونه بإخلاصه ، وصـدقه ، وأمانته ، فلما ذا ينكرونه ، وهل يعقل ان يكون

به جنة؟! كلا .. إنما سـبب جحـودهم له دعوته الى الحق ، والحق يكرهه أكثر الناس (بجهالتهم واتباعهم للشهوات).

ثم إنّ الكــون قد خلق وفق ســنن وأنظمة ، بعضــها نعرفها نســـميها القـــوانين الطبيعيـــة. كجاذبية الأرض ، وانســـياب النـــور ، وانفلاق الحبة من التربة الصـــالحة ، وبعضــها الآخر قــوانين غيبية مثل غفــران الله للمــذنبين التائبين ، أو تعذيبه للمجرمين.

وسـواء هـذا أو ذاك ، فـان هـذه القـوانين هي الحـق. الـذي خلق الله وفقه السـماوات والأرض ، والـذي لو زال وحلّ مكانه الهوى والباطل لفسد الكون في لحظة.

وعلى الإنســان أن يســتجيب للحق الــذي قــامت به السموات والأرض ، ويكفينا دليلا على ذلك حياة الإنسان ، فهو يعيش ضمن ســنن لا يحيد عنها كــالجوع ، والعطش ، والنــوم ، الا ســنة واحــدة اعطى الاختيــار فيها بين آلاف الســنن والقــوانين ، بعد أن بيّن الله له أبعادها ، ومع ذلك فانه قد يحطم نفسه والأرض بهذا الاختيار.

وأنت أيها الإنســـان اعتــبر بهــذه الحقيقة ، فإنك لو أعرضت عن الحق ، واتبعت الباطل والهــوى فــإنّ حياتك ستفسد ، وستفسد الآخرين.

بينات من الآيات :

[63] ﴿ **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا** ﴾

تلفها الشـهوات ، من كل جـانب ، كما لو أنها رسـبت في لجة آسنة.

﴿ **وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ** ﴾

أعمـال الإنسـان تنطلق من فكـره وقلبه ، وما دامت قلوب هؤلاء مغمورة في

الشــهوات فإنّها لا يصــدر عنها الا الســيئات ، ولعل كلمة «**مِنْ دُونِ ذلِــكَ**» تشــير الى هــذه الحقيقة ، أو الى ان الأعمـال الاجرامية الـتي يمارسـونها على فضـاعتها تعتـبر دون أفكـارهم الضـالة ، فـإن خبث العقائد الفاسـدة أشد من خبث الأفعال المنكرة.

[64] **حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ**

ولم يقل الله (حــتى إذا أخــذنا هم بالعــذاب) وهــذا التحويل في لحن السـياق القـرآني لعلّه يـدل على فكـرة معينة هي أن الله لا يأخذ كل المغمورة قلوبهم بالعـذاب ، بل يأخذ المــترفين منهم ، والآيــات الــتي تلي هــذه الآية تفسرها ، وهـذه من خصـائص السـياق القـرآني أنه يفسر بعضه بعضا.

والجأر هو : نهاية حالة الضراعة ، والطلب الملح.

[65] ولكن ليس ينفع المــترف دعــاؤه حين يحل به العذاب.

 لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ

[66] والآية التالية ، جــواب على ســؤال يفــترض أنه يصــدر عن المــترفين ، حين يجــدون أنفســهم بين يــدي العــذاب ، إذ يتســاءلون عن ســبب رد الله لاســتجارتهم وتضرعهم ، فيأتيهم الجواب :

 قَــدْ كــانَتْ آيــاتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ

ان الآيــات القرآنية وهي وقــود الانطلاق والتقــدم ، يفـترض انها تـدفع الإنسـان نحو الأمـام ، أما إذا كـان قلبه مطبوعا بـالتخلف والانحــراف فهي لا تنفع معه أبــدا ، بل تزيده طغيانا وكفرا ، والنكـوص على الأعقـاب ، كناية عن المشي القهقرى.

[67] لذلك يقول القرآن :

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾
اي بالقرآن.
﴿ سامِراً تَهْجُرُونَ ﴾
ان تكبر الإنسان على القرآن شيء ، وتكبره بـالقرآن شيء آخر ـ وهو أعظم ـ حيث تتحول هذه الرسالة الإلهية العظيمة إلى أداة للاستكبار ، وهذا نقيض أهـداف القـرآن في تحرير الإنســان من عبودية الجبت والطــاغوت ، وقد فسر بعضهم كلمة «به» هنا بالكعبة ، حيث ان المشركين اتخــذوها وســيلة اســتكبارهم في الأرض ، بينما فســره البعض بالقرآن الذي تشـير اليه كلمة «آيـات» وتـدل عليه كلمة «القول» في هذا السياق.

وكانوا إذا جن عليهم الليل واختلط ظلامه بنـور القمر الهادئ ، وهيئت لهم ظروف السمر ، تحلقـوا حـول الكعبة ، وأخذوا يتـداولون كلاما هجـرا ، كأنه هـذيان المرضي ، لا يقصدون به معنى حقيقيّا.

ذلك الكلام الفارغ الذي كان يكشف عن مدى غفلتهم وخوضـهم في غمـرات ـــ اللهو ، والهـوى ، واللاهدفية ـــ أرداهم الى هذا الحضـيض السـافل من العـذاب ، الـذي لا خلاص لهم منه. تدبروا في حالتي ـ الجأر والهجر ..

[68] ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾

في مقابل هؤلاء نرى المؤمنين الذين يتدبرون القرآن ، والتـدبر من كلمة الـدبر ، أي النهاية فمن القـرآن يبـدأ المؤمن فيسـير بعقله ، وعلى ضـوء الآية ، الى الحقـائق ، فيرى مـاذا تريد الآية وأين هو واقعها الخـارجي ، وتطبيقها الحي.

إن القـرآن لم يكن بدعة ، فهو امتـداد لرسـالات الله لبني البشر. عبر الزّمان ولا

حجّة لأولئك الذين يتنصلون عن تطبيقه أو يتكبرون عليه ، ويفرغونه من معانيه.

 أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ

ان البشر يقـدّر ــ عـادة ــ السـلف الصـالح ، وتزخر ذاكرته بقصص الأتقياء والمصـلحين وفي طليعتهم الرسل ولكنه ـ في ذات الوقت ـ يكفر بالرسول الذي يأتيه بآيـات الله ، ويتسـاءل عن صـحة رسـالته ، وانما هي تكميل للرسالات السابقة.

[69] أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ

كلا .. فالنـاس كـانوا يعرفـون رسـول الله بصـدقه وأمانته وأخلاقه ، والرسالة التي جاءهم بها هي عينها التي تدعوا إليها عقولهم ، والله الذي يبعث بقـرآن من السـماء قد انشأ عقلا في داخل الإنسان يصدّقه ، فيعرف الإنسـان أن الـذي جـاء به هو الحق ، وهكـذا يسـتطيع كـلّ إنسـان بشيء من التعقل ان يهتـدي الى رسـول الله ، وان الـذي ينصـحه هل هو رسـول الله أم داعي الشـيطان؟ ولكن بشرط أن يخرج من سجن الشهوات الـتي تغمـره ، وعند ذلك فقط سوف يرى الحقائق بوضوح.

[70] أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ

وهل هـذا قـول مجنـون ، وفيه من ينـابيع الحكمة ، وخـزائن المعرفة ، وبـرامج الحيـاة ، ما يعجز عن اكتناهه أولو الألباب؟!

وهل المجنـون يفعل ما قـام به الرسـول من تنظيم الحياة الناس ، ثم قيادة المجتمع على أفضل وجه؟!

 بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ

كلا .. انهم يكرهـون الحق ولـذلك يجـادلون فيه ، وينكرون الرسول الداعي

اليه ، ولا يتـدبرون في القـول الـذي يحتويه ولمـاذا يكـره الحق أكـثرهم؟ لأنهم يعيشــون في غمــرة منه تحيط بهم شهواتهم ، وهذا هو الفرق بين المؤمنين والكافرين.

[71] ﴿ **وَلَـوِ اتَّبَـعَ الْحَـقُّ أَهْـواءَهُمْ لَفَسَـدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَ** ﴾

ليس فقط من الناحية الغيبية الإلهية فقط ، بل من الناحية الواقعية أيضا لأن الحق الذي تنزّل به القرآن تعبير عن حقائق الإنسان والحيـاة ، فالعـدل يقيم الحيـاة ، بينما الظلم يؤدي بها إلى الـدمار ، والصـدق يعـود على النـاس بـالنفع بينما الكـذب يعـود عليهم بالضـرر ، وهكـذا سـائر القيم السلبية والإيجابية.

﴿ **بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** ﴾

البعض يفسر هــذه الآية بــان : القــرآن جــاء شــرفا للناس ، ولكنهم معرضون عن شرفهم ، وهذا صحيح ، اما التفسير الآخر ـ حسـبما ارى انه أقـرب ـ فهو ان القـرآن جـاء مـذكرا لهم بما نسـوه ، وغفلـوا عنه ، ولكي ينـورهم فلما ذا يعرضون عنه؟!

وهـذا التفسـير تأكيد للفكـرة السـابقة وهي : ان الله الذي يرسل رسـالة على يد رسـول ، أودع رسـالة اخـرى في قلب الإنسان ، وانطبـاق هـاتين الرسـالتين دليل على صدق الرسول.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (81) قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا

---

74 [لناكبون] : أي عادلون ومائلون عن الحق.
77 [مبلسون] : آيسون من كل خير.

لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْـلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

هكذا نتحدى عقبات الايمان

هدى من الآيات :

جــاءت ســورة (المؤمنــون) لبث روح الايمــان في القلوب ، ولكن القلوب المريضة لا تستقبل هـذه الـروح ، إذ لا بد من شـفائها اولا ، في الـدرس الماضي قرأنا كيف أن كراهة الحق النّاشـئة من غمـرات الضـلالة ، أفـرزت الجحود بالرسالة ، وهنا يساعدنا السـياق لتجـاوز العقبـات التي تعترض طريق الايمان ، وبالتـالي يحبب إلينا (الحـق) ويطهر القلب من وساوس الشيطان التي تصدنا عنه.

الأول : الخوف على الـثروة ، ويقـول القـرآن : انك لا تسألهم خرجا ، بل الله خير الرازقين ، وانه سـوف يبـارك لهم في ثرواتهم لو اتبعوا الحق الذي جاء به الرسول.

الثـاني : المحافظة على التقاليد ، ويقـول الـذكر : أن سـبيلهم ضــال ، وانك ــ يا رسـول الله ــ تـدعوهم الى الصـراط المسـتقيم ، وسـبب ضـلالتهم أنهم لا يؤمنـون بالآخرة ، وفي آخر الدرس نقرأ تأكيدا على هذا السبب.

الثالث : لو كانت الرسالة حقًّا ، لكشف الله بها الضرّ ، ولكن مقـدارا من الضر يحافظ على تـوازن البشر الـذي يطغى لو كشف الله عنه ضــره ، وبــالرغم من العــذاب الــذي أخــذهم الله به تــراهم لا يســلّمون لــربهم ، ولا يتضرعون اليه. حتى ينزل عليهم عـذابا شـديدا ، فـإذا بهم في ورطة وإبلاس.

بعد تطهير القلب من هذه الوسـاوس ، يـذكرنا الـرب بنعمه الــتي لا تحصـــى. أوليس قد أنشأ لنا الســـمع ، والأبصار ، والأفئدة. أفلا نشكره؟!

وهو الـــــذي جعل البشر يتناسل في الأرض ، وبعد الموت يحشر من جديد ، وبيـده الحيـاة والمـوت ، وتـدبير الليل والنهار ، أفلا يكفي ذلك حجة لو انتفعنا بعقولنا؟!

كلّا .. إنهم يقولون ـ كما قال آباؤهم الضـالون ـ كيف يبعث الله من يموت ويصبح ترابا وعظامـا؟! انها أسـاطير الأولين. حيث قد وعدوا كما وعدنا نحن أيضا بذلك!

هكذا أصبح إنكارهم للبعث سـببا لجحـودهم برسـالات الله ، وهكــذا الإنكــار ـ بــدوره ـ نشأ من حالة الجهل ، واستبعاد حياة الإنسان من بعد الموت. وكلمة أخيرة : اننا نجد السـياق ينتقل من الحــديث عن العقبـات في طريق الايمان ، وكيفية التغلب عليها ، إلى الحديث عن آيات الله الـتي تهـدينا اليه ، وهـذه هي الطريقة القرآنية في توجيه الإنســان الى ربه ، وهي تختلف عن الطــرق البشــرية ، فالطريقة القرآنية تعتمد على مرتكـــزات من بينها وأهمها الأسلوب الوجداني ، فالإنسان خلق على فطرة الايمـان ، والله هو أجلى وأظهر حقيقة في هــذا الكــون ، وفطــرة الإنسان تدعوه إلى الله :

«**فِطْـرَتَ اللـهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْـدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**».

ولكن لماذا لا يؤمن البشر؟

لأن بينهم وبين الله حجبا. كحجاب الغفلة ، وحجاب الشهوة ، وحجاب التقليد ، وحجاب الخوف ، أو الرجاء في الأمور الدنيوية ، وحجاب الشك في الآخرة. ويجب على الإنسان أن يتحدى هذه الحجب بإرادته ، وبتذكير الله ـ عبر رسله ـ لكي يصل الى معدن الايمان ، ونور الله البهيّ.

وهذه النظرة القرآنية نجدها موزعة في كتاب الله ، والمتدبر في القرآن يجد هذا الأسلوب في توجيه الإنسان إلى الله واضحا في آيات الذكر الحكيم ، والذي أسميه بالاسلوب الوجداني الذي يبدأ بتزكية القلب ، وإجلاء الدرن والصدأ عنه ، ويكشف عن الحجب ليتصل بنور معرفة الله بصورة مباشرة ، وآنئذ نعرف معنى قول الامام علي (ع) : حين يسأله رجل قائلا : يا أمير المؤمنين أو رأيت ربك؟ قال : «ويحك! وكيف أعبد ربّا لا أراه؟!» قال السائل : كيف رأيته؟ قال : «**لا تدركه الأبصار بملاحظة العيون ، وإنما تدركه القلوب بحقيقة الايمان**».

بينات من الآيات :

[72] من العقبات التي تعترض طريق البشر إلى الإيمان هو زعمه : بأن ايمانه سيكلفه التضحية بالمال ، دون ان يعلم بأن الايمان يدفع المجتمع لانتهاج شريعة متكاملة توفر له التعاون ، والعدالة ، والنشاط ، وفي مثل هذا المجتمع يستطيع الإنسان كسب المزيد من الثروة ، والمزيد من السعادة ، ولو أنه حسب ما ينفقه في سبيل الله خمسا ، أو زكاة ، أو نشاطا ، خسارة ومغرما ، فلأنه لا يعلم بأن تدوير الثروة وتوزيعها بالعدل يساعد على نشاط المجتمع ، وبالتالي على نموه الاقتصادي.

إن نظرة الإنسان للحياة من خلال معرفته بربّه ، تعرفه بأن عطاءه وإنفاقه في سبيل الله لا ينقصه شيئا ، بل يزيده مالا وسعادة ، ذلك انه سيكتشف عبر هذه

المعرفة بـأن الله لا يحتـاج الى ماله ولا نشـاطه ، وانما ينفق ذلك لنفسه ، ولتـدوير الـثروة ، وتوزيعها العـادل ، ولتطهير قلبه من درن البخل ، والمجتمع من آفة الطبقية.

 أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً

شـيئا ينفقونه وكأنه يخـرج من أمـوالهم ، وهو يقابل (الدخل).

 فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ

كيف يطلب النـبي المشـمول ببركة الله ، وفيض عطائه من البشر الضـعيف الفقـير شـيئا ، بل مـاذا تعـني ثروة الدنيا عند نبي تضاءلت الشمس والقمر أمامه.

 وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

فالله الـرزاق ، الـذي لا حد لعطائه ، ولا ذلّة ، وهو الغني الحميد.

[73] وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

انك ايها الرسـول تـدعوهم الى انتهـاج بـرامج صـائبة لحياتهم. تتمثل في الصراط المسـتقيم الـذي يصل بهم لو اتبعـوه الى أهـدافهم ، ومشـكلة الإنسـان في كثـير من الأحيـان انه يعـرف هدفه ، ولكنه يفتقر الى الطريق والوسـيلة الصـائبة في بلوغه ، ورسـالات الله تهديه الى السبيل الأقوم إلى أهدافه الفاضلة.

وأظهر مصاديق ـ الصـراط المسـتقيم ـ بل ومـيزان الصـراط المسـتقيم. القيـادة الرشـيدة ، والامـام العـادل الذي نصبه الله للناس علما ، يميزون الحق به عن الباطل ، وهو متمثل في شـخص الرسـول ، والائمة المعصـومين من بعـده (ع) والعلمـاء باللـه. الأمنـاء على حلاله وحرامه من بعدهم ، و قد جاء في حديث مأثور عن النبي ـ صـلى الله عليه وآله ـ انه قال لعلي ـ عليه السّلام ـ :

«من أحبك لـــدينك ، وأخذ بســـبيلك ، فهو ممن هدي إلى صـراط مسـتقيم ، ومن رغب عن هـداك ، وأبغضك وانجلاك ، لقي الله يـــــوم القيامة لا خلاق له» [1]

[74] ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُــونَ بِــالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ** ﴾

ذلك أن الإيمان بالآخرة يشكل حجر الزاوية في كيـان الإنســـان العلمي ، أو ليست معرفة النهاية تســـاهم في معرفة حقائق الحياة ، ومن لا يعرف حقيقة الدنيا ، يـزعم انها دار راحة ، وجزاء ، وحين لا يجدهما فيها يزداد شقاء ، ومن لا يؤمن بالآخرة لا يعرف هدف الحياة ، فيهـدف فيها ما يضـــره ولا ينفعه ، أو يهبط الى مســـتوى العتو ، وقد ينتحر ، لأنه لا يجد طعما لحياته ، ومن لا يعتقد بــــالآخرة يتوغل في عبادة الشــهوات ، ويحتجب بها عن معرفة الله ، ولا يلتزم بشرائعه ولا يهتـدي برسـالاته ، فهو في ضـلال بعيد ، ولعله لـذلك لم يقل الــرب : ان الـذين لا يؤمنـون بالله ، بل قال : «**وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**».

[75] ومــــاذا يفعل الله بالإنســــان حين يتنكب عن الصراط؟

هل يرزقه النعم ويرحمه ، فــــــــاذا به يتوغل في الطغيان؟!

أم ينزل عليه النقمة فاذا به لا يرتـدع ولا يتضـرع الى الله؟!

﴿ **وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ** ﴾

كالفقر ، والمرض ، والخوف.

﴿ **لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾

---

(1) المصدر / ص 548.

انجلاك : ترك سبيلك. أي انجلى عنك.

لجّوا بمعـنى : دخلـوا وتوغلـوا ، والله يشـبه الطغيـان في هــذه الآية كما النفق المــوحش ، وهــؤلاء بــدل أن يرجعوا عن المسير فيه ، كلما رحمهم الله تراهم يتوغلون فيه أكثر فأكثر ، فيفقدون بصرهم وبصيرتهم.

والواقع ان من العقبات الـتي تعـترض طريق الايمـان هو موقف الإنسـان من النعم ، فـاذا رزقه الله نعمة طغى ، وزعم : أن طغيانه هو السـبب فيها ، كما تـزعم الـدول الاشـــــــتراكية المتقدمة : ان نظامها الاقتصـــــــادي ، وإديولوجيتها المنحرفة هي الســبب في تقــدمها ، أو كما تــزعم الاخــرى الرأســمالية : ان نظامها ســبب تقــدمها وحضارتها ، وقد ملأوا الدنيا ضجيجا بأن الاقتصــاد الحر هو سبب التقدم.

بينما نجد الرأسمالية حين زرعوها في العالم الثالث ، لم تنبت الا مزيــدا من التخلف ، وكــذلك الاشــتراكية حين حقنـوا بها العـالم النـامي ، لم تلد سـوى الـدمار ، وهكـذا عرفنا بأنه لا الاشــتراكية ولا الرأســمالية هما ســببا تقــدم هذه الدولة أو تلك.

والعمه هو : العمى الذي يصيب الشخص منذ ولادته ، فلا يستطيع ان يميز شـيئا أبـدا ، بينما الـذي يدركه العمى بعد أن يكون بصيرا مدة من الزمن ، فانه قد يســتطيع ان يميز بعض الأشياء ، اعتمادا على ذاكرته وحواسه.

[76 ـ 77] وكـذلك لو أخـذهم الله بـألوان العـذاب ، فإنهم لا يرجعـون عن انحـرافهم ، ولا يتضـرعون اليه ، بل تجدهم يعتمدون على هــذا وذاك من دون الله ، فالمجاعة يكـــون حلّها عنـــدهم بالاعتمـــاد على معونـــات الانظمة الكافرة. بدل ان يكون علاجها بالعودة الى الله ، والتضرع اليه ، وتغيــير الــذات ، والســعي ، والتعــاون ، والعلم ، والعدالة.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَـذابِ فَمَا اسْـتَكانُوا لِـرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ ﴾

جاء في رواية عن الامام الباقر ـ عليه السّلام ـ :

«**الاســـتكانة هو الخضـــوع ، والتضـــرع هو رفع اليدين ، والتضرع بهما**» [1]

هناك نوعان من العذاب :

1 ـ عذاب الابتلاء : وهدفه تغيير الإنسان «**فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**» وعـادة لا ينتفع البشر بهذا النوع من العذاب.

2 ـ عــذاب الانتقــام : وهو إذا انــزل فلا مــردّ له ، كالعـذاب الـذي حل بفرعـون وقومه ، لأنه آمن متـأخرا ، ومن دون فائدة. وهذا النوع من العـذاب يهز الإنسـان من الأعمــــاق الى درجة انه يبلس ، اي تختلط مشـــاعره ، ويبقى في حيرة ، ولا يعرف كيف يتصرف.

 حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ

[78] وبعد ان ذكرنا القـرآن بالعقبـات الـتي تعـترض طريق الايمــان ، يــذكرنا الآن بالله وآياته ، فالإنســان إذا عرف العقبات والحجب التي تمنعه من الايمان ، وتحــداها بقــوة الإرادة ، وبتــذكرة الله ، فانه يكــون آنئذ مســتعدا للتذكرة بالله ، ويفهم القرآن ، ويزداد به إيمانا.

 وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ

وهما نافذتا العقل على المعرفة.

 وَالْأَفْئِدَةَ

---

(1) المصدر / ص 549.

وهي أهم من الســـمع والأبصـــار ، لأنه لو عطب عن العمل فلن ينفعا أبـدا ، إلا أننا قلّما نشـكر الله على هـذه النعم.

 قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ

[79] وَهُــوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْــهِ تُحْشَرُونَ

ذرأ بمعــنى : خلق وأظهر ، ولعل كلمة «في الأرض» للدلالة على أن الـتراب كـان أصل خلقة البشر ، وأن اليه يعود ، ومنه ينتشر ، ويحشر تارة أخرى.

[80] وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ

ان العــالم مع ما فيه من تقــدم تكنلــوجي ، عــاجز بأسره ان يضيف إلى الإنسـان لحظة واحـدة من الحيـاة ، لأن هــذا الأمر بيد الله وحــده ، وهو الــذي يميت أيضا ، وليس الإنسـان وحـده الـذي يخضع لإرادة الله ، بل لا تجد ظاهرة في هذا الكون إلا وهي تنتهي اليه.

 وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ

فالليل والنهــار يتعاقبــان ، ليس فقط في التنــاوب الزمـــني ، وانما أيضا في القصر والطـــول ، ومن أوتي البصيرة ، ونظر بعين قلبه الى إتقـان تـدبير الله في الليل والنهـار تبصر أيضا بمعـنى الحيـاة والمـوت ، وقـدرة الله المهيمنة عليهما.

[81] الإنسان يهتدي لهذه الحقائق حينما يسـتفيد من عقله ، اما حين يعطّله بالأسباب المختلفة ، كتقليد الآبـاء ، فانه أبعد ما يكـون عن اسـتيعاب هـذه الحقـائق الواضـحة والقريبة منه.

 بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ

[82] ماذا قال الأولون؟

يرجعنا القرآن هنا الى السـبب الجـذري لعـدم إيمـان هـؤلاء ، وهو الكفر بـالآخرة ، والـذي سـببه التشـكيك أو الكفر بقدرة الله ، وإرادته اللّامحدودة.

﴿ قـــالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرابـــاً وَعِظامـــاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

يتعجبون كيف أن العظام الرميم تصير بشرا سويا؟!

[83] **﴿ لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْـلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾**

لقد زعمـوا بـأن هـذه الحقيقة أفكـار رجعية متخلفة ، ونسوا أن مبدأهم كان من التراب ، وان الـذي خلقهم أول مرة لقادر على بعثهم من التراب مرة اخرى.

قُــلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُــونَ (84) سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ (85) قُـلْ مَنْ رَبُّ السَّـــماواتِ السَّـــبْعِ وَرَبُّ الْعَـــرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ أَفَلا تَتَّقُـونَ (87) قُـلْ مَنْ بِيَـدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِـيرُ وَلا يُجـارُ عَلَيْـهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (88) سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ فَـأَنَّى تُسْـحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكـاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَـذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَـذَهَبَ كُـلُّ إِلـهٍ بِما خَلَـقَ وَلَعَلا بَعْضُـهُمْ عَلى بَعْضٍ سُـبْحانَ اللـهِ عَمَّا يَصِـفُونَ (91) عـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـهادَةِ فَتَعـالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) قُـلْ رَبِّ إِمَّا تُـرِيَنِّي ما يُوعَـدُونَ (93) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (95)

ادْفَــعْ بِــالَّتِي هِيَ أَحْسَــنُ السَّــيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِــفُونَ (96) وَقُــلْ رَبِّ أَعُــوذُ بِــكَ مِنْ هَمَــزاتِ الشَّـياطِينِ (97) وَأَعُـوذُ بِـكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُـرُونِ (98) حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَـوْتُ قـالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَـلُ صـالِحاً فِيما تَـرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَـةٌ هُـوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

---

98 [يحضرون] : أي يشهدوني ويقاربوني ويصدّوني عن طاعتك.

سيقولون لله قل أفلا تذكرون

هدى من الآيات :

لقد مهد السـياق القـرآن في سـورة (المؤمنـون) للتذكرة بالله سبحانه ببيان العقبات النفسية التي تعـترض سبيل الايمان ، وبعدها جاءت الآيات تستثير أعمق مشاعر الإنسـان الفطريـة. تلك الـتي تهديه لربه وخالقـه. عـبر تسـاؤلات فطريـة. تفـرض نفسـها على وجـدان الإنسـان فرضا ، فمن الـذي خلق السـموات والأرض؟ ومن بيـده حاكمية هذه السماء المترامية الأطراف ، والكون الـذي لا نعلم حـدوده؟ ومن هو صـاحب القـدرة العليا علينا ، فإليه يلتجئ الناس عند الشدائد؟

وتجيب الآيـات على هـذه التسـاؤلات بوضـوح : انه (اللـه) القـاهر فـوق كل شـيء ، وليس كمثله شـيء ، وتتوجه اليه قلوب الناس بفطرتهم الـتي خلقهم الله عليها ، وكما قال الرضا (ع):

«**بالفطرة تثبت حجته**». [1]

---

(1) بحار الأنوار ج 4 ـ ص 233.

اذن فما العائق امـام ذكر اللـه؟ وما هي العقبة الـتي تقف أمـام التقـوى ، وتجعلنا غـافلين مـرة ، ومسـحورين أخــرى ، قد فقــدنا الإرادة نتيجة لضــغوط مختلفة داخلية وخارجية ، بل قد نهوى الى حضيض التكذيب والشرك.

هــذا التسلسل الباطل يتــدرج عــبره الإنســان خلال مراحل هي :

1 ـ الغفلة : فعند ما يغفل الإنســـان فإنه يضع لبنة الأســـاس للحـــاجز الـــذي يحـــول بينه وبين كنه الحقيقة المنشودة ، فينسيه أبـرز حقيقة في هـذا الكـون الواسع ، التي يقول عنها تبارك وتعالى :

«**قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَـكٌّ فـاطِرِ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ** ؟!». [1]

مما يمهد للهـوى والشـهوة ان يسـدلا سـتارهما امـام نور العقل ، وضياء الفطرة.

2 ـ والذي يجعلنا لا نتقي عذاب الله وسخطه بالتقوى ، هي حجب الغفلة والشـهوة الـتي تجعل الإنســان يتخبط في ظلام الجهل والعنـــاد مخالفا أوامر عقله ، ووخـــزات ضميره ، وصرخات وجدانه.

3 ـ السـحر : وهي مرحلة فقـدان الإرادة الانسـانية ، والــوعي البشــري ، حيث أن الضــالين يحــاولون تضــليل الآخرين ، فيؤثّرون على فئة من الناس بمعتقداتهم ، التي ضلوا بها عن الله ، فيجعلونهم يرتكسون في بــؤرة الغفلة والشـهوة ، لتسـلب عنهم مشـاعرهم ، فـالأعين عميـاء لا تبصر الحقيقة ، والأذان صمّاء لا تسمع وحي الله ـ سبحانه ـ وحقائق الحياة ، والألسن بكمـاء لا تتكلم ، الا في مجـال اللهو والعبث ، والاهتمامات الشخصية ، والمشاعر الأنانية ، فيدفعهم كل ذلك للمرحلة الاخيرة من مسيرة التسـافل والسقوط.

---

(1) سورة إبراهيم / 10.

4 ـ التكـذيب : ونسـأل أنفسـنا لمـاذا نكّـذب بهـذه الحقيقة الواضـــحة ، ونكفر ، ونســـخر بهـــذه العقيـــدة الراســخة في اعمــاق النفس البشــرية ونحن على وعي وادراك بهذه المسألة؟!

ولكن الخالق البـارئ يرجع المسـألة لعواملها الأولية ، ويلقي بمسؤولية الانحراف على نفس الإنسان فيقول :

«**قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**». [1]

5 ـ وتبقى هناك عقبة كأداء وهي عقبة الاعتمــاد على الآلهة المزيفة ، الـــتي خلقتها شـــهوات النفس ، وظلام الجهل لتبرير واقعها المعاش ، والإعتقاد بان لله ولـدا ، أو وسائل أخرى توصل اليه ـ سبحانه ـ غـير الـتي بينها لهم ، وبأن هناك آلهة صغارا يمكن ان يشفعوا للإنسان من دون الله ، ويحجّهم ـ سبحانه ـ بقوله : انه لا يتخذ ولـدا ، وأنتم تعلمون أيها البشر بفطرتكم ، وبهدي عقولكم بأن الله هو مالك الســموات والأرض ، وصــاحب العــرض العظيم ، وعـالم الغيب والشـهادة ، والظـاهر ، والبـاطن. فكيف لا يعلم بوجـــود ولد له أو شـــريك؟! وانكم انما تخـــدعون أنفسـكم ، وتتوهمـون ، وتزعمـون بوجـود شـركاء الله أو أولاد ، لتخلّصوا أنفسكم ، وتنقذوها من غضب الله.

هـــذه هي الحجب الخمس والمتدرجة الـــتي لا بد ان يخرقها المؤمن بإرادته ـ بعد ذكر الله ـ ذلك مما نسـتوحيه من السـياق في هـذا الـدرس حيث يقـول ربنا : «**أَفَلا تَذَكَّرُونَ**» اشارة الى حجاب الغفلة ، ويشـير الى حجـاب الشـهوات بقوله : «**أَفَلا تَتَّقُـونَ**» والى حجـاب التضـليل والإسحار بقوله : «**فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**» وحجاب

(1) سورة الأنعام / 104.

التكذيب : «**وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**» وبالتـالي الى أكـبر الحجب واخطرها وهو الشـرك فيقـول سـبحانه : «**فَتَعـالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**».

ان هذه الوساوس من همـزات الشـياطين ، والهمـزة مفـرد همـزات ، وهي : الدفعة القوية ، والشـيطان يـدفع بالإنســان نحو الكفر ، والشــرك بالله دفعا قويّا ، فعلى الإنسان ـ الضعيف ، الغافل ، الظلوم ، الكفّار ـ ان يتوسل بقوة الله وقدرته ، ليقيه شر هذه الهمزات لأنه لا حول له ولا قــوة الا بالله العلي العظيم ، ومن دون التوكل على الله ، والاعتماد عليه والاسـتعاذة بقوته والاعتصـام بكلمته العليا ، فإنه سينهار أمام هذه الدفعات النفسية الشهوانية للشيطان ـ وصدق الله العلي العظيم ـ حينما يقول :

﴿ **وَقُـلْ رَبِّ أَعُـوذُ بِـكَ مِنْ هَمَـزاتِ الشَّـياطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ** ﴾. [1]

ويلعب الشيطان دورين في حياة الإنسان :

الاول : دفعه نحو الاعتقادات الخاطئة ، والممارسـات المنحرفة ، ولو بشكل تدريجي.

الثاني : الحضور الدائم له في النفس البشرية ، ودور المراقبة والمرافقة. حيثما تحـرك وتفكر ، وعلى الإنسـان ان يستعيذ دائما بالله من الشيطان ، والوسواس الخنـاس ، واللجـــوء الى حصن الله ، والتمسك بحبله ، وعروته الوثقى.

ولكن كيف يستعيذ الإنسان بالله من الشيطان؟

وكيف يتجاوز عقبة الشرك والاعتقـاد بـأنّ هنـاك قـوة أخرى في هذا الكون تطاول

---

(1) سورة المؤمنون / 97 ـ 98.

قدرة الله سبحانه وتعالى؟

ان العلاج النفسي لهــذه العقبة هو تــذكر الآخــرة ، وعذاب القبر والبرزخ.

و من كلام لأمير المؤمنين ـ عليه السّلام ــ لمحمد بن أبي بكر (رض) عن الموت وعذاب القبر :

«**يا عبـاد الله ما بعد المـوت ــ لمن لا يغفر له ــ أشد من الموت والقبر ، فاحذروا ضـيقه ، وضـنكه ، وظلمته ، وغربته ، فـأن القـبر يقـول كل يـوم : انا بيت الغربة. انا بيت التراب. انا بيت الدود والهـوام ، والقـبر روضة من ريـاض الجنة ، أو حفـرة من حفر النار**»

وفي مقطع آخر يقول :

«**يا عباد الله إن أنفسكم الضـعيفة ، وأجسـادكم الناعمة الرقيقـة. الـتي يكفيها اليسـير تضـعف عن هذا ، فان استطعتم ان تجزعوا لأجسادكم وأنفسكم بما لا طاقة لكم به ، ولا صبر لكم عليه فـاعلموا بما أحب الله ، واتركوا ما كره الله**».

ويصور لنا القرآن مشاهد كثيرة من مشـاهد الآخـرة ، إذ يصـور الإنسـان عند ما تحضـره الملائكة لقبض روحه ، فيصيح ويقول :

«**رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ**».

فهو يتمـنى ان يعـود للـدنيا أياما معـدودات ، يصـرف فيها جميع طاقاته ، وممتلكاته ، وقدراته في ســبيل الله ، فيصـرف أمواله صـدقة ، وقـوة جسـمه للعمل الصـالح ، وفصـاحة لسـانه للـدعوة وذكر الله ، وعينه للاعتبـار بخلق الله ، والبكــاء على ذنوبه الــتي اقترفها ، لكن الجــواب صارم ، صاعق. لو نزل على جبل لهـدّه. انها كلمة كلا .. ، وان الفرصة قد انتهت ، وسنين حياتك قد انصــرمت. دون عودة.

اما كم يعيش الإنسـان؟ ومـتى تكـون السـاعة؟ فالله وحده هو العالم ولا عالم غيره ، وهـذه الحقيقة تكشف لنا أن هذه الآلهة المزيفة التي يعتقد الإنسـان بأنها شـريكة ، وامتـداد لقـدرة الله وقوته ، يجب ان تسـقط من أعيننا ، وتتحطم في داخل نفوسنا ، لنعبد الله مخلصين ، له الدين ، ولو كره المشركون.

بينات من الآيات :

[84] ﴿ قُــلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ان كنتم تسـتفيدون من علمكم ــ والاسـتفادة هي معيار الجهل والعلم ـ فالعلم يعطيه الله لمعظم النـاس ــ ولو بقدر محدود ـ ولكن متي يكون الإنسـان عالما فقـط؟ عند ما يستفيد من علمه وإلّا فهو جاهل ، ولو سـألتهم من خالقكم ومالككم ـ وما تحويه هذه السموات والأرضـون ــ ومن بيده الحاكمية العليا؟

انه الله حيث يقول :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَــقَّ وَهُــوَ خَيْــرُ الْفاصِلِينَ ﴾.[1]

والـذي عنـده القـدرة التنفيذية المطلقة في الكـون الواسع ، لا يملك الإنسان امامه الا التسليم والخضوع.

[85] ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾

اذن فلما ذا يحجـزكم حجـاب الغفلة عن هـذا الـرب العظيم ، الذي يملك الأرض ومن فيها؟!

وهـذه الكلمة لا تختص بـالآخرين ، بل بنا جميعا ، لأننا لا نزال نخلد إلى أرض

(1) سورة الانعام / 57.

الغفلة ، وقد نتذكر ما دمنا في أجواء التــذكرة ، ولكن عند ما تواجهنا شهوة أو يصادفنا غضب اين يصبح ذكر الله؟!

حينها تلتجئ النفس البشــــرية في خلق الأعــــذار والتــبريرات لتلقي عن كاهلها نبعة المســؤولية ، ولــذلك جعل الله سبحانه ذكره مستحبا شرعا ، وجعل من ذكره ـ من المؤمنين ـ حين قال :

﴿ الَّذِينَ يَــذْكُرُونَ اللــهَ قِيامــاً وَقُعُــوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ ﴾.[1]

ففي جميع الحــالات المادية ، والظــروف النفســية ، يجعل الله ذكره ضروريّا.

ونسأل : ما هو الذكر الذي تعنيه الآيات؟

ان الذكر هو تذكر الله حين تهم بالمعصية ، أو تشــرع في ارتكاب الخطيئة. حينما تجد من يعاتبك داخل وجــدانك على ما تفعل ، فلا بد ان تــذكر الله لتحسم صــراع النفس لصــالحها ، اما حين تفقد الــذّكر يمــوت الوجــدان ، وينتهي الإحســاس ، فتميل الكفة لصـــالح الارادة الشــريرة في نفس الإنسان.

[86] **﴿ قُــلْ مَنْ رَبُّ السَّــماواتِ السَّــبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾**

الله رب السموات الســبع ، لأنه خلقها ، وأكمل خلقها ، طورا فطــورا ، واجــرى الخلق كما الطفل عند ما ينمو ، ويكبر ، فهو الذي خلقها ، وهو المسيطر عليها ، والمهيمن الذي يجري عليها سلطانه ، وقوانينه ، وانظمته ، والعرش يعني : السلطة الفعلية على الكون ، وبهذا التساؤل تكمل مســيرة الاســتدلال المنطقية على وجــود الله مخاطبا بها العقل البشري ، والفطرة الانسانية.

---

(1) سورة آل عمران / 191.

[87] ﴿ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴾

يجب ان يخشى الإنسان من بيده السلطة ، فلما ذا لا تخلع حجب التحدي والعناد والتكبر؟!

والخشية هي الحجاب الفاصل بين التقوى والانحراف ، والايمان والكفر.

[88] ﴿ **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾

الملكوت مبالغة في الملك ، كما الجبروت مبالغة في التجـــبر ، والطـــاغوت مبالغة في الطغيـــان ، وملك الله يشمل ما يظهر وما يخفى ، لا كسائر الملوك والسـلاطين الذين يهيمنون على ظاهر الناس دون باطنهم.

﴿ **وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾

ان الله قادر ان يمنع الآخرين عنك فيجـيرك ، ولكن لا يسـتطيع أحد ان يمنع عـذاب الله وانتقامه عنـك. لو أراد ذلك ، وهنـاك فكـرة تنقل عن أفلاطـون وهي : إذا كـانت السـماء قوسا ، والبلاء سـهما ، والـرامي هو الله فـأين المفـر؟! وقد نقلت هـذه الفكـرة الى رسـول الله (ص) فنزلت الآية «**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ**» وفرق بين الفكرة الاولى السلبية ، والثانية الايجابية التي تدعونا ان لا نقف مكتوفي الأيـــدي حين نـــرى البلاء ، بل نلجأ الى الله ، فنفر من الـرامي اليه ، ومن غضـبه الى رحمتـه. فنقـرأ في الـدعاء المأثور : «**من أين لي الخير ولا يوجد إلّا من عندك؟! ومن أين لي النجـاة ولا تسـتطاع الا بـك؟! لا الـذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك ، ولا الـذي أسـاء واجترأ عليك خرج عن قدرتك**».

[89] انك لو سألتهم عن كل ذلك :

﴿ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** ﴾

بفطرتهم.

 قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ

تخدعون من قبل الآخرين ، وتسلب منكم مشـاعركم ، وإرادتكم.

[90] بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

والكـذب مرحلة خطـيرة من الكفر والجحـود ، حيث ينكر البشر الحق لا عن جهل به ، وانما عن وعي بأنه الحق.

[91] ومن أكـبر كـذبهم ادعـاؤهم بـأن لله ولـدا أو شريكا ، والقرآن ينفي هذه الكذبة إذ يقول :

 مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ

«من» تفيد الحصر ، والآية ردّ على الـذين يزعمـون بان : الله منح قدرته وسـلطانه لبعض النـاس دون بعض ، ولو افترضنا أن مع الله آلهة أخرى :

 إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ

وجعل لخلقه نظاما خاصا به ، ولكنّا نجد أن النظـام الـذي يحكم الـذرة هو الـذي يحكم المجـرة ، ولو صح ما يزعمون لحدث التناقض بين هذه الآلهة.

 وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ

وما دمنا نلمس وحـدة النظـام والخلـق. اذن فالاله واحد لا شـريك له ، ونجد فكـرة تعـدد الآلهة منتشـرة في الأسـاطير اليونانية بكـثرة ، والكفـرة العميقة في هـذا المقطع من الآية هي : انه لو كـانت توجد الهة غـير الله لكان لكل إله قدرة ذاتية ،

ولسعى لمد قدرته وسـيطرته من أجل الهيمنة على غـيره ، ولاستحالت الحياة ، ولأدى ذلك الى فساد الكون.

«**لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا**».

 سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ

وهو انزه واقدس مما يصفه هؤلاء.

[92] **عــالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّــهادَةِ فَتَعـالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**

ولو كان ثمة آلهة غيره لكــان أدرى بها ، لأنه ذو العلم بما غاب وما حضر.

[93] **قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ**

حيث وعد الكفار والمشركين بالهزيمة والدمار.

[94] **رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**

فـالبلاء إذا نـزل عم ، ولا سـبيل للتخلص من عـذاب الله النــازل على الظــالمين والمشــركين ، الا الانفصــال عنهم ، ونكران أعمالهم. لا السكوت عنها لان الله يقول :

«**وَاتَّقُــوا فِتْنَــةً لا تُصِــيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُــوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**».

[95] **وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ**

من العذاب والانتقام.

 لَقادِرُونَ

[96] ولكي تتخلص من العذاب ، ولا تشرك مع الظالمين ، يجب ان تواجه انحرافهم بالاستقامة على الحق ، وذنوبهم بالطاعة لله. ولعل الآية تعتبر صورة جلية للتحدي ، وآية واضحة لعزة الله وقدرته ، وعزة المؤمنين به ، وقدرتهم في مواجهة أعداء الدين.

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ ﴾

صحيح ان الله قادر على دفع عادية الكفار ، وصحيح انه يفعل ذلك متى ما اقتضت حكمته البالغة ، ولكن ينبغي الا يسبب ذلك في إساءة خلق المؤمنين ، وتجبرهم في الأرض ، بل لا بد ان يتمتعوا بأخلاقية سامية في التعامل مع الآخرين ، والصبر على أذاهم وتحمل الصعاب الشخصية دون تبليغ الدعوة.

[97] **﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ﴾**

والهمزات هي الدفعات ، التي يقوم بها الشيطان لتضليل الناس واغوائهم ، وليس ضروريا ان يكون الشيطان ذلك الموجود الخفي الذي نتصوره ، بل قد يتجسد في صورة شهوة عارضة ، أو إنسان منحرف يحاول التأثير عليك سلبيا.

[98] **﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾**

يجب على المؤمن ان يفر من مجالس الشياطين ـ الانس ، والجن ـ كمجالس المعصية ، والحديث على الناس.

[99] ان الإنسان الذي لا يستعيذ بالله من الشيطان في الدنيا ، ولا يتقي الله. يدركه الندم حين لا ينفع الندم ، لذلك بعد ان حذر الله من الشيطان يتعرض لحال الإنسان المنحرف حين الموت قائلا :

** حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ **

بصيغة الجمع تعظيما لله لعله يعيده مـرة أخـرى لكي يبني له مستقبلا جديدا بما يملك من طاقات.

[100] **لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ**

ولكن يا للحسرة والندامة ، إذ يأتيه الجواب :

 كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها

ولو أعيد لما تغـير ، وكـان حـري به ان ينتفع برسـالة الله ، وبفرصة الدنيا لينقذ نفسه.

 وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

فَــإِذا نُفِخَ فِي الصُّــورِ فَلا أَنْســابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَســاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُــهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُـهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنْفُسَــهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِــدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُــوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كــالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيــاتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَـذِّبُونَ (105) قــالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِــقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْمــاً ضــالِّينَ (106) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (107) قـالَ اخْسَـؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُـونِ (108) إِنَّهُ كـانَ فَرِيـقٌ مِنْ عِبــادِي يَقُولُــونَ رَبَّنا آمَنَّا فَــاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْــرُ الــرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَـذْتُمُوهُمْ سِــخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110)

---

104 [كالحون] : الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو.

108 [اخسؤا] : خسّأت فلانا إذا زجرته ليتباعد ومعناها تباعد تباعد.

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَـوْمَ بِما صَـبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفـائِزُونَ (111) قـالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَـدَدَ سِـنِينَ (112) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـئَلِ الْعـادِّينَ (113) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعـالَى اللـهُ الْمَلِـكُ الْحَـقُّ لاَ إِلـهَ إِلاَّ هُـوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهـاً آخَـرَ لا بُرْهـانَ لَـهُ بِـهِ فَإِنَّما حِسـابُهُ عِنْـدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكـافِرُونَ (117) وَقُـلْ رَبِّ اغْفِـرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْـرُ الرَّاحِمِينَ (118))

إنه لا يفلح الكافرون

هدى من الآيات :

موقف السخرية من رسل الله أشد المواقف خطورة ، وهو نابع من حالة اللامبـالاة والـزعم بـان الخلق عبث لا هــدف له ، ويبــدو ان هــذا الــدرس الأخــير من ســورة المؤمنون ، يعالج هـذا الموقف ، بتـذكير البشر بالحسـاب الدقيق ثم الجزاء الأوفى الذي ينتظره بعد الموت.

ويبين السياق :

أولا : ان تلك العلاقــات الــتي كــانت ســببا للجحــود والابتعاد عن الله ، سـوف تنتهي يـوم القيامة (فلا أنسـاب بينهم) ، اذن يجب على الإنســان ان لا توقفه هــذه العقبة عن الايمان.

ثانيا : ان المقيـاس الحق لتقـييم الإنسـان نفسه ، هو المــيزان الــذي يجسد القيم الحقيقة الــتي فطــرت عليها العقول ، وتذكر بها رسالات الله ، وهو الذي نعرف عن

طريقه هل أننا بخــير أم على شر ، فــاذا ثقلت مــوازين الإنســان ، وكـانت صـالحاته أكـثر من سـيئاته كـان من أصـحاب الجنة ، والا فانه من أصـحاب النـار ، والآية الـتي تحمل هـذا المضـمون (102 ــ 103) هي أكـثر الآيـات تحذيرا في القرآن كما يبدو لي ، إذ من الذي يسـتطيع ان يطمئن ولو نسبيا الى أنّ حسناته أكثر من سـيئاته؟! لهـذا فان المؤمنين لا يتركون وقتا الا واستغلوه للعمل الصالح.

ثم يصف لنا القرآن بعض المشاهد من يــوم القيامة ، يوم تلفح النار وجوه الكافرين والظـالمين ، حـتى تنكمش أسنانهم وتحترق وجـوههم فتظهر أسـنانهم كلها ، وعند ما يطلبون من الله العـودة لاسـتئناف العمل يـأتيهم الجـواب أن اخســـأوا ، وهي كلمة لا تقـــال الا للكلب ، فقد كنتم تهـزؤون وتسـخرون من عبـادي يـوم كـانوا يـدعونكم الى عبادتي ، وها قد جزيتهم بالجنة وأنتم في النار.

ويستمر السـياق يـبين لهـؤلاء اخطـاءهم ، والـتي من أهمها انهم اعتقدوا بـان لا رجعة بعد المـوت ، وبالتـالي لا مسـئولية ، فتمـادوا في غيهم وانحـرافهم ، وفـاتت عليهم فرصة الدنيا التي يفترض ان يزرعها الإنسـان عملا صـالحا ينفعه في الآخــرة ، وذلك لن يكــون دونما ايمــان خــالص بالله.

وحتى لا تكون هذه الشدة سببا لليأس يفتح الله بآخر آية من هـذه السـورة بابا للامل ، حينما يـذكرنا بأنه أرحم الـراحمين ، وكم هو شـقي ذلك الإنسـان الـذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله التي وسعت كل شيء.

بينات من الآيات :

[101] ﴿ **فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ** ﴾

حيث تتلاشى العلاقات النسبية ، فلا يعرف أحد أحدا ، وكل ينادي نفسي نفسي الا المؤمنين قال تعالى :

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾. (الزخرف / 67)

﴿ وَلا يَتَساءَلُونَ ﴾ عن أنسـاب بعضـهم ، لهـول الموقف ، ولعـدم فائـدة ذلك ، إذ يكون لكل منهم شأن يغنيه عن شؤون الآخرين.

لقد كان أئمة الهدى عليهم السّلام يجهـدون أنفسـهم بالعبادة بالرغم من صلتهم القريبة الى رسول الله (ص) ، وإذا سـألهم أحد عن ذلك تلو عليه هـذه الآية ، يقـول طاووس الفقيه : رأيته ـ أي زين العابدين (ع) يطـوف من العشاء الى سـحر ويتعبد ، فلما لم ير أحـدا رمق السـماء بطرفه ، وقـال : الهي غـارت نجـوم سـماواتك ، وهجعت عيون أنامك ، وأبوابك مفتحات للسائلين ، جئتك لتغفر لي وترحمـني وتريـني وجه جـدي محمد (ص) في عرصـات القيامة ، ثم بكى وقـال : وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وانا بك شـاك ، ولا بنكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعـرض ، ولكن سـوّلت لي نفسي ، واعـانني على ذلك سـترك المـرخى به عليّ ، فـالآن من عـذابك من يسـتنقذني؟! وبحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عـني؟! فـوا سـوأتاه غـدا من الوقـوف بين يـديك ، إذا قيل للمخفين جـوزوا وللمثقلين حطـوا ، أمع المخفين أجوز؟! أم مع المثقلين أحـط؟! ويلي كلما طـال عمـري كـثرت خطايـاي ولم أتب ، اما آن لي ان اسـتحي من ربي؟! ثم بكى وانشأ يقول :

أتحرقـني بالنـار يا غاية المـنى	فأين رجائي ثم أين محبـتي
أتيت باعمـال قبـاح رزية	و ما في الـورى خلق جـنى كجنـايتي

ثم بكى وقال : سـبحانك تعصى كأنك لا تـرى ، وتحلم كأنك لم تعص ، تتودد

الى خلقك بحسن الصـنيع كـأن بك الحاجة إليهم ، وأنت يا سـيدي الغـني عنهم ، ثم خر الى الأرض سـاجدا ، قـال : فدنوت منه ، وشلت برأسه ووضعته على ركبـتي ، وبكيت حتى جرت دموعي على خـده ، فاسـتوى جالسا ، وقـال : من الـذي اشـغلني عن ذكر ربي؟! فقلت : انا طـاووس يا ابن رسول الله. ما هذا الجـزع والفـزع؟! ونحن يلزمنا ان نفعل مثل هذا ونحن عاصون جـانون ، أبـوك الحسـين بن علي وأمك فاطمة الزهـراء ، وجـدك رسـول الله (ص)؟! قال : فالتفت اليه وقـال : هيهـات هيهـات يا طـاووس دع عني حديث أبي وأمي وجدي ، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ، ولو كان عبـدا حبشـيا ، وخلق النـار لمن عصـاه ولو كـان ولـدا قرشـيا ، أما سـمعت قوله تعـالى : «**فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّـــــورِ فَلا أَنْســــــابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسـاءَلُونَ**»؟! والله لا ينفعك غـدا إلا تقدمة تقـدمها من عمل صالح.[1]

[102] الجميع يقف امام المـيزان ويـده على قلبه ينتظر النتيجة ، إما إلى الجنة وإما الى النار ، ولعل أصدق الموازين وأنفـذها حجج الله على خلقه ، الـذين يجسـدون في الدنيا قيم الرسالة وهم الرسل والائمة.

﴿ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾

إذ يصـيرون الى نعيم الجنة ، وأهم من ذلك يصـيرون الى رضوان الله.

[103] ﴿ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُـــهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ** ﴾

ولعل معـنى خسـروا أنفسـهم انهم خسـروا فرصـتهم الوحيدة في الدنيا.

[104] وأي عذاب يناله هؤلاء؟

(1) بحار الأنوار ج 46 ص 81.

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾

واللفح هو ضــربة الســيف الشــديدة ، ففي الآخــرة تضرب النار وجوههم كأنها حدّ السيف.

﴿ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ ﴾

اي مكشّـرين عن أسـنانهم بسـبب احـتراق شـفاههم وانكماشها باللفح.

[105] ويأتي النـداء لأصـحاب النـار حينما يسـتغيثون من النار :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَـذِّبُونَ ﴾

[106] ﴿ قـالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِــقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ ﴾

لقد شــــقوا بأعمــــالهم ولا يخلق الله شخصا شــــقيا بطبعه.

[107] ويضيفون :

﴿ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ ﴾

اعطنا فرصة أخــرى ، وجربنا مــرة ثانية ، فـاذا عـدنا فاننا ظالمون فعلا.

[108] ﴿ قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾

أخســأوا : بمعــنى عــودوا ، وهي كلمة يقولها للكلب صاحبه ، حينما يتبع أحـدا ليؤذيه أو غـير ذلك ، ويقولها الله لهم إهانة وتحقــيرا ، والواقع إن تحقــيرهم أنفســهم في الــدنيا هو الــذي أهـانهم في الآخــرة ، إذ لم يرتفعـوا الى مسـتوى تطـبيق آيـات الله ، وهبطـوا الى حضـيض اتبـاع الشيطان الرجيم المطرود من رحمة الله.

[109] ﴿ **إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** ﴾

لقد كـانت جماعة منكم ، وبين ظهـرانيكم ، يـدعون ربهم ويؤمنـون به ، لقد آمنـوا ثم اعـترفوا بالتقصـير ، وسعوا نحو مرضاة الرب.

[110] ﴿ **فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ** ﴾

ان الاستهزاء من المؤمنين يحمل في طياته السخرية من مبادئهم ، ولكنه يحـوّل الصـراع الى صـراع شخصي ، حيث يعادي الكفار اشخاص المؤمـنين ويسـقطون هيبتهم من أنفسهم ، ويحقّرون كل أفعالهم وتصرفاتهم ، وبالتالي ، يصـبح حـاجزا نفسـيا دون التفكـير في المبـادئ الـتي يدعون إليها ، ولعل ذلك هو ما أشار اليه القرآن هنا بقوله : «**حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي**».

اما قوله : «**وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ**» فهو الجـانب السلوكي والعملي لحالتهم النفسية حيث كـانوا يتخـذونهم سخريا.

[111] لقد كـان المؤمنـون في الـدنيا عرضة لالـوان البلاء والمشـاكل ، من السـخرية والضـحك و .. ولكنهم استقاموا وصبروا فكان جزاؤهم الجنة.

﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ** ﴾

ويبـدو من الآية ان من أعظم الصـبر الصـبر على تجريح الشخصية ، ولذلك نجد أبرز صـفات المؤمـنين حقا انهم لا يأبهون باللوم ولا يخافونه.

[112] ثم يسألهم الله :

﴿ **قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ** ﴾
لنرى كيف كانت الدنيا التي بعتم الآخرة بها؟!
[113] فيأتي الجواب :
﴿ **قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ** ﴾
وهذا التقدير يأتي نتيجة الفرق بين الآخرة والـدنيا من زاوية الزمان.
[114] ﴿ **قـالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَـوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾
لو كنتم تعرفون بأن الحياة الحقيقية والخالدة تبدأ بعد الدنيا.
إن وعي الزمن وامتـداد نظر الإنسـان الى أبعد نقطة في المســتقبل شــرط أساسي للتكامل ، ولأن أســمى التكامل الايمـان فـإن المـؤمن يقـدر الـزمن في الـدنيا بميزان الخلود الأبدي في الآخرة ، ولذلك يفوز بالصبر لأنه سبق وأن أحسن التقدير.
ويبــدو ان النظر الى الــزمن ومقــدار وعيه يشــكل أســاس الايمــان بـالآخرة ، والقـرآن الحكيم يعـالج هـذه الناحية من نفسـية البشر ، فلو كـانوا يعلمـون لعرفـوا ان كل الفـترة الـتي يقضـونها في الـدنيا قليلة في حسـاب الآخرة ، فلما ذا خسارة الآخرة بهذه الفترة القليلة؟!
[115] ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ** ﴾
هل كانت حياتكم الدنيا بلا هدف؟!
أم هل من الحكمة ان يخلق الإنسـان للأكل والشـرب ثم يموت؟!

[116] **فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُ**
ان الله أنـزه من أن يخلق الإنسـان بلا هـدف. ثم إذا كان كل جزء في الإنسان يؤدي هدفا معينا فـالعين تبصر ، والاذن تســمع ، والجــوارح تقــوم بأدوارها المحــددة ، والأعضـاء الداخلية تقـوم بمهامها ، والغـدد والاجهـزة وكل خلية تؤدي وظيفة خلقت لها ، وحتى الزائدة الدودية الـتي سماها كذلك الطب في أيام طفولتهم تقوم بـدور محـدد ، فهل من المعقول ان يكـون خلق الإنسـان عبثا وبلا هـدف محدد؟! ونحن حين ننظر الى ما حولنا من اشعة الشمس وضوء القمر وحركة الأرض ونشاط الأحيـاء فيها ، وانظمة سائر الموجودات نجدها جميعا تخدم وجود البشر ، وكذلك خلقت بهــدف محــدد ، فهل خلق الإنســان نفسه لغــير هـدف؟! سـبحان اللـه!! ومن هنا يسـأل أحـدهم الامـام الصــادق (ع) : لم خلق الله الخلــق؟ فيقــول : «**ان الله تبــارك وتعــالى لم يخلق خلقه عبثا ، ولم يــتركهم ســــدى ، بل خلقهم لاخطـــــار قدرته وليكلفهم طاعته**».

 لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ
فالله هو رب الســـلطة ، ولكنه الســـلطة الكريمة والحكيمة وليست العبثية حتى يخلقنا بلا هدف.

[117] **وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**
فحــتى لو عبد غــير الله فانه لن يخــرج بــذلك عن سلطته وهيمنته وسيكون حسابه وجزاؤه عنده.

 إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ

ذلك الجــزء من الآية يتحـــدث عن الحســاب ، بينما يتحـدث هـذا المقطع عن الجـزاء ، وهنا نجد المعادلة بين أول السورة الذي يقـول (قد أفلح المؤمنـون) وبين آخرها الذي ينفي الفلاح عن الكافرين.

والشـرك ليس بالضـرورة ان يتصـور الإنسـان وجـود خــالق غــير الله ، بل قد يكــون بطاعة الأشــخاص ، من أصحاب المال والسلطة من دون حجة من الله.

[118] ان الإنســـان بطبيعته الترابية ، ينجــذب الى أرض الشـرك ، والتفكـير بـأن من يرزقه هو أبـوه وأمه ، وبأن من يحكمه هو السلطة السياسية القائمة في بلـده ، وبــأن من يهديه هو الإذاعة والتلفزيــون ، ولكن الإنســان بعقله وإرادته وإيمانه يســتطيع ان يقتلع نفسه عن هـــذه الطبيعة اقتلاعا ، ويحلق بها عاليا في سماء التوحيد ، حتى يرى كل الأمور بيد الله الذي يسلم هو له.

ومن مشاكل الإنسان ان هذه الطبيعة تبقى معه حتى إذا صار مؤمنا ، فتارة يستجيب لها وتـارة أخـرى يتحـداها ويتغلب عليها ، والشرك الذي يصيب البشر قد يكون خفيا فلا يخلو قلب من الشـــرك ، ولكنّ الله يعطي الإنســـان المؤمن برنامجا لمواجهة هذه المشكلة فيقول :

﴿ **وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** ﴾

ان وقــود الإنســان المــؤمن هو الاســتغفار وقــرن الاســتغفار بالرحمة ـــ في الآية ـــ لكي لا نيـأس فنـترك الاستغفار والتوبة حين الذنب كبيرا كان أو صغيرا.

ونحن بدورنا نسـأله ان يرحمنا ويجعلنا من المؤمـنين الفائزين بالفلاح.

سورة النور

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة :

جاء في رواية عن أبي عبد الله الصـادق عليه السّـلام :

«حصنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور ، وحصـنوا نسـاءكم ، فـان من أدمن قراءتها في كل يوم أو في كل ليلة ، لم يـزن أحد من أهل بيته أبـدا حتى يموت ، فاذا مات شيّعه الى قبره سـبعون الف ملك ، كلهم يدعون ويستغفرون له حـتى يـدخل في قبره» [1]

(1) نور الثقلين ج 3 / ص 570.

الإطار العام

كما السور الرفيع يصون بيت الإنسان ، شـرفه وقيمه وشرائع الرب في المجتمع.

والاسرة كمشكاة ، تحفظ ضياء الفطرة ونور الــوحي عن عواصف الشهوة وأدران الهوى.

ونـور الله الـذي هبط من الســماء أسـتقر في بيـوت رفعها الرب بذكره.

حــول هـذا المحــور تـدور موضـوعات ســورة النــور المباركة ، ولكن كيف؟

نقــرأ في فاتحة الســورة اشـارة الى الســورة الــتي فرضها الرب ، وانزل فيها آيات بينات ، بهدف تذكر الناس وتلك الســورة الـتي فرضـها الــرب ، تصــون بآياتها الــتي تفيض حزما فطرة البشر ، وذلك :

أولا : بفـرض حد الزانية والـزاني ، وتهديد مبطّن بـان المؤمنة والمؤمن لا يمارسان الزنا.

ثانيا : بتحصين البيت من عبث الفاسقين ، وفرض حد القــذف على من رمى محصــنا بالزنا ، من دون ان يــأتي بأربعة شهداء.

ثالثا : بتشريع حكم اللعان بين الزوجة والزوج ، الــذي يرميها بالفاحشة ، فعليهما القسم أربعا ، ثم التلاعن في الخامسة.

ويعـالج القـرآن مـرض الشـائعة ، الـتي تـدور تاريخيا حول قصة الافك بينما تجري في كل اشاعة باطلة.

وهكـذا يـزكي القـرآن الأجـواء ، فلا قـذف ولا شـائعة (وهي قذف جماعي).

ويشــير الى التطــابق الاجتمــاعي ، بين الخبيثــات والخبيثين كما بين الطيبات والطيبين (26).

وبعد ان تــزكي الــدروس الاولى اجــواء المجتمع من لـوث الزنا والقـذف والاشـاعة ، ينتقل السـياق الى تقرير «حرمة الــبيت» و «حرية الإنســان في بيتــه» فينهى عن دخــول الــبيت الا بعد الاســتيناس والسّــلام على أهله ، والرجــوع عنه عند افتقــاد الإذن لأنه الأزكى ، الا الــبيوت العامة وغير المسكونة.

وفي اطار صيانة الاسرة يأمر القرآن بتنظيف الطرق والمراكز العامة من سـهام إبليس ، حيث يـأمر الرجـال ، بغض الأبصـار ، كما يـأمر النسـاء بـذلك وأيضا بالحجـاب (31).

وحين يسد الشرع الحنيف أبواب الفســاد ، يفتح بـاب النكاح ويشجع عليه ، ويـأمر بالعفة لمن لا يجد سـبيلا الى النكاح ، ويعالج وضع العبيد والإماء فيـأمر بمكاتبة من علم منه الخير من العبيد وعدم إكـراه الفتيـات على البغـاء ان أردن تحصنا (33).

على اي أساس متين ، ترتفع قواعد البيت الطاهر؟ أو ليس على الوحي الذي يهبط اليه ، وذكر الله الذي يصعد منه؟! بلى. ولذلك كانت سورة القرآن هي سور الاسرة ، ومن نور الوحي ضياء البيت ، وكانت الاسرة مشكاة ، فيها من نور الوحي مصباح تحيط به زجاجة شفافة ، من اولي الأبصار ـ الرجال الأتقياء حفظة الاسرة ـ يتقد شعاعا من شجرة المعرفة .. وكانت تلك البيوت التي أذن الله لها ان ترفع حصونا منيعة للوحي على مستوى الامة ، كما البيت حصن القيم على مستوى الاسرة (38).

والامة التي لا تكرم بيت النبوة ، كما الاسرة التي لا تأبه بالقيم تتساقط أطرافها وتغدو قيمها شديدة الظلام (40).

ونور المجتمع من بيت النبوة ، ونور الاسرة من ضياء القيم ، ويشرق هذا النور وذاك بنور الله.

وأشرقت السموات والأرض بنور ربها ، ألم ترى ان الله يسبح له من في السموات والأرض ، وله الملك ، وهو الذي يزجي السحاب ويبعث بالبرق ، ويقلب الليل والنهار ، وانه خلق كل دابة من ماء؟! بلى. انه الرب الذي أنزل آيات مبينات ، وهو يهدي من يشاء الى صراط مستقيم (46).

وهكذا يحيط السياق بالنواحي المعنوية للبيت الرفيع ، ثم يعالج موضوع الطاعة التي تعتبر من أهم ركائز التربية ، ويقول : لا بد من التسليم لحكم الله والرسول ، والرضا بالحق كان له أم عليه ، وبعد ان ينعت المؤمنين بفضيلة الطاعة ، يلوم البعض ممن يدّعونها ويحلفون عليها ، ولكنهم حين يجد الجد يخشون (53).

ويأمرهم بالطاعة لله وللرسول ، ليهتدوا. ويذكر بان الله قد وعد المؤمنين الصالحين أعمالا باستخلافهم في الأرض ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

وطاعة الرسول ، وعدم اليأس من روح الله ، والا يحسبوا الكفار معجزين في الأرض (57).

ويعـود القـرآن الى حرمة الـبيت ، ويأمرنا بالاحتشـام امام الأطفال والخدم ، فلا يدخلوا البيت ـ الـذي هو عـورة ـ أوقات الراحة الا بعد الاستئذان (59).

ويضع عن القواعد من النسـاء فريضة الحجـاب ، كما يرفع عن الأعمى والأعرج والمريض الحرج (لعله للتساهل معهم) ، كما يرفع الحــرج عن الاكل في بيــوت الأقــارب والأصـدقاء ، ويـأمر بالسـلام عند دخـول الـبيوت. وبعد ان يبين بعض آداب المجتمع ، وعـدم التسـلل الى الـبيت عند وجود الاستنفار للحرب أو ما أشـبه ، الا بعد اذن القيـادة ، ينهى عن دعــاء الرســول كـدعاء بعضــهم بعضا ، ويحــذر المتســللين لـواذا من فتنة أو عـذاب أليم. ويختم القـرآن الحديث مذكرّا بأن الله محيط علما بالناس وانه ينبئهم بما عملوا.

سورة النّور

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

 سُـورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْـناها وَأَنْزَلْنا فِيها آيـاتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَـةُ وَالـزَّانِي فَاجْلِـدُوا كُـلَّ واحِـدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْـدَةٍ وَلا تَأْخُـذْكُمْ بِهِما رَأْفَـةٌ فِي دِينِ اللـهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الـزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زانِيَةً أَوْ مُشْـرِكَةً وَالزَّانِيَـةُ لا يَنْكِحُها إِلاَّ زانٍ أَوْ مُشْـرِكٌ وَحُـرِّمَ ذلِـكَ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ (3) وَالَّذِينَ يَرْمُــونَ الْمُحْصَــناتِ ثُمَّ لَمْ يَــأْتُوا بِأَرْبَعَــةِ شُــهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَـهادَةً أَبَـداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِـقُونَ (4) إِلاَّ الَّذِينَ تـابُوا مِنْ بَعْـدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

الاسرة سور الفضيلة

هدى من الآيات :

تبدأ هذه السورة المباركة بكلمتين :

الأولى : كلمة (ســـــورة) وهي ما يعـــــبر بها ، عن المجموعة المتكاملة ، من الآيات القرآنية.

فالسورة من جهة تشبه السـور الـذي يحيط بـالبيت ، فيجعله مستقلا عن غيره ، ومن جهة أخرى تشـبه السـوار الـذي يحيط بالمعصم فيعطيه زينة وجمـالا ، وكما ان لكل مجموعة بشرية سورا يحيط بهم ، وهو الاسرة التي تمثل الحجر الأساس في بناء المجتمع.

الثانية : كلمة (فرضـناها) فالســورة القرآنية جــاءت لتكـون ثابتة ومسـتقرة ومفروضة في المجتمع البشـري ، وليكـــون الأخذ بها وتطــبيق آياتها فرضا على جميع عبــاد الله.

عند ما ينزل الماء من السماء تذهب كل قطرة منه ، في اتجـاه يختلف عما ذهبت اليه القطـرات الاخـرى ، اما الآيات القرآنية فلم تتنزل لكي تتناثر هنا وهنـاك ، بل قـدر الله لها ان تكـون وحـدة متراصة ، ضـمن سـور واحد هو القرآن الكـريم ، تطبق كمجمـوع فلا تتبعض ، بل لا يمكن الأخذ بقسم منها وتــرك الآخر جانبــا. هكــذا فــرض الله السورة.

وكما فرض الله السورة القرآنية ، فانه فرض الاسرة التي هي بمثابة سور الإنسان وحصنه ، الذي يلجأ اليه في الحياة الاجتماعية ، وهذا ما تؤكـده آيـات هـذا الـدرس من سورة النور.

وحيث انه لا يمكن فرض شيء الا بالقوة ، فقد فرض الله حرمة الاسرة بقوة العقوبـات ، الـتي أوجبها بحق من يعتــدي على نظامها في المجتمع الاســلامي ، حــتى أننا لنلاحظ شـــــــدة العقوبة عليه ، إذ يجلد كل من الزانية والزاني مائة جلدة دونما رأفة.

وكما يفــرض الإســلام عقوبة صــارمة على النــاكح بفاحشة ، كذلك يفـرض على من يـزني بلسـانه ، فـيرمي الأبريــاء والبريئــات بتهمة الزنــا. إذ يعتــبر ذلك نوعا من الاعتداء على سلامة البيت الاسـري ، الـذي يرتبط ارتباطا وثيقا بسمعته النظيفة ، فالبيت الـذي تلوكه الالسـنة ليس محلا آمنا للحياة المستقيمة.

وبقـدر ما يؤكد القـرآن الحكيم على حرمة الزنا ، فهو يؤكد على حرمة الاتهام ، إذ يطالب المتهم بإثباتـات كافية ، لان الاتهــام ذاته قد يكــون وســيلة لاشــاعة الفاحشة ، والمجتمع الذي تسقط فيه قيمة الشـرف العـائلي يسـهل عليه الهبوط الى حضيض الفواحش.

وبــــالرغم من الغلظة الـــتي لا بد ان نقضي بها على الانحرافات الخلقية في

المجتمع ، يؤكد القــرآن على ان للتوبة بابا واســعا فتحه الله أمام الناس كي يصلحوا ما أفسدوه ، لان الله سبحانه وتعـالى ـ وهو خـالق الإنسـان ـ يعلم بما أودعه في هـذا الكـائن من شـحنات غريزية تـبرر الزلل والسـقوط لديه ، فلو لا فتح أبــواب التوبة له ، فانه لن يتمكن من النهـوض بعد السقوط.

بينات من الآيات :

[1] ﴿ **سُـورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْـناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾

أنزل الله السورة فأوجبها ، وحافظ عليها ، بـرغم كل الأهواء ، والشهوات والضغوط ، التي تحاول سلب القرآن قدسـيته ومحتـواه. والآيـات الواضـحة الـتي جـاءت في السورة ، هي التي تـذكّر الإنسـان. لأن قلبه مفطـور على الحقائق ، وانما يحتاج الى مذكر يثير فيه كـوامن الفطـرة ودفائن العقل.

الحدود الشرعية حصانة المجتمع :

[2] بالرغم من ان الاسرة تبدأ عمليا بـالزواج ، الا ان القرآن لا يبدأ بذكره ، بل يذكر عقوبة الزنا أولا ، والسـبب أنه من دون قانون يحصن الاسرة ويحفظها من الانحـراف والاعتــداء ، تسـقط كل القــوانين الاخــرى ، فما فائــدة الحصن الذي لا يحميه جدار رفيع؟

وما هي فائـدة الـزواج في البلاد الغربية ، الـتي يجد فيها قطبا الاســـرة الطريق مفتوحا لإشـــباع الغريـــزة الجنسية خارج البيت؟

إذن تبدأ الاسرة في الواقع عند ما تعطى لها حصانة ، بفرض العقوبة على من يخترقها.

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾

الجلدة هي الضـربة الـتي تلامس جلد الإنسـان ، ولان ما تلذذ به الزاني كان عن طريق جلده ، الـذي لامس جلد الجنس الآخر ، فعليه ان يتــذوق الألم عقابا له على هــذه اللذة المحرمـة. صـحيح ان النفس البشـرية تتـألم لمنظر إنســان عــار يجلد مائة جلــدة ولكن يجب ان لا ننسى أنه انتهك حرمة دين الله. فـاذا سـمحنا له بـالهرب من طائلة العقوبة ، فذلك يعني ان نعرّض المجتمع كله للفساد ، لذا ينهانا القرآن ان نرأف بالزناة لأن التشديد عليهم يصلحهم من جهة ، ويكــون رادعا للآخــرين عن التــورط في هــذه الجريمة البشعة من جهة أخرى.

﴿ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ ﴾

ولعله لذلك أكد القرآن هذا الحكم بقوله سبحانه :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

ان الحدود الشرعية ذات قيمة أساسية في المجتمع ، وكثـير من النـاس تأخـذهم الرأفة حينما يعـدم قاتل أمـام أعينهم ، أو يجلد الــزاني ، أو تقطع يد الســارق ، دون ان يعرفوا خلفية هذا العمل العظيم ، فاعدام القاتل ـ مثلا ـ يمنع القتل عن الكثيرين ، وبالتالي يمنح الحيــاة للمجتمع ، وهكــذا جلد الــزاني يحصن الاســرة ، وقطع يد الســارق يحافظ على ثروات الناس.

وهكـذا إذا أنتشر الزنا في المجتمع فـان بيوتا وأسـرا ستتدمر ، وان أطفالا ابرياء سيضيعون ، أو سوف يــتربون على العقد المتراكمة ، الــتي تتحــول الى جــرائم بشــعة. أوليس أكثر الذين دمروا الحضارات كانوا من أبناء البيوت الفاسدة التي لم تعرف شرفا للأسرة؟

ولأن هــذا القسم من النــاس لا يعرفــون كل هــذه الحقـائق ، تأخـذهم الرأفة السـلبية على حسـاب الـدين ، فقد يعطلــون الحــدود. ولكن من يــؤمن بالله ، ويعلم بأنه أرأف بعباده منه ، وانه عند ما يأمر بجلد الزاني ، فان في ذلك مصلحة لكل الناس بل للزاني نفسه ، لا تأخــذه هــذه الرأفة.

ثم يقول ربنا :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

لا بد ان يكــون الجلد في محضر من المؤمــنين ، لان قيمة العقوبة لا تكمن في أثرها على الجـاني فحسب ، بل لا بد ان تنعكس على المجتمــع. والواقع ان حد الزنا ليس واحدا ، بل هناك ظروف مختلفة ، تختلف العقوبة بموجبها ، وفيما يلي حديث شريف يجمع بين مختلف الحدود :

جـاء في تفسـير علي بن إبـراهيم : «**انه احضر عمر بن الخطاب ، ستة نفر أخذوا بالزنا ، فـأمر ان يقـام على كل واحد منهم الحد ، وكـان أمـير المؤمـنين ـ صلوات الله عليه ـ جالسا عند عمر ، فقـال : يا عمر ليس هـذا حكمهم ، قـال : فـأقم أنت عليهم الحد ، فقــدم واحــدا منهم فضـرب عنقه ، وقــدم الثــاني فرجمه ، وقـدم الثـالث فضـربه الحد ، وقـدم الرابع فضربه نصف الحد ، وقدم الخامس فعــزره ، وأطلق السادس ، فتعجب عمر وتحير النـاس. فقـال عمر : يا أبا الحسن ســتة نفر في قضــية واحــدة أقمت عليهم خمس عقوبــات وأطلقت واحــدا ليس منها حكم يشبه الآخر؟! فقال : نعم اما الاول فكان ذميـا زنى بمسلمة فخرج عن ذمته فالحكم فيه بالسيف ، واما الثـاني فرجـل محصـن زنى فرجمنـاه ، واما الثالث ، فغير محصـن حـددناه ، واما الرابـع ، فـرق زنى ضربناه نصف الحد ، واما الخـامس فكـان منـه ذلك الفعل بالشبهة فعزرناه وأدبناه ، واما السادس مجنون مغلوب على عقله سقط**

منه التكليف» [1]

العفة سور المجتمع :

[3] ﴿ **الــزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَــةً أَوْ مُشْــرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ** ﴾

من طبيعة الحياة الاجتماعية ان الشرفاء من الرجـال أو النساء ـ لا فـرق ــ ، لا يبحثـون الا عن نظـائرهم ، بينما نجد عكس ذلك لـدى الهـابطين خلقيا من النـاس ، الـذين يبحثون عن أمثـالهم ، لـذا ولخطـورة الاختلاط ، فـان الله يريد فصل مجموعة الزنـــاة والزانيـــات عن المجتمع ، ليحصـــنه بســـور العفة والشـــرف. ولعل في ربط كلمة الشـــرك بالزنا ، اشـــارة الى ان الزنا نـــوع من الشـــرك الخفي ، أو ليس ينطوي على عبادة الشهوات والهوى؟

﴿ **وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾

لقد جاءت في هذه العبارة القرآنية رواية مـأثورة عن الائمة (ع) ، في أنه يحـرم نكـاح الزانية أو الـزاني ولـذلك يجب على المؤمنين الابتعـاد عن مجـاميع الزنـاة ، نعم إذا تاب الزاني أو تابت الزانية جاز نكاحهما.

فقد روى محمد ابن مسلم عن الامام أبي جعفر عليه السّــلام في قــول الله عز وجل : «**الــزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً**» قـال : هم رجـال والنسـاء كـانوا على عهد رسول الله ، مشــهورين بالزنا ، فنهى الله عن أولئك الرجـال والنسـاء ، والنـاس اليـوم على تلك المنزلة ، من شهر شيئا من ذلك أو أقيم عليه الحد فلا تزوجوه حتى

(1) نور الثقلين ج 3 / ص 570.

تعرف توبته.[1]

ولعل معنى كلامه (ع) والناس اليوم على تلك المنزلة ، ان سيرة الرسول تجري على الناس اليوم أيضا.

القذف بين الحد والتوبة :

[4] ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَـناتِ ثُمَّ لَمْ يَـأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُـهَداءَ فَاجْلِـدُوهُمْ ثَمـانِينَ جَلْـدَةً وَلا تَقْبَلُـوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ** ﴾

هنا يفـــرض الله عقوبة شـــديدة على من يـــرمي المحصنات ، بتهمة الزنا دون أن يأتي بأربعة شهداء عدول على ذلك ، ممن شهدوا الحادثة بأم أعينهم.

ولا يكتفي بـذكر هـذه العقوبة الشـرعية ، بل يـذكر عقوبة قضـائية رديفة لها ، إذ يجب نبذ مثل هـذا الإنسـان بعد اجراء حد القذف عليه ، بإسقاط اعتبـاره في المجتمع ، لأنه بعمله هذا يكـون قد فقد عدالته ، فلا شـهادة له بعد ذلك ، ليس فقط في قضـية الزنا ، بل وأيضا في سـائر القضـايا الاجتماعية ، كـالعقود المالية ، وإثبـات الهلال ، وسائر الموضوعات. وفي ذلك تأديب معنوي له ، بالاضافة الى التأديب البدني بالجلد.

ولا نجد كالقـذف ، عقوبة صـارمة على اللسـان في التشريعات الاسـلامية ، فلو قـال شـخص : ان فلانة زنت. عليه ان يحضر العدد الشـرعي من الشـهود العـدول ، ولو شهد اثنان بالزنا ثم قالا ان هناك شخصـين آخـرين رأيا ما رأينـاه ، وهما في الطريق لا يمهلان ، انما يجلد كل منهما ثمانين جلدة على الفور ، إذ لا تثبت شهادتهما الا إذا

---

(1) المصدر / ص 572.

دخل أربعتهم دفعة واحـدة ، ليشـهدوا لـدى الحـاكم على عملية الزنا ، والإسلام الذي فـرض عقوبة الجلد أو الـرجم على مرتكب الزنا ، هو الذي منع قبول الشـهادة لأقل من أربعة ، وهل تقع عملية الزنا علانية حتى يتمكن هذا العـدد من الشهادة عليها؟

ان الجرائم الاخرى كالقتل والسـطو يمكن ان تحـدث أمام النـاس ، أما الزنا فـان الحيـاء البشـري الـذي أودعه الله في فطرة كل إنسان يمنع وقـوع هـذه العملية جهـارا أمــام الآخــرين ، فكيف يــرى هــذه العملية أربعة وبكل وضوح؟ انه لا يقع الا في حالات نادرة جـدا مما يـدل على ان هــذه العقوبة الشــديدة ســوف تختص واقعيا بالــذين يستهترون بالحدود الشرعية ، وبآداب العرف العـام ، دعنا نقرأ النصوص التي تبين أحكام الشهادة على الزنا :

عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصـادق عليه السّـلام :

«**لا يــرجم الرجل والمــرأة حــتى يشــهد عليهما أربعة شهداء على الجماع والإيلاج والإدخــال كالميل في المكحلة**» [1]

وعن حكمة اشتراط الشهود الاربعة ، يروي ابو حنيفة امام المـذهب الحنفي عن الامـام الصـادق عليه السّـلام ، فيقــول قلت له : أيهما أشد الزنا أو القتل ، قــال فقــال : «القتل» ، قال (ابو حنيفة) فقلت : فما بال القتل جاز فيه شـاهدان ، ولا يجـوز في الزنا الا أربعـة؟ فقـال لي : «ما عنـدكم فيه يا أبا حنيفـة؟» قـال : قلت ، ما عنـدنا فيه الا حـديث عمر : ان الله اجـرى في الشـهادة كلمـتين على العبـاد ، قـال : «**ليس كـذلك يا أبا حنيفة ، ولكن الزنا فيه حدان ولا يجوز ان يشـهد كل اثـنين على واحـد. لأن الرجل والمرأة جميعا عليهما الحد ، والقتل انما يقام الحد على القاتل ، ويدفع عن المقتول**» [2]

---

(1) المصدر / ص 569.
(2) المصدر / ص 574.

وانما يقصد الإسـلام من هـذا التشـدد في مسـألة الشـهادة على الزنا ، المحافظة على الحيـاة الاسـرية في المجتمع من التفتت ، والانهيـــار. وكما ان الزنا من أشد عوامل انهيـار الاسـرة فـان الاتهـام به يـؤدي الى ذات النتيجة تقريبا ، إذ أنه من الجـرائم الـتي يمكن الاتهـام بها سـريعا ، وهي تدغـدغ غرائز النـاس خصوصا المعقـدين جنسـيا ، وليست مثل جريمة القتل وغيرها ، لـذلك شـدد الإسـلام على العقوبة من جهة ، وعلى الشـهادة من جهة أخـرى ، وكلا الأمـرين يهـدفان الى شـيء واحد هو صـيانة الاسـرة ، والمحافظة على العفة والشـرف في الحيـاة الاجتماعية.

وقد اعتـبر القـرآن من يقـذفون المحصـنات بالزنا ، دون الإتيـان بأربعة شـهود بـأنهم فاسـقون ، لأنهم بعملهم هذا يوجهون أكـبر ضـربة لشـرف المجتمع ، الـذي جـاءت الأديان السماوية لإصلاحه ، واحكام بنائه.

[5] **إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**

ليس جديـدا على من يقـرأ القـرآن ، ان يلحظ لحـوق كلمة الإصـلاح بالتوبة ، فكثـيرا ما تكـرر ذلك في مواضع مختلفة من القـرآن الكـريم ذاته ، ذلك لان شـرط قبـول التوبة ان يصلح الإنسان ما أفسـده بذنوبه ، والله سـبحانه يؤكد لفئة التائبين ، بـأن مغفرته ورحمته سـوف تشـملهم ان هم رجعـوا الى طريق الحق بعد الانحـراف ، وتـداركوا ما فـاتهم بالجهد المخلص والعمل البنـاء ، وإصـلاح ما أفسـدوه بـذنوبهم ، فـاذا اتهمـوا المحصـنات بالفاحشة وسقط شرفهن بـذلك ، وجب عليهم الإعلان عن كـذبهم ، والاسـتعداد لإجـراء الحد عليهم ، لإعـادة الاعتبـار إليهن ، فقد قال سماعة : سألته عن شهود الزور؟ قـال : فقـال : يجلـدون حـدا ليس له وقت ، وذلك الى الامـام ، ويطـاف بهم حتى يعرفهم الناس ، واما قـول الله عز وجل : **وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً إِلَّا الَّذِينَ تابُوا** قـال : قلت : كيف تعرف توبته؟ قال : يكذب نفسه

على رؤوس الخلائق حــتى يضــرب و يســتغفر ربه ، وإذا فعل ذلك فقد ظهرت توبته.[1]

فمن يتوب بعد الزنا يوفر الله له أسباب الزواج ، كما يـرزق من تـاب عن السـرقة وأعـاد الحقـوق للنـاس رزقا حلالا ، وكذلك من تاب بعد ان استسلم لضـغوط السـلطة التي تعرض لها ، يـوفر له مكانا آمنا يـأوي اليه ويرفع عنه الضغوط.

وهكذا يشجع الله عبـاده على التوبة ، والرجـوع اليه ، حينما يعدهم بالمغفرة والرحمة إذا ما تابوا وأصلحوا.

(1) المصدر / ص 575.

وَالَّذِينَ يَرْمُــونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُــهَداءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كـانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (7) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَـعَ شَـهاداتٍ بِاللـهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكـاذِبِينَ (8) وَالْخامِسَـةَ أَنَّ غَضَبَ اللـهِ عَلَيْها إِنْ كـانَ مِنَ الصَّـادِقِينَ (9) وَلَـوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10) إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْـكِ عُصْـبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَـبُوهُ شَـرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَــبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَـهُ عَـذابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْ لاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

---

8 [يدرأ عنها] أي يدفع عنها.
11 [الافك] : الكذب العظيم.
[تولى كبره] : الذي يتحمل معظمه.

وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (13) وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ (15)

كيف يواجه المسلمون إفك المنافقين؟

هدى من الآيات :

في اطار فرض قانون الاسـرة في المجتمع ــ وهو ما بينه القـرآن في الـدرس السـابق ــ بعد ما مـرّ من بيـان للعلاقة بين الــروح الايمانية ، وبين الاســـرة المؤمنة في جــانب عقوبة الزنا ، وعقوبة القــذف به ، تــبين الآيــات الكريمة العلاقة الســليمة بين الــزوج وزوجته في هــذه المسألة الحساسة ، حيث شرع الإسلام اللعان حلا للــذين يقذفون أزواجهم بتهمة الزنا ، كبديل للشهود ، واللعان هو ان يشـهد الـزوج اربع شـهادات بزنا زوجته ، تحتسب كل واحدة منها بمثابة شاهد ، ثم يستنزل في المـرة الخامسة لعنة الله عليه ان كــان كاذبا هــذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تشهد الزوجة أربع شـهادات بـالبراءة ، وفي المـرة الخامسة تقول ان غضب الله عليها ان كان زوجها صــادقا في اتهامه لها بالزنا.

ولمــاذا تختلف تهمة الزوجة بالزنا عن تهمة غيرهــا؟ انما للعلاقة الخاصة بين الـــزوج وزوجتـــه. فقد يكتشف الزوج من زوجته ما لا يمكن اكتشـافه من قبل الآخـرين ، ولو

لم يضع الإسلام قانونا خاصا لهـذه العلاقة ، لانهـارت أسر بكاملها ، لعـدم وجـود ما ينظم علاقة الـزوج بزوجته في حالة التهمة والقذف.

بعدئذ يتعـرض السـياق القـرآني لقضـية هامة وهي مسـألة (الافـك) ومع ان مـورد الـنزول في هـذا المقطع القـرآني ، يختص بتهمة الزنا الـتي ألصـقها البعض بزوجة الرسول (ص) (مارية القبطيـة) على أحد الأقـوال ، الا ان السياق يؤكد على ضرورة وقف أمثال هـذه التهمة ، الـتي تشـيع في المجتمع ، والوقـوف في وجه من يختلقونها أو يروجون لها ، وتوحي الآيات هذه ، بالحقائق التالية :

أولا : ان انطلاق التهم ، عادة ما يكون ، من مجموعة يلتفون حول بعضهم ، ويسمي القرآن هؤلاء (بالعصبة).

وتشـكل هـذه العصـبة تجمعا طاغوتيا ، لا يعتمد على القيم الاسـلامية في علاقـاتهم ، لأنهم يختلقـون التهم الباطلة ، ويفترون الاخبـار الكاذبة ، ويبثونها في المجتمع ، كما تنفث الأفعى السم في ضحيتها.

ثانيا : ان المجتمع الصـالح هو المجتمع المحصن ضد التهم والقـادر على اكتشـاف كـذب التهمة ، وردها الى صاحبها بسـرعة فائقة ، اما المجتمع الهزيل الـذي تتلاقف أبنـاءه التهم الباطلة ، لنشـرها دون العلم بما ورائها من هدف خبيث ، يهدد سلامة المجتمع فانه يتحطم سريعا. إنّ حرمات أبناء المجتمع واعراضهم مهددة بعبث المعتدين.

وهكـذا يعـرف المجتمع الفاضل الرشـيد منذ البـدء خطورة التهم الباطلة ، فيسعى لردها حفاظا على سـلامة كل فرد من ابنائه.

ثالثا : يؤكد القـرآن الحكيم على نفع هـذه الشـائعات بالنسبة الى المجتمع المؤمن

لأنها تكشف طبيعة بعض افـــــــــراد المجتمع ، إذ يكشف مثيري التهم ، ومدى ضحالة انتمـائهم للمجتمع الايمـاني ، كما يكشف المســـــرعين لاســــتماعها منهم ، مما يعطي فرصة كبيرة لإصلاحهم من قبل الموجهين.

بينات من الآيات :

حكمة اللعان في الإسلام :

[6] ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُــونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ** ﴾

من الصعب جـدا ان يعيش شـخص يتهم زوجته بتهمة كالزنا بسـعادة واطمئنـان ، ولكي لا تكـون الاسـرة محلا للصراع بين الزوجين فتفرز أبناء معقـدين ، حاقـدين على المجتمع ، لنشأتهم في جو موبـوء ، بل تكـون الاسـرة بيتا للوداعة ، ودارا للأمان ، لذلك شرع الإسـلام اللعـان الـذي ينهي العلاقة بين الزوجين ابديا ويذكر الـرواة قصة طريفة لنزول هذه الآية تبين بعض أحكام اللعان.

كما تعكس كيفية معالجة الإســـــلام للمشـــــاكل الاجتماعيـة. تقـول الرواية الـتي ينقلها المفسر المعـروف علي بن إبراهيم ان الآية نـزلت في اللعـان ، وكـان سـبب ذلك أنه لما رجع رسـول الله (ص) من غـزوة تبـوك جـاء اليه عويمر بن ساعدة العجلاني وكان من الأنصار ، فقـال : يا رسـول الله ان امـرأتي زنى بها شـريك بن السـمحاء وهي منه حامل ، فـأعرض عنه رسـول الله (ص) فأعـاد عليه القول ، فـاعرض عنه ، حـتى فعل ذلك أربع مـرات ، فـدخل رسـول الله (ص) منزله ، فـنزل عليه آية اللعـان ، فخـرج رسـول الله (ص) بالنـاس العصر وقـال لعـويمر : ايتـني بأهلك فقد أنـزل الله عز وجل فيكما قرآنا ، فجـاء إليها فقال لها : رسـول الله يـدعوك ، وكـانت في شـرف من قومها فجـاء معها جماعة ، فلما دخلت المسـجد قـال رسول الله (ص) لعويمر : تقدم الى المنبر والتعنا فقـال : كيف اصـنع؟ فقـال : تقـدم وقل : اشـهد بالله اني لمن الصادقين فيما

رميتها به ، فتقدم وقالها ، فقال رسول الله (ص) : أعـدها ، فأعادها حـــتى فعل ذلك أربع مــــرات ، فقــــال له في الخامسة : عليك لعنة الله ان كنت من الكـــــــاذبين فيما رميتها به ، فقال له في الخامسة : ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ ﴾ فيما رماها به [1] ثم قـال رسـول الله (ص) : ان اللعنة موجبة ان كنت كاذبا.

ثم قال له : تنح ، ثم قال لزوجته : تشهدين كما شـهد وإلا أقمت عليك حد الله ، فنظــــرت في وجـــوه قومها فقالت : لا اسوّد هذه الوجوه في هذه العشـية ، فتقـدمت الى المنبر وقالت : اشهد بالله ان عـويمر بن سـاعدة من الكـاذبين فيما رمـاني : فقـال لها رسـول الله : أعيـديها ، فاعادتها حــتى إعادتها أربع مــرات فقــال لها رســول الله (ص): العـني نفسك في الخامسة ان كـان من الصـادقين فيما رمـاك بـه. فقـالت في الخامسة ﴿ أَنَّ غَضَـبَ اللـهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّـادِقِينَ ﴾ فيما رمـاني به ، فقـال رســـــول الله (ص) : ويلك انها موجبة ان كنت كاذبة ، ثم قـال رسـول الله (ص) لزوجها : اذهب فلا تحل لك أبـدا. قال : يا رسول الله فمالي الذي أعطيتها؟ قـال : ان كنت كاذبا فهو أبعد لك منه ، وان كنت صــــــــادقا فهو لها بما استحللت من فرجها. [2]

ومعنى الآية ان من يتهم زوجته ولم يسـتطيع إحضـار الشهود الشرعيين في مثل هـذا المـورد ، فعليه ان يحلف بالله أربعة أيمان ، بأنه صادق في نسبة الزنا الى زوجته.

﴿ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَـعُ شَـهاداتٍ بِاللـهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

[7] ﴿ وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ ﴾

عند اللعـان يقـول الشـخص : لعنة الله عليّ ان كنت من الكاذبين ، ولكن الله

---

(1) المصدر / ص 580.

(2) المصدر / ص 580.

سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **أَنَّ لَعْنَتَ اللـهِ عَلَيْـهِ** ﴾ بضـمير هو لكي لا تظهر وكأن اللعنة على من يقرأ القرآن.

[8] ﴿ **وَيَـدْرَؤُا عَنْهَا الْعَـذابَ أَنْ تَشْـهَدَ أَرْبَـعَ شَهاداتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ** ﴾

فاذا أقسمت بالله أربع مرات على كذب زوجها أرتفع عنها الحد ، فلا جلد ولا رجم ، وان لم تفعل ذلك فكأنما صادقت على تهمة زوجها لها بالزنا.

[9] ﴿ **وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَـبَ اللـهِ عَلَيْها إِنْ كـانَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾

في الذي يدعيه في حقها ، وهكذا تلعن نفسها ان هي ارتكبت الزنا ، وكان بالتالي اتهام زوجها لها صحيحا.

[10] ﴿ **وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ** ﴾

إذ لو لا فضل الله وتوبته لعذب من يقـذفون أزواجهم ، لان القذف تهمة عظيمة عند الله ، ولا يجـوز لأحد اتهـام الآخـرين لمجـرد الظن أو حب الانتقـام ، وجـواب «لو لا» معـروف من خلال السـياق ، ولعل الآية (14) تشـير اليه أيضا حيث يقول ربنا سبحانه : «**وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيـهِ عَذابٌ عَظِيمٌ**».

الحلف في القانون الاسلامي :

ومما يثير التفكير هنا ، مدى اعتماد الإسلام على روح «الايمــان» في الانظمة الاجتماعية الــتي يشــرعها ، إذ يشــكل الحلف مثلا أحد أعمــدة النظــام الاســلامي في القضــاء ، وعند ما يفقد المجتمع روح الايمــان ، ويفقد الالتزام بما يقول ، وما يحلف به

اذن لا يقدر على تنفيذ قيم الرسـالة ، ولا يمكن ان يكـون بالتالي نظامه نظاما اسلاميا باي حال.

وبالرغم من ان المجتمعات البشـرية اليـوم ، وصـلت الى حد من التقـدم التكنولـوجي يبهر الإنسـان ، الا انها ما زالت فاشـلة في الانظمة الاجتماعية والانسـانية ، فلا يجد الفــرد في المجتمع غــير المــؤمن وازعا من الحلف بالله كـذبا من أجل بضع دنـانير ، بينما مـيزة المجتمع المـؤمن تحرج أبناءه من الحلف كاذبا.

ولو راجعنا تاريخ الرعيل الأول من المسلمين ، لعرفنا الى اي حد كان النظام القضائي ناجحا آنـذاك ، فلقد كـان المجتمع الاســلامي يســيّر من قبل الحكومة الاســلامية ، وتحل جميع مشـــــاكله دونما اي صـــــعوبة ، وذلك لان المؤمـنين يتحرجـون من جعل الله عرضة لايمـانهم حـتى ولو كـانوا صـادقين ، وكـان البعض منهم مسـتعدا للتنـازل عن حقه ، ودفع مبلغ كبـير من المـال ، ولم يكن مسـتعدا للحلف بالله العظيم.

و ننقل قصة الامام زين العابدين ، كشاهد على ذلك ، فلقد رفعت احــدى مطلّقاته دعــوى ضــده عند القاضي ، مطالبة إيـاه بـالمهر الـذي كـان يبلغ اربعمائة دينـار ذهبا ، فلما ترافعا عند القاضي ، وأنكر الامــام انها تطلبه شـيئا ، طالبه القاضي بالحلف فـرفض فحكم عليه ، ودفع الامـام المهر كاملا فلما خـرج من عند القاضي سـأله ابنه الامـام الباقر (ع) قائلا : لماذا لم تحلف بالله يا أبتــاه؟ أو لم تكن على الحق؟!

فقال الامام (ع) بلى. ولكن الله أكبر من ان احلف به على اربعمائة دينار.

هكــذا كــانوا يتحرجــون ، وعلى هــذا قــامت قواعد المجتمع الاسلامي.

الأفاكون ومسئولية المجتمع المسلم :

[11] **إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ**

من الذين اتهموا زوجة الرسول؟

سؤال لا تهمنا الاجابة عليه بالأسماء ، بل تهمنا طبيعة هذه العصبة وهدفهم من التهمة ، فقد كان هدفها التنقيص من كرامة الرسـول (ص) والعصـبة هم الـذين يتعصـبون لبعضهم ، على أسـاس المصـالح المادية ، لا على أسـاس القيم ، ولاحتمال ان يعتري المؤمنين تصـور خـاطئ حـول الأمر ، فان القرآن يوجههم قائلا :

 لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

لان العاقبة سوف تنتهي الى خـير ، باعتبارها امتحـان للمجتمع المـؤمن ، فـاذا تغلب المؤمنـون على هـذا الأمر وأمثاله ، فانه ســـيكون مجتمعهم فاضلا وقـــادرا على مقاومة الضغوط والمشاكل المختلفة.

 لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ

كما يكون الإنسان مسئولا عن سـلوكياته وتصـرفاته ، فـان مختلقي التهمة ضد الرسـول (ص) سـوف يتحملـون مســئولية كلامهم في الـــدار الـــدنيا ، بكشـــفهم وتعرية اشاعاتهم الباطلة ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

 وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ

ويبدو ان السياق يشير الى امام هذه العصـبة ، الـذي يتحمل وزرها ، بـــان له عـــذابا عظيما ، فالعـــادة تقضي بوجود كبير لهذه العصبة ، يكـون مصـدر تلفيق التهمة ، أو لا أقل يعطي الشـرعية لها ، ويبـدو ان كبـار السن الـذين تنزوي عنهم الحياة ،

ويشـــعرون بـــان شـــمس عمـــرهم تجنح للأفـــول ، هم المبـادرون لبث هـذه التهم ، لأنهم أكـثر سـلبية وحسـدا ، ولعل المراد منه هنا هو شيخ المنافقين في عهد الرسـول (ص).

الى هنا يكـــون الأمر مقتصـــرا على (التهمـــة) اما الحديث الآتي فانه ينتقل الى جانب آخر ، حيث يحـدد الله فيه المسؤولية ، التي تقع على كاهل المجتمع ، تجاه مثل هذا الأمر فيقول :

[12] ﴿ لَـوْ لا إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾

يجب على المجتمع المؤمن قبل اتخاذ اي موقف ، ان يعـرف خلفيـات التهمة بالإفك ، حيث انها لا تقتصر على شخص الرسول فحسب ، بل تعنيهم أيضا ، وتهـدد سـلامة مجتمعهم ، فهؤلاء لا يهدفون التنقيص من كرامة الرسـول فحسب ، بل يريـــدون أيضا التنقيص من شـــرف الامة الاســـلامية ، عن طريق بث التهم الباطلة ضد قيادتها ، وعند ما يتجـاوب المؤمنـون مع ما يصـبو اليه هـؤلاء ، فيظنون بزوجة الرسـول (ص) سـوءا. فهل يبقى بعد ذلك شرف سليم في الامة ، لا تناله ألسنة هؤلاء المنافقين؟!

اذن لا بد للـذين يسـتمعون هـذه التهم من التعـرف على طبيعتها ، وكشف الـدوائر الـتي تقف وراءها ، وعلى المجتمع ان يكـــون رشـــيدا فاضلا ، يقيّم الأفكـــار والشخصيات.

فما يـدور من صـراع جـاد اليـوم بين الاسـتعمار والحركـات الرسـالية ـ الـتي تهـدف تقـويض الكيـان الاسـتعماري الجـاهلي ، واقامة حكومة اسـلامية عادلة ـ صـورة حية لما دار بـالأمس بين المنـافقين الـذين كـانوا يختلقون التهم ، وبين المجتمع المؤمن بقيادة الرسول.

إذ يسعى الاستعمار بكل ما يملك من قوى شيطانية ، للمس من كرامة الامة الاســـلامية عـــبر بث التهم ضد الحركـات الرسـالية ، وواجب الامة الاسـلامية اليـوم هو بالـذات مسئولية المؤمـنين بـالأمس ، بـأن تعتـبر نفسـها طرفا في الصـــراع ، وان تكشف الـــدوائر الاســـتعمارية الواقفة خلف الأباطيل والتهم المختلفة ضد الـــــبررة من ابنائهما.

فالله سبحانه وتعالى يقول : ان هـذه التهم تسـتهدف قبل كل شـيء سـلامة المجتمع المعنوية ، وعلى المجتمع ان يظن بنفسه خـير ، ويتوجه جـديا لمواجهة هـذه التهم «**لَـوْ لا إِذْ سَـــمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنـاتُ بِأَنْفُسِـهِمْ خَيْـراً وَقـالُوا هـذا إِفْـكٌ مُبِينٌ**» ويطـالب المتهمين بالأدلة الدامغة ، فلو أتهم شـــــخص آخر بأنه جاسوس دون أدلة ، فان المتهم هو الجاسـوس حقا ، لأن الجاسـوس هو الـذي يخـدم المصـالح الاسـتعمارية الـتي تسـتهدف الحركـات التحررية الرسـالية ، والإسـلام يأمرنا بمواجهة هـؤلاء الأشـخاص أمـرا وجوبيا معتـبرا كفريضة إسلامية حيث يقول :

[13] **لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ**

لاثبات ما اختلقوه ضد سلامة المجتمع وقيادته.

 فَإِذْ لَمْ يَـأْتُوا بِالشُّـهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْـدَ اللـهِ هُمُ الْكاذِبُونَ

لأن كلامهم في الواقع عـــار عن أيّ دليل حـــتى ولو كـانوا صـادقين ، وان نشر الفكـرة الـتي لا دليل عليها ولو كان عن سذاجة أو حسن ظن خطأ كبير.

«**و كفى بـالمرء جهلا ان يقـول مـالا يعلم ، بل كفى به جهلا ان يقول كل ما يعلم**» [1]

---

(1) هــذا محتــوى حــديث مــأثور عن الامــام الحسن بن علي عليهما السّلام.

فنشر تهمة لا دليل عليها يؤدي الى نفس العاقبة التي يسعى إليها الكاذب.

ان الدوائر الاستعمارية اليـوم تختلق التهم المختلفة ، وتقـــــذف بها في المجتمع لتتلقفها الألسن ، وتنتشر كما ينتشر الوبــــاء ، وان المجتمع الفاضل هو الـــــذي يتهم المتهمين ، ويعتقد انهم كـاذبون ولو كـانوا صـادقين ، لان الكـــذب كله في مجمل نقل القضـــية ، فالحط من قيمة الإنسان الفاضل ـ الذي خلقه الله كريما ، وأراد له العيش بكرامة ، وأن يخلف وراءه سـمعة حسـنة ـــ هو الكـذب بعينه.

فقد يكون الإنسـان صـادقا فيما يقـول ، ولكنه يصـبح كاذبا ، حينما يخطئ في تحديد موقع الكلمة التي يلفظها ، و قد جاء في محتوى حديث مأثور :

«الكـذب في الإصـلاح صـدق عند اللـه» وكلمة «عند اللـــه» في الآية تـــدل على انهم ولو كـــانوا صـــادقين في قـرارة أنفســهم ، فـأنهم كـاذبون عند الله ينـالون جـزاء الكـاذب ، ولعل ذلك لأنهم لم يراعـوا الظـروف المحيطة بكلامهم.

[14] ويؤكد القـــرآن ضـــخامة هـــذا الخطأ ، فالكلمة البسيطة التي تطلقها أفواه الكثير من الناس دون علم أو تثبت تكـــون وراءها مخـــاطر كبــيرة جــدا ، ولو لا ان الله رحيم بهم لاخذهم بعذاب عظيم.

﴿ وَلَوْ لا فَضْـلُ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ فِي الـدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ ﴾

بسبب ما تورطتم فيه من الكلام السيء.

[15] **﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ

لأن الإنسان يصبح خادما وبوقا للاستعمار دونما شعور ، وكم تمســنا هــذه الآية الكريمة في الصــميم ، فأكثرنا يقول ما يسمع ، ولا يعلم انه ضد نفسه أو دينه أو مجتمعة أم لا ، فيجب ان يكون الإنسان ناطقا عن علمه وتثبته ، لا عن نقله من الآخرين كل ما يقولون.

وإذا اتخــذنا مقيــاس التجمع الايمــاني من طبيعة تعــاملهم مع التهم ، فــان كثــيرا من المجتمعــات القائمة اليــوم تخــرج عن حد التجمع الايمــاني ، لأنها تتلقف التهم كما يتلقف الصــبيان الكــرة ، وينشــرونها بينهم ، كما ينشر المجذوم وباء المرض.

وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُـونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهـذا سُـبْحانَكَ هـذا بُهْتـانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللـهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمُ الْآيـاتِ وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُـوا لَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ (19) وَلَـوْ لا فَضْـلُ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ وَأَنَّ اللـهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (20) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّبِعُـوا خُطُـواتِ الشَّـيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِـعْ خُطُـواتِ الشَّـيْطانِ فَإِنَّهُ يَـأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لا فَضْلُ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْـلِ مِنْكُمْ وَالسَّـعَةِ أَنْ يُؤْتُـوا أُولِي الْقُـرْبى وَالْمَسـاكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللـهِ وَلْيَعْفُـوا وَلْيَصْـفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22)

البعد الاجتماعي للاشاعة الباطلة

هدى من الآيات :

ان من خصـــائص القـــرآن الكـــريم في تنـــاول الموضوعات المختلفة انه لا ينكفئ عن أحـدها دونما بيـان لشتى أبعاده ، وما يرتبط به من قضايا أخرى.

فبالرغم من ان مناسبة الحـديث عن الافك والاشـاعة الباطلة في المجتمع كانت موضوع الاسرة ، التي يجب ان تحـاط بسـور مـنيع من السـلامة المعنوية ، فـان القـرآن الحكيم يشبع هذا الحديث بحثا ليعطينا علما بأكثر أبعـاده ، ومن بين الأبعـاد المختلفة الـذي تبحثه السـورة في هـذا الدرس البعد الاجتماعي للاشاعة الباطلة ، وكيف يجب ان يكـــون موقف المجتمع الفاضل من الاشـــاعات ، وممن يبثها.

نقاط مضيئة :

أولا : من الضـــروري ان يمتلك المجتمع مواقف ثابتة ومحــدودة ســلفا من الشــائعات ، فقد أودع الله في كل إنسان عقلا يستطيع من خلاله التعرف على صحة

أو خطأ الأفكار الـتي تنتشر في المجتمع ، إذ لكل صـواب نورا ، فيدرك اهداف الشائعة ومصدرها.

ثانيا : على المؤمنين الصادقين الالتفـاف أكـثر فـأكثر حـول القيـادة الرشـيدة ، ليعرفـوا الاسـاليب الصـحيحة والصالحة ، لمقاومة الشائعات حينما تنتشر في المجتمع.

ثالثا : على أبناء المجتمع المؤمن ان لا يتبعوا خطوات الشـيطان ، لان الخطـوة الاولى تجـرهم الى آخر خطـوة حتى ينهار المجتمع تماما.

وكمثـال على ذلك عند ما يسـمع الفـرد كلاما بـاطلا وينشره ، فانه يدافع عنه بسبب العـزة بـالإثم ، مما يدفعه الى الانتماء للمجموعة التي اشـاعت هـذا الكلام ، وهكـذا يقع في شـرك العـدو ، من هنا يؤكد الإسـلام بـأنّ على الإنسان المؤمن ان لا يتبع خطوات الشيطان ، وان يكـون واعيا ، فيتجنب الخطوة الاولى الخاطئة حـتى لا يصل الى آخر خطوة.

رابعا : ان الغاية لا تبرر الوسيلة في منطق الإسـلام ، فليس سـليما ان يتبع المؤمنـون السـبل الملتوبة في الوصـول الى اهـدافهم ، لأنها ليس لا تـؤدي الى الاهـداف فحسب ، بل تصل بصاحبها الى الفحشاء والمنكر أيضا.

فلا يمكن ان يكون الباطل طريق الحق ، كما لا يمكن ان تنتصر الحركة الايمانية عن طريق بث الأكـاذيب ، ومحاولة التأثير على الناس بالخداع والتضـليل وليس ذلك من صـفات الحركة الرسـالية ، لان الـدجل لا يولد الا دجلا مثله ، و الفحشـاء انما هي وليـدة مجموعة انحرافـات بسيطة تتكاثف عند الإنسان وفي واقع المجتمع.

خامسا : ان الهـدف من وراء الافك وبث الشـائعات الكاذبة هو النيل من وحـدة المجتمع المـؤمن ، لـذا فـان على افراده ان لا يسمحوا للشخص الذي يسبب نشر

الشائعات بالتوسع ، وذلك عن طريق الصـفح والإحسـان ، وبالتـالي المبـادرة للملمة أطـراف المجتمع الـتي تنـاثرت بسبب الافك والافتراء.

بينات من الآيات :

[16] **وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا**

كموقف ثــابت للمؤمــنين ، يــوجب الله عليهم ان لا يتناقلوا الشائعات ، أو يساعدوا على انتشارها بين صفوف المجتمع ، وان لا يصــدقوا اي كلام دونما تثبت ، ومن دون توفر الاثباتات والشواهد الكافية ، وقوله تعالى : «**وَلَـوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ**» يعني : فهلا انكم حين تســمعون كلاما فيه طعن واتهام للآخرين تواجهونه بالصمت؟

ثم يبين القرآن ضـرورة تقـييم الشـائعات تقييما نابعا من العقل لا الهوى.

 سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ

ليس بسيطا ان ينسب الإنسان للآخرين تهمة الافك ، فهـذا بهتـان ما لم يقم عليه دليل ، بلى. ان المتهم بـرىء حتى تثبت ادانته ، وكذلك القذف متهم حتى تثبت صحته.

ونتوقف قليلا عند كلمة «سـبحانك» فاننا لا ننطقها الا حينما نــرى شــيئا كبــيرا يبهرنا ، فلأننا نخشى الخضــوع لشــيء من دون الله ، يســلبنا فكرنا واســتقلالنا وارادتنا نقـول : سـبحان الله ، لكي نقـاوم حالة الانبهـار الـتي قد تؤدي الى الشرك الخفي ، فالله هو المنزه وهو الكبـير ... إلخ ، لا ما نــراه أو من نــراه انى بــدى عظيما في أعيننا ، فلما ذا التسبيح هنا؟

الواقع ان الآية الكريمة تشير الى ضرورة التوجه الى الله في حالة الخـوف من التـأثر بـالاعلام المضـاد ، لان النفس نزّاعة الى تصـديق كل كلام يشـيع في المجتمع ، خصوصا إذا صـدر من الكبـار في العمر أو في الـرتب الاجتماعية ، وعلينا ان نقاوم هـذه النزعة بـذكر الله ، ذلك أن ذكر الله يزيد من مناعة المؤمن عن التأثر بالضغوط ، والانبهـار بـالآخرين ، والخضـوع للتضـليل ، أو بالتـالي يعيد الإنسـان الى عقله ، ويعطيه فرصة للتفكر المنهجي ، وهو بالتـالي يعطي الإنسـان اسـتقلالا وقـوة واطمئنانا ، كما المرسـاة الـتي تبقي على اسـتقرار السـفينة بين يـدي الموج.

[17] ﴿ **يَعِظُكُمُ اللـهُ أَنْ تَعُـودُوا لِمِثْلِـهِ أَبَـداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾

اي لا تعـودوا تتـأثروا بـالاعلام ان كنتم مؤمـنين حقا ، وكأنه يخـاطب الجميع مع ان الـذي جـاء بالإفك مجموعة صـغيرة منهم ، وهـذا ما يـدل عليه قوله تعـالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ** ﴾ وذلك ليشـعر المجتمع المؤمن بأكمله انه المسؤول ، لأنه سـمح لهـذه العصـبة ، بالانتشار في وسطه ولم يردها من حيث أتت.

[18] ﴿ **وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾

انه يعلم بمصـالحكم ، فيرشـدكم لما فيه سـعادتكم بحكمته البالغة.

[19] ويـبين السـياق جـزاء من ينشر الشـائعات في المجتمع ، وهم عـادة من ذوي النفـوس المريضة ، كما تؤكد هـذا البحـوث العلمية الحديثة ، ذلك أن المبتلين بالعقد الجنسـية ، هم الـذين يسـعون لبث الشـائعات المختلقة عنها ، فلأنهم يعـانون من الإحبـاط الجنسي مثلا يثيرون الشائعات لينتقمـوا من المجتمع ، وكأنه المتسـبب في إحبـاط هـذه الغريـزة في ذواتهم ، أو لا أقل يتسـلون بهذه الكلمات ليعوضوا بها عما فقدوه ، وعما يشعرون به من عقدة الجنس ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ﴾

ان للفاحشة هيبة تنبعث من الحياء والشرف البشري ، جبل عليها ضـمير الإنسـان وعند ما تشـيع الفاحشة في المجتمع تسقط هيبتها من أعين الناس ، فيتورطون فيها ، بل لا يتورعون عن ممارستها باستمرار.

واشــاعة الفاحشة تتحقق بمجــرد نقل الإنســان ما يسمعه من كلام خبيث الى الآخرين ، وهذا ما يحطم جدار الشرف والحياء لدى أبناء المجتمع ، فلا هو يدعو الإنسـان المـريض القلب للعمل الصـالح ، ولا هو ينصح النـاس لما فيه خــيرهم ، بل يبحث عن الشــائعة الباطلة لينشــرها ، وعن الفكـرة الخبيثة الميتة ليحييها ويـذيعها ، لأنه من أهل الفاحشة وان أنكرها بلســانه أو تظـاهر بكراهته لها ، فلو بحثت عميقا في نفسه لوجدته يعـبر بكلامه عن واقعه ، لا عن واقع الآخرين ، ويبدو ان التعبـير القـرآني ب «**يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ**» يدل على انعطـاف نفسي عند هـذا الفريق نحو اشاعة الفاحشة ، أما بسـبب كراهية المجتمع ، أو كراهية الفريق المتهم منه ، أو لأنهم يرتكبـــون فعلا الفاحشة ، ويريــدون ان تنتشر بين النــاس جميعا حــتى يرتاحوا من لوم الناس ووخز الضمير.

وعلى الإنسـان ان يقـاوم هـذا الحب في نفسه ، ولا يفيض في نقل التهم بدافع هذا الحب الشيطاني.

ثم يختم القـــرآن حديثه الصـــادق بـــان الله عليم بالحقائق.

﴿ **وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾

فـأنتم لا تعلمــون طبيعة النــاس ، والــدوافع الــتي تدعوهم الى خلق الافتراءات ضد

هذا وذاك ، فلا يجوز ان تثقوا باي فــرد ، بل عليكم التثبت عما إذا كان نقيا عن حب اشاعة الفاحشة.

[20] ﴿ **وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ** ﴾

بان بعث لكم رسـولا ووفر لكم فرصة الهداية ــ لـولا ذلك ـــ لما زكى أحد منكم ، اي تخلص من ورطة اتهــام الآخرين بالزور والبهتان.

ويبــدو ان المــراد من الفضل هو الهــدى (القــرآن والرســالة) ومن الرحمة النعم المادية (الأمن والســلامة وكل ما يمنع الإنسان من التورط في الجرائم المختلفة).

فلو لم تتــوفر للإنســان وســائل الهداية من جهة ، والوسـائل المادية كالحيـاة الاسـرية الفاضـلة ، والمكسب الحلال ، وما الى ذلك من النعم من جهة أخـــــرى ، لما تخلص من التورط في الجرائم.

﴿ **وَأَنَّ اللهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ** ﴾

ويبدو ان جـواب لـولا ما يشـار اليه في الآيـات التالية من قوله تعالى : ﴿ **ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً** ﴾.

[21] الشيطان سواء الجنّي الذي يجـري من ابن آدم مجرى الـدم ، أو الانسي الـذي تملأ أبواقه وشـبكاته حياتنا اليوم ، انه لا يدعونا الى الفواحش الظاهرة مرة واحــدة ، وانما يسـتدرجنا إليها خطـوة فخطـوة ، وعلينا الحـذر من اتباعه في الخطوات الاولى حتى لا يطمع فينا أكثر فأكثر.

﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ** ﴾

وما دام الله وفر للإنسـان فضـله ورحمته فلما ذا يتبع الشيطان؟!

ان الــذي يتبع خطــوات الشــيطان لا يحقق ســعادة النــاس وهــدايتهم ، فكثــير أولئك الــذين حــدثوا أنفســهم بالوصـــــــــول الى الحكم ، ومن ثم العـــــــــدل والحرية للمستضعفين ، ولكنهم تورطوا في جرائم الإرهاب والذبح واشــاعة الفاحشة ، فما أفلحــوا بل أصــبحوا أفسد ممن سبقهم ، فقد خدع الشيطان من انتمــوا الى حــزب البعث في العراق بذلك ، ولكنهم بعد ما وصلوا الى الحكم دمّروا العراق وأصبحوا لعنة على الشعب.

ان السلطة التي تبنى على أساس الكذب والافـتراء ، لا ولن تكــون في ســبيل الله والمستضــعفين لــذا يقــول القرآن :

﴿ **وَمَنْ يَتَّبِــعْ خُطُــواتِ الشَّــيْطانِ فَإِنَّهُ يَــأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾

فلا يفكر الإنسان أنه سينصـحه يوما ، ولعل المقصـود من «**لا تَتَّبِعُـوا خُطُـواتِ الشَّـيْطانِ**» وسـائله وسـبله ، فالغاية لا تبرر الوسيلة ، بل تحدد الغاية الوسيلة المناسبة لها.

﴿ **وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً** ﴾

«لـولا» حـرف امتنـاع لامتنـاع ، وهي اداة شـرط في هذا المقطع من الآية الكريمة «وفضـل» مصـدر نـاب عن فعل الشــرط ، اما جــواب الشــرط فقوله تعــالى : «ما زكى»

ولعل هــذا الجــواب هو نفسه جــواب لــولا في الآية السابقة «**وَلَوْ لا فَضْلُ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ وَأَنَّ اللـهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ**» والآية تشير الى مـدى صـعوبة التخلص من شبكات الشيطان ، وعلينا إذا الا نرتـاح الى ظل الغـرور ، ونغفل عن خطر الاســتدراج بل نتوكل على الله ، ونكــون دائمي الحذر ، شديدي اليقظة.

﴿ **وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ** ﴾

وذلك عن طريق الرسل والهداية والتوفيق ، وبما يوفر لهم من نعم ، تغنيهم عن تمنيات الشيطان.

﴿ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الموقف السليم :

[22] ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾

قيل : بعد ما وقعت حادثة الافك ، قرر المسلمون ان يقاطعوا كل المشتركين فيها مقاطعة شاملة ، فلا يزوجونهم ، ولا يعطونهم من المال شيئا ، ولا يدعونهم يحضرون مساجدهم ... إلخ ، وهذا ما يطمح اليه الأعداء ان يروا المجتمع المؤمن وقد تمزق كل ممزق ، فيجب ان ينتبه الواعون في المجتمع الاسلامي الى هذه الخطوة الشيطانية ، ويقفون قبالها ، لذلك نهى الله المؤمنين عن تطبيق قرار الجفاء والمقاطعة ، ومعنى الآية الكريمة : انه لا يحلف أولوا الفضل بعدم العطاء وصلة الرحم.

وكما قلنا : ان المقصود «بالفضل» الدين والهدى ، و «السعة» المال والنعم المادية ، فيصبح معنى الآية بهذا التفسير : انه على من أنعم الله عليهم بالهداية والمال ، ان يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين من ذلك ، ولو كانوا متورطين في جريمة الافك.

﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا** ﴾

على ما مضى ، ولعل المراد من العفو هو عدم المعاقبة على ما مضى اما الصفح فهو ما يسبب اعادة اللحمة الى المجتمع.

ووظيفة الامة الاسلامية بعد حوادث الافك وما تسـببه من فرقة وخلاف هو السعي نحو الوحدة لبنـاء كيـان جديد يقوم على أساسها.

﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

ربما يؤاخذ المؤمنون من اختلق الافك ضدهم ، ولكن هل ضـمنوا لأنفسـهم الـبراءة الخالصة من ذلك ، والكل معرض لارتكاب الخطأ بحق الآخرين؟!

لـذا ينبغي الصـفح عن الآخـرين حـتى يغفر الله لمن يصـفح ، وفعلا بـادر المسـلمون فـور نـزول هـذه الآية الكريمة قائلين عفونا وصفحنا ، أملا في غفران الله.

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَـناتِ الْغـافِلاتِ الْمُؤْمِنـاتِ لُعِنُـوا فِي الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ وَلَهُمْ عَـذابٌ عَظِيمٌ (23) يَـوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِـنَتُهُمْ وَأَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُـوَفِّيهِمُ اللَّـهُ دِينَهُمُ الْحَـقَّ وَيَعْلَمُـونَ أَنَّ اللَّـهَ هُـوَ الْحَـقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثـاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُـونَ لِلْخَبِيثـاتِ وَالطَّيِّبـاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبـاتِ أُولئِكَ مُبَـرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُـونَ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ (26) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْـرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (27) فَـإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُـوا فَـارْجِعُوا هُـوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّـهُ بِما تَعْمَلُونَ

---

26 [مبرّأون] : منزّهون.

عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنـاحٌ أَنْ تَـدْخُلُوا بُيُوتـاً غَيْـرَ مَسْـكُونَةٍ فِيها مَتـاعٌ لَكُمْ وَاللـهُ يَعْلَمُ ما تُبْـدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (29)

---

29 [جناح] : حرج واثم.

الوازع الديني وأثره في تحصين المجتمع

هدى من الآيات :

يركز السياق هنا حول قضيتين رئيسيتين :

الاولى : إنذار شديد اللهجة ، يوجهه الله تعالى للـذين يرمـون المحصـنات الغـافلات ، ويحـذرهم من نـار جهنم ، يــوم لا يمكنهم انكــار افــتراءاتهم ، وذلك ليحــيي الــوازع الـديني في ضـمير النـاس ، لـيرتفع المجتمع عن حضـيض المهاترات الرخيصة الى ذرى الآداب الرفيعة.

الثانية : بعد ان حدثتنا الآيـات السـابقة ، عن ضـرورة تحصين بيوت المسلمين معنويا ، تحدثنا آيات هذا الــدرس ، عن ضـرورة تحصـينها ظـاهرا عن دخـول الغربـاء ، لأنه حرم الإنسـان ، (كما يقـول الرسـول (ص)) فلا يدخله من ليس بصـاحبه ، الا ان يسـتأذن ويحصل على الموافقة من أهله ، وقبل الـدخول لا بد ان يـذكر الله مستأنسا ، رافعا صـوته بـذلك ، حـتى يكـون معروفا عند أهل الـبيت ، وبعد ذلك يبدأ

بالســـلام ، فـــان لم يكن رد منهم فليعد من حيث أتى ولا يدخله عنوة ، مـدفوعا بـالكبر ، ومـأخوذا بعـزة الإثم ، لان دخوله ســيكون اعتــداء ليس على هــذا الــبيت فقط ، بل على المجتمع بأكمله.

بينات من الآيات :

[23] ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَـنات الْغـافِلاتِ الْمُؤْمِنـاتِ لُعِنُـوا فِي الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ وَلَهُمْ عَـذابٌ عَظِيمٌ** ﴾

قد تكون المرأة في أحضان الفساد ومظان الفاحشة ، فلو اتهمت فانها تتحمل مســـــئولية ذلك ، كما المتبرجة الخليعة ، التي تتنقل من بيت لآخر ، وتقوم بحركات مائعة مشبوهة ، فهي تضع نفسها في دائرة الاتهام ، وتســتجلب كلام الناس عليها.

أما المـــرأة الغافلة عن التهمة ، البعيـــدة عن مظانها فينبغي ان تحترم أشد الاحترام ، ومن يتهمها فانه ملعــون في الدنيا ، اي مبعد عن الخير ، ومنبــوذ لــدى المؤمـنين ، وملعون في الآخرة حيث يبعده الله عن رضــوانه ، ويعذبه عذابا عظيما.

الشهادة :

[24] ﴿ **يَـوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِـنَتُهُمْ وَأَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾

كل عضو من الأعضـــاء يشـــهد على الإنســـان يـــوم القيامة ، وفي مقدمة من يشـــهد على الـــذين يرمـــون المحصنات ، ألسنتهم التي ستنطق بفضحهم دون إرادتهم ، ثم أيـــديهم وهي الــتي يشــيرون بها الى مواضع التهمة (فعـادة ما يسـتخدم المتحـدث لسـانه ويـده للتعبـير عن مقاصده) ، ثم أرجلهم الساعية بالتهمة لتوزيعها على أكبر رقعة اجتماعية ممكنة ، كما المشاء بنميم ، ليفسد ما بين الناس ويقوض صرح العلاقات

الاجتماعية ، وقد وقف قدامي المفسـرين على هـذه الآية مستغربين ، ليس من شهادة اللسان ـ فلذلك أمر طـبيعي ـ وانما من شهادة الأرجل والايدي.

فقـال بعضـهم : ان الله يخلق ألسـنة في كل جارحة تنطق بما عمله الإنسان ، وقال البعض الآخر : ان الله هو الـذي ينطق عن الجـوارح كما كلم موسى تكليما ، ولكننا اليوم ومع وجود الاجهزة الالكترونية المتطـورة ، لا نحتـاج الى مزيد من التفكير ، لنعرف كيف تشهد الايدي والأرجل ، فقد أثبت العلم الحـــديث بالتجربة العملية ، ان اي كلام أو تصرف يصدر من الإنسان ، ترتسم آثـاره على الأشـياء الموجودة حوله ، كالجدار والسقف والهواء ... إلخ.

إذا شــعر الإنســان بالرقابة الالهية عليه ، ونمّى لديه الوازع الديني ، فانه لن يرتكب معصية عن علم.

[25] **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَ**

عند ما تنكشف لهم الحقيقة ، ويتضح بطلان ما يدعون ، ويعلمـون بـان الله كـان يحصي عليهم كل شـيء حتى مشاعرهم ، ونوايا قلوبهم ، ثم يعطي جـزاء كل ذلك ذرة بذرة جزاء وفاقا. ودين الإنسان هو ما يلتزم به ، فـان التزم بالإسلام أعاده الله له يوم القيامة ، وكذلك لو التزم بالجريمة فانها تأتي له تسعى يوم الحساب فيجازى عليها.

 وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ

لأنه أنصع الحقائق وأوضـحها ، إذ تتجلى هـذه الحقيقة لفطرة الإنسان السليمة بكل سـهولة ويسر ، دونما حاجة للبحـوث الفلسـفية أو الـبراهين المعقـدة ، ولكن النـاس بأعمالهم الخاطئة ، يسدلون على قلـوبهم أسـتار الغفلة ، فيجهلون ربهم وأسماءه

الحسـنى ، عن ارادة لا جـبر ، وعند ما تـزاح عنهم هـذه الأسـتار في يـوم القيامة ، تتجلى لهم الحقيقة العظمى (الله) كمن يهتدي الى حقيقة لاول مرة.

[26] ﴿ الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثـاتِ وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

تعـددت وجهـات النظر في هـذه الآية من قبل المفسـرين ، فقـال قسم : ان هـذه الآية تشـير الى ان الأقوال والأفعـال الخبيثة للخبثـاء ، وعلى العكس بالنسـبة للأقوال والأفعـال الطيبة ، وقـال قسم آخر : ان الخبيثـات من النسـاء للرجـال الخبيـثين ، وعلى العكس بالنسـبة للنساء الطيبات.

ولكن يبدو أن الآية تؤكد حقيقة اجتماعية مبدئية هي : ان الإنسان لا يمكنه تسـجيل اسـمه في قائمة المجـرمين ثم يعيش مع الصـالحين ، بل لا بد ان تنتهي الحيـاة به الى من سجل اسمه في قائمتهم عمليا.

اما في شـطرها الثـاني ، فانها تؤكد قـدرة المجتمع الفاضل على بناء كيان مستقل ، بعيدا عن الالسنة البذيئة ، والافـتراءات الكاذبة ، وهـذا ما يمهد له الحصـول على غفران الله ورزقه الكريم.

حرمة البيت :

[27] ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتـاً غَيْـرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

تطـرح لنا هـذه الآية وما يليها مجموعة تعـاليم تتصل بحرمة الـبيت ، حيث ينبغي ان يحس المـرء بـالأمن داخل منزله ، حيث يضع ثيابه ويتخلص من العـادات الاجتماعية المرهقة ، ويسـتريح الى طبيعته ، ويتنفس عن مشـاعره المكبوتة ، وحيث

زوجته الـــــتي يجب ان يخلو بها ، ويبث إليها اســــراره وعواطفه ، ولعله يريد ان يقضي منها وطرا. فقبل ان تطأ قدماك بيتا غير بيتك ، لا بد ان تراعي آداب الدخول والتي منها : الاستيناس وإعطاء اشارة لقصد الدخول أولا ، وفي التعبــير القــرآني روعة ولطف ، فالاســتيناس المتخذ من لفظة (الانس) يــوحي بضــرورة رعاية الجــوانب العاطفية فلا كلمات نابية ، أو صياح عال أو طرق شديد للبــاب ، بل رقة ومحبة وتلطف وتودد. و جاء في الأثر ان «الاستيناس هو وقع النعل والتسليم» [1] و عن أبي أيوب الانصاري قال : قلنا يا رســول الله ما الاســتيناس؟ قــال : يتكلم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبــيرة يتنحنح على أهل الــبيت [2] والتسليم ثانيا اشعارا بحسن النية وســلامة القصــد. وليس هذا النظام شاذا عن الفطرة البشرية ، بل متوافقا معها ، وهكــذا ســائر الأحكــام والآداب في الإســلام تتوافق مع فطــرة البشر وعقله ، وهــذا ما تشــير له الآية الــتي تحث الإنسان على التذكرة فكثــير من الحقــائق ، معروفة لــدى الناس ، ولكنهم نسوها فاحتاجوا الى التفكير ليتذكروها.

[28] ﴿ **فَإِنْ لَمْ تَجِـدُوا فِيها أَحَـداً فَلا تَـدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيـلَ لَكُمُ ارْجِعُـوا فَـارْجِعُوا هُـوَ أَزْكى لَكُمْ** ﴾

ان لم يكن في الـــــبيت من يملك صـــــلاحية الاذن بالــدخول ، أو وجد من يملكها ، ولكنه لم يعط إذنا بــذلك فلــيرجع ، ففي ذلك زكــاة للمجتمع ، اي نمو للاخلاقيــات والعلاقات الطيبة فيه ، ولقد شــددت النصــوص الاســلامية على الاستيذان وآدابه قبل دخول البيوت.

فهذا الرجل يستأذن على رسول الله (ص) بــالتنحنح ، فيقول الرسول لامــرأة يقــال لها روضة : قــومي الى هــذا فعلميه وقولي له قل : السّلام عليكم أأدخل؟ فسمعها

(1) نور الثقلين / ج 3 / ص 585.
(2) المصدر.

الرجل فقالها فقال : ادخل [1]

و يسـأله رجل عما إذا كـان من الضـروري الاسـتيذان على الام ويقــول : انها ليس لها خــادم غــيري أفأســتأذن عليها كلما دخلت؟ قـــال : أتحب أن تراها عريانـــة؟ قـــال الرجل لا .. قال : فاستأذن عليها [2]

وهكذا كانت سيرة النبي (ص) فقد روى جابر بن عبد الله الانصاري قال : «خرج رســول الله يريد فاطمة عليها السّـــلام ، وانا معه ، فلما انتهيت الى البـــاب وضع يـــده فدفعه ثم قــــال : السّــــلام عليكم فقـــالت فاطمة عليها السّلام : عليك السّلام يا رسول الله ، قال : أدخل؟ قالت ادخل يا رســـول الله ، قـــال أدخل ومن معي؟ قـــالت يا رسول الله ليس عليّ قنـاع ، فقـال يا فاطمة خـذي فضل ملحفتك فقنعي به رأسك ، ففعلت ثم قــــال : السّـــــلام عليكم فقـالت وعليك السّـلام يا رسـول الله قـال أدخل قـالت نعم يا رسـول الله قـال انا ومن معي؟ قـالت ومن معك» [3]

بهذه الرقة والتودد ، أدبنا الإسلام.

ويحسن بنا الانتباه الى نهاية الآيات ، فعـادة ما تكـون نهايتها مفاتيحها ، كما تكـون الآيـات الاخـيرة في السـورة مفاتيح لها ، و هنا يقول تعالى :

﴿ **وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾

بعد ان يطرح مجموعة من القوانين والانظمة لمــاذا؟ الجواب :

---

(1) المصدر / ص 586.

(2) المصدر.

(3) المصدر ص 587.

لعله لان للإنسان قـدرة التفـاف هائلة على القـانون ، وتحويله الى قشــرة دون اي محتــوى ، ولكي يحــذر الله سـبحانه النـاس ، من الالتفـاف حـول النظـام الاسـلامي يحثهم على الالتزام به بدقة وإخلاص ، ويـذكرهم بأنه يعلم حقيقة أعمــالهم ، فلا منــاص لهم من النصح في تطــبيق الأحكـام ، فقد يخـادع الإنسـان أصـحاب الـبيت فيـوهمهم حين دخوله انه يقصد هـدفا شــريفا ، وواقعة خلاف ذلك ، ولكنه لا يستطيع ان يخدع الله لأنه عليم بما يعمل الناس.

ودخول كهذا ، هو كما لو دخل بدون إذن لا فرق إذ لو علم أصحاب البيت بقصده السيء لما أذنوا له بالدخول.

وكثـــيرا ما يمتهن بعض المجـــرمين المهن الـــتي تسـاعدهم على دخــول الـبيوت ، بحجة القيـام بخــدمات معينة كاصلاح الكهرباء والهاتف أو تركيب الستائر والأثـاث ، فيجدون بذلك فرصة سانحة للاطلاع على اعراض الناس ، والتجسس على المؤمــنين ، ولا يعلمــون انهم بــذلك قد ارتكبوا جريمتين :

الاولى : جريمة الدخول بدون إذن ، لأن هدفه سيء.

الثانية : جريمة الإفساد في الأرض.

ولئن أفلت هــؤلاء من علم أهل الـبيت أو السـلطات الشرعية ، فلن يفلتوا من علم الله.

[29] ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتـاً غَيْـرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ ﴾

لأنها وضــعت لمنفعة عامة ، كالفنــادق ، والحمامــات العامة ، أو المحال التجارية ، ومكاتب الخــدمات المختلفة ، وما الى ذلك ، ولكن لا يجوز الدخول فيها

لغير الهدف المحدد ، وان جاز الدخول فيها بدون إذن.

وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ

من النوايا والاهــداف ، وهــذه دعــوة لتنمية الــوازع الديني في ضمير الإنسـان ، انطلاقا من تحسيسه بالرقابة الالهية عليه.

فأولئك الذين يدخلون المحال التجارية مثلا لا ليشتروا مما يعــرض فيها ، بل لكي يســتريحوا من تعب المشي وزحام السوق ، أو ليستفيدوا من تكييف المحل في صيف حار أو شتاء بارد ، أو يدخلوا في دائرة ما ، لا لكي ينجـزوا معاملة لهم فيها ، وانما ليتحــدثوا في شــؤون خاصة مع زملائهم العـــاملين فيها .. وما الى ذلك من الحـــالات الاخرى. ليعلم هؤلاء ان الإسـلام لا يجـوز لهم ذلك لما فيه من مضار اجتماعية ، قد لا يظهر أثرها الا مع مرور الزمن ، كما انها تناقض الأخلاق الفاضلة ، والسـجايا العالية ، ولو وضع هؤلاء أنفسـهم موضع أهل هـذه المحلات والـبيوت ، لما رضوا من غيرهم هذه الأعمال المخالفة.

قُــلْ لِلْمُــؤْمِنِينَ يَغُضُّــوا مِنْ أَبْصــارِهِمْ وَيَحْفَظُــوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصْـنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُــــرُوجَهُنَّ وَلا يُبْـــــدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَــــرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُـرِهِنَّ عَلى جُيُـوبِهِنَّ وَلا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْنـاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ إِخْـوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْـوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْــرِ أُولِي الْإِرْبَــةِ مِنَ الرِّجــالِ أَوِ الطِّفْـلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَـرُوا عَلى عَـوْراتِ النِّسـاءِ وَلا يَضْـرِبْنَ بِـأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللــهِ جَمِيعـاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)

30 [يغض] : الغض أصله النقصان يقال غض من صفته ومن بصــره أي نقص منه.

وَأَنْكِحُــوا الْأَيــامى مِنْكُمْ وَالصَّــالِحِينَ مِنْ عِبــادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحــاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُـونَ الْكِتـابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكـاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْـراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغـاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّـناً لِتَبْتَغُـوا عَـرَضَ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَمَنْ يُكْـرِهْهُنَّ فَـإِنَّ اللـهَ مِنْ بَعْـدِ إِكْـراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33)

وانكحوا الأيامى منكم والصالحين

هدى من الآيات :

استــتمرارا للحــديث الماضي عن الحــدود الشــرعية للغريزة الجنسية ، وبعد ان بيّن القرآن حرمة الزنا والقتل ، وحرمة دخول البيوت الا بعد الاستئناس والسّـلام ، يــبيّن هــذا الــدرس حــدا آخــرا لها هو حرمة النظر ، وضــرورة الحجاب ، وما يحويه هذا العنوان ، من موضوعات هامة.

وانما فرض الإسلام الحجـاب ليحـدد الاثـارة الجنسـية في القنـــوات الشـــرعية النافعة لها ، وليحافظ على عفة المرأة وكرامتها ، وليهبها موقعا مناسبا في المجتمع ..

ويسمح الإسلام للمرأة بالحرية في أسـرتها الصـغيرة أو العائلة الكبــيرة .. اي لــدى زوجها أو الأب والابن والأخ وأبنـاء الأخ والاخت وآبـاء الـزوج ، وبالتـالي كل من يحـرم عليها بالنسب أو السبب الزواج منها.

ولكن هل يجوز للمرأة باعتبارها (امرأة) التـبرج أمـام كل النساء؟

كلا .. فقد حـدد الإسـلام بقوله «أو نسـائهن» النسـاء اللاتي يجوز للمرأة التـبرّج امـامهن ، فلا يجـوز لها التـبرّج امــام غـــير المؤمنـــات وهـــذا ما نصت عليه النصـــوص الاسلامية.

اما بالنســـبة لغــير ذوي الاربة من الرجـــال كالبله ، والمجانين ، فمن حق المرأة الا تلتزم بالحجـاب امـامهم ، لان الهـدف منه كما تقـدم تحديد (الاثـارة الجنسـية) في المجتمع ، وبما ان هـؤلاء قد مـاتت الغريـزة فيهم تقريبا ، فلا بأس بالتبرّج أمامهم ، وكذلك بالنسـبة للأطفـال الـذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ولمّا يميزوا.

وبعد ان حدد الإسلام الغريزة الجنسـية ، صـار يشـجع على الـزواج ، ولو لا ان الغريـزة الجنسـية هي من أقـوى الغرائز الدافعة للإنســـــان ، لما تحمل أحد مســـــئوليات الزواج ، اننا نرى الكثـيرين يتحملـون الكبت الجنسي هربا من القيـام بمسـؤولية الـزواج ، فلو وجـدت في المجتمع قنـوات أخـرى لتفريغ هـذه الغريـزة لم يقـدم الكثـير على تحمل مسئولياته.

وحينما دعا الإســـلام الى الـــزواج عـــالج المشـــاكل النفسية الـتي تعترضه ، وأهمها الخـوف من المسـؤوليات التي من أبرزها مسئولية الإنفاق ، وتأمين العيش للاســـرة ، حيث يعد الله المـتزوجين بـان يبـارك لهم ، ويبعث لهم بالرزق على قدر الحاجة ، وهذا ما تقتضـيه سـنته سـبحانه وتعــالى ، ذلك لأنه انما يتكاسل الإنســان حينما لا يشــعر بالحاجـــــة. ولكنه عند الحاجة يفجر طاقاته ، ويرزقه الله تعالى.

بينات من الآيات :

[30] ﴿ **قُـلْ لِلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِنْ أَبْصـارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾

بمطلق الحفظ وفي كل مجال ، فلا يجوز للإنسان ان يستثير شهوته بأي وسيلة مريبة ــ كما يسـميها الفقهـاء ــ فالنظر الى وجه المرأة الاجنبية أو حتى القريبة ، أو

النظر بريبة وبهـدف الآثـار الى الصـور والافلام كله حـرام لأنه يستثير الغريزة الجنسية ، وقد أمر الله بحفظها.

 ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ

من ان يضعوا أيـديهم في مسـتنقعات الفسـاد المليئة بالميكروبات الخطيرة التي يخشى ان تتسـرب الى جسم الإنسان ، وهل تتسرب الى جسم الإنسان إذا حفظ نفسه منها ، وابتعد عن مواضعها؟!

ان الغريـزة الجنسـية من أقـوى غرائز البشر ، فـاذا أثيرت جرفت السـدود أمامها ، وانـدفعت في كل اتجـاه ، ولربما حملت صـاحبها على جـرائم بشـعة ، وعند ما نطّلع على أرقـــام الجـــرائم الجنســـية في البلاد الغربية حيث الميوعة والخلاعة نصاب بالـذهول ، وإذا فتشـنا في أوراق المحـــاكم الجنائية عن خلفية الجــرائم الكبــيرة ، وجـــدنا الغريزة الجنسية وراء كثير منها.

وإذا ملأنا الأجواء اثارة ، وأشبعنا الغرائز ثـورة وهياجا ، فـان التـوتر الجنسي العـالي يضـغط باسـتمرار على الاعصـاب ، ويسـبب أمراضا خطـيرة للرجـال ، والتشـبيبة منهم بالـذات ، ذلك لان تفريغ الغريـزة لا يكـون مقـدورا دائما ، ثم لا يقتنع الفتى الذي يستمر هيجـان الغريـزة في كيانه بشـريكة حياته ، بل ولا بـالجنس الثـاني مهما كـان فاتنا ، بل يهبط الى درك الشـــــذوذ ، ثم يتجـــــاوزه الى المخـدرات ، ذلك المهـوى السـافل الـذي يهـدد مسـتقبل الحضارة البشرية.

ولا تتوقف أثـــار التهـــييج الجنسي عند مفاســـدها المباشرة. إذ هناك آثار اخطر .. أو ليست الاثارة الجنسـية أعظم معول يهـدم الشـيطان به صـرح الاسـرة ، ويسـبب في شيوع الخلافات العائلية ، بل وانتشـار الطلاق والزنا ، وتكاثر أولاد الحرام وبالتالي ضياع الجيل الناشئ؟

فـاي نعمة كبـيرة أسـبغها الإسـلام على البشر بحرمة النظر ، ونظافة الأجواء العامة من سهام إبليس؟!

جاء في حديث مأثور عن الامام أمـير المؤمـنين عليه السّلام :

«**ليس في البـدن شـيء أقل شـكرا من العين ، فلا تعطوها ســؤلها ، فتشـــغلكم عن ذكر الله ، ثم قال لكم أول نظرة الى المرأة ، فلا تتبعوها بنظـرة أخرى ، واحذروا الفتنة. إذا رأى أحدكم امـرأة تعجبه فليأت أهله ، فان عند أهله مثل ما رأى**» (1)

وقد اسـتخدم الله كلمة «من أبصـارهم» في التعبـير القــرآني دلالة على التبعيض ، فليس كل نظــرة حــرام ، وانما يحرم منها المريب ، والنظر الى مالا يحله الله.

والغض في اللغة ، بمعنى الخفض ، ومقصود الآية ان يحفظوا من أبصارهم ، فالإنسان لا يمكنه ان يغير العالم ، ولكنه يستطيع ان يكيف نفسه حسب حكم الشـرع ، فـاذا لحظ منظرا حراما يستطيع اجتنابه عبر طريقين : فأما أن يزيل هذا الواقع الفاسد ، وأما ان يشيح ببصــره عنه ، ولم يأمر الله بإغمـاض العين لما في ذلك من احتمـال للضـرر كالسقوط في حفرة.

﴿ **إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ** ﴾

فــاذا التف أحد على القــانون ، أو عجز الحــاكم عن متابعته ، فانه لن يلتف على الله الخبـــــير الـــــذي يعلم المطبق للقانون من المخالف له ، ظــاهرا أو باطنا ، فمن الأصـلح للإنسـان ان يجعل ضـميره حارسا عليه ، ومراقبا لأعماله ، حتى لا يسخط الله ،

---

(1) المصدر / ص 589.

فيستحق العذاب.

[31] ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْـنَ مِنْ أَبْصـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَ ﴾

لأن المسـؤولية مشـتركة بين الرجل والمـرأة ، ولكنا نلاحظ ان الله حينما فرض الحجـاب فرضه على المـرأة ، وحينما أمر بغض النظر أمر الرجل أولا ، لان نظر الرجل للمرأة أكثر اثارة للفتنة من نظر المـرأة لـه. ولعل عيـون المرأة ، ونظراتها الفاتنة ، تفسد الرجال قبل ان تفسدها. وذلك يعــود لاختلاف الـتركيب الفســيولوجي ، فاحتمــال تجاوبه معها لو نظر لها أكــبر من احتمــال تجاوبها معه لو نظرت اليه.

ويربط القــرآن بين غض البصر وحفظ الفــرج ، ذلك لأن هــذين الأمــرين يتظــافران معا في حفظ الرجل أو المــــرأة عن الفاحشة ، أو ليست بداية الفاحشة نظـــرة خائنة؟!

الحدود الشرعية للحجاب :

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَـرَ مِنْها وَلْيَضْـرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَ ﴾

يـبين هـذا المقطع من الآية الحجـاب الشـرعي الـذي يجب أن تأخذ به المـرأة المسـلمة. وهو كما فسـره بعض الفقهاء ، وجاء في الأحاديث ان تسـتر المـرأة كامل بـدنها وجوبا عدا الوجه ، والكفين والقدمين وكحل العين والحناء ولبس الخاتم ، فان إظهارها جائز ، ثم ان على المـرأة ان تلبس خمارا يستر الصدر والعنق.

جـــاء في الحـــديث عن أبي عبد الله الصـــادق عليه السّـلام : وقد سـأله بعض أصـحابه ، قـال : قلت له : ما للرجل ان يرى من المـرأة إذا لم تكن له بمحـرم؟ قـال : «**الوجه والكفين والقدمين**» [1]

---

(1) المصدر / ص 589.

ولقد كانت المـرأة في الجاهلية تختمر ، الا انها تبـدي زينتها للرجـــال ، حيث تجعل خمارها خلف اذنها ، لتبـــدو اقراطها وكـــانت تحسر عن نحرها وبعض من صـــدرها ، وتكشف بالتـالي عن مفاتنها ، فجـاءت الآية تـأمر نسـاء المؤمنين بشد الخمـار ، بحيث لا يبـدو شـعرهن ولا آذانهن ولا نحورهن وصـدورهن ، و قد جـاء في رواية مـأثورة عن الامـام أبي جعفر البـاقر عليه السّـلام .. انّ سـبب نـزول هذه الآية كالتالي :

اسـتقبل شـاب من الأنصـار امـرأة بالمدينة ، وكـان النســــــاء يتقنعن خلف آذانهن ، فنظر إليها وهي مقبلة ، فلما جازت نظر إليها ودخل في زقـاق قد سـمّاه ـ يعـني فلان ـــ فجعل ينظر خلفها ، واعـــترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه ، فلما مضت المـــرأة نظر فـاذا الـدماء تسـيل على ثوبه وصـدره ، فقـال والله لآتين رسول الله ، ولأخبرنه ، قال : فأتـاه فلما رآه رسـول الله قـال له : ما هــذا؟ فـأخبره ، فهبط جبرئيل بهــذه الآية : «**قُـلْ لِلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِنْ أَبْصـارِهِمْ وَيَحْفَظُـوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ**».[1]

اما الزينة فظـاهرة : فلا يجب ســترها ، و جــاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق (ع): «**انها الكحل والخاتم**».[2]

﴿ **وَلا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُـولَتِهِنَّ أَوْ آبـائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَ** ﴾

ويستوحى من هـذه الآية انه لا يجـوز إظهـار المفـاتن لغير النساء المؤمنات ، و قد

---

(1) المصدر / ص 588.
(2) المصدر / ص 592.

جاء في الحديث الشـريف عن أبي عبد الله الصـادق عليه السّلام :

«**لا ينبغي للمـرأة ان تنكشف بين يـدي اليهودية والنصرانية فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن**» [1].

 أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمـانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْـرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ

وهم البلة ، والمجـانين والمصـابين بمـوت الغريـزة الجنسـية كالشـيوخ الطـاعنين في السن وغـيرهم ، ممن فقـدوا الشـهوة الجنسـية ، أما ما يدعيه البعض من جـواز إظهار المرأة زينتها للخادم والحارس ، سواء في البيت أو المدرسة أو الـدائرة خطأ كبـير يخـالف التعـاليم القرآنيـة. اذن فلا يجـوز للمـرأة ان تظهر زينتها الا لمن ذكرته الآية آنفا.

 أَوِ الطِّفْـلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَـرُوا عَلى عَـوْراتِ النِّساءِ

فاذا بلغ الطفل مبلغ الرجـال أو صـار ممـيزا في هـذا الجانب ، حرم على النساء إظهار زينتهن امامه.

 وَلا يَضْـرِبْنَ بِـأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَ

فتسـتثير شـهوة الرجل الجنسـية ، لـذلك لا ينبغي للمرأة الخروج بعطر فوّاح بين الرجال الأجانب ، مما يدل على ان الإسلام يلتفت للجوهر لا للقشور. إذ يفرض على المرأة الحجاب الباطني أيضا.

من هنا حرم بعض الفقهـاء الاستماع لصـوت المـرأة الاجنبية ، أو ان تخضع المـرأة في حـديثها فـان ذلك مما يستثير الرجل ، و لعله من مضامين الآية أن تلبس المرأة حذاء

(1) المصدر / ص 593.

أو نعلا ، يفتعل صوتا عند مشـيها ، مما يلفت الانتبـاه لها ، بينما لولاه لم يعلم بها أحد أو يلتفت إليها وهي تمر.

 وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعـاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُـونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

فلم يخلق الإنسان معصوما ، اذن لا غرابة ان يسـقط سقطات عصيان ، ولكن الغريب هو ان لا يعالجها بالتوبـة.

ولقد كان الرسول (ص) يستغفر ربه كل يوم مائة مرة.

[32] وحـرّض الإسـلام على الـزواج ليكـون القنـاة النظيفة لأقوى غريزة عند البشر ، فقال سبحانه :

 وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ

لأنهم بشر يمتلكـــون نفس الغرائز ولـــديهم نفس الحاجات ، والايّم مفرد أيـامي وهي كلمة تطلق على غـير المـتزوج ، مـرأة كـان أو رجلا ، اما توفـير الوسـائل والتسهيلات اللازمة للزواج فهي مسئولية اجتماعية كسائر المسؤوليات الأخرى.

وهذه الآية تشمل الشاب الأعزب رقا كان أم حرا ، إذ يجب على المجتمع تزويجهم جميعا.

ولأن أكبر العقبات النفسـية امـام الـزواج هي خشـية العيلة ، فان ربنا سبحانه يزيح هذه العقبة بقوله :

 إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَاللـهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

فقدرته واسـعة ، وفضـله واسع ، وعلمه محيط بكل شيء فلا يعجزه شـيء ، وإذا تـدبرنا في هـذه الآية ، ومن خلالها في سـنن الله في الحيـاة ، عرفنا ان عجلة الحيـاة لم

نكن لتدور من دون الزواج ، الذي هو أبرز مظاهر التعاون عند الجنس البشـــري أوليست الحاجة أمّ الاخـــتراع ، أو ليس الاحسـاس بالمسـؤولية صـاعق القـوى الكامنة عند الإنســان؟! ان رزق الله كـــامن في الأرض ، وقـــدرات الإنســـــان كامنة في نفسه ، انما تتفجر تلك القـــــدرات فتستخرج رزق الله بالأمل والحاجة والسعي.

ومن هنا جـاء في رواية مـأثورة عن النـبي صـلّى الله عليه وآله :

«من ترك الـتزويج مخافة العيلة فقد أسـاء ظنه بالله عز وجل ، ان الله عز وجل يقول : ﴿ **إِنْ يَكُونُـوا فُقَـراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾» [1]

بل ان النبي كـان يوصي الفقـراء بـالزواج لكي يوسع الله عليهم.

يروي الامـام الصـادق (ع) انه أتى رسـول الله شـاب من الأنصار ، فشكا اليه الحاجة ، فقال له : «تزوج» فقال الشاب : اني لأسـتحي ان أعـود الى رسـول الله ، فلحقه رجل من الأنصار فقال : ان لي بنتا وسيمة ، فزوجها إيـاه ، فقال : فوسع عليه ، فأتى الشاب النبي فـأخبره ، فقـال رسول الله : يا معشر الشباب عليكم بالباه (اي بالنكاح).

[2] ولقد بلغ من تحـريض الإسـلام على الـزواج : ان يقول الامام الصادق عليه السّلام :

«**ركعتـان يصـليهما المـتزوج أفضل من سـبعين ركعة يصليهما الأعزب**» [3]

و يروى عن رسول الله قوله :

(1) المصدر / ص 595.
(2) المصدر / ص 596.
(3) المصدر.

«**من تزوج أحرز نصف دينه**» [1]

و قال :

«**رذّال موتاكم العزاب**» [2]

[33] عند ما لا يوفق الإنســـان للـــزواج ، أو يكـــون عــاجزا عن ذلك فعليه ان يتعفف ، ويتحصن بالايمــان ، لا ان يفسد في الأرض أو يكـون سـببا لانتشـار الفاحشة في المجتمع.

﴿ **وَلْيَسْـــتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِــدُونَ نِكاحــاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾

قال الرسول (ص) :

«**من اســتطاع منكم البــاءة فليــتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فان الصوم له وجاء**».

وبمناسبة الحديث عن مسئولية الزواج ، أخذ الســياق يعالج مشكلة اجتماعية كانت حادة ذات يوم ، هي مشكلة الرقيق ، حيث كــــان الـــذكور منهم يبقــــون بلا زواج ، ويعيشون عناء العزوبة ، ويشـكلون بـؤرة الفسـاد ، فـأمر الله بمكاتبتهم ، ليتحرروا ، ولينكحوا مثل غيرهم.

﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُـونَ الْكِتــابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمــانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً** ﴾

المكاتبة هي ان يأتي العبد الى سـيده ليشـتري نفسه منه بمقدار مقسّط من المال ،

(1 ، 2) المصدر.

وينبغي لكل من يملك عبدا ان يطرح عليه هذا المشروع ، فان تجاوب معه ، واستطاع كـان حـرا ، وهـذه ما تسـمى بالمكاتبة المشـــروطة ، وهنـــاك مكاتبة اخـــرى تســـمى بالمطلقة : يدفع فيها العبد حسب استطاعته المبلغ الــذي يفك رقبته به.

 وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ

من سـهم «وفي الرقـاب» الـذين هم أحد مسـتحقي الزكـــاة. وفي الأحـــاديث يضع عنهم المـــولى الخمس أو الربع.

أما الإماء فكن في الجاهلية يتاجر بأجسـادهن ، وجـاء النهي الصريح عن ذلك.

 وَلا تُكْرِهُــوا فَتَيــاتِكُمْ عَلَى الْبِغــاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا

ولهذه الآية تفسيرا ظاهر وباطن ، أما الظاهر فهو ان عبد الله بن أبي كان يجبر فتياته على الزنا ، ليكسب مــالا من وراء بغـائهن ، فاشـتكين امـره لـدى الرسـول (ص) فنزلت الآية الكريمة «ولا تكرهوا ...» ، ولهذا فانه لا يجوز ان يفسح المجتمع لمثل هـؤلاء ان يمارسـوا أبشع أنـواع التجارة وهي (التجارة بأجساد النساء).

 وَمَنْ يُكْـرِهْهُنَّ فَـإِنَّ اللـهَ مِنْ بَعْـدِ إِكْـراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ

ان المجتمع الفاسد ، والاقتصاد المنحـرف ، وبالتـالي الفقر المـدقع ، كـانت عوامل ألجـأت النسـاء الشـريفات بفطـرتهن لممارسة الانحـراف ، وامتهـان البغـاء ، ولـذلك فان الله يقبل تـوبتهن اليـه. جـاء في الحـديث في تفسـير هذه الآية الكريمة :

«**كانت العرب وقريش يشترون الإماء ، ويضعون عليهم الضريبة الثقيلة**

و يقولون : اذهبوا وازنـوا واكتسـبوا ، فنهـاهم الله عز وجل عن ذلك» [1]

ولعل الآية تشـــير أيضا الى ضـــرورة رفع العقبـــات الاجتماعية الـــتي تكـــره الفتيـــات على البغـــاء ، مثل غلاء المهور ، ووضع شروط للتزويج ـ ﴿ **ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ** ﴾ ـ ولقد واجه الإسلام هذه العقبـات بقـوة ، فقد جاء في السيرة : ان رسول الله صلّى الله عليه وآله زوج المقداد بن الأسـود ضـباعة بنت الزبـير بن عبد المطلب ، وانما زوجه لتتضع المنـــاكح ، وليتأسـوا برســول الله ، وليعلموا ان أكرمهم عند الله أتقاهم. [2]

وشـــجع الإســلام على المســـاعدة في أمر الـــزواج لتســـهيل أمر هـــذا المشـــروع الحضـــاري ، فقد جـــاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السّلام :

«**ثلاثة يستظلون بظل عرش الله يــوم القيامة ، يـــوم لا ظل الّا ظلّه ، رجل زوّج أخـــاه المســـلم أو أخدمه ، أو كتم له سرا**» [3]

---

(1) المصدر / ص 602.
(2) المصدر / ص 597.
(3) المصدر / ص 599.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَـــــةً لِلْمُتَّقِينَ (34) اللـــــهُ نُـــــورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْـكاةٍ فِيها مِصْـباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَـةٍ لا شَـرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكـادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْـدِي اللـهُ لِنُـورِهِ مَنْ يَشـاءُ وَيَضْـرِبُ اللـهُ الْأَمْثـالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُـوتٍ أَذِنَ اللـهُ أَنْ تُرْفَـعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَا اسْــمُهُ يُسَــبِّحُ لَــهُ فِيها بِالْغُـدُوِّ وَالْآصـالِ (36) رِجـالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجـارَةٌ وَلا بَيْـعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتـاءِ الزَّكـاةِ يَخـافُونَ يَوْمـاً تَتَقَلَّبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصـارُ (37) لِيَجْـزِيَهُمُ اللـهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَـرْزُقُ مَنْ يَشـاءُ بِغَيْـرِ حِسـابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمـالُهُمْ كَسَرابٍ

بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (39) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (40)

---

39 [بقيعة] : القيعة جمع قاع وهي الواسع من الأرض المنبسطة وفيه يكون السراب.

40 [بحر لجّي] : لجة البحر معظمه الذي يتراكب أمواجه فلا يرى ساحله.

بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ

هدى من الآيات :

ان النور الذي يتجلى في الطبيعة هو النور الـذي يشع في قلب البشر ، لان الينبوع واحد ، وهو الله الذي يمسك السماء والأرض بيد من القـدرة ، ولو لا هيمنته تعـالى لما استقر حجر على حجر ، ولو لا فيض رحمته لم يبق شـيء من الوجـود ، فهو ليس قائما بذاته وانما بما يمـده به الله من نور البقاء.

وكمثل على ذلك ـ وتعالى الله عن الأمثال ـ لو توقف المصـباح عن اشـعاع النـور لحل الظلام على الفـور ، ولا يعـني ذلك ان خلق الله للأشـياء هو كما يفيض النـور من المصباح ، كلا .. وانما بالإرادة التي لا تحتاج الى زمان ، أو شـــيء من المعانـــاة ، انما هي لحظة الارادة المخلوقة ونفحة الرحمة المعطاة.

وما الإسلام الا حكمة قائمة على أساس هذه الفكـرة : «**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُـورِ رَبِّها**» ولعلنا نسـميها ببصـائر النور ، ولا مجال للحـديث عن أبعادها الاسـلامية العميقة ، وانما بيّنا ذلك ، لكي نعـرف الجـانب الآخر وهو : ان النـور في القلب

والمجتمع هو نفس النـور في حيـاة الإنسـان التشـريعية ــ وهو نفس النـــور في الحيـــاة التكوينية ، فلو أمسك الله تعالى فيض نوره عن السماوات والأرض لانعدمتا في أقل من لحظة ، كذلك لو أمسك فيض نـور رسـالته عن البشر في حياتهم التشريعية والاجتماعية لساد الظلم والظلام.

لذا فـان نـور الله في التشـريع كمصـباح في مشـكاة (والمشكاة حفرة شق في الجـدار يضـعون المصـباح فيها بعد ان يحيطـــــوه بزجاجة تزيد من اضـــــائته) ووظيفة المشـكاة هي العمل على تركـيز النـور ، وأفضل الزيـوت الـتي كـانت تسـتخدم للاضـائة في ذلك الـوقت هو زيت الزيتون الذي يـزرع فـوق الجبـال ، فلا يظلها يسـار الجبل عن الشمس حين الشروق ، ولا يمينه حين الغروب ، فهي لا شرقية ولا غربية ، وكلما كان الزيت أصفى كان ضــوؤه أبهى .. وكم تكون الاضاءة نيّـرة حينما يكـون وقودها زيت الزيتون ، ويكون المصباح في مشكاة عبر زجاجة؟!

كــذلك نــور الله الــذي يهبط وحيا فيســتقر في قلب الرسول (ص) الزكي ، الطاهر كما المصباح يشع نورا من زيت نقي ، ورســول الله يحيط هــذا المصــباح بزجاجة الســـنة الشـــريفة ، ليضع الجميع في اطـــار أهل بيته الطاهرين ـ عليهم الصلاة والسّلام ـ الذين هم أشبه شيء بمشكاة نظيفة تحفظ النور وتنمّيه نورا على نور.

ان بيــوتهم الــتي أذن الله ان ترفع ، كــانت مشــكاة للرسالة لأنها ضمّت ذكر الله ، المنبعث من قلـوب أوليـاء الله ، المتّقد بوقـود مبـارك هو الصـلاة والزكـاة وخشـية المنقلب ، وهـذا الـبيت هو المثل الأعلى للاسـرة المباركة حيث يجري السياق في سورة النور لبيان صفاتها المثلى.

وهكــذا نسـتوحي من هــذه الآية ضــرورة جعل نــور الايمان في مشـكاة الاسـرة ، وذلك من أجل تربية النفس البشرية وتنمية العوامل الخيّرة فيها لتتضاعف خيراتها

وبركاتها ، كالزيتونة اللاشـــــــرقية واللاغربية ، تمتص من اشـعة شـمس الرسـالة أزكاها ، وأنماها ، وهكـذا نتـذكر بالآيات ان هنـاك سـورين للاسـرة الفاضـلة : سـور مـادي وهو الـبيت الـذي يحـرم على الاجنـبي اقتحامه ، وسـور معنوي يعلو بالقيم السامية ، والبيت الـذي اذن الله له ان يرفع انما هو الـذي يحصّـنه ذكر الله وتسـبيحه ، والـذي يشتغل أبنـاؤه بمعايشـهم ولكن دون ان تشـغلهم عن ذكر ربهم ، وهكذا تحافظ الاسـرة على مهمة الإنسـان ، الـذي خلقه الله مصباحا للحياة ، يتفجر من جوانبه النور ـــ ارادة وعقلا وعواطف ـ فلو ترك هذا النور تلفحه ريـاح الشـهوة لانطفأ أو لا أقل لقلت اضاءته ، ولكنك تجد من الناس من لا نـور لهم أساسا ، وهم يجعلـون أنفسـهم في قبـور من ظلمـــات الكفر والجحـــود ، كالليل المظلم تلفّه أمـــواج الشـــهوة ، وتكتنفه ســحب الغفلة ، فلا يجد الســبيل الى فهم الحقيقة أبدا.

بينات من الآيات :

الله نور السموات والأرض :

[34] ﴿ **وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ** ﴾

ان الآيات المبينات هي الـتي توضح الطريق للنـاس ، وتجعلهم قريبين من الحقائق ، وأسلوب القرآن في تفهيم الحقيقة هو أسلوب التذكرة ، واثارة العقل ، بتوجيهه لها ، فالحقـائق موجـودة والإنسـان يمتلك ما يكشـفها ، ولكنه بحاجة الى من يدله عليها ، ويـذكره بها ، وذلك عن طريق الآيات التي تشير إليها ، كالعبر التاريخية.

﴿ **وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾

لتتعظوا بتجارب الآخرين ، وتزدادوا معرفة ورشدا.

﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

الذين يخـافون عقـاب الله ، اما من لا يخـاف عقابه ، فانه لا يستفيد من القـرآن ، فهو كـالأعمى لا يسـتفيد من نور الشمس ، وهكذا القرآن علم وحكمة وموعظة ، ففيه آيـات تـبيّن سـنن الله ، مما يزيد البشر علما ، ثم يضـرب الأمثـــال من الأمم الغـــابرة ، مما يزيد البشر حكمة ، ثم يوصل ذلك العلم وتلك الحكمة بحيــاة القــارئ مباشـــرة فيكون موعظة لمن يتعظ.

[35] **﴿ اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ ﴾**

يفيض من نــوره بمشــيئته المطلقة على الســماوات والأرض خلقا بعد خلق ، ولحظة بلحظة ، وكما يفعل ذلك في عــالم التكــوين (الطبيعــة) فانه يفعل ذلك في عــالم التشـــريع (الأحكــام) إذ يفيض علينا برســله ورســالاته ، فيعطي الإنســان النــور (العقــل) لحظة بلحظة ، ليفهم الرسالة به.

ان نـــــــور الله يتجلى في الطبيعة كما يتجلى في التشريع. وربما تبين هـذه الآية المثـال الثـاني ، فلقد جـاء في بعض التفاســير ان المقصــود من المشــكاة هو قلب الرسول (ص) اما المصباح فانه رسـالات الله الـتي أنزلها على ذلك القلب الطاهر.

﴿ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ ﴾

يمكننا تأويل الزجاجة بالعقل الـــذي يســـتقبل نـــور الرسالة ، أو ليس هو الرسول الباطن ، أو ليس هو الحجة الباطنة ، وعنده تصـديق ما أنـزل اللـه؟! كما يمكن تأويله بالرجال الصالحين ممن يحفظون رسالات الله ، وهـذا هو المأثور.

﴿ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌ ﴾

في نقائها وتلألئها ، فعند ما تتلوث هـذه الزجاجة فـان النور يخبو ، وهكذا الأمر

بالنســبة للعقل عند ما يتلــوث بــالأهواء. لا يــرى الحقيقة بعينه ، ولا يسمعها بأذنه ، ولذا فان مصباح الوحي لا ينفعه الا قليلا ، وانما يؤيد الرسالة من ذكّر نفسه ، وتلألأ عقله ، ولم يلهه عن رسالات ربه شيء.

 يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ

لأنه يحتـــاج الى زيت يتّقد به ، وإذا أردنا ان نـــؤوّل الشجرة المباركة نقول أنها شجرة العلم أو التقوى. إذ ان المعرفة تمد مصباح الوحي بالوقود فيزداد بهاء ونــورا في مشكاة القلب ، وبهذا جاءت الرواية المأثورة.

 لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ

بل في مكــان تنشر بركاتها على العــالم أجمع ، دون ان تختص بها ارض دون أخــرى ، ولعل هـذه الكلمة تشـير الى الاستقامة في التقــوى ، حيث ان المتقين لا تميل بهم ضغوط الحياة يمينا أو شمالا ، وقد تعددت النصوص الــتي فسـرت هـذه الآية الكريمة ، ونـذكر فيما يلي ما جـاء عن الامام علي بن الحسين (ع) في تفسيرها :

في قوله عز وجل «**كَمِشْـكاةٍ فِيها مِصْـباحٌ**» قـال : المشكاة نور العلم في صدر النبي (ص).

«**الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ**» : الزجاجة صدر علي ، صـار علم النبي الى صدر علي ، علّم النبي عليا.

«**الزُّجاجَـةُ كَأَنَّها كَـوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِنْ شَــجَرَةٍ مُبارَكَةٍ**» قال : نور العلم.

«**لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ**» قال : لا يهودية ولا نصرانية.

«**يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَـوْ لَمْ تَمْسَسْـهُ نـارٌ**» قـال : يكاد العالم من آل محمد

يتكلم بالعلم قبل ان يسأل.

«**نُـورٌ عَلى نُـورٍ**» : يعـني إماما مؤيـدا بنـور العلم والحكمة في أثر إمـام من آل محمد (ص) وذلك من لـدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، فهؤلاء الأوصـياء الـذين جعلهم الله عز وجل خلفــــاء في أرضه ، وحججه على خلقه ، لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم.[1]

 يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ

فالإنسـان السـوي ــ صـاحب العقل النظيف ــ يمتلك علما نقيا ، بعيدا عن الأهواء والخرافات ، فنفسه الشفافة تنتظر ادنى اشارة لتستوعب الحقائق ، والآية تشير ـ فيما يبـدو لي ــ الى ان التقـوى ــ وهي زيت مصـباح الـوحي الزلال النظيف ـ هي طريق الهدى وسبيل المعرفة ، ومهد الحكمة والسّداد ، فانها تكاد تضيء الحقائق للبشر ولو لم تمسسه نار الوحي ونوره ، لذلك قال ربنا بعدئذ :

 نُورٌ عَلى نُورٍ

فنور الوحي يتقد بنـور التقـوى ، والـوحي يتـألّق بنـور العقل ، الا ان التوفيق للهداية لا بد ان يــــــأتي من الله سبحانه.

 يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ

فالله هو الذي يهدي من يشاء من عبـاده للنـور الـذي أرسله ، وهو نور الوحي ونور محمد (ص) وسنته الرشيدة ، ونور أهل بيته الطاهرين (عليهم السّلام).

 وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ

---

(1) المصدر / ص 604.

فبعلمه أضاف نور الرسالة الى نور العقل ، ولا يمكن لأحد ان يستفيد من هذا النور دون مشيئته ، فلا بد من التوجه له حتى يفيض على الإنسان من نوره ، ولا يكون ذلك الا عند ما يخلص الإنسان العبودية له.

ولعله انما قال تعالى : «لنوره» ولم يقل : (بنوره) لأنه يهدي الإنسان بنور رسالته ، لنور رحمته.

بيوت الله :

[36] ان نور الرسالة لا بد ان يوضع في البيت الرفيع والاسرة الفاضلة كي يزداد اتّقادا ، أما الاسرة المليئة بالعقد النفسية ، والصفات الرذيلة ، فان النور ليس لا يتقد فيها فحسب ، بل ويخفت حتى ينتهي الى الظلام.

ففي تلك البيوت الرفيعة تنمو النفوس الطيبة ، ينمو العقل النيّر ، لأنها البيوت التي يذكر فيها اسم الله كثيرا ، فيأذن الله لها بالارتفاع الى سماء الوحي ، فهي محل للعبادة والتسبيح في بدايات النهار واخرياته ، من رجال جعلوا ذكر الله فوق كل ذكر ، وفوق التجارة التي لا تمنعهم عن ربهم ، ولا تلهيهم عن اقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة.

﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ** ﴾

تلك هي بيوت الأنبياء والصديقين والصالحين ، ولو لا ان الله أذن لها ان ترفع ، ويكون رجالها خير الرجال ، ونساؤها خير النساء ، منهم الائمة والولاة ، وفيهم سيدة النساء ، وقدوة الصالحات وهم أهل بيت الرسالة .. لو لا هذا لما حق لها ذلك ، ان الناس عبيد الله ، وهو الذي يختار لهم الائمة والسادة ، ولا ينبغي ان تكون للناس الخيرة من أمرهم ، وحتى طاعة الناس لرسل الله لا تكون الا بإذن الله ، فقد قال ربنا عز وجل «**وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ**» و جاء في حديث مأثور

عن الامام الباقر (ع) في تفسير البيوت هنا :

«**انها بيــوت الأنبيــاء والرسل والحكمــاء وأئمة الهدى**» [1]

ولكن لماذا رفعت هذه البيوت؟ انما بذكر الله.

 وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

ان ذكر الله ينبعث من قلــوب طــاهرة هي المشــكاة لنور الله.

 يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ

فعند ما يســتقبلون النهــار يســبحون ربهم ، ويحيــون صـباحهم بتقديسه حـتى لا يقدسـوا ما سـواه ، وإذا مـالت الشمس الى المغيب ، واستقبلوا سواد الليل سبحوا ربهم ليغســلوا عن قلــوبهم أدران الحيــاة ويــأووا الى فراشــهم بأفئدة طاهرة.

[37] ان نور الله يتجلى في ضمير هـؤلاء المســبّحين لأنهم تعالوا عن ملهيات الحيــاة ، فلا خشــية الخســارة في التجارة ، ولا تبادل المصـالح بـالبيع يمكن لهما ان يلهيـاهم عن ذكر الله ، وأداء واجباتهم.

 رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ

فلذلك تراهم يبصرون الحياة من خلال نافذة الوحي ، ويجرون عليها شرائع الدين ، فلا تمنعهم ضـغوط المعيشة عن تنفيذ الأحكام.

 وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ

لان خشية المعاد تفـوق عنـدهم خشـية الخسـارة في التجارة والبيع.

---

(1) المصدر / ص 608.

** يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ **

فهم حـذرون أبـدا لأنهم يخشـون ان يبعثـوا على غـير دين الله ، وألّا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيئاتهم.

[38] ** لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ **

فلا يكتفي بـأن يجـزيهم على أحسن أعمـالهم ، بل يزيدهم من فضله لأنه الغني الذي لا تزيـده كـثرة العطـاء الا جودا وكرما.

[39] ** وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَـرابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْـآنُ مـاءً حَتَّى إِذا جـاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَـرِيعُ الْحِسـابِ **

فبغضّ النظر عن ايمان الإنسان أو كفره ، واستقامته أو انحرافه ، فانه يسعى دؤوبا لتكون اعماله مثمـرة تصل به الى اهدافه وطموحاته ، ولكن الإنسـان المـؤمن الـذي يتبع تعاليم السماء هو وحده الذي يصل الى نهاية سعيدة ، اما الكـافر فانه لا يحقق من اهدافه شـيئا بـالرغم من إجهاده لنفسه.

وليت الأمر يقف عند هـذا الحد ، فبالاضـافة الى الفشل في الوصـول الى السـعادة ، فانه يجد نفسه امـام رب رقيب قد احصى أعماله ، وأعد له عذابا شـديدا جـزاء كفره.

ولا يظن المـرء ان حسـاب الله مختص بيـوم الآخـرة فقط ، بل قد يرى نتيجة عمله في حياته الدنيوية ان خـيرا فخير ، وان شرا فشر ، والله سريع الحساب.

[40] ** أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشـاهُ مَـوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها**

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ

كمن يغـرق في ظلمـات اعماله المنحرفة ، فلم يعد يرى شيئا من طريقه في الحياة ، بل يبلغ حدّا لا يـرى فيه يـده لو قربها من عينه ، وذلك بسـبب عصـيانه لربه ، مما سبب في سلب النور من عقله ، وسمعه ، وبصره ، فضلّ يتخبط في ديـاجير الظلام الـدامس ، والآية الكريمة تـبين ان اعمـال الكـافر هي بـذاتها ظلام ، وهل يهتـدي من لم يجعل الله له نورا في الحياة؟!.

وكلمة أخيرة : نجد في آيات هذا الدرس غرة الجمال وغاية الروعة ، فبعد ان ذكّرتنا الآية الاولى بـان القـرآن آيات مبينات ، ومثل وموعظة ، بصرّتنا الآية الثانية تجليات نـور الله في السـماوات والأرض .. ومثلا منها تجلى بالوحي في مشكاة قلب الرسول فـاذا به نـور على نـور ، وبعد ان ذكرتنا آية النـور ـ الـتي سـميت السـورة بها ـ بتفاصيل هذا النور فسـرتها بالمثل الـواقعي لتجسـيد هـذا النور :

الف ـ فهذه بيـوت النبـوة سـمت بـذكر الله ، انه مثل للمشكاة تستقبل المصباح ، «**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ**».

بـاء ـ ويزهر فيها ذكر الله كما المصـباح يشع في المشكاة «فيها مصباح».

جيم ـ والصالحون في هذه الـبيوت هم سـور ذكر الله ، كما الزجاجة للمصـباح ، وهم في ذات الـوقت حصـون الدين ، وأوتاد العلم والفضيلة «**الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ**».

لـذلك هم يسـبحون ربهم بالغـدو والآصـال لا تلهيهم تجارة ولا بيع.

دال ـ وتعلو شعائر الله على أكتافهم من اقام الصـلاة وإيتاء الزكاة ، وتلك الشعائر وقود مسيرة التوحيد ، وزيت اتقاد نور الوحي في الآفاق «**يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ**».

هاء ـ ثم يبصّرنا السياق بجزاء هؤلاء وان الله يزيـدهم من فضله «**نُورٌ عَلى نُورٍ**».

ويـبيّن القـرآن صـفات الكفر في الطـرف الآخر من الصورة ليرينا مدى اتساع الهوّة بين الطرفين :

الف ـ فبينما نجد هنا المشـكاة أو الـبيوت الرفيعة ، لا نجد هنالك الا سـرابا لا حقيقة له في قيعة ، لا سـور ولا حدود واضحة ، ولا موانع طبيعية.

بـاء ــ وهنا يتسع النـور ، اما هنالك فظلمـات فوقها ظلمات. أمواج البحر تغشاها سحب الليل.

جيم ــ وهنالك بيـوت رفيعة ، يجللها نـور الرسـالة ، ويسمو بها ذكر الرب على شفاه رجال متعالين عن الـدنيا ، يجب على العبـاد احترامها ، وتعظيم أهلها ، وطـاعتهم ، أما هنا فظلمـات بعضـها فـوق بعض ، لا تـأوي من شر ولا تحمي من خطر ، وهم الطغـاة وولاتهم الظلمة الـذين يجب البراءة منهم ، و قد جـاء في تفسـير أئمة الهـدى ان الظلمات «فتن بـني أميـة» [1] ، ويجـري فيمن يتبع النهج الأموي الجاهلي من الطغاة والظلمة.

---

(1) المصدر / ص 611.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَـهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَـدْ عَلِمَ صَـلاتَهُ وَتَسْـبِيحَهُ وَاللـهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَـحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِـهِ وَيُنَـزِّلُ مِنَ السَّـماءِ مِنْ جِبـالٍ فِيها مِنْ بَـرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (43) يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْـلَ وَالنَّهـارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (44)

---

43 [يزجي] : الإزجاء والتزجية الدفع والسوق.
[ركاما] : أي متراكما على بعضه.
[سنا] : الضوء واللمعان.

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ

هدى من الآيات :

كيف نعي الحقيقة الهامة التي ختمت بها آيات الدرس الآنف : «**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ**»؟ وكيف نسمو بأنفسنا الى شأو الرجال الذين يسبحون الله بالغدو والآصال ، دون ان يلهيهم عنه شيء؟

يجيب السياق في هذا الدرس : بالاستماع الى سبحات الخلائق ، «**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ** ..».

تعال وانظر الى الطير صافات ، تسبح ربها بألحان مختلفة ، والله قد علم صلاتها وتسبيحها ، وعلم ماذا تفعل.

وقد بسط الله ملكه وسلطانه على السموات والأرض ، وهو إذ يشأ يقبضهما اليه ، واليه المصير.

وهو الذي يسوق السحاب ثم يؤلفه ثم يركزه ويكثفه فاذا بالمطر ينبعث من

خلاله ، فيسقي به الرب من يشاء من عباده ويمنعه عمن يشـاء ، وإذا التقى السـحابان يولـدان الـبرق الـذي يكـاد ضياؤه يذهب بالأبصار.
وهكـذا يـدبر الله الليل والنهـار ، يختلفـاه ، وفي ذلك عبرة لأولى الأبصار.
وهكذا يهديك الله الى ذاته ببالغ حجته :
فـــأولا : يريك الحقيقة الـــتي تتجلى في كل شـــيء ، وعلى لسان كل حي الا وهي تسبيح الله وتقديسه.
وثانيا : يذكرك بملكه وسلطانه.
وثالثا : يبصّرك بلطائف نظمه وحسن تدبيره.
فإن صرت من ذوي الأبصار فـان العـبرة هـذه تكفيك هدى.

بينات من الآيات :

تدبير الله آية ملكه :

[41] يتجلى ملك الله وسـلطانه الشـامل في تـدبيره لشؤون الوجود ، والتقلبات المستمرة التي نشاهدها فيه ، فـــالكون ليس ثابتا ، بل هو في حركة دائمة ، الليل يخلف النهـار ، والنهـار يغشـاه الليل ، والسـحب تـأتي وتـذهب والأمطار تتراوح بين الهطول والانقطاع.
وهذه الحركة بـذاتها دليل على من يحركها ، والنظـام فيها دليل حكمته وواسع قدرته ، فمن الــــذي يســـيّر السحاب في هذا الاتجاه أو ذاك؟

ولمـاذا يـتراكم على ارتفاعـات ثابتة ولا يـذهب الى اعماق الفضـاء؟ ولمـاذا لا تعـود السـحب الى المحيطـات الـتي انطلقت منها فتمطر فيها بـدل ان تتوجه الى الأرض اليابسة فترويهـا؟ ولمـاذا لا يحصل اضـطراب في تعـاقب الليل والنهار؟ ولماذا .. ولماذا ...؟ إلخ.

ان هذه الظواهر الطبيعية (وكثير غيرها) دليل الحكمة البالغة للخـالق المبـدع سـبحانه ، ولعل في قوله تعـالى : «**يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**» اشارة الى ضرورة ملاحظة تحـولات الحيـاة ، وتقلباتها ، فلحظة الشـروق .. لحظة الأصـيل .. لحظـات حلـول الربيع والخريف .. لحظـات المطر .. وما الى ذلك تهدي الإنسان الى سر الحياة.

وهكـذا التحـولات الاجتماعية والسياسـية الكبـيرة ، كنشـوب الحـروب وسـقوط دول وقيـام أخـرى ، تعكس سنن الله في المجتمع ، لأن قـوانين الحيـاة وانظمتها انما تكتشف في هـذه اللحظـات ، فهل يعـرف المنظـرون السياسـيون القـوانين الـتي تحكم عـالم السياسة الا من خلال الاحداث والتحولات الهامة؟

يـنزل المطر ، وتـدب الحيـاة الى الأرض الجـرداء فتخضر ، وتغني الطبيعة على أديمها وتنشط فيها الـدواب والطيـور. إن هـذه التحـولات تفيض معـاني جديـدة ، على القلوب الطاهرة. فتسبح ربها وتكبره.

وحين يعلم الإنسـان زخـارف الحيـاة ومباهجها تتغـير باستمرار ، فلا ملك يـدوم ولا ثـروة تبقى ولا جـاه يسـتمر فيها ، آنئذ لا يطمئن إليها ، بل يطمئن الى الحي الـذي لا يمـوت ، فلو عقل الملك زوال الحكم ، والغـنى زوال الـثروة ، لما اسـتبد أو بخل ، ولما اسـتكانت نفسه أو اطمأنت الا الى خالقه ، الحق الذي لا يتغيّر.

وهكذا يذكرنا الرب بسبحات الخلائق فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللـهَ يُسَـبِّحُ لَـهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾

تسبح بحمد الله ، وهذه الآية تدل على ان كل مخلوق قـادر على التسـبيح ، وانما وصف الله غـير ذوي العقـول بوصف ذوي العقــول ، ليــدلنا على ان لكل حي شــعورا بقـدره يسـبح به ربه قـال تعـالى : «**وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**».

ان رهافة سمع اولي الأبصار تجعلهم يسمعون تسـبيح كل حي في السـموات والأرض ، لأنهم يتجـاوزون المظهر الى اللب ، ويعــبرون الـدلالات الى الحق والشــواهد الى الغيب ، فبالنسبة إليهم لا تعني حركة الأسماك في البحـار ، ولا صراع الوحوش في الغابـات ، ولا رفرفة الطيـور في الفضـاء ، مجـرد نشـاط عـابث من أجل البقـاء ، انما فيه أيضا محتوى ربّانيّ ، وابعاد فوق مادية ، انه تسبيح وصـلاة وسعى نحو الأعلى ..

كيف لا يسـبح ذلك القلب الـزكي الـذي لا يلتفت الى حي حتى يسـمع منه التسـبيح ، ويـرى منه الصـلاة والتبتل وإذا وجد بلاء يصيب واحـدا من الأحيـاء عـرف انما أصـيب لأنه نسي ذكر الله.

جاء في رواية عن أبي عبد الله الصـادق عليه السّـلام :

«ما من طير يصاد في بر ولا بحر ولا يصاد شـيء من الوحش الا بتضييعه التسبيح» [1]

﴿ كُلٌّ قَـدْ عَلِمَ صَـلاتَهُ وَتَسْـبِيحَهُ وَاللـهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ ﴾

---

(1) المصدر / ص 613.

من الذكر والتسبيح وعموم العبادة والأفعال الصالحة الاخرى ، وهذا ما يدعو الإنسان الى الاهتمام بالعبادة والتوجه الى رب العالمين.

وهكذا روى عن الامام أبي جعفر الباقر عليه السّلام في تفسير هذه الآية :

«**ان لله عز وجل ملكا على صورة ديك ابيض رأسه تحت العرش ، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، له جناح في المشرق وجناح في المغرب ، لا تصيح الديوك حتى يصيح ، فاذا صاح خفق بجناحيه ثم قال : سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان الله العظيم الذي ليس كمثله شيء ، قال فيجيبه الله عز وجل فيقول : لا يحلف بي كاذبا من يعرف ما تقول**» [1]

وتذكّرنا هذه الآية بعلم الله المحيط بكل شيء حتى بخبايا نية الطيور.

[42] ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ** ﴾

فكما كانت منه البداية كذلك تكون النهاية اليه ، وفي هذه الحقيقة ـ التي تقوم على إثباتها كل الشواهد العقلية ، وتظهر تجلياتها في كل الطبيعة ـ أعظم موعظة للمتدبر الذي لم يسمح لحجب الغفلة أو الشهوة ان تغطي بصره وبصيرته ، وأكبر دافع نحو توجهه الى العزيز الحكيم بأن يجعل عمله خالصا لوجه ربه الكريم ، لا يريد جزاء ولا شكورا من أحد غيره ، ولا يخشى أو يخاف أحدا سواه.

وتهدينا الآية الى سلطان الله الفعلي على جوهر الأشياء. وانه الذي يمسك بقدرته ناصية الحقائق ان تزول وتتعدم.

[43] ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً** ﴾

---

(1) المصدر.

فلا موضع للصــدفة الــتي هي اكذوبة الجاحــدين ، ولا يمكن ان يكون هذا النظام بلا مــدبّر حكيم وهو الله الــذي يحمل الرياح السحب التي تــزن ملايين الاطنــان ، تتحــرك بكل خفة وسهولة في طبقات الجو العليا ..

 ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ

فلو لا تكــــاثف الســـــحب لما هبط المطر ، ثم ان السـحاب مؤلف من شـحنات سـالبة وموجبة ، ولو لا ذلك لما نفع الزرع ، فالبرق الذي يفرز المــواد الضــرورية لنمو النباتات انما تؤلفه الأمـواج الكهربائية القوية الـتي يولـدها الاحتكاك بين هذه الأمواج.

 ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً

كي ينزل المطر ، فبدون ان يتكثف السحاب لا يــنزل المطر. وتكثفه لا يتم الا عــبر قــوانين يجريها الله سـبحانه فيها.

 فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ

وهو المطر حالة تكونه وخروجه ، من بين ثنايا السحاب.

 وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ

فالســحب في الفضــاء كما الجبــال في الأرض ، من حيث ضـخامة كتلتها وتفـاوت ارتفاعاتها ، ويمكن للإنسـان الاطلاع على هــذه الحقيقة عند ما يطــير مســافرا من بلد لآخر فوق الغمام.

ولعل في الآية اشارة الى حقيقة يذكرها العلمـاء : ان طريقة تكـون (الـبرد) هي ان قطـرة من المـاء يـنزل من السحاب ، ثم تمر بطبقة باردة فتتجمد ، ثم تحمله الريــاح الشديدة الى الأعلى من جديد. وتتقلب بين جبال السـحب ، كلما مرت سحابة

حملت قدرا أكبر من الماء ، فنزلت فحملتها الرياح ـ مـرة أخــرى ــ الى الأعلى حــتى تثقل وتهبط الى الأرض. وقد تنزل حبات البرد بحجم البيضة.

 فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ

من عباده ، وعموم خلقه ، اذن فليس ذلك بالصدفة.

 يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ

لشدة الـوميض الخـاطف الصـادر عن تفريغ شـحنات كهربائية هائلة بين السـحاب .. وهكـذا فاننا نجد في هـذه الظاهرة الطبيعية بشارة خير بنزول رحمة الله (المطر) ، وإنذارا صـارما بعقـاب الله الـذي لو نـزل فانه لا يبقي ولا يذر ولأفنى الأحياء.

بين الايمان والعلم :

[44] **يُقَلِّبُ اللـهُ اللَّيْـلَ وَالنَّهـارَ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ**

الله ســبحانه هو الــذي بيــده الليل والنهــار يقلبهما بقدرته ، وهذه عبرة لأصحاب البصـائر النافـذة ، والعقـول النيّرة. الم يقل الله : «**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ**» وأ لم يقل عن الكفـار : «**أَوْ كَظُلُمـاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍ**»؟ ..

وهذا يعني ان من لا يملك الايمان لا يفهم سر الحيـاة ، كما لا يـدرك التحـولات والتقلبـات الاجتماعية ، ولا يفهم ان الله هو الــذي يقلب الليل والنهــار الا اولو الأبصــار ، الذين يمتلكـون البصر الحقيقي النـابع من الايمـان ، وهـذا يـــــدل على ان معرفة الله بداية كل معرفة ، وان الكفر بالله انحراف يستدرج الإنسان الى كل انحراف.

وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مـاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِـي عَلى بَطْنِــــهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِــــي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَـعٍ يَخْلُـقُ اللـهُ ما يَشـاءُ إِنَّ اللـهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَـدْ أَنْزَلْنا آيـاتٍ مُبَيِّنـاتٍ وَاللـهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُـونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُـولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَـوَلَّى فَرِيـقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْـدِ ذلِـكَ وَما أُولئِكَ بِـالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذا دُعُـوا إِلَى اللـــهِ وَرَسُـــولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيـــقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُــونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَــقُّ يَــأْتُوا إِلَيْــهِ مُـذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُــوبِهِمْ مَــرَضٌ أَمِ ارْتــابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَـلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّما كـانَ قَـوْلَ الْمُـؤْمِنِينَ إِذا دُعُـوا إِلَى اللـهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُـوا سَـمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (51) وَمَنْ يُطِـعِ اللـهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللـهَ وَيَتَّقْـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفـائِزُونَ (52)

---

49 [مذعنين] : منقادين.
50 [يحيف] : الجور بنقص الحق.

الطاعة المصلحية الدواعي والنتائج

هدى من الآيات :

يبصـــرنا الـــرب بملكه واقتـــداره عـــبر تـــذكيرنا بخلقه الأحيـــاء ، ألم يخلق كل شـــيء من مـــاء؟ ولكن انظر الى مـــدى التبـــاين بين الـــدواب ، فمنهم من يمشي على بطنه كالحيـات ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، هكـــذا ينشئ المليك المقتـــدر ما يريد ، ليعرفنا بواسع قدرته المحيطة بكل شيء.

وهذه آيات القرآن تبين لنا وتذكرنا بالرب ويهـدي الله من يشاء الى صراط مستقيم.

والهداية لا تعني مجرد الاعتراف اللســاني بل لا بد ان تصـــدقه الطاعة عند القضـــاء ، فهنالك من يـــدعي الطاعة فاذا خالف الحق هواه أو مصالحه تولى. كلا .. ليس هـؤلاء بالمؤمنين فليس الايمان هو الإذعان عند توافق المصـــلحة والتولي عند مخالفتها ، ولكن لماذا هذا التفريـــق؟ هل في قلوبهم مرض الجسد والحقد وحب الـــدنيا أم هم في ريب من صدق الرسالة؟ أم يخافون من ان يظلمهم الـــرب في الحكم

الذي يصدره الرسول؟ الواقع أنهم يظلمون أنفسـهم حين يتولون عن العدالة الالهية.

ما هي علامة الايمــان؟ انها الطاعة عند ما يـــدعوهم الرسول ليحكم بينهم ، وهذا يوفر لهم الفلاح والفـوز أيضا ان هم أطاعوا الله ورسوله وخافوا الله واتقوه.

ويبقى السؤال التالي :

ما هي علاقة هـذه الآيـات بـالمحور الرئيسي لسـورة النــور (الــذي كــان الاســرة وما يــدور حولها من قضــايا اجتماعية وتربوية)؟

وللاجابة على هذا السؤال يمكننا أن نقول :

أولا : ان القرآن لا يكتفي ببيان المعالجات الـتي ترفع الانحرافـات الاجتماعية ، بل هو بذاته علاج لها وشـفاء لما في الصدور ، وهـدى ورحمة للمؤمـنين ولا يكتفي القـرآن بإعطـاء العلاجـات الفوقية ، بل يسـعى لعلاج الانحرافـات جـــدريا ، من هنا نجد ان الآية القرآنية الواحـــدة تـــذكرنا بالحكم الشرعي ، كما تذكرنا بعقوبة الله أو بثوابه.

فالحكم بيان للعلاج ، ولكن التهديد بالعقاب والترغيب في الثـواب هو ذاته علاج ، لان كلا من الـتريب والـترهيب يعطي النفس البشـــرية ســـحنة من الارادة القوية الـــتي تقاوم الانحراف.

وفي هذه السورة بالذات يحـدثنا القـرآن عن الاسـرة الفاضـلة والـتي من ميزاتها انها تـؤمن بالله ، وان الـبيت الــذي يحويها هو بيت الايمــان الــذي يــذكر فيه اسم الله كثـيرا .. وهـذا علاج للانحـراف الـذي قد يقع في الاسـرة داخل المجتمع ، والعلاج هو : ان الانحرافــــات البشــــرية يجب ان يزيلها الايمان بالله مع الذكر والتسبيح.

بيد ان القــرآن لا يكتفي بــذلك ، بل يقــوم بإعطــاء العلاج ذاته عبر بث روح الايمـان في قلب النـاس ، فـنراه يحــدثنا طــويلا عن الايمــان بالله ، وعن التــذكرة بــالقيم الحقيقة ، وعن التوجه الى رب السماوات والأرض .. إلخ.

ثانيا : ان كل انحراف في البشر نابع من انحراف آخر ، وتتسلسل الانحرافات الواحـدة تلو الاخـرى ، حـتى تصل الى الانحرافة الكبرى في حياة الإنسان وهي الكفر بالله ، والابتعاد عن هداه ، وذلك هو الضلال البعيد.

وفي الــوقت الــذي يعــالج القــرآن تلك الانحرافــات الفرعية يعالج الضلال البعيد ذاته (وهو الكفر) ، لـذلك نجد القرآن ـ سوره وآياته دروسه وعبره ــ تبتـدئ بـذكر الله ، وتختتم به ، لأنه المحــور الحقيقي الــذي تــدور حوله كل القضايا.

ثالثا : ان أهم صـفة من صـفات الإنسـان في الاسـرة الفاضــلة ، والــتي يجب على الاســرة ان تســعى من أجل تركيزها وتنميتها في ابنائها ، هي صفة الطاعة المستقيمة للحق.

ذلك ان الأسنان في الطاعة مختلف :

أ ــ فقد ينمو الإنسـان متمـردا على النظـام وعلى اية سلطة حتى ولو كانت السلطة سلطة شرعية ، بل ويتمرد ضد اية نصيحة مما يجعله أشبه ما يكون بالوحش الهائج.

ب ــ وقد ينمو ذليلا يعطي قيــادة لاي كــان ، ويخضع لكل النــــاس ولكل الانظمة ، ويصــــغي لكل الأوامر والتعليمات ، وهذا أشـبه ما يكـون بالبضـاعة يشـتريها من أراد ..

ج ــ وقد ينمو الإنســان ويــتربى على طاعة الأهــواء والشــهوات وبالتــالي طاعة كل من يشــبع فهم رغباته ، بغضّ النظر عن استقامته أو انحرافه ، وعدالته أو ظلمه ،

وأكثر الناس في الواقع هم من هذا النمـوذج ، إذ يطيعـون من بيـــده المـــال أو الســـلطة ، وهـــؤلاء أيضا فاســـدون كغيرهم.

د ــــ انما الفريق الرابع فهو الــــذي يطيع ، ولكن لا للشـهوات والمصـالح ، ولا حبا في الطاعة العميـاء ، وانما يطيع القيم ، فطاعته لاي أحد نابعة من ولائه للحق ، وايمانه بالقيم السامية ، وهـذا هو الإنسـان الـذي يجب ان تسـعى الاسـرة الفاضـلة من أجل تربيته وتنمية مواهبه ، وبلورة شخصيته.

ويحدثنا القرآن الحكيم في منتصف هذه الســورة عن ضــرورة الطاعة ، وانها يجب ان تكــون لله لا للمصــالح ، وليس خوفا من إرهــاب اي ســلطة بشــرية ، وهــذه هي النقطة المحورية لبنـــاء الإنســـان الفاضل في الاســـرة الفاضلة ..

ثم ان الاسرة الفاضلة تبتدئ من الإنسـان المطيع لله ، وتنتهي اليه ، فالأب الذي لا يخضع لشهواته العاجلة ، ولا لمصـالحه الخادعة ، ولا للشـركاء من دون الله كسـلطان الجور ، وأصحاب المال : انه هو الذي يستطيع تربية ابنائه على شاكلته ، اما الآخر الذي تمتلئ حياته بالطاعة العمياء ، للمال ولأصحاب المال ، أو السلطة ولأصحاب السلطة ، أو للارهاب ، فانه لا يستطيع تربية ابنائه أحرارا ، يقاومون انحراف النفس والمجتمع.

رابعا ـــــ لو بحثنا بعمق عن الأســـــباب الحقيقية للانحرافات البشرية ، لوجدناها تنطلق من طاعة الإنســان للشـهوات ، فالــذي لا يطيع شـهواته لا يســرق ، لان من يســرق انما يســرق لكي يصـبح أكـثر ثـراء من غـيره ، أو ليست هذه شهوة؟

وهكذا يكـذب الإنسـان ويظلم أو يخـاف من النـاس ، وهو يعلم ان كل ذلك طريق للانحدار والتردي.

وإذا ما عالج الإنسـان هـذا المـرض عنـده فـان سـائر الانحرافات التي يعاني منها

ستشفى طبيعيا تباعا لعلاج الجذر.

بينات من الآيات :

[45] **وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ**

لا بد ان كل إنسان قد شاهد النملة التي لا تكاد العين تراها ، كيف تبحث عن رزقها وكيف تمتلك ما تملكه الحيوانـات الضـخمة من أجهـزة داخلية وأعضـاء مختلفـة؟ وهي تعـرف بما أودع الله فيها من الهـدى ان الحبة الـتي تحصل عليها يجب ان تفلقها الى عــــدة أجـــــزاء قبل ان تختزنها ، لكي لا تنمو ثانية وهي في بطن الـــــــــتراب ، والاغـرب من ذلك انها تفلق الحبـوب الى قسـمين الا حبة الذرة ، فانها تفلقها الى اربع أقسـام بنظرتها الـتي أودعها الله فيها ، وكأنها تعلم لو انها فلقتها الى قســمين لا مكن لكن جزء منها ان ينبت لوحـده دون سـواها من الحبـوب ، وإذا رأت مكانا فيه غـذاء فانها تـذهب وسـرعان ما تعـود ومعها جيش من النمل ليتعــــــــاونوا جميعا على نقله ، وادخاره ، ترى كيف أبلغتهم بالأمر وبأي لغة تكلمت؟

هــذه النملة الصــغيرة خلقها الله من المــاء ، وذلك الفيل الضخم الـذي إذا رأيته هالك منظـره ، هو خلقه الله من السماء أيضا ، وهكذا سائر الحيوانــات البرية والبحرية ، والطيور والحشرات بالاضافة الى البشر.

ان تنويع الخلقة ، والتركـــيز على ان كل نـــوع منها يسـير وفق سلسـلة معينة في تـدرج الحيـاة يعطينا ايمانا بالله ، وبقدرته اللامتناهية حيث خلقها جميعا من الماء ..

 فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ

كالزواحف.

 وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ

كالإنسان.

 وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ
كالدواب.

 يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سأل رجل الامام الصادق (ع) لماذا خلق الله كل هذه الأحياء؟

فأجابه (ع) : بأن الله عز وجل خلق أنواع الخلقة حتى لا يقول الإنسان لو كان الله قادرا لخلق حيوانا بالصفات الفلانية ، فكل ما يمكن ان يتصوره الإنسان من أنواع الحيوانات يجده مخلوقا ، ان لم يكن في عصره ، ففي العصور الغابرة ، وان لم يكن في بيئته ، ففي البيئات الأخرى [1]

فربنا الذي شاء وكانت مشيئته هي الغالبة ، وأنت بدورك محكوم بإرادة الله ، فلما ذا التمرد ولماذا العصيان؟

[46] وفي الوقت الذي أنزل الله الآيات التي تذكرنا بآياته ، فان البشر بحاجة الى الهداية المباشرة من قبل الله برحمة يخص بها من يشاء منهم ليهتدوا الى الصراط المستقيم ، ذلك ان الهداية نعمة عظيمة وهدف رفيع لا ينالها كل الناس.

 لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

اذن فعليك ان تسعى من أجل الحصول على هداية الله بطاعته والتقرب اليه بالأعمال الصالحة.

---

(1) الحديث منقول بمضمونه لا نصه.

[47] بيد ان هناك أناسا يدّعون الايمان ولكن واقعهم يخالف ما يدعون.

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

[48] ان أصوب مقياس للايمان هو الطاعة عند الصراع ، فاذا أسلم للحق الذي يخالف هداه ومصلحته وقبل العدالة التي تكون الى جانب خصومة ، وتنازل طواعية عن دعاويه إذا حكم القاضي العادل ضده ، فان ايمانه حق ، والا فان دعوى الايمان غير مقبولة.

﴿ وَإِذا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

[49] ولان طاعتهم لله والرسول نابعة من مصالحهم المادية ، فاذا كان الأمر لصالحهم أطاعوا ودعوا الناس الى الطاعة ، اما إذا لم يكن الأمر كذلك فإنهم يخالفون حكم الله ويعرضون عن شريعته فاذا عرف أحدهم انه لو ذهب الى الحاكم الشرعي فانه سيحكم ضده ، فانه يذهب إلى المحاكم الجائرة ليتسنى له التلاعب بالقوانين عبر الرشاوى.

اما المحاكم الاسلامية الحاسمة التي تقضي بالحق فانه لا يذهب لها الا إذا علم بان قضيته رابحة ، ويكون في هذه الحالة أسرع الناس الى حكم الإسلام ، وأكثر الناس دعوة الى الأخذ به.

﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾

[50] وهذا نوع من أنواع الطاعة المصلحية ، والايمان المنفعي المرفوض في الإسلام ، ولكن ما هو الدافع لهذا الايمان؟

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

ان الذين يخشون العودة الى طاعة الله ، وحكم الرسول هم أحد أولئك التالية صفاتهم :

أولا : مرضى القلوب :

الذين يخالفون قيادة الرسول ، استكبارا في الأرض ، وتمردا على هذه القيادة الشرعية ، فلقد كان بنوا أمية وغيرهم من بطون قريش يحسدون النبي محمد (ص) ــ القيادة الشرعية ــ لأنه كان من عائلة بني هاشم ، التي أثبتت سيادتها وتفوقها على غيرها ، مما دفعهم لحسدها ومن ثم حسدوا الرسالة والقيادة المنبعثة عنها.

وهذا نوع من امراض القلب ، حيث يسارع صاحبه الى اتخاذ موقف النفور والكراهية ضد كل من يتحلى الطيبة والأخلاق الفاضلة ، لمجرد انه يستقطب الناس حوله ويتفوق عليه.

ثانيا : الريبة :

حيث تستبد بقلب البعض حالة الشك فيكون شخصية قلقة يشك في كل شيء ، وهكذا يشك في القيادة الرسالية أيضا لشكه الاساسي في الدين.

ثالثا : الخوف من الحيف :

وهناك فريق ثالث يتمردون على القيادة الرسالية بسبب خوفهم من ان تسبب لهم الضرر ، كما لو أرادت اعادة حقوق المظلومين ويعتبرون ذلك ظلما لهم ، في حين ان الظالم الحقيقي هو الذي يمتّص دماء المستضعفين ، ويترف على حساب المحرومين ، وليس حيفا ان يسترد الله حقوق المستضعفين من المستكبرين ، انما هو

العـــدل والإنصـــاف بعينه ، وحاشا لله ان يظلم أحـــدا أو رسوله ، بل الذين يخالفون الله ورسوله ، لهـذه الأسـباب هم الظالمون.

[51] وفي مقابل هــؤلاء الــذين يقولــون أطعنا ، ثم يخالفون القيادة الرسالية في سـاعة الجد ، ويميلـون الى مصـالحهم وأهـوائهم الشخصـية ، نـرى أولئك المؤمـنين الصـادقين والـذين إذا قـالوا أطعنا اسـتقاموا على ذلك ، وثبتـوا مضـحّين بمصـالحهم الشخصـية لصـالح الإسـلام والمسلمين ، واسـتجابوا لكل الأوامر القيادية على الـرغم من شدتها وصرامتها.

﴿ إِنَّما كـانَ قَـوْلَ الْمُـؤْمِنِينَ إِذا دُعُـوا إِلَى اللـهِ وَرَسُـــولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُــوا سَـــمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[52] لأنهم يتلقون احكام الله وتشريعاته وتعاليم نبيه الأكـــرم ، ويعملـــون بموجبها في معـــاملاتهم الاقتصـــادية والسياسية والقضائية وغيرها ، ـ تماما ـ كما يفعلـون ذلك في شـؤونهم التعبدية كالصـلاة والصـوم وغيرها ، فما من واقعة الا ولله فيها حكم يتبعونه ، وهكــذا يجب على أبنــاء الامة الاسلامية ان يستجيبوا لنـداء علمـاء الإسـلام عند ما يـدعونهم لمنهج الله في الحكم والسياسة ، أو الاقتصـاد ، وسائر شؤون الحياة ، لا أن يهرعوا الى الغرب تـارة والى الشرق تارة أخرى ، يبحثون عن المناهج والأحكام عندهم.

﴿ وَمَنْ يُطِـعِ اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَيَخْشَ اللـهَ وَيَتَّقْـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ ﴾

ذلك لأن من يمتلكون هذه الصــفات الثلاث (الطاعة ، الخشية ، التقـوى) يكونـون قد اسـتكملوا أسـباب الايمـان الحقيقي ، فيحصلون على الفوز من الله.

أنهم يطيعون الله ورسوله خشـية من عقابة المهين ، وعذابه الأليم ، ولأن الخشية

شـعور مـؤقت قد يخبو مع الـزمن في النفس البشـرية ، فإنهم يدعمونها بالتقوى ، وهي الالـتزام الـدقيق بالتعـاليم الاسلامية صـغيرها وكبيرها ، والاهتمـام البـالغ بكل الأوامر الالهية.

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً

هدى من الآيات :

في اطـــار الحـــديث الســـابق عن الطاعة للقيـــادة الشــرعية الـتي أمر الله بها ــ تلك الطاعة الـتي هي أحد اهـداف التربية السـليمة ــ يـبين هـذا الـدرس : ان هنـاك مقياسا واحدا وحقيقيا لمعرفة مدى تسليم الإنسان لربه ، وبالتـــالي لمعرفة مـــدى عمق الايمـــان وصـــدقه ، وذلك المقياس هو : مدى طاعة الإنسان لقيادته الرسـالية الـتي تجسد أوامر الله سبحانه.

والطاعة المقصــــودة هي الطاعة المســـــتقيمة في أوقات الشدة والرخاء لا في الرخاء فحسب ، لأن الإنسان قد يكــون مســتعدا للطاعة ، ولكن في حــدود القضــايا البسـيطة الـتي لا تكلّفه شـيئا من الجهد ، أما حينما يـؤمر باقتحام الصـعوبات في الحيـاة كالجهـاد ، فانه ينكص على عقبيه ، خسر الـــدنيا والآخـــرة ، وكثـــير أولئك الـــذين يتظـاهرون بالايمـان بل ويحلفـون بأغلظ الأيمـان وأشـدها انهم يطيعــون القيــادة عند الشــدة الا أنهم حين تــأمرهم القيادة بالخروج الى الحري ينكثـون فـاذا بادعـائهم مجـرد حلف غطاء لنفاقهم.

ويؤكد ربنا ســبحانه وتعــالى على ضــرورة الطاعة للقيـادة الشـرعية ، كالرسـول (ص) ، واولي الأمر ، وانه يجب ان لا يقلق الإنســان بعد ذلك على المســتقبل ، لان الله قد ضمنه للمؤمنين الـذين يعملـون الصـالحات ، حيث وعــــدهم بالنصر والتأييد ، وأكد ان الرســـول قد حمل الرسالة ، وأنتم حملتم طاعته.

ففي ســاعة النصر ينسى الإنســان كل لحظــات الصعوبة التي مر بها ، لـذلك أكد الله سـبحانه للمسـلمين المؤمـنين انه سـيجعلهم خلفـاء في الأرض ، بعد ان يهلك أعداءهم ، كما حقق ذلك للذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات من قبلهم ، والخلافة لا تشكل هدفا لذاتها ، بل هي وسيلة لهدف اسمى ، هو تطـبيق حكم الله ، ومن ثم عبـادة الله وحده وإسقاط سلطة الآلهة الباطلة.

وينهي القرآن الحـديث في هـذا الـدرس بتسـفيه فكر الكفار الذين يعتقدون بقدرتهم على فعل كل شـيء ، إذ لا يمكن لأحد ان يقف أمــام المد الايمــاني ، الــذي تقــوده رســالة الله ، ويتصــدره المؤمنــون الصــادقون ، فليس الكفـار بمعجـزين في الأرض ، وليسـوا بقـادرين على ان يمنعوا حركة التاريخ من المضي قدما ضمن سنن الله في الطبيعة والمجتمع.

بينات من الآيات :

[53] ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَ** ﴾

الى معترك الحرب وسوح الجهاد ، فقد أقسـموا على ذلك بأغلظ الايمان الممكنة ، وهل يحتاج الإنسان الصـادق للحلف حتى يفي بالوعد؟!

﴿ **قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ** ﴾

الطاعة الحق معروفة لان العمل يصــدقها ولا تحتــاج الى القسم ، فهل يحتاج

الإنسان في البديهيات الحياتية الى القسم؟! بالطبع كلا .. لأنها قضايا معروفة لا داعي للحلف فيها ، لـذلك ينبغي ان تكون الطاعة أساسا ثابتا في حيـاة المسـلم ، وجـزءا من كيانه ، فلا داعي لأن يجعلها في خانة الشواذ ، التي يحتـاج صـاحبها للحلف حـتى يـبرهن على صـدقه فيها ، بل يجب تحويلها الى صبغة ثابتة في حياته.

 إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

فاذا خادعتم القيادة الرسالية بقسمكم ، فلن تخـدعوا ربكم وهو الخبير بما تعملون ، وإذا كـان عملكم رديئا فلن يغيّر القسم من طبيعته شيئا ، مهما كان مؤكّدا ومغلّظا.

دور القيادة ومسئولية الامة :

[54] قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ

ان طاعة الرسول ـ وهكذا القيادة الشرعية من بعـده ـ هي الطريق الى طاعة الله سـبحانه ، ولا تعـني طاعة الله شـيئا من دون الطاعة للرسـول ، ويخطئـون أولئك الذين يقولون حسـبنا كتـاب الله ، رافضـين طاعة القيـادة الرسالية الـتي فرضـها الله عليهم كي تحـدد لهم المنـاهج الدقيقة والتفصيلية لمختلف التغييرات الحياتية.

هذا الموقف وان حاول أصحابه إعطاءه صبغة شرعية ، الا انه ـ في الواقع ـ نوع من التمرد على الله ، لذا تتكرر في الآيات القرآنية كلمة (الطاعة) ..

ولم يقل تعالى : قل أطيعـوا الله والرسـول ، بـالرغم من ان طاعة الرسول امتـدادا لطاعة الله ، بل كـرر كلمة «أطيعوا» ليؤكد على الطاعة الثانية تأكيدا مباشرا ، وذلك لصعوبتها على كثير من الناس.

ان طاعة الله قد تكـون في الأمـور الثابتة ، اما طاعة الرسول ـ التي هي أيضا طاعة الله ـ فهي اتبـاع منهج الله العملي في القضـــايا السياســـية ، والشـــرعية ، وفي متغـــيرات الحيـــاة العامة ، كما في الحـــوادث الواقعة (الجديدة).

ومن لم يفهم هذه الحقيقة فانه معـرض للتمـرد على الرسول ، ولمن يخلفه من بعده.

 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ

وهو تبليغ الرسالة.

 وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ

وهو الاستجابة له فيما يأمر به.

والله يجـازي كل إنســان على حــدة ، دون ان يجعل مســئولية النــاس على عــاتق الرســول (ص) ، كما انه لا يكلف الرسول بان يفرض الطاعة عليهم.

 وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا

لأنكم تصلون بذلك الى فهم حقيقة الحياة.

ونسـتوحي من هـذه الآية تأويل قوله سـبحانه في آية مضت آنفا : «**وَاللــهُ يَهْــدِي مَنْ يَشــاءُ إِلى صِــراطٍ مُسْــتَقِيمٍ**» حيث نعــرف ان طاعة الرسل وأوصــياءهم وسيلة للهداية ، وان مخالفتهم طريق الضلال.

 وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

وبالرغم من أننا نعتقد بهذه الفكرة بصفتنا مسلمين ، الا أننا حين نضعها موضع

التطـبيق يثقل علينا الأمر ، لان الإنسـان بطبيعته يحـاول التهـرب من المسـؤولية ، وإلقـاء الاخطـاء على كاهل الآخـرين ، أو يلقي بمسـؤولية عـدم قيامه بواجباته على عاتق القيـادة ، أيّا كـانت ، فـالابن يلقي التبعة على الأب ، والتلميذ على الأسـتاذ ، والمـدارس على ادارة المدرسة ، وادارة المدرسة على الوزارة المختصة بها ، وهكذا ..

فلكي يتنصل كل واحد منا من ثقل المسـؤولية الـتي أشـفقت منها السـماوات والأرض والجبـال تجـده يـوزع الاتهامـات يمينا وشـمالا ، ولا يبخل بها حـتى على قيادته ، بل انها تنـال الحظ الأوفر منها ، وهـذه فكـرة ضـلال في نفس الوقت.

هدف الدولة الاسلامية :

[55] ﴿ **وَعَـدَ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾

وهنا ثلاثة اسئلة لا بد من الاجابة عليها :

الاول : ما هو الربط بين هـذا الوعد بعد الأمر بالطاعة؟

الثاني : لماذا أكّد القرآن على كلمة «منكم»؟

الثالث : ما معنى الاستخلاف في الأرض؟

الجواب أولا : لان الطاعة للقيادة أمر صعب جدا ، ولا يمكن ان يلتزم الإنسان بها مخلصا تمـام الإخلاص ، الا ان يكون وراءه هدف محدد.

وحينما تسـعى جماعة مؤمنة لتحقيق الاسـتخلاف في الأرض ، فـان الإفـراد يتنـازلون مرحليا عن انـانيّتهم ، ويذوّبون أنفسهم في بوتقة القيادة ، وهذا يجعل كل واحد منهم يلبس شخصـية جديـدة ، هي شخصـية المجمـوع ، ويتمثل بالتالي شخصية

القيادة.
ثانيا : جاءت كلمة «منكم» لتبين بأنّ الاستخلاف سنّة جرت في الســابقين ، وهي ليست حكــرا على أولئك ، بل تجــري فينا أيضا ، ومن ســيأتي بعــدنا من المؤمــنين ، إذ ليست هذه السنّة حكرا على فئة محدّدة في زمن محدد ، بل يكفي أن يحقّق شــرطا «الايمــان والعمل الصــالح» لتأخذ هذه السنّة مجراها في أيّ مجتمع.

أما الجواب عن السؤال الثالث :

أـ فقـال جماعة من المفسّـرين إنّ الاسـتخلاف يعـني ذهاب طائفة من الناس ، وحلول أخرى محلّها.

ب ـ وقال آخرون إنّ معنى الاستخلاف هو إكـرام الله المؤمنين بجعلهم أئمة الناس ، ليقوموا بتطبيق الشريعة ، كما استخلف الأنبياء والأوصـياء والصّـالحين من المؤمـنين من قبلهم.

والواقع إنّ الخلافة كما جاء في (أ) ، فهذا هو المعـنى الضـيّق للكلمة ، فكل النـاس خلفـاء لمن سـبقهم ، حـتى الكفـــــار منهم ، فلا داعي للتخصــــــيص ، لأن الله وعد المؤمنين بالخلافة عامّة.

وعموما فــإن الخلافة في الأرض هي القيــادة الــتي يهبها الله لفئة من النــاس ، لأنهم يتبعـون ما أنــزل عليهم من قيم.

إذن فواقع الاستخلاف يعني أمرين :

الاول : انّ الله يعطي السلطة للمؤمــنين ويمكّن لهم تمكينا.

الثاني : ان هذه السلطة لا تكـون الا بـإذن الله الـذي يحققها ويعطيها الشرعية.

﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ** ﴾
فسلطتهم ليست كأيّ سـلطة مادية ، بل هي سـلطة روحية تهديها القيم الرسالة.
﴿ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ** ﴾
الـــذي عاشـــوه في ظل السـلطات الجــائرة وهم يقاومونها حتى يقيموا دولة الحق.
﴿ **أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** ﴾
ان الهدف الحقيقي للحكم الذي يعطيه الله للإنسان ، ليس التسلط على رقاب النـاس ، فهو ليس هـدفا بذاته ، بل الحكمة منه هو عبادة الله وعدم الشرك به.
ان توفّر ظروف التخلص من الضغوط الشـركية حيث يرتـاح الإنسـان من شـبكات الاسـتعباد التضـليلية والمالية والسلطوية هي أعظم نعمة يهبها الله للإنسان.
ومن المعروف ان الشـرك لا يتحقق بعبودية الصـنم ، بقــدر ما يتحقق بعبــادة الطــاغوت والخضــوع لســلطته الجائرة ، أو بعبادة المال ، والأرض ، والعنصر ... إلخ.
ورفض الشرك انما هو رفض للقيم التي يتغذى منها ، ولعل هــذا ما نلاحظه في التعبــير القــرآني ، إذ لم يقل تعالى : «لا يشركون بي شخصا» مثلا ، وانما أطلق وقـال : (شـيئا) ، ذلك لان من يخضع للطـاغوت لا يعبد جسـده ، وانما يعبد الصــولجان الــذي بيــده ، والقــوة الــتي تحت سـيطرته ، وهكـذا من يخضع للأثريـاء ، انما يعبد الـدينار والدرهم.
﴿ **وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ** ﴾
فاذا قامت السلطة السياسية (الشرعية) فان كل من يكفر يكون فاسقا ، إذ لا

يملك اي تبرير لكفره.

والواقع ان التأويل الحق والشـــامل لهـــذه الآية انما يكون عند تحقق وعد الله بالتمكين التام للـدين المختـار ، في كل أقطار الأرض ، كما جـاء في أحـاديث مـأثورة عن النبي صلّى الله عليه وآله انه قال :

«**زويت لي الأرض ، فأريت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ أمتي ما زوي لي منها**»

وقال ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

«**لا يبقى في الأرض بيت مــدر ولا وبر الا ادخله الله كلمة الإســـلام بعز عزيز ، أو ذل ذليل ، أما ان يعـــزهم الله فيجعلهم من أهلها ، واما أن يـــذلهم فيدينون بها**» [1]

أما مـــتى يتحقق ذلـــك؟ فانه إنما يتحقق عند قيـــام المهـــدي من آل محمد حيث جـــاء في حـــديث اتفق عليه المسلمون :

«**لو لم يبق من الـدنيا الا يـوم ، لطـوّل الله ذلك اليـوم حـتى يلي رجل من عـترتي ، اسـمه اسـمي ، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا**» [2]

[56] ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُـوا الزَّكـاةَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾

ان اقامة الصلاة وإيتاء الزكـاة من التشـريعات الالهية التي تدخل ضمن نطاق طاعة الله سبحانه ، لـذلك فهما لا يكفيان دون طاعة الرسول ، ولعل المراد بالرحمة

---

(1) المصدر / ص 621.
(2) تفسير «نمونه» / ج 14 / ص 530.

هنا النصر على الأعداء.

الانتصار وليد الثقة :

لا تنتصر أمة لا تثق بطاقاتها وقدرتها على الانتصار.

فلا ينبغي ان يقف حـــــاجزا بين المؤمـــــنين واقامة حكومة الإسلام وسلطة الشــرع في الأرض ما يجدونه من قـــوة الطغـــاة ، وثـــروة الأغنيـــاء ، أو جهل النـــاس ، بل اعتقـادهم بـأن الكفـار قد سـلبوا قـدرتهم وإرادتهم على الصراع والانتصار باطل.

فلا تخشى ايها المؤمن الكفار!

[57] ﴿ **لا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا مُعْجِـزِينَ فِي الْأَرْضِ** ﴾

لا تظنـوا ان السـلطات الكـافرة قد سـلبتكم الإرادة ، وأوصلتكم الى حافة العجز.

﴿ **وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾

فمن الناحية المادية لا قـــوة لهم تمنع المؤمـــنين من أخـذهم حقهم ، ومن الناحية المعنوية فـإن مصـيرهم الى النـار وبئس المصـير ، وهـذا يعـني ان الله قد رفع عنهم دعمه ، فلن يجـدوا من ينصـرهم على المؤمـنين ، «**ذلِـكَ بِأَنَّ اللهَ مَـوْلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَأَنَّ الْكـافِرِينَ لا مَـوْلى لَهُمْ**»

ويا ليتنا نحن المســـلمين اليـــوم ، نتخذ هـــذه الآية الكريمة شعارا في حياتنا السياسية ، وتحركاتنا الاجتماعية ، فنقـاوم أكـبر عقبة كـأداء في حيـاة المسـلمين الـذين يعتقدون بتفوق الكفار عليهم ، وانهم قـادرون على منعهم من أخذ حقوقهم ، وتحقيق اهدافهم ، مع أن الواقع عكس ذلك تماما.

والله يفند هـذا الاعتقـاد الباطل ، بوعـده المؤمـنين بالانتصار ، وببيان ان الكفار عاجزين وضعفاء.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لِيَسْـتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمـانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُـوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَـرَّاتٍ مِنْ قَبْـلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِـيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَـلاةِ الْعِشـاءِ ثَلاثُ عَـوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنـاحٌ بَعْـدَهُنَّ طَوَّافُـونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُـكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللــهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذا بَلَـغَ الْأَطْفـالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْـتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذلِكَ يُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمْ آياتِـهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَواعِـدُ مِنَ النِّسـاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْـتَعْفِفْنَ خَيْـرٌ لَهُنَّ وَاللـهُ سَــمِيعٌ عَلِيمٌ (60) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ

حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْمَـرِيضِ حَـرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِـكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبـائِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أُمَّهـاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ خـالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَـهُ أَوْ صَـدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنـاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَـلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَـةً كَـذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)

تعاليم الإسلام في دخول البيوت

هدى من الآيات :

في اطار حديث سورة النور عن العلاقـات الاسـرية ، وضرورة تنظيمها ، يحـدثنا ربنا في هـذا الـدرس عن بعض القضـايا الـتي تبـدو جزئية ، ولكنها ــ في الواقع ــ هامة ، لأنها ترسم حدود الاسرة ، والـتي من بينها ضـرورة تنظيم التزاور بحيث تسـتطيع الاسـرة ان تبقى آمنة في مأواها ، بعيـــدة عن العيـــون الغريبة ، فيحـــرم على المملـــوك والأطفـال دخـول الغـرف ، الا بعد الاسـتئذان ، وذلك في أوقات الاستراحة في الليل وعند الظهيرة ومن قبل صـلاة الفجر.

وينهى الأطفـال الـذين يبلغـون الحلم ، ان يسترسـلوا على عــادتهم في دخــول الــبيوت بلا اســتيذان في غــير الأوقات الثلاث.

ولان أعظم حكمة في ذلك هو المحافظة على العفة الاجتماعية ، يحـدثنا السـياق بهـذه المناسـبة عن القواعد من النسـاء ، وهي اللاتي لا يـرغب في زواجهن أحد لكـبر سـنهن ، فيســوغ لهن وضع ثيــابهن الظــاهرة كالخمــار والجلباب بشرط عدم التبرج بزينة

من أجل اثارة شهوة الرجال.

ثم يبين السياق حكم الدخول في الـبيوت والاكل منها بالنســبة الى العائلة الكبــيرة ، ويبــدأ ببيــان حكم ذوي العاهات فيجوز دخولهم جميعا الـبيوت وتنـاول الطعـام بلا استيذان.

بينات من الآيات :

[58] لـــتزكى اجـــواء المجتمع ، ويبقى الاحتشــام والعفـــاف في البيئة الاســرية ، لا ينبغي الســماح للعبيد والأطفال باقتحام غرف النوم والراحة من دون الاذن.

﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لِيَسْــتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ** ﴾

من العبيد والإماء.

﴿ **وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ** ﴾

وهم الأطفــال من العائلة ، إذ يجب عليهم اســتئذان أصحاب البيوت في أوقات معينة ، وهي :

﴿ **ثَلاثَ مَــرَّاتٍ مِنْ قَبْــلِ صَــلاةِ الْفَجْــرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ** ﴾

لأنها أوقــات الراحة الــتي يتواجد النــاس حينها في بيــوتهم ، بعد ان يكونــوا قد حضــروا صــلاة الجماعة في المســاجد ، أو قــاموا بأعمــالهم المختلفة ونشــاطاتهم المتنوعة لكسب الرزق ، وتحقيق المعـاش ، وهكـذا ينظم الإســلام الــوقت بدقة ، فجــزء لاجتمــاع المســلمين في المساجد كي يؤدوا الفـرائض ويتبـادلوا الأفكـار والخـبرات بينهم ، وجزء للسعي والعمل ، وجـزء للراحة والاسـتجمام ، حيث يستعيدوا القوة والنشاط ويكملوا

دورة الحياة.

 ﴿ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ ﴾

أحوال يجب ان لا يظهر عليها الآخـرون ، لأنها أوقـات الراحة ، وكم يرتاح الإنسان نفسيا حين يطمئن بأن لا أحد يدخل عليه إذ يضع عن نفسه الكلفة.

 ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَ ﴾

وأما بعد هـذه الأوقـات فلا مؤاخـذة عليكم ولا عليهم ولا عليهم اي الأطفـال والعبيد والإمـاء أن يـدخلوا عليكم دون استئذان.

 ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ ﴾

اي تأخذ حركة الـدخول والزيـارات مجراها عليكم بعد المنع والتوقف ، وبـالطبع ان الـدخول بلا اسـتئذان يختص بالمتعلقين بالشخص دون الأجانب.

 ﴿ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

فهو عليم بمصـــــالحكم ، وحكيم إذ يضع لكم هـــــذه الأحكـام الرشـيدة ، و جـاء في النص المـروي عن الامـام الباقر عليه السّلام في تفسير الآية :

«فلا يلج على أمه ولا على أخته ، ولا على ابنته ولا على من سوى ذلك الا بإذن ، ولا يأذن لأحد حتى يسلم ، فان السّلام طاعة الرحمن» [1]

فما هي فائدة هذا الحكم؟

قبل ان نبين الاجابة على ذلك نورد ملاحظة هامة هي ان الإنسان قد يكون :

(1) نور الثقلين / ج 3 / ص 622.

مهتما بحــدود التنظيم الاجتمــاعي وقيــوده ، دون أن يهتم بجـــوهره ومحتـــواه ، وقد يعكس فيكـــون مهتما بجـــوهر التنظيم وهدفه ، ولكنه يتجاهل الحــدود الـتي هي وسـائل تحقيق الهدف ويعتقد بأنها غير هامة أو قشرية.

بينما يريد الإسلام من ابنائه الاهتمـام بجـوهر التنظيم وبحدوده ، اي بهدفه وبالوسائل التي تحقق هذا الهدف.

ان جوهر التنظيم الاجتمـاعي هو الطاعة الخالصة لله تعالى ، والبعيدة عن الأهواء والمصـالح الآنية ، وكل أنـواع العصبيات الجاهلية ، وتبرز أعلى مظـاهر الطاعة لله ، في الطاعة للقيـادة الرسـالية وتتـدرج هابطا حـتى تصل الى ولي الأمر الحاكم الشـرعي ، وكـذا ولي الاسـرة ورؤسـاء كافة التنظيمات الاجتماعية والسياسية الشرعية.

والاسـرة الفاضـلة هي الاسـرة القائمة على أسـاس التعـــاون البنّـــاء ، ولا يـــأتي ذلك الا عن طريق الطاعة السـليمة للقيم الحق ، بحيث لا تكـون هـذه الطاعة خالية من قانون يحـددها ، بل يجب ان تصب في قنـوات قانونية ، فلا يكتفي الإنسان المنظم بالطاعة لقيادته أو ولي أمره أو رب أســـرته ، بل ان يلـــتزم أيضا بحـــدود القـــوانين الاجتماعية المفروضة ، فقد لا تبــدو هــذه القــوانين ذات اهمية ، ولكنها حينما تطبق في الحيــاة الاجتماعية تصــبح ذات نفع عظيم ، مثلا حينما يلزم الإسلام المسـلم الوفـاء بالعهد والالتزام بالوعد ، أتـدري كم ينظم هـذا الأمر حيـاة المجتمع ، أو كم يحافظ على الـوقت الـذي يـذهب هـدرا؟ والي اي حد يحافظ على علاقات الناس متينة وطيبة؟

وهكــذا حين يفــرض الإســلام تنظيم الــوقت ، فلأنه حاجة اجتماعية ، وضـــرورة حياتية ، إذ لا يمكن للإنســـان العمل في أي وقت يريد ، أو التبضع مـتى شـاء ، أو حـتى النوم متى يرغب ، بل هناك أوقات محدودة لكل نشاطات الحياة وشؤونها ،

وبالرغم من ان تنظيم الوقت يبدو لكثـير من النـاس عملا ثانويا ، الا انه أشبه ما يكون بالقناة التي تحافظ على مياه المطر من التشـتت ، لأنه يحافظ على طاقـات الإنسـان من التشـتت ويجمع طاقـات الجمـاهير ليصـبها في قنـاة واحدة.

من هنا نجد تأكيـدا في هـذه الآيـات على ضـرورة ملاحظة أوقات الراحة للإنسان ، والتي عادة ما تكون قبل صلاة الفجر وعند الظهر ، وكذا بعد العشاء ، وبمعـنى آخر ضرورة مراعاة أوقات الآخرين وبرامجهم.

وحـتى الأطفـال يجب عليهم الاسـتئذان في هـذه الفـترات لتبقى الـبيوت محلا آمنا يسـتطيع الإنسـان الاستراحة فيه أنى شاء.

ولتنفصل أوقات الراحة عن أوقات العمل ، كي يكون هنـاك وقت للراحة ، كما ان هنـاك وقتا للسـعي والكـدح ابتغاء فضل الله. والـذي يجد وقتا كافيا للراحة ، يسـتطيع الجد والإبداع عند العمل ، إذ يجب ان تكون أوقات الراحة ـ كالقيلولة في الظهر ـ منطلقا للتحـرك نحو العمل من جديد ، وبروح نشطة.

وهذا القـانون يـوفر على الإنسـان مزيـدا من الـوقت المنظم ، مما يعني مزيدا من التقدم الحضاري.

وكلمة أخيرة :

ان حكمة هذا التشـريع الهـام هي ابعـاد الأطفـال عن بعض المظاهر غير المناسبة المحتشمة في غرف النـوم ، حيث تثـيرهم وتـزرع في نفوسـهم حب الزنا ، أو حـتى عـداوة أحد الوالـدين ، مما يتسـبب في العقد الجنسـية ، وما تتبعها من نتائج خطيرة.

ولقد حـذرت النصـوص الشـرعية من ذلك واعتبرته نوعا من التشـجيع على الزنا ، إذ يسـقط الحيـاء وتصـبح المعاشرة الجنسية عملا عاديا عندهم ، وسوف يمارسونها عند

أول بوادر الحاجة الفسيولوجية إليها.

حتى جاء في حديث مأثور عن النبي (ص) :

«**إياكم وان يجـامع الرجل امرأته ، والصـبي في المهد ينظر إليهما**» [1]

اما غير الأطفال والعبيد فعليهم الاستئذان ، وقد سبق الحديث عن ذلك في آيات مضت وعلى الأطفال إذا بلغـوا سن الرشد ان يتوقفوا عن دخول الغرف الا بإذن.

[59] ﴿ **وَإِذا بَلَـــغَ الْأَطْفـــالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا** ﴾

في الدخول

﴿ **كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾

من الأحرار.

﴿ **كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾

وهـذا التكـرار تأكيد على أهمية هـذه الأوامر الالهية ، وانها ذات أثر عميق في المجتمع ، وان لم يسـتطع الإنسـان الاحاطة علما بجميع أبعادها ، وآثارها الآنيّة ، والمسـتقبلية ، لقلة علمه وضـعف عقله ، مما يجعله يستهين بها ، فلا يبذل جهدا للالتزام بها وتطبيقها بدقة.

لهذا يجب ان تكون حكمة الله وعلمه مقياسا لقوانين المجتمع البشري ، لا أهواء الإنسان وتخرصاته.

[60] ﴿ **وَالْقَواعِـدُ مِنَ النِّسـاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُـونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ**

---

(1) تفسير نمونه / ج 14 / ص 546 نقلا عن موسـوعة بحـار الأنـوار ج 103 / ص 295.

جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ
حيث يجيز الشارع المقدس للمرأة الكبيرة في السن ، ان تضع بعض ثيابها مثل جلبابها وخمارها مما يغطي رأسـها ما دام لا يـرغب أحد في نكاحها ، بشـرط ان لا تتـبرج بإظهـار مواضع زينتها ، ولكن الأفضل ان تسـود المجتمع الاسلامي كله حالة من العفاف والاحتشام.
 وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَ
فالمرأة وان كبرت وبلغت سن اليأس ، فان الحجـاب أكـثر هيبة لها ، كما ان ذلك يشـجع الشـابات على ان يتمسكن بالحجاب.
 وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
فلا يجوز لها ان تقول كلاما تثير به شهوة الرجال ، أو تنوي القيـام بحركة معينة حراما ، إذ ن الله سـميع للقـول الظاهر عليم بالنية الباطنة.
[61] **لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**
قال بعض المفسرين : ان الناس كانوا يتحرجـون من التعامل مع هـذه الطوائف الثلاث في الجاهلية ، لأنهم كـانوا يعتقـدون ان الله قد غضب على من ابتلي بهـذه الحـالات ، فيبتعـدون عنهم ، وجـاءت هـذه الآية لتـبين الحقيقة بأن الله لم يغضب على هؤلاء ، بل من الضروري معاشـرتهم بالإحسـان ، جـاء في الرواية المـأثورة عن الامام الباقر عليه السّلام :
ان أهل المدينة قبل ان يسلموا كانوا يعزلـون الأعمى والأعرج والمريض ان يأكلوا معهم ـ كانوا لا يـأكلون معهم ـ وكان الأنصار فيهم تيه وتكرّم : فقالوا ان

الأعمى لا يبصر الطعام ، والأعرج لا يستطيع الزحـام على الطعام ، والمريض لا يأكل كما يأكل الصحيح ، فعزلوا لهم طعـامهم على ناحية ، وكـانوا يـرون عليهم في مـؤاكلتهم جنـاح ، وكـان الأعمى والأعـرج والمـريض يقولـون : لعلنا نؤذيهم إذا أكلنا معهم ، فاعتزلوا من مؤاكلتهم ، فلما قدم النـــبي ســـألوه عن ذلك فـــأنزل الله عز وجل : «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً**» [1]

ولعلنا نسـتوحي من السـياق أيضا ان نفي الحـرج هنا يعـني جـواز الاكل ، فيكـون المفهـوم من الآية ليس على الأعمى حـرج ، ولا على الأعـرج حـرج ، ولا على المـريض حـرج ، أن يأكل من بيـوت النـاس ، أما أنتم فليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوتكم ، أو بيوت أقاربكم.

والحكمة في ذلك : ان هــؤلاء هم العناصر الضــعيفة الـذين يعجـزون عـادة عن كسب رزقهم ، فعلى الأصـحاء كفــالتهم والســماح لهم بالــدخول الى بيــوتهم للطعــام وبرهم.

 وَلا عَلى أَنْفُسِـكُمْ أَنْ تَـأْكُلُوا مِنْ بُيُـوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهـاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ إِخْـوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ

تذكر هـذه الآية بالتفصـيل الـبيوت الـتي لا حـرج على الإنسان في دخولها والاكل منها.

ويبدو أنها ليست في مقام إعطـاء الاذن فحسب ، بل في مقام التشجيع على ذلك أيضا ، فربما يتحرج الإنســان من الــدخول الى بيــوت أقاربه أو معارفه من الأصــدقاء ، فيرفع النص ، هذا الحرج ، لتنمو الالفة والمحبة بين الأسر المختلفة ، وكما يقول

(1) نور الثقلين / ج 3 / ص 624.

الحديث الشريف عن الائمة (ع) :

«**أحبكم إلينا أكثركم اكلا في بيوتنا**».

لان الجلــوس الى مائــدة الطعــام في الــبيت يفتح القلــوب على بعضــها ، ويمتن العلاقــات ، وبالتــالي يفتح طريق التعاون بين افراد المجتمع.

فكم من تعاون بدأ من جلسة طعـام ، حـتى الثـورات الرســالية كثــيرا ما تنطلق من مثل هــذه المناســبات ، فحينما تقترب النفوس وترتفع الحجب بين الإنسـان وأخيه وبعيدا عن انظار الناس وأسـماعهم ، هنالك يبـدأ الإنسـان بالحــــديث عما يعانيه ، فيبث همومه ومشـــــاكله لأخيه وبالتالي تتوفر الأجـواء الملائمة للمناقشة وتبـادل الأفكـار مما يكـون مناسـبا لجمع الامكانـات والكفـاءات المختلفة وازالة الصـعوبات ، فربما جلس أنـاس مؤمنـون لبعضـهم كي يأكلوا ، ولكنهم قاموا من على مائدة الطعام لينجــزوا أعمالا عظيمة في سبيل الله.

إن التجمعات الأسرية في الإسلام هي اللبنـات الاولى والأساســية في صــرح الصــمود والتضــحية في المجتمع الاسـلامي ، فلا يسـتطيع الإنسـان الصـمود أمـام تحـديات الــزمن وعنجهية الطغــاة ، وتحقيق النصر لوحــده ، ولكنه يســـتطيع ذلك حينما يجلس الى أقاربه ومعارفه ويتفاعل معهم حيث يشــعر بــالقوة فينــدفع بحمــاس لمواجهة كل التحديات.

ولما في الجلــــوس الى الموائد من فوائد اجتماعية عظيمة ، نجد الإسـلام يشـجع عليها ، ولو كـانت العلاقـات الاجتماعية في البلاد الـتي يحكمها الطـاغوت متينة وفعالة لشلّ سيف الطغيان فيها ، لان الطـاغوت حينئذ لا يضـرب واحدا واحدا ، وانما يضرب اسرة اسرة ، والاســرة القوية المتفاعلة صـــخرة صـــماء لا تتفتت ، فلو وقف المجتمع بأسره المتعاونة مع بعضها عبر قياداتها لسـقط الطـاغوت المتسلط على رقاب

الناس.

ثم يـبين القـرآن الكـريم حكما آخر يعطي العلاقـات الاجتماعية حرارة ودفئا فيقول :

﴿ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ ﴾

فاذا اعطى المالك مفتـاح بيته لأحد ، يجـوز له تنـاول الطعـام الـذي فيه ــ بـالفحوى ــ لما ينـبئ ذلك عن رضى قلبي.

جاء في التاريخ :

إذا بعث رسـول الله أحـدا من أصـحابه في غـزاة أو سرية ، يدفع الرجل مفتـاح بيته الى أخيه في الـدين (وهو الذي آخى النبي بينه وبينه) ، ويقول له : خذ ما شئت وكل ما شـئت ، فكـانوا يمتنعـون من ذلك حـتى ربما فسد الطعام في البيت ، فأنزل الله هذه الآية. [1]

واعطى الإسلام الصديق الوفي حكم القريب فقال :

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾

و جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) :

«من عظم حرمة الصـديق ان جعله من الانس والثقة ، والانبساط وطـرح الحشـمة ، بمنزلة النفس والأب والأخ والأبن» [2]

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً ﴾

---

(1) المصدر / ص 625.

(2) المصدر / ص 626.

فبإمكان الاسرة ان تجتمع بأكملها حول مائدة الطعام ، أو يحضر افــــراد منها فقط كــــأن يأكل الأخ مع أخيه والصديق مع صديقه.

﴿ فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِـكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً ﴾

يجب ان تكـون القلـوب متحابة متآلفة ، ومجنـدة في جيش واحد ، والسّـلام هو رمز تـآلف القلــوب ، وعند ما يســلم المـــرء على أخيه ، فانه يربط نفسه معه برابطة المحبة ويتعهد بأن يكون مسالما له في حضوره وغيابه.

لذلك يؤكد القرآن قائلا : «**فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِـكُمْ**» اي انكم تشـكلون نفسا واحـدة ، «**تَحِيَّةً مِنْ عِنْـدِ اللـهِ**» فحينما يقول الإنسان لأخيه السّلام عليكم يقـول الله أيضا السّـلام عليك ايها المجتمع الـذي يتسـالم افـراده ويتبـادل أبناؤه السّلام ، إني سوف امنحكم السّلام تحية ، «مباركة طيبـة» وهـذا السّـلام يسـبب البركة اي النمو الاجتمـاعي والمعنـوي ، الـذي يختلف عن النمو المـادي الفاسد لـدى المـــترفين أو الحكـــام الطغـــاة ، بل هو تكامل طيب ومستقبله عظيم.

﴿ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

فكلما كانت الأحكـام القرآنية حساسة وعميقة ، كلما وجدنا بعدها مباشرة مثل هذه الكلمات : لعلكم تعقلـون ، لعلكم تتفكــرون ، لحاجة الأمر الى التعقل والتفكر حــتى يعــرف المؤمنــون أهميته ، وانه لا يمكن فهم ذلك الا إذا استشار الإنسان عقله ، وقدح زناد أفكاره.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64))

بين القيادة الرسالية والامة المؤمنة

هدى من الآيات :

في ختـام هـذه السـورة الـتي تتحـدث عن الاسـرة الفاضلة ، وعن القيم التي ينبغي ان تنمو فيها ، والتي من أبرزها الطاعة لوليّ الأمر انطلاقا من الطاعة للقيم الحق ، يؤكد ربنا في هذه الآيـات الكريمة على ضـرورة الطاعة للقيادة الرسالية في القضايا الاجتماعية المختلفة.

فاذا كـان المسـلمون مجتمعين على أمر كـالحرب أو البناء أو اي عمل آخر فلا يجـوز لأحد منهم ان يتسـلل من الاجتمـاع في خلسة ويـذهب لأعماله الخاصة ، حـتى ولو كـانت هنـاك حاجة تـدعوه الى ذلك ، لان حاجة المجتمع أهم من حاجته الشخصية.

نعم له ان يستأذن القيادة ، فاذا أذنت له فليذهب والا فلا .. والقيادة ـ بدورها ـ تستطيع ان تأذن لمن شـاءت إذا عرفت الكفاية في الباقين ، ومع ذلك تستغفر القيادة له ، لأن استئذانه في مثل هذا الـوقت نـوع من الـذنب ، إذ هو هروب

من المسؤولية الاجتماعية.

وبعدئذ يؤكد القرآن على ضرورة تميـيز الرسـول عن الآخــرين باعتبــاره القائد ، والمبلغ للرســالة ، مما يجعله شخصية ذات تأثير فعّـال في فـرض الأوامر والتعليمـات ، ويحذر بشدة أولئك الذين يخالفون عن أمره بـأن تصـيبهم فتنة ، وأبــرز الفتن سـيطرة الطغـاة ، أو عـذاب اليم في الآخرة.

ويحــــذرنا الله نفسه ، أو ليس له ما في الســـموات والأرض ، وهو عالم بما نحن عليه من خير أو شر؟! وحين نعــود اليه يخبرنا بأعمالنا وهو بكل شـــيء عليم ، فلما ذا التبرير والنفاق والخداع الذاتي؟

بينات من الآيات :

[62] ان الإســـلام يريد لمجتمعه ان يكـــون مجتمعا متكافلا متكـاملا موحّـدا ، والقيـادة هي الرابط الاجتمـاعي الــذي يعصم المجتمع من الانهيــار والتشــتت ، وهنا تكمن اهمية الوحـدة ، وعـدم شق عصـاها ، فلا يجـوز للفـرد ان يعتنق رأيا يفصــله عن المســيرة العامة للأمة ، وهــذا هو المقيــاس الصـحيح لمـدى ارتبــاط المسـلم بــالمجتمع الاسلامي وانتمائه الحقيقي له.

أما الإفـــراد الـــذين يرســـمون لأنفســـهم خططا ، يفرضــونها على المجتمع ، شــاءت القيــادة أم أبت ، فلا يمكن ان يكونـــــوا منتمين الى المجتمع ، وهـــــؤلاء هم المنافقون في منطق القرآن الحكيم.

لذلك نجد التعبير القرآني يقول : «**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ**» للتأكيد على ان هـؤلاء وحـدهم الـذين ينتمـون الى مجتمع الايمان ، اما الآخرون فلا.

وهكذا يريد الإسلام ترسـيخ الشـعور بالمسـؤولية في نفوس المؤمنين ، ويبدو من

هــذه الآيــات ان بعض النــاس كــانوا يريــدون التنصل من مسئولياتهم.

وكثــيرا ما ينفر الإنســان من تحمل المســؤولية حينما يشــعر بثقلها ، أو خطورتها على مصــالحه ، وحــتى يخفي هذا الشعور يصنع دثارا من المبررات لنفسه ، ولكي يعالج الإسلام هذه النزعة فقد فرض على الإنســان المســلم ان يتحلى بصفتين اساسيتين هما :

1 ـ الطاعة والتسليم.

2 ـ التنفيذ الجاد لقرارات القيادة.

ولو عـــرف الإنســـان المســـلم نوعية فكر القيـــادة الرسالية ، وكذلك توجهها ، فانه سيسلم نفسه لها تسليما عميقا يـــذوب بســـببه كليا في خطها ، ولا يكتفي باتبـــاع القرارات الظاهرة فقط ، بل سيتبع روح القــرار واهــداف القيادة ، حــتى من دون ان تحــدد هي ذلك بالضــبط ، وهنا ننقل قصة حدثت في إيران :

جاء رجل الى أحد قادة الثــورة يســتأذنه في قتل أحد افــراد الســاواك ــ وهي مؤسسة ارهابية تجسســية كــانت تابعة للنظام الشاهنشاهي المقبور ـ فأجابه القائد بــالنفي ، مما أثار إعجاب الجالسين ، فما كان منهم الا ان ســألوه ولمــاذا وهو يســتأذنك في قتل مجــرم طالما قتل النــاس وأفسد في الأرض وفعل كذا وكــذا؟! فقــال لهم : ان مثل هذا الإنســان ليس لهــذه المهمة ، لأنه لو كــان لها لما أتى يسألني اقتله أم لا! وهو عاقل يعرف الأحكام الشــرعية و التوجه العام لاحاديثي الجماهيرية.

وكذلك بنو إســرائيل لما قــال لهم موسى (ع) ان الله يأمركم ان تــذبحوا بقــرة امطــروه بوابل من الأســئلة : ما هذه البقرة؟ ما لونها؟ ما شكلها؟ ما .. ما. إلخ؟

«**فَــذَبَحُوها وَما كــادُوا يَفْعَلُــونَ**» لان التســـليم النفسي لم يكن موجودا عندهم بما

فيه الكفاية ، فكـانوا يريـدون التنصل من المسـؤولية بأية وسيلة كانت.

ولا يكتمل إيمـان المـؤمن حـتى يـذوّب شخصـيته في شخصية الامة ، ويـبيع نفسه وتوجهاته في الحيـاة للقيـادة الرسـالية ، بـان يكـون رهن أوامرها ، كما لا يكتفي بتنفيذ ظاهرها فقط ، وانما يغــــوص الى الاعمــــاق ، ليكتشف أبعادها ، ويطبقها بالشـكل الأكمل ، بخضـوع قلـبيّ تـام ، وقد وصف القرآن المؤمنين بذلك حيث قال : «**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُــونَ حَتَّى يُحَكِّمُــوكَ فِيما شَــجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِـدُوا فِي أَنْفُسِـهِمْ حَرَجـاً مِمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْلِيماً**» ، والتسليم هو الانصياع النفسي التام.

 إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ

فلا يشكّل الايمان بالله وحده قيمة حقيقية ما لم يكن مقترنا بالايمان بالرسول ، وما يــترتب على ذلك من تلقّي الأوامر والتعليمات والتشريعات الالهية منه ، وهذا ما يميّز المؤمن الحقيقي عن المؤمن الظاهري.

 وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ

أي إنهم لا يتصــرفون وفق رغبــاتهم الشخصــية ، انما يدعون القرار الحاسم بيد القيادة.

 إِنَّ الَّذِينَ يَسْــتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُــونَ بِاللهِ وَرَسُـولِهِ فَـإِذَا اسْـتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَـأْنِهِمْ فَـأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ

قد تحتاج الى هذا الشخص فيجوز لك ان تأذن له.

 وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

لأن ذهـابهم وان كـان بـأمر الرسـول الا أنه نـوع من الذنب ، لذلك ينبغي للرسول

الاستغفار لهم حتى يغفر الله لهم من جهة ، وحتى يكون ذلك اشعارا للآخرين بأن لا يطلبوا أذنا مماثلا ، وبالتالي ينفض الناس شيئا فشيئا ويبقى الرسول وحيدا في الساحة.

وجاء في التاريخ : «**ان هذه الآية نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله لأمر من الأمور ـ في بعث يبعثه ، أو حرب قد حضرت ـ يتفرقون بغير اذنه ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك**». [1]

وجاء في نص آخر : ان الآية نزلت في حنظلة بن أبي عياش وذلك انه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد ، فاستأذن رسول الله ، ان يقيم عند أهله ، فانزل الله عز وجل هذه الآية «**فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ**» فأقام عند أهله ، ثم أصبح وهو جنب ، فحضر القتال واستشهد ، فقال رسول الله ، رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض فكان يسمّى غسيل الملائكة. [2]

[63] ان احترام القيادة في قراراتها يجب ان ينعكس على احترامها في الظاهر أيضا ، فلو نطقت باسم الرسول ، أو باسم قيادتك كما تنطق باسم الآخرين دون ايّ احترام ، أو إذا جلست الى الرسول ترفع صوتك أمامه ، كما ترفعه أمام الآخرين أو تناديه من وراء الحجرات كما تنادي الآخرين ، فانك لن تكون مستعدا بعد ذلك لتلقّي أوامره ومن ثم تنفيذها ، إذا لا بد من اعداد نفسي كامل سلفا ، لتلقّي أوامر الرسول أو القيادة الرسالية التي تمثله على الواقع ، كأن يتوضّأ الفرد قبل الذهاب الى مجلس الرسول ، أو يغتسل ان كان عليه غسل ، ثم يجلس في محضره مجلس المستفيد ، ليقتبس من علمه بتركيز تفكيره في كلامه ، وتفريغ نفسه لتطبيق تعاليمه .. وهكذا

---

(1) المصدر / ص 628 نقلا عن تفسير علي بن إبراهيم.
(2) المصدر.

حتى ينتهي الأمر به الى تنفيذ أوامر القيـادة بشـكل دقيق جدا.

فحينما تحـــترم القيـــادة تطبق أوامرها وتوجيهاتها ، وعلى العكس فانك تأخذ أوامرها وتوجيهاتها مأخذ الهـــزل لو لم تكن تحترمها.

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَـدُعاءِ بَعْضِـكُمْ بَعْضاً ﴾

ولهذا المقطع من الآية وجهان : أحدهما ظاهر والآخر باطن.

أما الظـاهر فهو : ان لا يسـمّي الإنسـان رسـول الله باسمه الخاص ، بل بكنيته ، وحينما جاءت هـذه الآية حـرم على المسـلمين ان ينـادوا رسـول الله باسـمه ، فأخـذوا ينادونه يا رسول الله أي باسمه القيادي.

واما الوجه الباطن فهو : ضرورة تهيّؤ المسلم نفسـيا لتقبل قيادة الرســول (ص) وكل من جلس مجلسه وحكم باسمه ، ولا يقول هذا إنسـان وانا إنسـان ، بلى انه بشر ، ولكنه يمتلك صـــــفة اعتبارية أنت لا تملكها ، هي جلوسه مجلس الرسول ، لـذلك قـال كثـير من فقهائنا : (إذا حكم ولي الأمر المجتهد الجامع للشرائط بحكم ما ، وجب على الناس ـ سواء منهم المقلّـدون لهـذا المجتهد أو غـيرهم ـ اتبـاع حكمه ، بل وحـتى على المجتهـدين ان يتبعـوه في حكمه) ، لأنه حينما يحكم فإنه يحكم باسم منصبه ، واهانة حكمه اهانة لمركـــزه ، والاهانة لمركـــزه اهانة للـــدين ، وبالتالي لله سبحانه وتعالى ، وكما يقول الحـديث في حق الائمة :

«الـراد عليهم كـالراد علينا والـراد علينا كـالراد على الله»

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً ﴾

اي يتســللون خلسة دون ان يشــعر بهم الرسـول أو يرأهم وهم يخرجون من مجلسه.

﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ﴾

ان المقصود من «**الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْـرِهِ**» ليس فقط مخالفة الأوامر الظـــــــاهرة ، بل أيضا مخالفة روح القيادة.

أنهم استطاعوا ان يتسللوا لـواذا وان يهربـوا خلسة ، ولكن هل أصبحوا في مأمن كما يزعمون؟!

كلا .. بل إنهم يعرضــون أنفســهم للفتنة ، وللعــذاب الأليم ، فاذا استدعاهم الرسول في يوم ما ، وأصدر إليهم أوامرا مباشــرة بحمل الســلاح ، والتوجه الى الغــزو مثلا ، فإنهم في هـذه الحالة أمـام مـوقفين ، فإما الانصـياع الى الأوامر ، وهذا خلاف ما يريدون ، وأما الرفض فيخرجون ـ بذلك ـ ظاهرا وباطنا عن الإسلام ، ويضعون أنفسهم تحت طائلة العقاب الشرعي في الدنيا وفي الآخرة.

وعلى فـــرض أنهم اختـــاروا الأمر الاول ، فـــإنهم ســيجدون صــعوبة بالغة في تنفيذ الأوامر ، لان الــذي لم يــربّ نفسه على تنفيذ الأوامر الصــغيرة لا يســتطيع ذلك في القضايا الكبيرة ، والذي يهرب اليوم من الحر والبرد ، وسهر الليل ومشاكل التـدريب وما أشـبه ، كيف لا يهـرب غدا من الحرب والقتال؟!

اذن فعلى الإنســـان ان يـــربّي نفسه على الطاعة والانضباط وتحمل الصعاب حتى يكون على أتم الاسـتعداد نفسيا وبدنيا لتطبيق الأوامر الهامة.

﴿ **أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ** ﴾

جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السّـلام :

«**يسـلط عليهم سـلطانا جـائرا ، أو عـذابا أليما في الآخرة**» (1)

---

(1) المصدر / ص 629.

والواقع : ان هنـاك رابطة وثيقة بين سـيطرة الطغـاة وبين مخالفة أوامر القيادة الشرعية.

[64] **أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ**

أي ان الله وبكل تأكيد يعلم بكل ما تفعلونه ، وهو قـــادر على محاســـبتكم ومجـــازاتكم لأنه مالك الكـــون والوجود.

 وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْـهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُـوا وَاللـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

وغـــــدا يخـــــبركم بكل ما فعلتم ، لان علمه محيط بالإنسان ، ومعرفة الإنسـان بهـذه الحقيقة تجعله مسـئولا عن أقواله وأعماله ، فيعمل على إصـــلاحها وتحســـينها ، ليكسب ثواب الله ، ويتجنب عقابه.

سورة الفرقان

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة :

عن رسول الله (ص) قال :

«**من قرأ سورة الفرقان بعث يــوم القيامة وهو مــؤمن ، ﴿ أَنَّ السَّــاعَةَ آتِيَــةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللــهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾**»

(نور الثقلين / ص 2 / ج 4)

عن الامام الرضا (ع) قال :

«**يا ابن عمــار لا تــدع قــراءة** «**تَبــارَكَ الَّذِي نَــزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ**» **فان من قرأها في كل ليلة لم يعذبه الله أبـــدا ، ولم يحاســـبه ، وكـــان منزلته في الفردوس الأعلى**»

(مجمع البيان / ص 159 / ج 7)

الاسم :

لأن هذه السورة تبيّن حقــائق عن الــوحي ، ولأن أهم ميزة للوحي هو تفريقه بين الحق والباطل فقد سميت ب (الفرقان) الذي يشير الى الآيات المحكمات في القرآن.

الإطار العام

انها رســالة ، وعظمة الرســالة أولا تــأتي من جــانب مرسلها.

والدرس الأول من هذه السـورة الـتي يبـدو انها تـبين حقــائق الــوحي وتنسف العقبــات الــتي تعــترض طريق الأيمـــان به ، يـــذكرنا بمن أرسل الكتـــاب ، وبالكتـــاب ، وبالرسول الذي أرسل معه.

أولا : الله هو الــــذي انـــــزل الفرقـــــان ، وهو رب السماوات والأرض الذي أرسل الكتاب.

انه الله الذي تبارك وتعالى. أو ليس خيره عميم ثابت يغني ولا يتنـاقص وله وحـده ملك السـموات والأرض وهو الذي قدر كل شيء.

ثانيا : ومن آمن بالله عـــرف رســـالاته ، أما من اتخذ من دونه شــركاء فســوف لا يحظى بالايمــان بالرســالة ، لذلك تراهم يتهمـون الرسـالة بـالافتراء ، ويزعمـون : انها أساطير.

بينما الذي يعرف الله ، وانه العليم بسر الخلق يــؤمن بالرسالة التي تكشف جانبا من ذلك السرّ.

ثالثا : قـالوا : كيف يبعث الله بشـرا رسـولا. إنه يأكل ويكتسب معيشته ، وقالوا : لماذا لم ينزل معه ملك ، ولم يلق اليه كنز ، ثم قالوا : انه رجل مسحور.

وهكـذا ضـلوا عن السـبيل بسـبب ضـربهم الأمثـال للرسول.

وبعد ان يجيب السياق عن افـتراءاتهم بأنه قـادر على ان يجعل للرسول ما يملأ عيونهم من الجنـات والقصـور ، يبيّن جذر الكفر بالرسالة المتمثل :

أولا : في تكــــذيب الســـاعة ، ينـــذرهم بها حيث تستدعيهم من بعيد بزفير وتغيظ ، فاذا اقحموا فيها تنـادوا بالهلاك ، ويقارنها الذكر بالجنات التي وعد المتقون.

ثانيا : باعتمـادهم على شـركائهم. حيث يـذكرنا الـرب بأن الأنداد لا يغنون عنا شيئا في ذلك اليـوم الـذي يقفـون امام المحكمة ، ويتبرءون ممن كانوا يعبدونهم.

ثالثا : ان من أسـباب الكفر بالرسـالة نسـيان الـذكر بســبب تطــاول العمر واســتمرار النعم ، فكــان ســببا لهلاكهم.

ويعود الذكر الى رد شبهاتهم التي سبقت الواحدة تلو الأخرى.

أولا : قالوا : لماذا يأكل رسـولنا الطعـام ويمشي في الأسواق ، فقال الـرب : انّ المرسـلين سـابقا كـانوا أيضا يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، وانّ ابتلاء الناس ببعضــهم ســنة الله الــتي تمضي في الخلق لمعرفة من يصبر ، وهو البصير بهم.

ثانيا : قـالوا : لمـاذا لم يـنزل معه ملك نـذيرا ، يقـول ربنا : انه الاستكبار والعتو.

أولا يعلمون انه لو تنزلت الملائكة ، وانكشف الغطـاء فقد لـزمهم الجـزاء ، ولا بشـرى لهم يومئذ ، وتنتشر أعمـالهم فلا تنفعهم ، ويمضي السياق في بيان أهوال الساعة الـتي كذبوا بها لعلهم يتذكرون.

ثالثا : من أسـباب الكفر بـالوحي خلة السـوء حيث يعض الظالم ـ آنئذ ـ على يديه ، وينادي بالويل على نفسه على ما اتخذ من اخلّاء سوء اضلوه عن الذكر.

رابعا : يأتي الرسـول يـوم القيامة يشـكو الى ربه من قومه الذين اتخذوا القرآن مهجورا.

خامسا : وقـالوا : لـولا أنـزل القـرآن جملة واحـدة ، ويجيب السـياق بـان الحكمة هي تثـبيت الفـؤاد ، ومقاومة أمثلتهم الباطلة بالحق المبين.

ويحـدث السـياق عن مثل للرسـالة الالهية حيث بعث الله موسى الى فرعون رسـولا ، كما بعث نوحا الى قومه ، وأرسل الى عاد وثمـود وأصـحاب الـرس ، فما ذا كـانت عاقبة الـذين كـذبوا بالرسـالة. ان مصـير القرية الـتي أمطـرت مثلا واحـدا لعاقبة أولئك المكـذبين. أفلا يعتـبر هؤلاء بهم ويكفّون عن تكذيبهم؟!

سادسا : ويتخذون الرسـول هـزوا ، ولكنهم يعـترفون بمدى تأثيره فيهم ، والواقع :

انّ الهـدى من الله وليس الرسـول وكيلا عنهم ، ولا يهديهم الله إذ أنهم اتخذوا أهواءهم آلهتهم ، ويبيّن القـرآن ان الله هو الذي جعل الشـمس دليل الظل ، وأحـيى ميت البلاد ، وصرّف الأمثال فهو الهـادي والمـذكر ، ولكن أكـثر الناس يكفرون.

والله سـبحانه المالك المقتـدر ، وقد أمر الرسـول بجهـادهم جهـادا كبـيرا ، وبيّن آيـات قدرته البالغة ، حيث مـرج البحـرين ، وجعل بينهما حـاجزا وقد خلق من المـاء بشرا.

ولعـلّ الآيـات تـوحي بـانّ من يكفر بالرسـالة سـوف يتعـرض لمعـاداة المؤمـنين ، ولا ينفعه الأنـداد شـيئا ، كما انهم لا يضرونه إذا خالفهم.

وفي المقابل لا يطلب الرســول اجــرا ، ولا يعتمد الّا على الله.

ويـــأمر الله الرســـول بالتوكل على الحي القيـــوم ، ويـذكره بأسـمائه الحسـنى ، فقد خلق السـموات والأرض في سـتة أيـام ، ثم اسـتوى على عـرش القـدرة ، ينشر رحمته على عبـاده وهم ينفـرون من السـجود للـرحمن بكفرهم!

وفي الـدرس الأخـير يـذكرنا القـرآن باسم «تبـارك» الذي به جعل في السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا منيرا ، ثم يضـرب مثلا من واقع عبـاد الـرحمن الـذين صـاغهم الـوحي ، فهم يمشـون على الأرض هونا ، وإذا خـاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، وهم يبيتون لـربهم سـجدا وقياما ، ويحـذرون عـذاب الآخـرة ، ويقتصـدون في الإنفـاق ، ولا يـدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلـون النفس الـتي حـرّم الله الّا بـالحق ، ويتوبـون الى الله ، ولا يشـهدون الـزور ، ويمـــرون بـــاللغو كراما ، وتعي افئـــدتهم آيـــات ربهم ، ويتطلعـون الى ان يصـبحوا إماما للمتقين ، فيجـزيهم الله الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما.

وفي الآية الأخيرة يذكرنا السياق بدور الـدعاء ، ولعل السـبب يتلخص في انه ردّ التحية من قبل العبد لرسـالات الرب.

سورة الفرقان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

 تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (3) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (4) وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (6)

تبارك الذي نزّل الفرقان

هدى من الآيات :

في الدرس الأول من هذه السورة التي تـبيّن حقـائق عن الـوحي ، يـذكرنا ربنا بـأنّ من انـزل الفرقـان هو الله الذي تنوعت وكثرت بركاته ، والهـدف من الفرقـان الـذي أنزله على عبـده ورسـوله محمد صـلّى الله عليه وآله هو إنذار كافة الناس.

ويفصّـل الـذكر حديثه عمن انـزل الفرقـان. أو ليس خطر شـأن الرسـالة إنما يكـون بمن أرسـلها؟ وها هو المليك المقتدر الواحد بلا شريك والمقدر لكل شيء ينزل ما يهدينا الى حقيقة الأشياء.

بينما الضالون الذين يهتدون بالقرآن يشـركون بـربهم من لا يخلق شـيئا ، ولا يملك لنفسه ضـرا فيدفعه أو نفعا فيجلبه ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.

وشركهم الله يجعلهم يكفرون بالفرقان ويزعمون انه ليس إلّا إفك صـنعه الرسـول بالتعـاون مع آخـرين. هكـذا يظلمون الرسول ، وهكذا يقولون باطلا.

ويقولـون : انها مجموعة أفكـار السـابقين تملى عليه فيكتبها بكرة وأصيلا.

كلّا .. انما انــزل الفرقــان الخبــير بسر الســموات والأرض. أو ليس الله هو الغفور الرحيم يتجاوز عن ذنـوب عباده ويرحمهم بانزال الوحي إليهم؟!

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

 تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ :

[1] ان من أبرز ممـيزات القـرآن الكـريم انّ الحكمة تتجلى فيه ، لأنه من لـدنّ حكيم خبـير ، فلا تجد لفظة من ألفاضة على صيغة معيّنة الا لحمة.

ولعل سبب تسمية هذه السـورة بسـورة «الفرقـان» هو التالي :

أولا : لاشتمالها على هذه الكلمة في بدايتها.

ثانيا : بما ان الإنسـان خلق للبقـاء في حيـاة أخـرى لا تفنى ، وإنما جيء به الى الدنيا لتتكامل نفسه ، ويعدّ لتلك الحياة ، وطريق التكامل الوحي ، وسورة الفرقـان تحـدثنا عن الوحي ، وضرورة الايمان به ، وكيفية تجـاوز العقبـات التي تعترض طريق الأيمـان به ، ونقـرأ في نهاية السـورة عرضا لأبرز صفات المؤمـنين به ، والـتي تـبين ـ في ذات الوقت ـ صورة عن الإنسان المتكامل الذي يعده الفرقـان للجنة ، ومن هنا ســمّي الــوحي هنا بالفرقــان لأنه يميّز الإنسـان المتكامل المعـدّ للجنة عن البشر النـاقص الـذي يلقى في النـار ، فالفرقـان هو القــرآن الــذي يعمل به ، وتصاغ عبره شخصية أصحاب الجنة.

فبالقرآن يعـرف الحق من الباطل ، والخـير من الشر ، ومن اهتـدى به أوتي الفرقـان ، وارتفع إلى درجة الولاية على النــاس تشــريعيا ، إذ يســتخلفه الله على أرضه ، لا لميزة ذاتية ، بل لأنه يجسّد ـ أكثر من غيره ــ رسـالة الله في ســلوكه وتصـرفاته ، كما أنه يســمو لمســتوى الولاية التكوينية ، لأنه قد طبق بنــــود الرســــالة على نفسه مما يعطيه القدرة على تسخير الأرض وما فيها.

وعند ما تبـــدأ آيـــات هـــذه الســـورة المباركة بكلمة «تبـارك» والـتي تعـني التكامل في الحيـاة ، فلكي تشـير الى حقيقة عظيمة تهم الإنســــان كمســــؤول عن حياته ومصـــــــيره ، فلو طمح يوما إلى التكامل ، فلا بد له من ادراك هـذه الحقيقة ، وإلّا فانه سـيظل عـاجزا عن بلــوغ الهدف الكبير.

تلك الحقيقة هي أن الإنســان لا يمتلك القـدرة الذاتية على التكامل ، ولا سـبيل له إلى ذلك الا بالارتبـاط بينبــوع التكامل والبركة وهو رحمة الله ـ جل شأنه ـ عبر التمسك بحبله الممــدود من الســماء الى الأرض ، وهو القــرآن ، حيث يسمو بالإنسان نحو مـدارج الكمـال ، ويفجّر طاقاته الخيّرة التي أودعها ربنا فيه.

لــذا نجد هــذه الكلمة تتكــرر ثلاث مــرات أو أكــثر بعبارات مختلفة في هذه السورة ، التي يستوقف الإنسان ســياقها في الآية الاولى ليــبيّن ان الهــدف الأســاس من الـوحي هو الإنـذار لأن الإنسـان أقـرب الى دفع الشر عن نفسه منه عن جلب الخــير ، فلو علم بعــدوّ يريد اقتحــام البيت تراه يتحـرك اسـتعدادا للـدفاع بنشـاط أكـبر مما لو علم بوجود فرصة امامه للكسب ، ولربما كان هذا السبب الذي يجعل الإنذار يسبق التبشير.

القرآن رسالة الى العالمين :

وتشــير الآية الكريمة الى أنّ القــرآن ليس رســالة موجهة الى طائفة من بني البشر

دون أخـــرى ، انما هي رســـالة مترامية الابعـــاد ، تسع البشرية كلّها ، فهي شاملة وعامة ، وهذه الميزة من أكبر الدلائل الواضحة على أنها وحي أرسله الله سبحانه ، وانها ليس من اصطناع الرسـول (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) لأن الإنسـان لا يمكنه الوصـول الى مسـتوى متقـدم من التجرد عن الذات والمصـلحة العنصـرية والاقليمية وغيرها من الانتمـاءات المادية ، وانما يسـتطيع ذلك عند ما يتصل بمشـكاة النـور ، ويتنصّـل من اي انتمـاء مـادي ، ويرتبط بالله المهيمن على جميع الحدود والقيود والولاءات.

فكون القرآن حديثا للبشـرية دليل على صـدقه ، وانه مرسل من عند الله ، ثم إنّ من يضع المنهج للحيـــــاة ، ويفرضه على الإنسان لا بد أن يكون مطلّعا على شيئين : الإنســان والكــون ، فلا بد ان يعــرف طبيعة الإنســان ، ومكنوناته من الطاقات والتطلعـات ، أما الكـون فلا بد أن يكون مهيمنا عليه ، عارفا بسننه وانظمته ، ولا يتسنى هذا الأمر لغـير الله ــ سـبحانه ــ الـذي أودع السـنن والانظمة وقدرها تقديرا.

﴿ تَبارَكَ الَّذِي نَـزَّلَ الْفُرْقـانَ عَلى عَبْـدِهِ لِيَكُـونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً ﴾

لماذا اختار الله سبحانه كلمة «عبده»؟

يبدو لي أن الهدف من هذا التعبير أمران ، هما :

أولا : ان عظمة الرسول (ص) نابعة من عبوديته لربه ، وإخلاصه له سبحانه.

ثانيا : ان القـــرآن ليس من فكر الرســـول ، ولا هو إفراز طبيعي يعلمه ، وكمــال عقله ، أو دليل على اختلاف عنصره.

«الفرقـان» كلمة مشـتقة من فـرق يفـرق مفارقة ، وقد سمّي الذكر فرقانا لأنه

يهب الإنسان قدرة على التمييز ، وعليه مسئولية الاختيار.
جاء في النص المأثور عن أبي عبد الله (ع) في معنى الفرقان :
في قوله «**أَنْزَلَ الْفُرْقانَ**» قال :
«**هو محكم ، والكتـاب هو جملة القـرآن ، الـذي يصدقه من كان قبله من الأنبياء**» [1]
و في الصـحيفة السـجادية عن أبي محمد البـاقر زين العابدين ـ عليهما السّلام ـ :
«**وفرقانا فرّقت به بين حلالك وحرامك ، وقرآنا أعربت به عن شرائع أحكامك**» [2]
[2] وإذا عرف الإنسان رب العزة الذي انزل الفرقان عرف صـدق هـذا الكتـاب ، وكلما زادت معرفته بربه كلما زادت قدرته على الاسـتفادة من كتابه ، وتحـول الكتـاب عنـده الى مقيـاس سـليم لمعرفة الخـير والشر ، والنفع والضر. ذلك لأن من عرف ربّه بأسمائه الحسـنى ثم تليت عليه آيات الكتـاب ، رأى تجليـات ربه فيها ، وعـرف انه لا يكون مثل هذا الكتاب الّا من الله الخبير ، فلا يخالجه ريب في صدق رسالة ربّه.
وهكذا ذكرتنا سورة الفرقان أولا بمن انزل الكتاب.
 الَّذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِـذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

(1) تفسير نور الثقلين / ج 1 / ص 310.
(2) المصدر.

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)

إن من النـــاس من يعبد الآخـــرين باعتقـــاد ذواتهم الالوهية ــ كما يزعمـون ــ أو ان شـرعيتهم نابعة من الله ذاتا ، كالاعتقاد بأن السـلطان ظل الله في الأرض ، أو أن الله أمر بعبادة التراب ، وتقديس القوم والعشيرة.

وعند ما ينسف الله هـــاتين الفكـــرتين ، فانه ينسف بـذلك قاعـدة التمـايز الطـبيعي بين العناصر البشـرية ، أو القوميات والوطنيات ، أو أيّ شيء آخر.

ويأتي عجز الآية الكريمة مكملا ـ بتناغم وتناسب ـ مع كلمة «الفرقــان» الــتي مر ذكرها في الآية الاولى ، فهي ليست بعيدة عما تهـدف اليه كلمـتي «**فَقَـدَّرَهُ تَقْـدِيراً**» في آخر هــذه الآية ، لأن الفرقــان جــاء لتعريف الإنســان بالتقـــديرات الالهية ، والأنظمة الربانية ، والتقـــادير هي الانظمة والسنن.

وقد أضــافت الأحــاديث في معــنى التقــدير وحــدوده ونذكر فيما يلي بعضا منها :

روي عن علي بن إبراهيم الهاشمي قال : سـمعت أبا الحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام يقول :

«لا يكون شيء الا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى».

قلت : ما معنى شاء؟ قال : «ابتدأ الفعل».

قلت : ما معنى قدر؟ قال : «تقدير الشيء من طوله وعرضه».

قلت : ما معــنى قضــى؟ قــال : «إذا قضى أمضــاه فذلك الذي لا مرد له» [1]

---

(1) المصدر / ج 4 / ص 3.

والتقدير الالهي سبق الخلق بمدة طويلة ، هكذا يروى مسـندا عن أبي علي بن موسى الرضا عن آبائه عن علي (عليهم السّـلام) قـال قـال رسـول الله (صـلى الله عليه وآله) :

«ان الله عز وجل قدر المقـادير ، ودبر التـدابير قبل ان يخلق آدم بألفي عام» [1]

و قال الامام الرضا عليه السّلام ليونس :

«تـدري ما التقـدير؟ قلت : لا ، قـال : هو وضع الحدود من الآجال والأرزاق والبقاء والفناء» [2]

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ :

[3] **﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَـةً لا يَخْلُقُـونَ شَـيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾**

وينساب السياق القرآني ليطهر الافئدة من الأساطير الجاهلية ، فلا آلهة من دون الله تخلق وتصـنع. كلّا .. انما هي الـتي تخلق وتصـنع ، بل قد يكـون الإنسـان هو الـذي يصنعها كما تشير اليه آيات أخرى ، والتي تـوحي بـأن الله يخلق الآلهة خلقا أوليّا من العـدم ، ولكن الإنسـان يعطيها منصب الألوهية ، وليس الله الـذي لبس رداء الوحدانية ، وتسربل بالعزة والفردانية ، ولا من قبل أنفسهم.

اننا نجد هجوما قرآنيا شـديدا بين الحين والآخر على الأسـاطير والخرافـات انما لإبطالها ، والأخذ بيد الإنسـان الى الحقيقة بعد إسـقاط الآلهة الكاذبة الـتي نبتت في مسـتنقع أوهـام البشر البـدائي ، الإنسـان ذو الذهنية الساذجة والمحدودة.

تخلف الإنسـان هو المسـؤول الاول والأخـير عن ضلالاته وفساده سواء على صعيد

---

(1) المصدر / ص 4.
(2) المصدر / ص 5.

الإفــراد والمجتمعــات والأمم ، إذ لا وجــود لهــذه الآلهة المزيّفة لــولا جهله وضــيق أفقه ، وتوجهاته المنحرفة في قوالب الشهوة والمصلحة.

والا فما تفســير ظــاهرة الطغيــان. إذ يعتلي فــرد أو تتكـبر جماعة لتتحكم بمصـير مجـاميع بشـرية هائلة وكأنها آلهة ، فيتزلف له أولهم النــاس ، ويتســكعون على أبوابه ، متناسين الحقيقة العظمى في هذا الكون ، ومتغافلين عن واقع الذين يعبدونهم بأنهم أنـاس مثلهم ، خلقـوا من طين لازب ، وهم الآن من لحم وشـــحم ، وعظم ودم. تحكمهم ذات القــوانين والانظمة الجســدية والنفســية الــتي تحكم ســائر النــاس ، وانما أصــبحوا بهــذه الهالة من التقــديس الأجوف بخوف الناس منهم ، ورغبتهم في خيرهم.

وإذا أراد مجتمع ما ان يكتشف هـــــذه الحقيقة ، فما عليه الا ان ينفض غبــــار التخلف عن نفسه ، وينتفض لله ضــاربا بــالخوف عــرض الحائط ، متنــازلا عن المصــلحة والشهوة العاجلة في سبيل هدف مقدس هو رضــوان الله ، فان الطاغوت آنئذ لا يمكنه الوقوف على عرش السلطة لحظة واحــدة ، لان عوامل انهيــاره موجــودة ــ إذا ــ في ضمير الإنسان والمجتمع وفي سنن الحياة.

ولا يقصد بالآلهة المزيفة الحــــاكمين فقط بقـــدر ما يعــنى بهــذه الكلمة كل شــيء يقدسه الإنســان الى حد العبودية له ، ســواء تجسد ذلك في الحــاكم كفرعــون ، أو القبيلة كقريش ، أو العنصر كاليهود ، أو الإقليم أو الحــزب أو ما أشبه.

فلربما يشــرد بالإنســان خياله في مغبــات الانحــراف ليصور له الوطن شيئا قائما بذاته ، أو العلم المصــنوع من القماش هو الذي يحفظ البلاد والإنسان ، هكذا قد يتصــور الإنسان قطعة القمـاش الـتي لا تعـدو كونها رمـزا لما في قلوب الناس من حب مكنون للوطن.

فـاذا أصـبح حب الـوطن بغضا للاوطـان الاخـرى ، أو التضحية من أجله بطشا وعدوانا على الآخرين بغـير الحق ، فانه بذلك يصبح إلها يعبد من دون الله.

ويــدرك البشر بفطرته ان لا إله في الكــون الا الله ، فهو خالقه ، ومقدر سـننه ، والمهيمن عليه ، وانه قد بعث نبيّه برسالة تبيّن تلك السنن ، إلّا أن الإنسان قد يسـتجيب لدعوات الشيطان والنفس الـتي تتحـول إلى آلهة مقدسة بعد تبلورها في الواقع الخارجي.

ولو وقف الإنسـان سـاعة تفكر لنفسه ، وعـرض دعـوات الشـيطان ، وضـغوط النفس على ضـوء الفطـرة والعقل لتبدد ظلام الانحراف عن قلبه ، ولوجد الآلهة التي تعبد من دون الله لا تملك شـيئا ، بل الله يملكها ومن يعبدها من دونه.

وينثـني السـياق ليهتف بالإنسـان قـائلا : ما دمت أنت الذي تعطي لهذه الآلهة الشرعية ، فلما ذا تخضع لها تـارة خـوف البطش ، وتسـتجيب لها أخـرى رغبة في الخـير؟! ولكن لا يستجيب لهذا الهتـاف المقـدس الا من هـدى الله قلبه للايمـان ، اما من غـرق في بحر الجحـود والكفر ، وتوغل في الضلالة والهوى ، فانه بالاضافة الى رفضه هذا النـداء ، يتهم القـرآن بالإفك والرسـول بـالافتراء ، وانما يأفك الإنسـان الـذي يفـتري على الله تكـذيبا وزورا ، من أجل لذة عابرة ، إذ لا يكذب كذّاب لغير مصلحة ورغبة.

أما الرسـول ذلك الإنسـان العظيم الـذي تجـرد عن رغباته وذاته ، فأصبح موضوعيا في كل شـيء لا يمكنه ان يختلق هذه الفرية الكبيرة ، ولمـاذا يختلقها وقد تجـرد عن المصلحة؟

وانه من السـخف ان يتهم أحد رسـول الله بالفرية والكذب ، فـان القـرآن لا يـولي اهتماما بالغا لتهمة هـؤلاء الرسول بذلك ، بل يمر عليها مرور الكرام ، واي مصلحة

له من ذلك وقد وهب حياته كلها وما يملك من أجل الناس؟!

وكــذلك لا يــولي اهتماما لمن اتهمــوا الرســول بأنه يقتبس هذا القرآن ليلا ، من مجموعة عبيد كــانوا في مكة بينهم عبد بن طحيّ «مـولى طحيّ» ، ورحب «مـولى عبد شمس» وأناس آخرين لم يكونوا يمـيزون الهر من الــبر ، لقصـور افكـارهم عن إنتـاج فكـري أقل من انتـاج إنسـان عادي ، فكيف بالقرآن العظيم الذي هو ضمير الحياة ، لان من خلق الحياة هو الذي بعث رسوله محمدا (ص) به؟!

إن القرآن حق لا ريب فيه ، وكلما توغل الإنســان في الحيـاة أكـثر ، وتـدبر في آيـات الـذكر أكـثر كلما اكتشف العلاقة الوثيقة بين السر الذي يكتشــفه عند ما يتوغل في الحياة ، والآخر الذي يعثر عليه عند ما يتـدبر في القـرآن ، وكلما نمى عقل الإنسان وزاد علمه ، وتكـاملت شخصـيته كلما كان أقرب الى فهم القرآن ومعرفة آياته الكريمة.

ويبقى الإنســـان هو المســـؤول عن تســـلط الآلهة ، وتلبّســـها بالقداسة المزيّفة ، وهي ليست أكـــثر من حجر يتحطم بضربة.

وصدق أبو ذر الغفاري (رضوان الله عليـه) حيث قـال عند ما رأى الثعلب ــ الثعلبـان ــ يبـول على رأس صـنم قبيلته :

أرب يبول الثعلبـان برأسه	لقد هـــان من بـــالت عليه الثعـــــــــــــــــــالب

﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً ﴾

إذا كـانوا لا يملكــون دفع الضر عن أنفســهم ، فكيف يستطيعون الحاق الضر بغيرهم؟!

انهم أعجز ، ولكن الثقافة الجاهلية هي الــتي تهــول الأصــنام وتعظيمها ، وهي الــتي ترمز للقــوى الاجتماعية الحاكمة حــتى اننا نقــرأ في التــاريخ : ان بعض القبائل العربية كانت تدخل الإسلام ولكنها ترفض تحطيم أصنامها بأيـديهم خشـية نـزول العـذاب عليهم ان هم كسـروا تلك الأحجـار الـتي صـنعتها أيـديهم ، وفي التـاريخ ان الرسـول (صــلى الله عليه وآلــه) قبل من ثقيف شــرطهم عليه الا يتولوا هم تكسـير أصـنامهم ، فـأمر بعض أصـحابه بـذلك ، وكانوا يزعمـون ان الجـدب والبلاء سـيحلان بهم لو أهـانوا تلك الأحجار الصماء بسبب كثافة الاعلام السـلطوي الـذي مارسه بحقهم المـترفون الـذين كـانوا يحكمـون البسـطاء باسم تلك الأصنام.

واليوم نـرى بعض الشـعوب تقـدس أصـناما بشـرية ، ويظنّون انهم مصدر الاستقرار والرخاء ، فمنهم من يقـول : «الله يعز الملـــك» أو «الله يعز الشـــيوخ» أو «الله ، المليك ، الــوطن» بــدلا من التوجه الى الله ، والــدعاء للمؤمــنين ، ثم من هو الملك ومن هو الــرئيس ومن هو الأمير حتى نعتقد انه أساس كل خير وبركة؟!

بلى. ان ســلبية النــاس هو انســحابهم من الســاحة السياســية ، وهي الــتي صــنعت الأجــواء المناســبة لنمو الانظمة الفاسدة ، وانتفاخ الطاغوت.

وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً

ولعــلّ المقصــود من الآلهة الــتي ذكرها القــرآن في قوله : «**وَاتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ آلِهَـةً**» الرمــوز الاجتماعية المعبــــودة من دون الله لا الأصــــنام الحجرية ، إذ ليس للصنم موت ولا حياة ، بل هما من طبيعة الإنسان.

والنشــــور هو البعث بعد المــــوت ، وكيف يعبد من لا يملك لنفسه ذلك؟

[4] **وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ**

آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً
من الناحية اللغوية الافك هو : الكذب ، والافتراء هو : اصطناع الكذب من غير أساس.
وكما هي العادة يسم الكفار الرسـول بهـذه الخصـال الرديئة ، ولا يكتفـون بـذلك بل يـدّعون اعانة مجموعة من مـوالي مكة للرسـول على هـذه الأمـور ، ولا يسـتمهلهم القـــــرآن دون ردّ ، بل يجيبهم : انكم جئتم ظلما وزورا ، ولعلّ الآية تشير الى ان الانحــراف هو وليد الظلم العملي والزور الفكري.
[5] **وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**
اتهمـوا الرسـول بأنه يتلقى القـرآن من جماعة تأتيه أول النهار وآخره ، ثم يطلع عليهم ليسميها وحيا نـازلا من عند الله ، ولا لشيء الا لتبرير الكفر والجحود بآيات الله ، إذ ان اعترافهم بـالقرآن والرسـول ـ انهما من عند الله ـ يكلفهم الكثير.
[6] **قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً**
لان الله عـالم السـرّ في السـماوات والأرض ولأنه غفـور رحيم ، يريد الغفـران لـذنوبنا ، والرحمة لنـا. لهـذا وذاك كشف لنا سر الحياة دون ان يجهـدنا في البحث عنه ، وكـان ذلك عـبر رسـوله محمد (ص) والصـالحين من أوليائه الـذين جعلهم نـورا وسـراجا منـيرا ، كي ينقـذوا الناس من الضلالة والضياع.
فكيف يكون من أساطير الأولين التي لا تكشف سـرا ولا تهب نورا؟!

وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (7) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9) تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّاعَةِ سَعِيراً (11) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12) وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (13) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14) قُلْ

أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (15) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (16)

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ

هدى من الآيات :

بعد أن ذكّرنا الرب بمن أنـزل الفرقـان ليهـدينا ــ كما يبدو لي ـ إلى المنهج القويم لمعرفة الكتـاب ، وللتصـديق به بعدئـذ. دحض تـبريرات الكـافرين بالرسـالة ، ولا يـزال يفندها السياق. الواحد تلو الآخر.

لقد قـالوا : كيف يبعث الله إلينا بشـرا رسـولا يحتـاج إلى الطعـام ، بل وإلى اكتسـاب المعيشة من الأسـواق ، فلو لا انزل إليه ملك ليكون معه نذيرا.

أو يستغني عن اكتساب رزقه بأن يلقى إليه كـنز أو لا أقل تكون له جنة يأكل منها.

وتطرف الظـالمون فقـالوا : ليس هـذا الـذين تتبعونه سوى رجل مسحور.

ويعالج القرآن هذه الأفكار المريضة :

أولا : بأن قياس الرسول بأنفسـهم وضـربهم الأمثـال له ، جعلهم يضلون السبيل. ولعلهم لو تجردوا عن الأحكام المسبقة لم يضلوا عنه.

ثانيا : إن القرآن نزل فعلا من عند الله تبارك خـيره ، وعظم فضـــله ، فلو شـــاء وقضت حكمته البالغة لجعل لرسوله خيرا من ذلك ، جنات تجري من تحتها الأنهار (في الآخـرة ، أو حـتى في الـدنيا عند ما جـرت ثـروات الأرض على أقـــوام تابعية بما لم يحلمـــوا به ، ولا تخيله أولئك الجاهلون الذين كفروا برسالته أول مرة).

ثالثا : إن سبب جحودهم إحساسهم بالأمن من عذاب الله ، فهم قد كذّبوا بالساعة ، ولقد أعدّ لهم الرب سـعيرا ملتهبا. يـدعوهم إلى نفسه من بعيد ، ويسـتقبلهم بالتغيظ والزفير.

إنه مكان ضيق. محلهم فيه كمحل الوتد في الحائط ، وهم مغلولـون ببعضـهم مع شـياطينهم ، وينـادون بالويل ، ويناديهم الملائكة : ألا أدعوا ويلا كثيرا.

ما قيمة الكـــنز والبســتان ، في مقابل قيمة الخلاص من نار جهنم؟! وأيضا قيمة الجنة التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ، لهم فيها ما يشاءون خالدين.

هكذا يعالج القرآن النظرة المادية اللامسؤولة بتـذكير النفس البشرية بعذاب الساعة ، وثواب الله في الجنة.

وهكـــذا ينسف العقبـــات ويزيلها عن طريق الإيمـــان بالفرقان.

بينات من الآيات :

المقاييس الخاطئة :

[7] لقد أراد الكفـار أن يكـون الرسـول الـذي بعث إليهم كأحد قياداتهم

المزيفة ، أو بـــالأحرى آلهتهم الـــتي تعبد من دون الله ، وبالتالي خاضعا للمقاييس الجاهلية لاختيـار القيـادة ، ومن أهم المقاييس التي كانوا يعتمدونها في تمييز القيادة :

1 ـ القوة البشرية (عدد التابعين والأصحاب).

2 ـ القوة الاقتصادية (الثروة والمال).

3 ـ السـيطرة السياسـية ، وعـادة ما تكـون نابعة من القوتين السابقتين.

وما دام الرســول لا يمتلك الجنــود المجنــدة حــتى يخضــعوا لقمعها ، ولا تلك الــثروة الــتي تســتعبدهم بها الطبقة الرأســمالية ، ولا تلك الأراضي الواســعة حــتى يحترموه كما يحترمون اقطاعييهم الكبار ، فهو لا يسـتحق ـ إذا ـ قيادتهم ، ولكنهم لم يعلمـوا أن هنـاك فرقا شاسـعا بين الرسول وقـادتهم الجـاهليين ، فقد ضـلوا السـبيل لمّا ضربوا له الأمثال.

وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَـهُ نَـذِيراً

فمن جانب يتعجبـون لان الرسـول (ص) يشـبههم في حياتهم ومعيشـتهم ، يأكل الطعـام ، ويبحث عن رزقه في الأسـواق ــ وكـأنهم كـانوا يريـدون له الاقامة في الـبروج العاجية ، وأن يجعل بينه وبينهم عشـــــرات الحجب ، كما يفعل الملـوك والسـلاطين ــ ومن جـانب آخر يتسـاءلون لماذا لم يـنزل معه مخلـوق غيـبي ، يتوعد كل من يعـرض عن دعوة الرسول ،

ولعلّنا نسـتوحي من قوله تعـالى «نـذيرا» عن لسـان الكفــار ، ولم يقولــوا «بشــيرا» انهم أرادوا أن يكـــون للرسول قوة قامعة تدعم الرسالة بإذلال الرقاب ، وكـانوا يريدونها قوة مادية يشاهدونها بأعينهم ، أما أن تكون قـوة الغيب الالهية هي السـند ، فهـذا ما لم تسـتوعبه عقـولهم التي لم تتحرر من قيد المفاهيم المادية.

[8] ﴿ أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُـونُ لَـهُ جَنَّةٌ يَأْكُـلُ مِنْها ﴾

وإذا لم تهبط عليه الـثروة بصــورة كــنز يلقى له من السماء ليجعله من طبقة الأثرياء ، فليكن عنده بستان يدر عليه من الدخل ما يغنيه عن الاكتساب لطعامه الخاص؟!

وقد أغفل هؤلاء بهذه التخرصات كرامة الإنسان التي هي فوق القوة والمال وما تغله الأرض من ثمرات.

﴿ وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْـحُوراً ﴾

وقد نسب القــرآن صــفة الظلم لهم دون الاكتفــاء بضمير يعود على ما تقدم ذكره لان لكلامهم جانبين :

الأول : المطالبة بحجة قاطعة على صـدق الرسـالة ، وقد يتصور لها جانب الموضوعية.

الثاني : اتهامهم الرسول بأنه رجل مسـحور. أي فاقد العقل والارادة الحقيقيين ، وهـذا ظلم في حق الرسـول ، ومن يـدعي بـاطلا مقابل الحق يتحـول من مجـرد منكر باللســان إلى محــارب بكل معــنى الكلمة ، وحين يــدعو شخص أحدا إلى فكرة فإمّا يرفض أو يقبل ، وامّا أن يعلن الحــرب ضــده ، ويتهمه بـالجنون ، فإنه الظلم ذاتــه؟ لأن عدم اقتناعه بالدعوة ـ لو افترضناه ـ لا يســمح له أن يمنع الناس من قبولها.

[9] عند ما بـدّل الكفـار المقـاييس ، ضـربوا الأمثـال لمقاييســـهم الخاطئة ، حيث أرادوا الرســـول قيــــادة كقياداتهم ، كي يستجيبوا له ، فطـالبوا بملك كرمز لقيـادة أصحاب القوة ، أو كـنز كرمز لقيـادة أصـحاب الـثروة ، أو جنّة كرمز لقيادة أصحاب

الأرض ، ولكن مــاذا كــانت تبعة هــذا الخطأ الفــادح؟ إنها الضلالة لا غير.

 انْظُـرْ كَيْـفَ ضَـرَبُوا لَـكَ الْأَمْثـالَ فَضَـلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً

وحينما قاسوا قيادة الرسول بالقوى المادية ، حرمــوا أنفســهم من فهم الحقيقة ، ولا ســبيل لهـدايتهم ما دامت الأفكار الجاهلية تستبد بعقولهم.

[10] **تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَـكَ خَيْـراً مِنْ ذلِــكَ جَنَّاتٍ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ وَيَجْعَــلْ لَــكَ قُصُوراً**

إذا شاء الله جعل للرسول جنــات وقصــورا ولكن أين كل ذلك؟

قــال بعض من المفســرين : ان المــراد من ذلك ــــ جنّات وقصــورا ــ في الـدنيا وذلك محتمل ، إلا أن الأفضل القــول : بــأن ربنا يــذكّر بــالآخرة ، فليست الــدنيا آخر المطاف بالنسبة للإنسان.

لهذا جاء الرد الالهي بأن الرسول كريم على الله وهو يحبه ، ولكنه لا يعطي له الـدنيا جـزاء لعمله ، لعـدم كونها في مستواه ، بما فيها من زخــرف وزينة ، وكـذلك يتعامل الله مع المؤمنين ، ويسند هذا الرأي قوله تعـالى مباشـرة بعد هذه الآية :

[11] **بَلْ كَـذَّبُوا بِالسَّـاعَةِ وَأَعْتَـدْنا لِمَنْ كَـذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً**

فهم انما اقتصروا في مقاييسهم على الدنيا لتكـذيبهم بالعالم الآخر ، وما جزاؤهم سوى السعير.

إن آيات الذكر تعالج الأمـراض النفسـية الـتي تصـيب القلب وتمنع عنه الرؤيـــــة. أرأيت من غــــرق في لجة ، وتكــاثفت عليه الأمــواج ، هل يقــدر على الاســتقرار ، أو السيطرة على نفسه. كذلك الذي تتقاذفه أمواج الشهوات ، وتعصف به عواصف

العداوة والغيظ.

فلكي يستقر هذا القلب الذي يتقلّب على كف الشهوة والغضب ، حتى يفكر بموضوعية ، ويستضيء بنور العقل المودع فيه ، ويعود إلى فطرته التي خلق عليها. لا بدّ له من مرساة يحفظ سفينته عن هيجان الأمواج. لا بد له من قوة تصونه من التقلبات.

وان الايمان بالساعة لهو تلك المرساة وانه لتلك القوة.

وان الايمان بالساعة يعطي النفس موضع استقرار ينطلق منه نحو تقييم سائر الأشياء ، انه يعطيه قوة ، لتتعالى بها عن أمواج الشهوة والعصبية. كيف؟

لنضرب مثلا : من لا يملك إلا دينارا واحدا وخشي عليه من السرقة ، يكون كل تفكيره في ديناره ، حتى يكاد ينظر إلى الدنيا كلها من خلالها ، أما من يملك مليون دينار غيره فهو يتغافل عن ذلك الدينار الواحد ، فحتى لو سرق منه فله ما يسليه عنه.

هكذا الذي يؤمن بالجنة. يتسلى عن شهوات الدنيا ، ويتغلب نفسيا عليها ، وبالتالي يقوى على مقاومة ضغوطها.

كذلك من يخشى النار ، فان قلبه يلهو عن مصيبات الدنيا. أو ليست هي حقيرة جدا إذا قيست بسعير جهنم؟!

وهكذا يسمو قلبه عن الحب والبغض ، وعن الشهوة والغضب ، عن العصبية والعداوة ، ويتعالى على الخوف والطمع ، فيرى الحقائق كما هي لا كما توحي به مصالحه الآنية.

كذلك الذين كفروا بالرسالة لأن الرسول لا يملك كنزا أو جنة يأكل منها ، أو

لم يـنزل معه ملك نـذيرا. إنما هم مرضى القلب ، ولا بدّ أن يستشـفعوا وشـفاؤهم في التـذكرة بالسـاعة. حيث تتضـاءل عنـدها ثـروة الـدنيا ومصـيباتها ، وعنـدها تتحـرر أفئدتهم من قيود الشهوات.

ومن هنا كـانت الآية هـذه والـتي نتلوها بيانا لسـبب كفرهم ، وأيضا شفاء لمرض كفرهم.

ويستمر السياق في وصف النار ليزداد القارئ تجـردا عن أغلال القلب ، وبالتـالي يـزداد إيمانا بالكتـاب. ذلك انّ القـرآن لا يجـادل الكفـار بالرسـالة فقط ، وانما هو يزيد ايمان المؤمـنين بها عـبر إنـذارهم بالسـاعة ، فكلّما وعـوا حقيقة العذاب كلّما أبصـروا بنـور قلـوبهم حقـائق الـوحي أوضح وأجلى.

صور من العذاب :

[12] ومن صـــــــفات جهنم انها تلتقط طعمتها من مسافة بعيدة لقـوة جـذبها ، فـاذا رأت أصـحابها مصـفدين بـالأغلال ، مستسـلمين لا يملكـون حراكا ولا هربا ، فانها تسـحبهم بلهيبها ، وفي الـوقت نفسه تسـتعر اسـتعارا شديدا وبصوت رهيب وهذا هو التغيظ. كل ذلك لاسـتقبال أعداء الله والرسالة ، و في الحديث الشـريف عن الامـام الصادق عليه السّلام

«**إن جهنم تدعو أصحابها من مسيرة سنة**» [1]

﴿ **إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكـانٍ بَعِيـدٍ سَـمِعُوا لَها تَغَيُّظـاً وَزَفِيراً** ﴾

وبالاضافة إلى ذلك فإنهم لا يدخلون جهنم دخولا عاديا ، وانما يهوون فيها لأنها موجودة في مكان سحيق.

(1) المصدر ص 7.

[13] ﴿ **وَإِذا أُلْقُـوا مِنْها مَكانـاً ضَـيِّقاً مُقَـرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً** ﴾

مقرنين : أي مصفدين بالاغلال ، والثبور : هو الهلاك.

وهنا تصـــور لنا الآية الكريمة أنواعا من العـــذاب في جهنم ، فبالاضافة للحريق هناك

1 ـ الإلقـاء من شـاهق : ويمكن للإنسـان أن يكـون قريبا ولو بعض الشــيء من تخيل ذلك ، لو تصــور شخصا يلقى من الطابق العاشر ليرتطم جسده برصـيف الشـارع ، فتسحق عظامه ، وإلا فان الإلقاء في جهنم يــوم القيامة لا يستوعبه عقل الإنسان المحدود ، إذ من بين من يلقـون من يهوي ألف عام حتى يصل إلى مقامه فيها.

2 ـ المكان الضيق : وفيه التعـذيب النفسي الشـديد ، إذ يجلب الكآبة والضجر لصاحبه ، و جاء في الحديث :

« **والذي نفسي بيده : انهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط** » [1]

3 ـ التصـفيد بـالاغلال : حيث معانـاة المصـير التعيس بثقل الأصفاد وفقدان القدرة على الحركة تماما.

4 ـ وينادي المكذبون بالويل والثبور ، لهول ما يرون ، فيأتيهم النداء الذي يزيدهم ألما لآلامهم.

[14] ﴿ **لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً** ﴾.

---

(1) المصدر ص 8.

لا تتلفظون بهذا الكلام مرة واحدة ، بل كرروه مـرارا ، ولن يجديكم ذلك نفعا لأنكم في العذاب خالدون.

[15] ﴿ **قُلْ أَذلِكَ خَيْـرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْـدِ الَّتِي وُعِـدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً** ﴾

أيهما أفضل الـدنيا بما فيها من ثمـرات وكنـوز. تعقبها النار والسعير ، أم جنة الخلد يسبقها العمل الصالح ، حيث النعيم المقيم والعز الدائم؟!

بـالطبع لو حكم الإنسـان عقله في هـذه المسـألة لأجاب الصـواب ، ولكن ذلك وحـده لا يكفيه لـدخول الجنة إلا بالعمل الصـالح في سـبيل الله ، لأنها للـذين يـأكلون الطعـام ، ويمشـون في الأسـواق ، غـير مسـتكبرين على الناس ، ولا مبتغين العز إلا من عند الله.

[16] ﴿ **لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِـدِينَ كـانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً** ﴾

لا أحد ينكر ما بلغت إليه مدنيّة اليـــــوم من التقنية والمنهجيّة والعلمية ، ولكنها تبقى عـاجزة أمـام طموحـات الإنسان ، فهي لم ولن تستطيع تحقيق كل ما يصـبو إليه ، ومن كان عاجزا عن أن يهب للإنسان الحياة بعد المـوت ، لهو أعجز على إعطائه الخلود.

إن أسمى ما يفكر الإنسان في الوصول إليه شيئان :

أ ـ أن يدرك ما يريد.

ب ـ الخلود وهو ما يسمى بغريزة حب البقاء.

ولا يمكن تحقيق هذه الطموحات في الدنيا بطبيعتها ، فلا بد أن يفكر الإنسان في

الدار الـتي يمكنه تحقيق طموحاته فيها ، وليست إلّا الـدار الآخـــرة ، وهـــذا وعد أكيد من الله للمتقين «**وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ**» «**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً**»؟

روي أن الفضل بن سهل وزير المأمون العباسي أراد تزويج المـأمون من ابنته «يـوران» وكـان مترفا ، وجنـدوا كل أمـــوال الدولة الاســلامية من أجل حفل الزفـــاف ، وكـذلك الطغـاة يصـرفون المليـارات من الـدولارات على حفلات زواجهم.

فصـــنعا ما صـــنعا ، ومن جملة ذلك صـــنعوا فراشا منسوجا بخيوط الذهب ، ومرصعا باللآلئ والجواهر ، وعند ما أراد الأب الأخذ بيد ابنته يســلمها إلى عريســها ـــ كما تقتضي التقاليد آنذاك ـ قال لها : يا بنيّتي هل قصــرت في حقك؟ وهل تريدين مني شـيئا آخر ، فقد أعـددت لك كـلّ ما تتمنى نفسك؟

قالت : لم تقصر في حقي ، ولكني أريد شيئا واحدا.

وما هو ذلك؟

أريد مسمارا ومطرقة أسمّر بهما الفلك حـتى يتوقف عن الدوران ، كي تبقى كلّ الليالي مثل هذه الليلة.

وأنى لي بذلك؟

قالت العروس : وما تنفع ليلة واحدة إذن؟

إن الإنسـان مهما أوتي من نعم الله في هـذه الـدنيا ، إلا أنه سيبقى قاصرا عن بلـوغ تطلعاته البعيـدة ، فلو فكر بعقله مليّا لأدرك الجنة هدفا لا الدنيا.

ج ـ كلما ازدادت النعم على الإنسان في الـدنيا ، كلما ازداد خوفه من زوالها.

ألا تــرى أنه كلما أوتي الإنســان خــيرا يــزداد بخلا؟ و في الحديث :

«ما فتح الله على رجل بابا من الـــدنيا إلا وفتح عليه من الحرص ضعفيه»

لأنه كلما ازدادت النعمة عليه. كلما ازداد حرصه عليها كي لا تـــزول ، وهو يعلم في قـــرارة نفسه انها زائلة لا محالة.

لذلك لا يمكن للإنســان أن يفـرح بـالنعم ، واحسـاس عميق بخوف الـزوال يسـاوره بين اللحظة والأخـرى ، أما أصحاب الجنة فهم خالدون فيها لا يبغون عنها حولا.

وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ وَما يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ فَيَقُـولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قالُوا سُبْحانَكَ ما كـانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِـذَ مِنْ دُونِـكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبـاءَهُمْ حَتَّى نَسُـوا الـذِّكْرَ وَكـانُوا قَوْمـاً بُـوراً (18) فَقَـدْ كَـذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُـونَ فَما تَسْـتَطِيعُونَ صَـرْفاً وَلا نَصْـراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْــهُ عَــذاباً كَبِــيراً (19) وَما أَرْسَــلْنا قَبْلَــكَ مِنَ الْمُرْسَـلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَـأْكُلُونَ الطَّعـامَ وَيَمْشُـونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْـبِرُونَ وَكـانَ رَبُّكَ بَصِيراً (20) وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُـونَ لِقاءَنا لَـوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ

---

18 [بورا] : البور الهلكى وهو جمع البائر.

أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَـوْا عُتُـوًّا كَبِـيراً (21) يَــوْمَ يَــرَوْنَ الْمَلائِكَــةَ لا بُشْــرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22) وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُــوا مِنْ عَمَــلٍ فَجَعَلْنــاهُ هَبــاءً مَنْثُــوراً (23) أَصْـحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْـرٌ مُسْـتَقَرًّا وَأَحْسَـنُ مَقِيلاً (24) وَيَـوْمَ تَشَـقَّقُ السَّـماءُ بِالْغَمـامِ وَنُـزِّلَ الْمَلائِكَـةُ تَنْزِيلاً (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلـرَّحْمنِ وَكـانَ يَوْمـاً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (26)

---

21 [وعتو عتوا] العتو هو الخروج الى أفحش الظلم.
23 [هباء منثورا] : والهباء هو الغبار يدخل الكوة من شعاع الشمس.
24 [مقيلا] : المقيل محل القيلولة.

وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً

هدى من الآيات :

لقد كفـروا بالرسـول ، وآمنـوا بـالجبت والطـاغوت ، وقـالوا : لـولا القي عليه كـنز؟! وتسـاءلوا : لمـاذا يأكل الطعـام ، ويمشي في الأسـواق ولكن هل ينفعهم الأنـداد شـيئا يـوم يحشـرهم الله وما عبـدوا ، فيتـبرءون منهم ويقولون : ﴿ **سُبْحانَكَ .. ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِـكَ مِنْ أَوْلِيـاءَ** ﴾ متعتهم ، ويـرون أنّ طـول متعتهم أنساهم الذكر ، فهلكوا.

إذا : غرورهم بقيم المادة ، وكفرهم بالرسول لأنه لم يلق اليه كنز أرداهم ، وجعلهم قوما بورا.

وهكـذا ينسف الـذكر الحكيم هـذه العقبة عن طريق الايمـان بـالوحي. ويقـول : ان سـنة الله في بعث الرسل مضت على أنهم يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، وأمر الله الناس باتبـاع واحد منهم ليفتنهم. فهل يصـبرون على طاعتـــه؟! والله من ورائهم يبصـــرهم ، وهو عليم رقيب.

ثم ينسف العقبة الأخـرى ، حيث قـالوا : لـولا أنـزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا ، فيقول : انه عتوّ كبير. فكيف يطالبون برؤية الملائكـة؟! فلا بشـرى يومئذ للمجـرمين إذ ينزل بهم عاقبهم العاجل في ذلك اليوم ، وتراهم يقولـون حجرا محجورا ــ اشـارة الى ذلهم واستسـلامهم ــ ويجعل الله أعمـالهم هبـاء منثـورا ، بينما أصـحاب الجنة خـير مستقرا في ذلك اليوم ، الـذي تشـقق السـماء بالغمـام ، وتـنزل الملائكة ، ويتجلى ملكـوت الله لكل شـخص ، وهو يوم عسير على الكافرين.

بينات من الآيات :

متعتهم حتّى نسوا الذكر :

[17] أهم عقبة تعـترض الايمـان بـالوحي هي اتخـاذ الأوليـــاء من دون اللـــه. ذلك أن الانتمـــاء الى الجبت أو الطـاغوت يجعل الإنسـان يتّكئ على الشـيء دون القيم ، ويعتمد على الباطل وليس الحق ، وبالتالي يضلّ السبيل.

ولأن يوم القيامة هو اليـوم الـذي تجلو فيه الحقـائق ، وتتوضح السـرايا ، فـان الحقيقة الـتي يبينها القـرآن هنا تكون اجلى حينذاك. إذ يتنصل كلّ من العابد والمعبـود كل من صاحبه ، وذلك عند ما يكتشـفون أنّ هـؤلاء الأوليـاء لا يملكـــون صـــرفا ولا نصـــرا ، وفي ذلك اليـــوم لا تنفعهم معرفتهم. وانما يكشف الذكر هذه الحقيقة لينسف أساس تـبريرهم الكفر بـأن الرسـول لا يملك كـنزا أو جنة ، وأنه ليس رجلا من القريتين عظيم.

ذلك ان أسـاس هـذه التـبرير هو الاتكـال على القيم المادية ، غافلين عن أنها تتلاشى ولا تغني عنهم شيئا يـوم يكونون بأشد الحاجة إليها في الآخرة ، بل حتى في الـدنيا إذا كشف عنها غطاء الغرور بدت خاوية زاهقة.

﴿ وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ وَما يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ

عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ

وهـذا السـؤال موجّه الى كل من يسـاهم في إضـلال الناس ، كالصحفي المأجور ، والسلطان الظالم ، وعلمــاء البلاط. ويبــدو أنّ الانتمــاء الى القيــادة الجاهية كــان من عوامل الكفر بالرسـول ، الـذي هو القائد الحق المطـروح على الساحة بديلا عن القيادات الضالّة ، ولذلك نبّه الـذكر الى ضرورة التخلص منها ، ومن الولاءات الجاهلية تمهيـدا للايمان بالوحي.

[18] **قالُوا سُبْحانَكَ**

أنت المسبّح والمقدس عن أيّ شريك.

 ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ

فنحن بدورنا عبيد لك أيضا ، فكيف نكون آلهة.

ثم بين الـــــذكر الحكيم العامل الحقيقي للشـــــرك والانتماءات الجاهلية ، فقال :

 وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ

أنت الذي فتنتهم بالنعم حتّى نسوا الذكر.

 وَكانُوا قَوْماً بُوراً

أي هالكين ، والاراضي البوار هي التي لا تصلح لشيء من الزراعة.

[19] إن الطغــاة المــؤلهين من دون الله ، يــدركون أنهم ليسوا آلهة.

 فَقَـدْ كَـذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُـونَ فَما تَسْـتَطِيعُونَ صَرْفاً

للعذاب عن أنفسهم أو عمن عبدوهم.
 وَلا نَصْراً
ولا ينصرونهم من دون الله.
 وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً
إذا لم يساهم الإنسان في تسخير النـاس لعبادته ، بل عبـدوه بجهلهم ، فليس عليه شـيء ، كـالنبي عيسى ابن مريم (ع) ، الذي اتخذه النصـارى إلها من دون الله ، بينما سيكون أول المتبرئين من عملهم يوم القيامة.
[20] ويواصل السـياق تزييف تـبريرات الكـافرين بالرسالة بعد نسف أساسها آنفا ، حيث يبطل هنا قولهم : كيف نتبع رسولا يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق.
أولا : بـان تلك سـنة الله الـتي مضت في الاوّلين ، إذ لم يبعث الله رسـولا الّا وهو يأكل الطعـام ، ويمشي في الأسواق.
وثانيا : بأنّ تلك وسيلة لامتحان الناس ، فهل يصبرون على الطاعة أم لا.
 وَما أَرْسَـلْنا قَبْلَـكَ مِنَ الْمُرْسَـلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ
فلم يكن الرسـول بـدعا ، وإنما جـاء خاتما لمسـيرة مباركة ممتدة.
والجـاهلون لم يسـتوعبوا هـذه السـنة لأحد الأسـباب التالية :
ألف : لجهلهم بواقع البشر ، وزعمهم : أن الإنسان لا يمكن ان يكون رسولا لرب العالمين ، كلّا .. الإنسان كريم عند ربه إذا عبده وأطاعه.

باء : لـزعمهم : انّ الرسـول ينبغي ان يكـون غنيّا أو مقتـدرا ، وقد نسف القـرآن آنفا أسـاس هـذه الفكـرة القائمة على تقديس المادة.

جيم : لجهلهم بحكمة الخلق ، حيث زعمـوا : ان الله يريد هـدايتهم حتما ، بينما الله شـاء بحكمته البالغة ان يهـديهم بطـوع إرادتهم ، وليس بصـورة حتمية ، وهكـذا امتحنهم بالرسول الذي هو منهم ، وأمـرهم بطاعته لينظر هل يصبرون.

 وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ

ومنهج القـرآن الكـريم هو بيـان الحكم عند بيـان ما يناسبها ، ولذلك تتسع آياته لتشمل ما وراء حدود السياق.

وهكذا نجد انّ هذه الحكمة البالغة تـذكر هنا بمناسـبة الحـديث عن الرسـول لتـبيّن لنا : أن طاعة الرسـول ، والمخالفة لهـوى النفس نـوع من الفتنة بالنسـبة الى الناس. ولكنّ الآية تعطينا أيضا بصيرة نافذة تكشف الكثير من اسرار الحياة. فالغني فتنة للفقـير الـذي قد يفكر في الكـذب أو الغش والسـرقة كي يصـبح مثله غنيا ، وكـذلك الغـني فتنة للفقـير ، فهو مبتلى به امـام الله ، اما بالبخل والربا أو بالغرور والتكبر.

جـاء رجل فقـير الى رسـول الله (ص) يوما ، وجلس على مقربة من رجل غـني ـ كـان قد سـبقه الى مجلس الرسول ـ فتنحى الغني بعد ان لملم ثيابه بطريقة تنم عن الاحتقـار ، فنظر الرسـول اليه وقـال : اخشـيت ان ينتقل غنـاك اليه أم فقـره إليـك؟ فقـام الغـني وقد أدرك سـوء عمله يقـول : اخطـأت يا رسـول الله .. اخطـأت .. ثم دار بوجهه الى ذلك الفقير وقال : اني أهب لك نصف مـالي ، فقـال الفقـير : أتريـدني ان أصـبح غنيا فأصـنع مثل ما صنعت؟ فأتكبر على الفقـراء؟ احفظ عليك مالك فـاني لا أريد غنى هذه نهايته.

هكـــذا كـــانت الحكمة من تفاضل النـــاس. ابتلاؤهم ببعضهم لمعرفة مدى صمودهم أمام اغراءات الدنيا.

 وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً

يحصي على الناس تصرفاتهم ، ويرصد سلوكهم تجـاه بعضــــــــهم ، وكيف لا والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

[21] الى هنا يكون السـياق القـرآني قد عـالج العقبة الاولى في طريق الايمان ، وهي النظرة الخاطئة للرسول ، لـــذا فانه ينتقل الى علاج العقبة الثانية وهي عقبة الكفر بالساعة.

عند ما يــؤمن الإنســان بفكــرة ما فانه يبحث عن اي شيء ليبرر هذا الايمان ، حتى ليمكننا تقسيم فكر الإنسان الى جانبين :

1 ـ جانب الاعتقاد : وهو الايمان بالفكرة ذاتها.

2 ـ جانب التبرير : وذلك للإبقاء على الاعتقاد.

وهذا التقسيم نجده ليس لدى الكفار بالحق فحسب ، بل حتى لدى المؤمـنين ، إذ لا بد ان يسـعى كلا الطـرفين ليبرر موقفه ، فـالتبرير له وجه ايجـابي وذلك إذا كـان من أجل الحق ، وله وجه ســـــلبي عند ما يكـــــون من أجل الباطل.

إنّ قسـما من النـاس يـبرر رفضه للرسـالة بأعـذار ، فيســأل : إذا كـان الله قد بعث رســولا ، فلما ذا لا يــنزل علينا الملائكة لتخبرنا بصدق الرسالة؟ أو يسـأل : عن الله لماذا لا نراه جهرة؟

 وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْـزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى

رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً)

استكبروا في أنفسهم حينما أراد كل واحد منهم ان يصبح رسولا تنزل عليه الملائكة ، وعتوا حينما طالبوا برؤية الله سبحانه وتعالى.

[22] إن الدنيا دار اختبار ، ولا يتم الاختبار من دون حريّة القرار ، وإذا ظهرت الملائكة فان ذلك إيذان بنهاية مرحلة الاختبار الى مرحلة الجزاء ، وآنئذ لا ينفعهم شيء.

** يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً **

ان الملائكة التي يطالب هؤلاء بمجيئهم مخلوقات جبّارة ، أصوات بعضهم كالرعد ونظراتهم كالبرق ، يستطيع أحدهم ان ينسف الأرض بمن فيها ومن عليها بنفخة واحدة ، إذا أوكل الله له ذلك.

وسيكتشف المجرمون مدى حماقتهم ، حين وضعوا شرط نزول الملائكة عليهم ، وسيعلمون كم أوقعهم عنادهم في الجهل ، عند ما يرون الملائكة ، وسيكون قولهم آنئذ «حجرا محجورا» أي يا ليت بيننا وبينهم حاجزا يحجبهم عنا ، فنتخلص من هول الموقف ، الذي لا طاقة لنا به. وكانت هذه الكلمة إيذانا بالتسليم عند العرب ، والطلب من العدو الا يضربه.

[23] ** وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً **

فالكدح الذي كدحوه في الدنيا ، للحصول على الثروة والجاه ، سيضيع من أيديهم ، ولن يجدوا غير الحسرة والندامة. لأنهم كانوا يعيشون ضيق الأفق ، فلم يحسبوا للآخرة حسابها. ولعل في الآية إشارة الى أنّ الأعمال الصالحة لا تنفع من

دون طاعة الرسول والقيادة الشرعية.

[24] أما ما يقدمه المؤمنـــــــون برســـــــالة الله ، المصــدقون لرســوله فــان الله عز وجل ســيحفظه لهم ، ويعيــده عليهم في صــورة ثــواب عظيم و جــزاء كــريم ، يدخلهم الجنة ، وسيكونون فيها صالحي البــال ، يشــعرون بالاستقرار والطمأنينة ، وينــامون مليء أعينهم ، كما ينــام الإنسان وقت القيلولة لا يزعجه ألم ولا يهدده خطر :

 أَصْـحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْـرٌ مُسْـتَقَرًّا وَأَحْسَـنُ مَقِيلاً

[25] **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ**

ربما يكون تفسير هـذا المقطع من الآية ، أن الســماء تنفطر وكأنها غمــــــام ، أو أن فيها غمــــــام ينكشف عن السماء. وكم هو مريع حين تنفطر هذه الســماء المترامية الأطــراف أمــام نــاظري هــذا الإنســان الضــعيف الــذي لا يتحمل أبسط الشدائد.

من جهة أخـــــرى : لقد جعل الله الســـــماء ســـــقفا محفوظا ، وجعل منظرها في النهـــــــار بهيا ، وفي الليل جميلا ، وجعل فـــؤاد البشر يطمئن إليها ، وانما يســـعى الإنسان للـدفاع عن نفسه عـبر وضع الحـواجز من حوله ، ولا يمكنه ان يحتــاط لنفسه عن الأخطــار الــتي تصــله من السماء. لذلك كان تشقق السماء ـ هذا السقف المحفوظ ـ أشد رهبة وأعظم.

والخطر لا ينزل بصورة عميــاء كالصــاعقة أو الشــهب المتســاقطة ، كلّا .. بل يتــنزل الملائكة الغلاظ الشــداد ، يأخــذون المجــرمين ويســلكونهم في الأغلال ويســحبونهم الى النار وساءت مصيرا.

 وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً

فئاة فئاة ، والمرة تلو الأخرى.

الخوف والرجاء :

[26] ﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ** ﴾

بـــــالرغم من أن الملك لله في كل حين ، وعلى كل حال ، الا أن ملكوت الله يتجلى بصــورة أظهر وأعظم في يوم القيامة ، وقد ذكرت الآيات بصـــفة الرحمة الإلهية في هــذا المــورد ، وليس بصــفة الغضب لتشــير الى انه في الــوقت الــذي تتجلى قــوة الــرب الــتي لا تحــدّ ، يعطينا السياق أملا في رحمته الواسـعة ، ولكن يحـذرنا أن نضـيع الفرصة ولا نستفيد من رحمته ، وكم يكون الإنسان شـقيا لو تــرك الاســتفادة من رحمة الله ، الــتي وســعت كل شيء؟!

﴿ **وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً** ﴾

حينما ينظر الإنسان الى رحمة الله يزداد أملا ورجاء ، الى حد قد يتصــور أن لا عــذاب عند الله ، وأنه ســيدخل الناس جميعا الى جنته الواسعة.

ولكن حينما يفكر البشر في معاصـيه ، ومخالفته لربّه ، يحس أن كل العــــذاب قليل بحقه ، لهــــذا نجد معادلة قرآنية تتجلى في قوله تعــالى : ﴿ **الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ لِلـرَّحْمنِ** ﴾ من جهة ، وفي قوله : ﴿ **وَكـانَ يَوْمـاً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً** ﴾ من جهة ثانية ، وهي معادلة التـوازن النفسي بين الرحمة والغضب ، اللــــذين يجب أن ينعكسا على سلوك الإنسان.

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُـولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَـذْتُ مَـعَ الرَّسُـولِ سَـبِيلاً (27) يا وَيْلَـتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِـذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (29) وَقالَ الرَّسُـولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَـذُوا هـذَا الْقُـرْآنَ مَهْجُـوراً (30) وَكَـذلِكَ جَعَلْنا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا مِنَ الْمُجْـرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِـيراً (31) وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْنـاهُ تَـرْتِيلاً (32) وَلا يَأْتُونَـكَ بِمَثَـلٍ إِلاَّ جِئْنـاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (33)

---

28 [خليلا] : الخليل هو الصديق.

كذلك لنثبت به فؤادك

هدى من الآيات :

في جو تشــقق الســماء ، وتــنزل الملائكة ، وتجلّى ملكوت الرب الرحمن ـ الذي مرّ آنفا ـ يعالج هـذا الـدرس صـداقات السـوء الـتي تنفصم عروتها يـوم القيامة حـتى يقـول الظـالم : يا ليتـني لم أتخذ فلانا خليلا ، ويشـتد به النّـدم حـتى تـراه لا يكتفي بعض سـبابته ، بل يعض على يديه ، ويقول : «**يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً**».

إن صديق السوء يضل صاحبه ويبعده عن الـذكر ، ثم يتركه لشـأنه كما يفعل الشـيطان. حيث يخـذل من اتبعه في ساعة العسرة.

ويجيء الرسـول شـاهدا على قومه الـذين هجـروا القرآن ، فلم يؤمنوا به ، أو لم يعملـوا به بعد ان تظـاهروا بالايمان.

ويسدل السـياق السـتار على مشـهد القيامة المهيب. بعد ان يهـــدم بنيـــان النظم الجاهلية للمجتمـــع. حيث الولاءات الجاهلية الـتي لا تنفع ولا تضر ، وحيث صـداقات السوء الـتي تضل عن السـبيل ، ويختم كل ذلك ببيـان انّ لكل رسول عدوا

من طغاة الجاهلية ، ومجرمي المجتمع.

ثم يواصل القرآن ردّ شبهات الجاحدين للرسالة حيث قـالوا : ﴿ لَـوْ لا نُـزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنُ جُمْلَـةً واحِـدَةً ﴾ ، ويرده : بأنّ التنزيل المتدرج اثبت لفؤاد الرسول ، وأوضح في البيـــان ، وأبلغ في معارضة ثقافة الجاهلية بـــالحق المبين.

بينات من الآيات :

[27] النـــاس في الـــدنيا محكومـــون بالضـــغوط الاجتماعية الـتي تـدعو الكثـير منهم الى تـرك الرسـالة الالهية.

إن الشـيطان يـدعو الإنسـان الى الانحـراف ، ويعـده بالنصر ، ثم يكـــون أول المتـــبرئين منه ، حينما يواجه مصيره وعاقبة امره ، ولكن من هو الشيطان؟

إن للشـيطان صـورتين ، فتـارة يتجسّـد في القـوى الخفية التي تضلّنا عن الحق ، وأخرى في القوى الظـاهرة وبصـورة مختلفة ، فقد يكـون صـديقا يدغـدغ فينا الآمـال والشـهوات ، وقد يكـون المجتمع الـذي يضـغط باتجـاه التقاليد والعـادات المنحرفة ، وربما يكـون السـلطان الحاكم ، أو الاعلام المضلل ، و .. و ... إلخ ، وهؤلاء جميعا يتبرءون من البشر يوم القيامة.

﴿ وَيَـوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْـهِ يَقُـولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾

حينما يرى الظالم أن الجنّة والنار بيد الله ـ سبحانه ـ وأن الطاعة أو العصـيان للرسـول هما المقيـاس عنـده لـدخول أحـدهما ، فانه ينـدم على ما فـرّط في جنب الله ورسالته ، ويتمنّى لو كان متّبعا للرسول ، وسبيله الحق.

[28] ﴿ **يا وَيْلَتى** ﴾

يدعو على نفسه متندّما.

﴿ **لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً** ﴾

الذي أضله من صديق سوء أو سلطان جائر أو ضرب شـــيطاني ، ولكن مـــاذا ينفعه كل أولئك ، وقد ضل بما زخـرف له هـؤلاء الأخلّاء ، فـترك رسـالة الله سـبحانه ، وعليه إن أراد أن يتخلص من النار ، ويزحزح الى الجنة أن يتخلص من الولاءات الشيطانية في الـدنيا ، ويخلص ولاءه لله ولمن أمر الله.

[29] ﴿ **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي** ﴾

وكثـير أولئك الـذين يتّبعـون أصـدقاء السـوء الـذين يضلّون الناس عن ذكر الله بدعوتهم للمعاصي ، ويبـدو أن مشكلة أصدقاء السوء الهـاء الإنسـان عن ذكر الله ببعض التوافه ، ولذلك ينبغي أن يبتعد المؤمن عن مجـالس اللهو واللغو وحفلات البطّالين ويأوي الى روضات الجنـات .. ألا وهي مجالس العلماء ، وحلقات الـذكر ، ومـدارس العلم ، وجلسات العمل في سبيل الله.

وهذا الشيطان الذي يدعوك للمعصية هو الذي يخذلك في ساعة العسرة ، ويتـبرأ منك بحجّة انه يخـاف الله رب العـالمين ، وقد ورد في الحـديث أن الشـيطان يتفل ـ يبصق ـ في وجوه تابعيه يوم القيامة.

﴿ **وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً** ﴾

لكي لا يكون الرسول خصيمنا :

[30] لكي لا يكون الشفيع خصـيمنا ، ولا يشـهد علينا سيدنا وإمامنا الذي هو

أرحم خلق الله بعبـاد اللـه. لا بد ان نعيش ريـاض القـرآن فنتخذه أنيسا في الوحدة ، حاكما في التجمع ، قاضـيا عند الخلاف ، إماما للمسيرة ، هاديا لدى تواتر الفتن. فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (عليه السّلام) عن آبائه عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أنه قال :

«إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بـــالقرآن ، فانه شـــافع مشـــفّع ، وما حل مصـــدّق ، ومن جعله أمامه قـــاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، وهو الـدليل يـدلّ على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل ، وبيان وتحصيل» [1]

﴿ وَقالَ الرَّسُـولُ يا رَبِّ إِنَّ قَـوْمِي اتَّخَـذُوا هـذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾

الرسـول يقاضي أمته يـوم القيامة عند ربّه إذا تركـوا العمل بالقرآن.

هكذا تدل الآية ، وبهذا جـاءت السـنة الشـريفة ، فقد روى الامام الباقر (عليه السّلام) عن جدّه الرسول (صـلّى الله عليه وآله وسلم) أنه قال :

«أنا أول وافد على العزيز الجبّـار يـوم القيامة ، وكتابه ، وأهل بيتي ، ثم أمتي ، ثم أسـألهم ما فعله (فعلوه) بكتاب الله وبأهل بيتي» [2]

دعنا نتسائل اليـوم ـ وقبل ضـياع الفرصة ـ هل نحن نؤدي حق القرآن علينا.

كيف لو جاء الرسـول يـوم القيـام ليشـهد في قومـه. هل يشهد لنا أم علينا.

حقا نخشى ان يشهد علينا ، فأين معارف القرآن إذن في ثقافتنا؟! واين

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج 4 / ص 13.
(2) المصدر.

التعاليم الخلقية في سـلوكنا؟! واين احكامه في سياسـتنا وقضائنا ، وقوانين بلادنا؟! فهل نحن مسلمون قرآنيـون؟! وما الفرق بين من لا يؤمن بالقرآن ، ومن يهجره هجرا؟!

ان قلب المـؤمن يكـاد يتصـدع إذا اسـتمع الى النـبي وأهل بيته (عليه وعليهم صلوات الرب) وهم يؤكدون عليه الوصية بالقرآن ـ أقول يكاد يتصـدع قلبه خشـية الا يكـون قد ادى حق كتاب ربه ـ.

قال رسول الله (ص) :

«**القرآن هدى من الضلالة ، وتبيـان من العمى ، واستقالة من العثرة ، ونور من الظلمة ، وضياء من الأحـداث ، وعصـمة من الهلكة ، ورشد من الغواية ، وبيان من الفتن ، وبلاغ من الدنيا في الآخرة ، وفيه كمـال دينكم ، وما عـدل أحد من القـرآن الا الى النار**» [1]

و قال الامام الصادق عليه السّلام :

«**القرآن : القرآن!**

إنّ الآية من القـرآن والسـورة لتجيء يـوم القيامة حـتى تصـور ألف درجة (يعـني في الجنـة) فتقول : لو حفظتني بلغت بك هاهنا» [2]

فهل نعود الى القرآن ، ونبلغ تلك الدرجات العلى في الجنة ، والنجاح والسعادة في الـدنيا؟ نرجو ان يوفقنا الله لذلك.

---

(1) المصدر / ص 14.
(2) المصدر.

[31] في الآيات الماضية حديث عن القيادة المضـادة للرسول في المجتمع ، والتي هي من أسباب ابتعاد الناس عن القيم الرسـالية ، المتمثلة في الـوحي الالهي ، والآن تصرح هذه الآية بذلك مؤكدة بأن هذه سنة الهية أن يكون للحق سنام هو القيادة الرسالية ، وأن للباطل سـنام أيضا هي قيادة الباطل ، والإنسان بين هـذه وتلك يختـار طريقه بنفسه.

 وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

كما أن الله سـنة في خلقه أن يبعث رسلا يحملـون مسئولية الهداية للبشر ، أو مصلحين على رأس كل قـرن وفي كل قرية ، فـان له سـنة في قبالتها أن يجعل في مقابل كل قيـادة حق قيـادة باطل ، تسـتقطب سـلبيات الناس ضد القيـادة الرسـالية ، وهـذه هي الـتي يتـبرأ منها الناس يوم القيامة قائلين : ليتنا لم نتخذ فلانا خليلا.

فهنا نظام وهنالك نظـام. هنا تجمع وهنالك تجمـع. هنا انتماء وهنالك انتماء ، وعلينا أن نختار خطّنا بوعي.

هكذا كان مع إبـراهيم نمـرود ، ومع موسى فرعـون ، ومع نبينا الأكرم طغاة قريش.

 وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً

إن في الحيـاة خطين متناقضـين هما خط الحق ، وخط الباطل وحتى لا يشـتبه البشر فيضـلوا الطريق ، ثم يقولوا : يا ربنا إننا لم نعرف قيادة الحق من قيادة الباطل ، فقد تكفل ربنا ببيان صفات كل منهما عبر وحيه الذي لو اتبعنـاه لاهتـدينا الى الحق ، ولانتصـرنا على الباطل بعونه تعالى.

حكمة التنزيل المتدرج :

[32] ﴿ **وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ لا نُـزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً** ﴾

بعد أن فشلت كل تبريراتهم قالوا : نحن لا نـؤمن لان القـرآن لم يـنزل جملة واحـدة ، وذلك دليل على ضـعف الرسـول ، فلو كـان من عند الله لما أعجـزه أن يبعث به دفعة واحدة ، لأنهم كانوا يجهلون خلفيات التنجيم. فلما ذا جاء القرآن منجما؟

1 ـ إن القـرآن ليس كتابا عاديا كـأي كتـاب ، بل هو كتاب حياة ، ينبغي أن يصـنع جيلا من المتمسـكين به ، ولا يمكن ذلك الا إذا ترسخت أفكاره وآياته في نفوس الناس ، ونجد اشارة الى الجيل القـرآني في الآيـات الأخـيرة من هذه السورة حين ذكرت صفات عباد الرحمن.

والتنزيل المتدرج هو الـذي صـاغ الجيل الرسـالي في الرعيل الاول من المسلمين ، إذ كان المسلمون يصوغون حياتهم وفق كل آية تنزل عليهم ، لتأتي الآية الثانية مكملة لسابقتها ، ولتضـيف تكـاملا جديـدا في شخصـيتهم ، إذ لم يكونـوا قـادرين على صـياغة شخصـيتهم وفق المنهـاج القرآني دفعة واحدة ، ولم يكن الله يريد للقرآن أن يكون تراثا فكريا وعلميا ، بل منهجا عمليا لحياة الناس.

ويهـدينا ذلك الى ضـرورة أن يطبق كل من المجتمع والفرد القرآن على نفسه كلما اسـتطاع الى ذلك سـبيلا ، وتشـــير الى ذلك الآية الكريمة «**فَـــاتَّقُوا اللـــــهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» حيث يجب تطـبيق الميسـور من الآيـات الآن تمهيدا لتنفيذ غيرها في المستقبل ، ويوحي الى ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُـوا راعِنا وَقُولُـوا انْظُرْنا** ﴾ على تفسـير مضى : ان معـنى النظر ـ هنا ـ الانتظار لوقت الإمكان.

ويبدو أن هذه من أعظم القواعد التربوية في الإسلام ، ولا ريب أن ذلك لا

يرتبط بالواجبــات الدينية كالصــلاة والصــوم ، انما تختص بدرجات المعارف الالهية أو المراتب العالية من الطاعات.

وفي هذه الأمور يتثبّت الإنسان من خلال القــرآن عند ما يرتله على نفسه ، كما رتل الله كتابه على نبيه ليثبت فؤاده.

2 ـ إن في ذلك بيانا لعظمة القـرآن وانه من عند الله ، فمع أنه نـــزل على امتـــداد (23) عاما وفي ظـــروف مختلفة. الا أن ما تهـدي اليه الآية الاولى وما تنطلق منه ، هو عين ما تهـــدي اليه وتنطلق منه كل الآيـــات ، لان الله الــذي أنزله صـاغه على نمط ومنهج واحد ، لا اختلاف فيه ولا تناقض.

ومع أن مراحل الدعوة قد اختلفت في حياة الرسـول (ص) حيث انتقل من مكة الى المدينة ، والتي تختلف فيها الظــروف والمشــاكل الاجتماعية الا أن ذلك لم يخلف ولا أثرا بسيطا على واقع القرآن روحا ومنهجا.

إن من المستشــرقين ممن لا يــؤمن بــالوحي حــاول ربط الآيات بالاوضاع الاجتماعية التي مرت بها الأمة آنذاك ، فجمعــوا الآيــات حسب نزولها ، فســورة العلق تســبق سورة الحمد ، فلما لم يكن مرتبا بشكل جيد. عرفــوا بأنه من عند الله. حيث ان بعض الآيات من بعض السور تــنزل في مكة ، وبعضها الآخر في المدينة المنورة ، بينهما فترة زمنية ليست بالقليلة. تتخللها آيـات من ســور أخر ، ولكننا نجدهما في غاية التناسق ، والوحدة الموضوعية. بحيث لو أضــفنا كلمة زائــدة الى الســياق أو حــذفنا كلمة لاختلف السياق اختلافا كبـيرا ، بل لا يمكن ذلك حـتى مع الحفـاظ على ذات الكلمات القرآنية مع التقديم والتأخير.

وكلما تـــدبر البشر أكـــثر في القـــرآن الحكيم ، كلما ازداد يقينا بأنه من عند الله ، إذ يستحيل على الإنســان أن يجد ترابطا وثيقا بين كلام ينطقه الآن وكلام نطقه منذ

عشرين عاما. من يحث المحتوى ونضوج الأفكـار ، وحـتى في الأدب والصياغة ، وقد قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْـرِ اللـهِ لَوَجَـدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً** ﴾.

هذا إذا ما تركنا الروايات والأحاديث الـتي تحـدثنا عن أسباب الـنزول جانبا لأن أكثرها لا تـرقى الى درجة اليقين العلمي.

3 ـ لتثـبيت قيـادة الرسـول في المجتمـع. حيث يعـود النـــاس اليه ، وينتظـــرون منه حلّا ورأيا كلما مـــرت بهم حادثة.

﴿ **كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ** ﴾

ونجعلك تصيغ شخصيتك وفق آياته.

﴿ **وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً** ﴾

آية آية ، ومقطعا مقطعا ، حـتى يصـير واضـحا غـير مختلط ببعضه ، لكي يـــدخل في ضـــمير المجتمع ، ويمتد عبر الأجيال في التاريخ.

وينبغي أن نتلوا القـرآن ـ إذا تلونـاه ـ بتـدبر ، ونرتله بتأمل ، ونستضـــيء بهديه في ظلمـــات حياتنا ، ونســـلط اشعته الكاشفة على كل زاوية مظلمة.

يقول الحـديث الشـريف المـروي عن النـبي (ص) انه قال لابن عباس :

يا ابن عباس إذا قرأت القرآن فرتّله ترتيلا

قال : وما الترتيل؟ قال :

«**بيّنه تبيانا ، ولا تنثره نثر الرمل ، ولا تهـذّه هـذّ الشعر ، فقفوا عند عجائبه** ،

و حركــوا به القلــوب ، ولا يكــون هم أحــدكم آخر السورة» [1].

ونحن نرى أن القرآن نزل مرتين :

هبط به الــروح الأمين جملة واحــدة على قلب النــبيّ الامي (ص) في ليلة القدر ، حيث قال ربنا ســبحانه : «**إِنَّا أَنْزَلْنـاهُ فِي لَيْلَـةٍ مُبارَكَـةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْـذِرِينَ**» [2] وقـال : «**إِنَّا أَنْزَلْنـاهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ**» [3] هكـذا نـزل القــرآن حسب الحاجة الاجتماعية ، ثم نزل مفرّقا حسب الظروف والمناسبات ، حيث كان سبحانه يأمر رسوله بــأن يتلو كل آية في مناسـبتها ، وربما تـدل على ذلك الآية الكريمة : ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَـهُ وَقُرْآنَـهُ** ﴾.

[33] ربنا الــرحمن شـافي بـالقرآن امـراض المجتمع البشــري المتمثلة في الثقافـات الجاهليـة. فكلما طـرحت فكرة جاهلية غامضة جاء الوحي بالحق المبين.

﴿ **وَلا يَأْتُونَـكَ بِمَثَـلٍ إِلَّا جِئْنـاكَ بِـالْحَقِّ وَأَحْسَـنَ تَفْسِيراً** ﴾

ما هو المثل؟

يبـــــدو ان كل مجموعة فكرية يعــــبر عنها بمثل (أو حسب تعبيرنا اليــوم بشـعار) والامثلة عند النـاس تخـتزل حشـدا متناسـقا من الأفكـار ، وتعـبر عن سلسـلة فكرية متشابكة.

ولتوضيح ذلك دعنا نضرب مثلا :

ألف : العشـائرية نهج اجتمـاعي ، وقيمة فكرية كـان شعارها «انصر أخاك ظالما

---

(1) المصدر / ص 15.
(2) الدخان / 3.
(3) القدر / 1.

أو مظلومـــــــا» أو «أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وأخي وابن عمي ضد عدوي».

ولكن القـرآن يقـول : «**كُونُـوا قَـوَّامِينَ بِالْقِسْـطِ شُـــــهَداءَ لِلَّهِ وَلَـــوْ عَلى أَنْفُسِـــكُمْ أَوِ الْوالِـــدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**» [1] ان هذا هو الحق يواجه ذلك المثل الشائع.

بـــاء : القومية إطـــار سياسي يعـــبر عنه المثل ينفيه القرآن بقوله : «**ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَـرَبِيٌّ**» [2] وتقابلها العالمية الاسلامية التي يقـول عنها الـرب : «**إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**».

جيم : وهكـذا عبـادة الأصـنام منهج سياسي عـبر عنه قـــريش بشـــعارهم في يـــوم أحد : اعل هبل ، وقابلها الرسول بالحق حيث قال : الله أعلى وأجل.

وهكـذا في سـائر الحقـول جـاء الـوحي منجما لكي يواجه الثقافات الجاهلية مثلا بمثل أحسن ، وفكـرة باطلة بحق واضح ذا تفسير حسن بليغ.

---

(1) النساء / 135.
(2) فصّلت / 44.

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَـرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَـبِيلاً (34) وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسَـى الْكِتـابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا فَـدَمَّرْناهُمْ تَـدْمِيراً (36) وَقَوْمَ نُـوحٍ لَمَّا كَـذَّبُوا الرُّسُـلَ أَغْرَقْنـاهُمْ وَجَعَلْنـاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (37) وَعـاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِـكَ كَثِـيراً (38) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثـالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِـيراً (39) وَلَقَـدْ أَتَـوْا عَلَى الْقَرْيَـةِ الَّتِي أُمْطِـرَتْ مَطَـرَ السَّـوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كـانُوا لا يَرْجُـونَ نُشُـوراً (40) وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِـذُونَكَ إِلاَّ هُـزُواً أَهـذَا الَّذِي بَعَثَ اللـهُ رَسُولاً (41) إِنْ كادَ

---

40 [نشورا] : من النشر وهو الحياة بعد الموت (البعث).

لَيُضِــلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَــوْ لا أَنْ صَــبَرْنا عَلَيْها وَسَــوْفَ يَعْلَمُـونَ حِينَ يَـرَوْنَ الْعَـذابَ مَنْ أَضَـلُّ سَـبِيلاً (42) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْــهِ وَكِيلاً (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْـمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُـونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ

هدى من الآيات :

لا يـزال السـياق ينسف عن طريق الإيمـان بـالوحي العقبـات الـتي يضـعها الشـيطان ، وذلك بالإنـذار الشـديد بعاقبة المكـذّبين ، وضـرب الأمثـال من واقع الغـابرين ، ويهـدينا الـذكر هنا إلى أنّ واقع الإنسـان الـذي لا يتمسّـك بالوحي في الدنيا يشبه واقعه الذي يتجسّد له في الآخـرة ، فهو يمشي ووجهه إلى الأرض لا يبصر الطريق ، فـإن وقف وقف موقف شرّ ، وإن سار كان طريقه ضلالا.

ويؤكّد القـرآن أنّ من لا يـؤمن بـالوحي ولا يتمسّـك بالرسـالة ، ليس فقط لا يحقّق تطلّعاته ، بل ويفقد بالإضافة إلى ذلك نعم الله عليه من عقل وعلم.

إنّ الله منح البشر قـدرا من العقل والعلم ، لو استثمره عن طريق تمسّـكه بـالوحي الـذي يثـير في قلبه دفـائن العقل ، لازداد عقلا وعلما ، ولكن إذا رفض الرسـالة فإنّه يفقد العقل ، حيث يسـلبه الله ما أوتي ، فيمشي مكبّا على وجهه يتخبّط خبط عشواء ، كالأنعام بل أضلّ سبيلا.

وبعـدها ينـذر القـرآن من يسـمعه دون أن يتّعظـوا بمصير السابقين كقوم نوح وعاد ، وثمود وآل فرعون ، إذ كـذّب آل فرعـون موسى وأخـاه فـدمرهم ، لأنّهم لا يعـترفون بشـرعيّة القيم ، فلا يشـكّل البشر بما يملكـون من قـوى وطاقـات وأسـماء وشـعارات وزنا عند الله لـولا القيم ، لأنّ الأهم لديه هو الإيمان والعمل الصـالح ، وتفقد كلّ أمّة مبرّر وجودها عند ما تفقد هـذين الأساسـين ، وما تـدمير الله لأصحاب الـرّسّ إلّا لأنهم أمّة كفـرت بـالحقّ ، وهذه سنّته في الحياة.

ومن النـاس من أشـرب قلبه حبّ الـدنيا ، ويتجاهل قيمة العلم والتقـوى ، وينظر إلى رسـول ربّه من منطلق قيمه المادية ، فهو يكفر بالرسـالة قـائلا : ﴿ **أَهـذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً** ﴾؟! ويرى أنّ صبره أمام تأثير الرسـالة فضـيلة ، ولا يتـذكر أن كفـره بها يكلّفه كثـيرا ، لأنّه يرديه إلى مهوى الضلالة.

ولكنّ منطلق هذه النظرة الخاطئة إلى الرسول ومن ثمّ الوحي نابع من عبـادة الهـوى ، فيدعه الرسـول لشـأنه لأنّه ليس وكيلا عنه ، ولأنه أفقد نفسه نعمة العلم والعقل ، فهو أضلّ سبيلا من الأنعام والبهائم.

هكذا يبيّن القرآن هنا الحقائق التي تمسّ الوحي :

أولا : الـذي يكفر بـالوحي يكفر بـالنور ، فهو يمشي على وجهه.

ثانيا : إنّ نهايته سـتكون كما الـذين كفـروا من قبل فدمّرهم الله في الدنيا ، وأعدّ لهم عذابا أليما في الآخرة.

ثالثا : من استهزأ بالرسول فكفر لـذلك برسـالته فقد اختار الضلال ، وأضحى كالأنعام وأضل سبيلا.

بينات من الآيات :

[34] إن الله يسـلب العقـول والأبصـار من الـذين يكفرون بالقرآن في الدار الدنيا

بصـورة معنوية ، أما في الآخـرة فـإنهم يفقـدون كل ذلك بالصورتين المعنوية والظاهرية ، فاذا بهم يمشـون مكـبين على وجوههم.

 الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ

قال بعض المفسرين : أنهم يمشون بعكس الآخرين ، فتكون رؤوسهم إلى الأرض. وأرجلهم إلى السماء ، ولعـلّ التفســـير الأحسن للآية : انهم لا يـــرون أمـــامهم ، فهم مكبون على وجوههم.

 أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً

إذا توقفوا.

 وَأَضَلُّ سَبِيلاً

إذا تحركوا وسـاروا ، ويبـدو أن الآيـات التالية شـواهد تاريخيّة على حقيقة هــؤلاء ، ولعــلّ هــذه الكلمة لا تخص الآخرة بل تشمل الدنيا أيضا ، فإنّ للكفـار بـالوحي عقـبى الشرّ في الدنيا كما في الآخرة.

[35 ـ 36] ثم تتعرض الآيات إلى قصة قـوم فرعـون الـذين كـذبوا موسى (ع) كمثـال على عاقبة السـوء الـتي تنتظر المكذبين بالرسالات ، ويلاحظ الاختصار الشديد في القصة ، وذلك من أجل الاعتبار بالنهاية. إذ هي الهدف من بيان هذه القصص هنا.

 وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسَـى الْكِتـابَ وَجَعَلْنا مَعَـهُ أَخـاهُ هارُونَ وَزِيـراً* فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً

ويـوحي هـذا التصـوير القـرآني البليغ بفكـرة هامة ، وهي أن المقياس عند الله هو

الايمان بآياته ، أما السلطة والثروة وغيرهما فلا قيمة لكل ذلك عنده تعالى.

[37] وتســتمر الآيــات تضــرب لنا الأمثــال من واقع الذين هلكوا بكفرهم ، وكيف أنهم دمّـروا بسـبب تكـذيبهم لرسل الله وآياته. أو ليس خلق الله الخلق لعبادته؟! بلى. إذن فاذا كذّبوا بالوحي فقدوا مبرر وجودهم ، فلا ضـير أن يهلكهم الله.

 وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ

بالطوفان.

 وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً

علامة وشــاهدا على مصــير المكــذبين برسل الله ورسالاته.

 وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً

ويبين هذا الشـطر من الآية أن العـذاب لا ينحصر في الماضــين فقط ، بل يطــال كل من يســير في خطهم ، وذلك حتى لا نتصـور أنفسـنا فـوق سـنن الله ، أو قـادرين على الفرار منها.

ولكن لمـاذا يقـول القـرآن عـذابا أليما وليس عظيما مثلا؟

ربما لان الذي يكذب بآيـات الله بهـدف التمتع بحـرام الدنيا ومن يفعل ذلك لا بد وأن يؤلم بالعذاب في الآخرة ، وهذه الفكرة تتجلى في مواقع كثـيرة من القـرآن ، فغالبا ما يتطرق الذكر للعـذاب الأليم بعد اسـتعراض لـذة حـرام مباشــرة ، ليــبين ان الله يــؤلم الإنســان في مقابل تلك اللذة.

[38] ﴿ **وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِ** ﴾

الرّس : تعني البئر ، وأصحاب الرّس قوم كانت لهم بئر يعيشون عليها ، فأنذرهم رسولهم ، فلم يؤمنوا ، فهدم الله عليهم بئرهم وأهلكهم ومواشيهم.

ويظهر من حديث مفصّل يرويه الامام الرضا (ع) عمّن سأل جدّه الإمام علي (ع) ونختصره هنا :

إنّ أصحاب الرّس كانوا يعبدون اثنتي عشرة شجرة صنوبر ، سمّوا أشهر العام باسمها (وهي الأسماء الفارسية المتداولة للأشهر) وزعموا أن نوحا (ع) قد زرعها ، وأنهم حرّموا على أنفسهم مياه نهر لهم ، وجعلوها خاصة بتلك الأشجار المقدسة في زعمهم!

وإن الله بعث إليهم نبيّا من بني إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب ، فدعاهم إلى التوحيد فرفضوا ، فدعا ربّه أن يهلك معبودهم فيبست كبري الأشجار ، فزعموا أنّها غضبت عليهم لدعوة الرسول بنبذها ، وقالوا : دعنا ندفن نبيّنا تحتها حيا فلعلّها ترضى ، فحفروا حفيرة في وسط النهر ، وألقوا نبيّهم فيها ، ووضعوا عليها حجرا كبيرا ، فغضب الله عليهم وعمّهم بعذاب شديد ، حيث هبّت عليهم ريح عاصف ، شديدة الحمرة ، ثمّ صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد ، وأظلّتهم سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبة جمرا يلتهب ، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص [1]

ويبين حديث آخر أنّ من أفعالهم القبيحة فعل السحاق ، وهو الشذوذ الجنسي عند النساء ، وذكر الإمام الصادق (ع) أنّ حدّها حدّ الزانية. [2]

---

(1) راجع تفسير نور الثقلين ج 4 ص 16 ـ 19.
(2) المصدر ص 19.

﴿ **وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً** ﴾

فكـلّ هـؤلاء جـرت عليهم سـنة الله ، حيث دمـرهم لتكذيبهم بآياته ، ورفضهم لما أتى به رسله.

ويبـــدو ان المقصـــود من كلمة القـــرن في القـــرآن الحكيم هو الجيل حسب تعبيرنا اليوم ، وهم الـذين يقـارن بعضهم بعضا. وقيل ان القرن مائة عام أو سـبعون سـنة ، وقيل خمسـون خريفا ، ولعله أربعـون عاما لأنّ الجيل من الناس يتبدلون كلّ أربعين عاما ، وسبق ان فصّـلنا القـول في قصّة تيه بني إسرائيل.

[39] ﴿ **وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ** ﴾

ويبدو ان المـراد من المثل هنا إنـذارهم ببيـان مصـير المكذبين من قبلهم.

﴿ **وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً** ﴾

التـبر هو : القطعـات المفتتة من الـذهب ، ويسـمى بـالتبر لأنه ينقطع ، والتتبـير يعـني التقطيع الكامل ، فالله قطع هؤلاء القوم تقطيعا.

والملاحظ تحـول القـرآن من أسـلوب لآخر ، فمـرة يقـول «دمرنـا» وأخـرى «**عَـذاباً أَلِيمـاً**» وثالثة «**تَبَّرْنا تَتْبِـيراً**» ورابعة «**يُحْشَـرُونَ عَلى وُجُـوهِهِمْ**» فهل في ذلك ما يزجرنا عن التكذيب بآيات الله؟

وكم يجب أن يكون قلب الإنسـان قاسـيا حـتى يمنعه من الهداية أو للتأثر بهذه التهديدات المتتالية.

[40] ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً** ﴾

لقد كـانت القرية هـذه آية من آيـات الله الـتي يجب على الإنسان الاتعاظ بها ، وهي كما يـذكره الحـديث قرية سدوم لقوم لوط ، ولكن هـؤلاء لم يعتـبروا بما يـرون من آثارها ، ليس لأنهم لم يروها وانما لأنهم يعتقدون ان الدنيا آخر المطاف ، فلا حساب ولا نشور.

ولا تشـمل هـذه السـنة من يكفـرون بـالوحي جملة وتفصـــيلا فحسب ، بل كل واحد يتخذ القـــرآن مهجـــورا تشـمله هـذه السـنة ، ونـذكّر بهـذه الحقيقة لان مشـكلة الكثير منا اعتقاده باقتصار الإنذار والتبشير على الآخرين.

فنرتل القـــرآن ليســـتمعه غيرنا ، وكأننا أنهينا واجبنا بمجرد لقلقة لسان اعترفنا عبرها بالشهادتين. كلا .. لا بـدّ أن يعـرف كـلّ فـرد منا أنه لا يمكنه الوصـول إلى درجة الايمان إلّا بالجهد الكبير والعمل الجاد ، ويعتقد كـلّ منا ان القرآن حديث الله إليه.

فالذي لا يقرأ القرآن أو يقـرأه دون تـدبر ، أو يتـدبره دون عمل ، أو يعمل ببعضه دون بعض ، أو يعمل به كله دون استمرار وتحمل للصـعاب ، كل أولئك يشـملهم قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾ لان من كفر بـــالقرآن ســـابقا ليس لأنه من طينة تختلف عن طينتنا ، بل مثله كأي بشر وجد صـعوبة الايمـان بـالقرآن ، وتطـــبيق آياته و مناهجه ، فتركه ولـــذلك تشـــمله ســـنة العذاب.

ونحن عند ما نتبع ذات الخطـــوات فنحن مثلـــه. بلى. اننا عشـنا في بيئة مسـلمة تشـهد بالشـهادتين ، وتقـول بنزول القرآن من الله ، فآمنا بذلك إيمـان التقليد والوراثة ، وتتضح حقيقتنا عند ساعات الحرج التي يسـميها القـرآن بالعقبة ، والتي من واجبنا اقتحامها ، وفي الآية إشارة إلى إن الكفر بالنشور سبب سائر مفردات الكفر.

[41] وبعد أن ذكرنا الوحي بمصير المكذبين بالوحي. لعلّ القلوب تلين

فتستقبل الرسالة. أخذ يداوي أمراض القلوب الجاحدة.

ذلك أن مــرض الاســتهزاء بصــاحب الرســالة. يقف حــاجزا دون اسـتقبال نـور الـوحي. أرأيت لو استصـغرت أحــدا. واســتهنت بكلامه أيضا ، ولكن لمــاذا اســتهزءوا بالرسول الكريم؟ لأن قلوبهم أشـربت بحب المـادة ، فلم تعد تعـترف إلا بـالثروة والقـوة والجـاه العـريض ، وبهـذه المقــاييس وزنــوا العلم والفضــيلة ، وأرادوا أن تكــون موازين الرب تابعة لأحداثهم الشاذة ، ونظراتهم الضيّقة.

وقد بيّن القـرآن في مطلع السـورة هـذه سـخف تلك المقـاييس المادية ، ولكنه ـ كما يبـدو لي ـ عـاد هنا إلى ذات الحــديث ليــذكرهم بخطإ منهجهم العلمي ، فهل من الصـحيح أن نـرفض إنـذارا وراءه التـدمير والتتبـير عـبر الاستهزاء بمن يحمله. هب إنه كما يحسبون ـ حاشا لله ـ فهل من العقل أن نقع في البـئر لمجـرد اننا لا نكـرم من أنذرنا؟

** وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِـذُونَكَ إِلَّا هُـزُواً أَهـذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً **

من هذا حتى نتبعه ، أو نستجيب لإنذاره.

[42] وكم هؤلاء غارقون في الغباء والضلال فلقد كاد الوحي يصل قلوبهم ، وكـادت أنـوار الهداية تخـترق حجب العنــــاد في أنفســــهم ، ولكنهم صــــبروا على آلهتهم ، واستقاموا على الضلال بعناد وجحود ، فرأوا الهداية ضـلالا ، والإصــرار على الضــلال صــبرا على الحــق. يا ويلهم ما أكفرهم قالوا :

** إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً **

[43] وان هذه العقبة النفسـية منشـؤها عقبة أخـرى تحصل بتغيير محور الإنسان من القيم

إلى الهـوى. فيتبع أهـواءه بـدل عقله ، مما يجعله لا يمـيز الحق من الباطل.

إن عبادة الأهـواء أسـاس كفر الإنسـان ، لان مقياسه في تقييم الحياة سيكون ـ آنئذ ـ شـهواته (حبّه وبغضـه) لا عقله وعلمه ، فلأن فلانا محبـوب لديه فهو جيد ، وأفكـاره سـليمة ، فيتبعه ، ولأن فلانا الآخر مبغـوض عنـده ، فهو خبيث وكل أفكاره خاطئة ، وسلوكه منحرف.

﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ** ﴾

ونـرى الآن وبوضـوح ان أسـاس الانتمـاء والـولاء في عالمنا اليوم قائم على الحب والبغض وليس العقل والعلم ، وقد عـرف أولـوا السياسة وأنصـار الثقافة الجاهلية ، ان مفتـاح شخصـية المجتمع الجـاهلي هو الحب والبغض ، فسـعوا لزخرفة أفكـارهم الخاطئة بما يثـير شـهواتهم ، فشـوهوا تقـييمهم للأفكـار ، وجعلـوهم يلهثـون وراء كل مجلة تنشر الصور المثيرة ، واتبعوا أجهـزة الاعلام بالغنـاء والـرقص وصـور الفاتنا ، وما يثـير شـهوة الجنس أو السيطرة أو الطعام و .. و ..

وهكذا ضلوا وأضلوا ، ولم يكتفـوا بتضـليل النـاس في القضايا المختلفة حتى سلبوهم قـدرتهم على أن يسـمعوا أو يعقلوا.

فلو ذهب شـاب مثقف إلى مكتبة ما ورأى فيها كتابا قيما يحوي أفكـارا هامة ، ولكنه مطبـوع قبل مـائتي عـام وعلى ورق أصـفر رديء ، فانه قلما يجد دافعا لشـرائه وقراءتـه. وان تجشم الصـعاب وضـغط على نفسه ليقـرأ بعض صفحاته ، فانه يشـمئز من جـراء الأخطـاء المطبعية أو عدم الوضوح في كلماته حتى ليكاد أن يخطّئه.

وكذلك إذا وصلت بيده ورقة منشور لحركة إسلامية ، ومن جماعة مؤمنة لم تسرق أموال الناس لتطبع أفكارها على الأوراق المصقولة الجميلة ، أو في المجلات

ذات الأغلفة الملونة ، فانه يتركها جانبا ليقـــرأ بـــدلا عنها مجلة تمولها أجهـزة الاسـتكبار لتضـليل النـاس ، وتصـرف عليها بعض ما ســرقته من الشــعوب المستضــعفة ، أو تمولها اعلانات المترفين الـذين يمتصـون ثـروات الفقـراء والمســاكين ، وينفقــون جــزء منها على وســائل الاعلام الجاهلية لتبرر للناس أفعالهم القبيحة.

وهكـذا تجد المجتمع الجـاهلي يـتردى في بـؤر الجهل بسبب طاعة أبنائه الشهوات والأهواء بدل العقل والعلم.

وهنا يتضح أساس الخطأ في المحور المعتمد للتقييم. فهل المحــور الصـحيح ان كل ما تحبه حــقّ؟ أم الحق هو الذي ينبغي أن تحبه؟

 أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً

ومثل هــذا الإنســان لا تنفعه شــفاعة الشــافعين ، ورســول الله لا يشـفع له ولو اسـتغفر له سـبعين مـرة ، بسبب تولّيه عن القيم واتباعه الهوى.

[44] الـــذي يـــترك عقله لهـــواه ، والحق لما يحب ويبغض ، فانه يجعل نفسه أضل ســبيلا من الأنعــام ، لأنها أوتيت مقدارا من الشعور والفهم تعتمد عليه ولا تحيد عنه ، فلم نر الأنعــــام يوما تــــدخل جحيما من النــــار أو تتبع مضرتها لحبها ، ولكن الإنسـان يسـتخدم ما يؤذيه ويتبع ما يضره.

 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ

كلّا إنهم لا يســمعون العلم ولا يعقلونه إن ســمعوه ، وهم بلا علم يسـتفيدونه من الآخــرين ولا عقل يسـتوعب ذلك العلم.

 إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ

وهـــذه نتيجة اتبـــاعهم الهـــوى. إذ جعلهم يبـــدلون مقاييسهم ، فبدل أن يحبوا الحقّ يعتبرون ما يحبونه حقا.

ويبقى سؤال :

أيهما أفضل الأنعــام تتبع شــعورها القليل ، أم البشر يتركون عقلهم المنير؟ وندع الاجابة للقرآن حيث يقول :

﴿ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾

الأنعــام تعمل بغرائزها بصــورة شــبه إجبارية ، بينما أوتي الإنســان العقل ليقــوم بــدور الغرائز وأفضل منها ، فاذا ترك عقله هلك ، لأنه لا يملك كالأنعــام دافعا غريزيا ، أما هو قد أفقد نفسه نعمة العقل البديل عنه.

أَلَمْ تَـرَ إِلى رَبِّكَ كَيْـفَ مَـدَّ الظِّلَّ وَلَـوْ شـاءَ لَجَعَلَـهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضـاً يَسِـيراً (46) وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهـارَ نُشُـوراً (47) وَهُـوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّــماءِ مــاءً طَهُـوراً (48) لِنُحْيِيَ بِــهِ بَلْــدَةً مَيْتــاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (49) وَلَقَـدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (50)

---

49 [اناســي] : جمع إنســان وجعلت اليــاء عوضا عن النــون وقيل أنها جمع أنسي.
50 [صرفنا] : بثثنا ووزعنا.

ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً

هدى من الآيات :

في الــدرس الســابق قرأنا عن أولئك الــذين اتخــذوا إلههم أهوائهم واستهزءوا بالرسول فكفروا برسالة الله .. ويعالج القرآن هذا المـرض بتـذكير البشر بربه فـاذا عرفه تلاشت الآلهة من دونه.

أفلا تنظر الى آثـار ربّك في هـذا الظل الممتـد؟ كيف يبسطه ثم يقبضه بتحريك الشمس مشـرقا لمغـرب؟! ثم يقسم الليل والنهار بقدر ليكون الليل سباتا وسـترا وراحة ، ويتخذ النهار نشورا ونشاطا وبحثا عن المعاش.

والمعاش بدوره يدره الرب حين يرسل الريـاح لتبشر برحماته وبركاته. فاذا بالسماء تـنزل المـاء الطهـور. فـاذا بالحياة تدب في البلد الميت أرضه وبشره وبهائمه.

كل ذلك ليتذكر الإنسان ، ولكن أكثر الناس يكفــرون. وكفرهم هـذا يـدعوهم ليتخـذوا إلههم الهـوى ، ويتحـدوا ـ بالتالي ـ قيادة الرسول.

بينات من الآيات :

وهو الذي مدّ الظلّ :

[45] الايمــان بالله قاعــدة كل معرفة ومنطلق كل ايمان ، فلا يمكن للإنسان ان يـؤمن بـالوحي قبل الايمـان بمن أنزله.

وفي أول آية من هذا الدرس نجد قوله تعـالى : «**أَلَمْ تَـــرَ إِلى رَبِّكَ**» وذلك مما حيّر المفســرين ، وجعلهم يؤولون الكلام تأويلا .. أو يستطيع الإنسان ـ هذا الضـعيف المحدود ـ أن ينظر الى ربه؟!

فقــال بعضــهم : ان في الآية لقلبا ، ومعناها : ألم تر الى الظل كيف مــده ربك وقــال البعض ان فيه حــذفا ، ومعناه الم تر الى فعل ربك ولكن يبدو لي : ان في تعبـير الآية ايحاء لا نجده في غـيره ، فالإنسـان يـرى ربه بالفعل وليس بعينيه ولا بصـورة مباشـرة ، بل يـراه بقلبه المنفتح من خلال آياته في الكـون ، فهي لوضـوحها الشـديد تعبّر عن بديع صنع الله ، وتشهد على ما ورائها من قوة مهيمنة عليها ، وهي قوة الله وأسماؤه الحسنى.

وماذا يحصل للإنسان عند ما يرى شيئا ما؟

أو ليس يؤمن به ايمانا عميقا؟

والا فلما ذا يــؤمن بالشــمس وظلها ، وبــالأرض وما فيها؟

بـالطبع لأنه يـرى كل ذلك ، اذن فالرؤية تعطيه هـذه المعرفة ، وتصــنع هــذه الحالة النفســية من الايمــان والاطمئنان لديه حتى يصل الى درجة اليقين الاعمق.

بالطبع أنه لا يرى الا انعكاسا لنور الشمس عليها.

ومن الشمس ماذا يرى؟
أليس نورها دون جرمها؟
وهكذا بالنسبة للقمر وسائر النجوم والأشياء.
فمن النجوم ما يحتمل العلم أنها اندثرت ولا نرى منها سوى نورا انبعث قبل مليون عـام ليصـلنا اليـوم مثلا ، فلا نستطيع ان نتأكد من فناء النجم ، الا بعد مليون عام.
ومـاذا نـرى من التفاحة الـتي نحملها بين أيـدينا غـير النور المنبعث من اي مصدر ضوئي انعكس عليها؟
وحتى جرم التفاحة لا نرى منه غـير الاجـزاء المحيطة به ، فالثقل ظاهر محيط بالجسم لا ذات الجسم.
وهكـذا الحقيقة غيب ، لا يصل إليها الإنسـان الا عـبر الظـــواهر والشـــواهد المرتبطة بها والدالة عليها ، فهي تشبه أمواج الأثير التي لا ترى الا على شاشة التلفزيـون ، وأمواج اللاسـلكي الـتي لا تلتقط ولا تسـمع بغـير المـذياع والاجهزة المشابهة.
وهل هنـــاك حقيقة تـــرى بأحسن ما يمكن ان يـــرى الإنسان ربه؟
إذا كـــانت الشـــواهد هي الـــتي تحملنا على الايمـــان والاعتقـــاد بكل شـــيء وليس الاحاطة به ، وإذا كـــان الأمر هكذا بالنسبة لسائر الأشياء ، كالأرض والســماء وما فيها ، فهل لشــيء من الآيــات والشــواهد وبالتــالي من الظهــور والوضوح مثلما لله سبحانه وتعالى؟!
فلما ذا يجـــوز ان نقـــول رأينا الشـــمس ونظرنا الى القمر .. إلخ ولا يجوز ان نقول رأينا

ربنا؟!

ان ايماننا بالله يجب ان يكـون أقـوى من ايماننا بـأيّ شيء سواه ، لأننا نجـده في كل شـيء ، (وفي كل شـيء له آية تـدل على انه واحـد) .. ففي كل شـيء تتجلى آثـار القـدرة والعظمة ، والحكمة والنظـام ، والجمـال والروعة وهي من أسماء الله الحسنى.

ونحن عن طريق النور الذي ينبعث من الشــمس الى الأرض نكتشــفها ونـؤمن بها ، والشــمس أظهر الحقـائق عنــدنا ، فــاذا أراد الواحد بيــان وضــوح شــيء قــال : «كالشــمس في رابعة النهـار» ، ولكن هل رأينا الشـمس رأي العين؟

كلا .. بل ان كل ما نــــــــراه هو ظلها الممتد على البسيطة. وقد قال بعض المفسـرين ان الظل هو موجـود منذ البدء في الكون ، ثم تأتي الشمس لتذهب به ، فكلما ارتفعت انحسر أكـثر ، حـتى يـأتي وقت الـزوال فينعـدم تقريبا ثم يعــود فيئا بعد دوران الأرض حــول الشــمس ، فيصبح الوقت مساء.

الا ان هناك احتمـالا آخر لمعـنى الظل أطرحه ليتـدبر فيه المتـدبرون : إن الظــلّ هو انعكــاس نــور الشــمس ، ولذلك جاء في الحديث في تفسـير علي بن إبـراهيم وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السّـلام) في قوله عز وجل : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ** ﴾ فقـال : «**الظل ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس**».

وإذا سـميت شـبح الأشـياء ظلّا فلأن شـعاع الشـمس يمتد إليه.

ونسأل : ماذا يرى الناس من ظل الشمس؟

لا يــرون الا نــورا منبعثا منها منبســطا على الأرض ، وهو في انقباض وانبساط بمشيئة الله فـبين الحين والآخر يتبــدل النهــار ليلا والليل نهــارا ، وكل ذلك آية دالة على وجود الشمس.

إننا نؤمن بالشمس ، دون ان نـرى غـير ظلها ، الـذي نعــرف من خلاله طبيعتها وقوّتها ، ومــدى دفئها ، كما لو كانت الشمس هي التي نراها ، وكذلك عن طريق أسـماء الله وآياته في الكــون يجب ان نعــرف ربنا ونــتيقّن يقينا راسـخا به ، وكما ان الشـمس هي دليل الظل بـإذن الله وليس العكس ، كـذلك الـرب هو الـدليل إلى ذاته بذاته ، وبآياته وأسمائه وليس العكس.

 أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً

وذلك بوقف دوران الأرض لتبقى في ليل دائم ، أو نهار مستمر.

 ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً

تتمـاوج التعـابير والإيحـاءات القرآنية لتبث حزمة نـور الى القلب وتوصل الإنسان الى غيب الحقـائق ، فما نـراه ظل للشــمس ، وآية من آيــات الله ، فلما ذا عن طريق الظل نكتشف الشمس ولا نعرف وجـود اللـه؟! واين نحن من ذلك الإمـام الـذي قـال : «**ما رأيت شـيئا الا رأيت الله قبله ومعه وبعده**»؟!

فـــالمؤمن يعيش محاطا بمعرفة الله ، لأنه أنّى ينظر يجد آيـات الله الواضـحة ، مما يزيــده ايمانا الى ايمانه ، فـان رأى الجمـال والكمـال قـال سـبحان الله ، وان رأى العظمة والقــدرة قــال الله أكـبر. ولعل الآية تـوحي الى التشابه بين شمس الطبيعة وشـمس الـوحي ، وأن الـذي جعل الشـمس دليل الظل أوحى بالرسـالة لتكـون هـدى ونورا.

[46] **ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً**

وهنا تتجلى هيمنة الله ، وكيف أنه ينشر الظل ، ثم يقبضه بصـورة سـهلة وميسـرة ، دون نصب وتعب تعـالى الله عن ذلك.

[47] بين ساعة وأخـرى يرتـدي الكـون ظلمة الليل ، ويتوقف كل شيء في مكانه ، فالنور المنبعث من السماء يخفت ، وزرافات الحيوانات المنطلقة من هنا وهناك تعود الى مهاجعها ، وأسراب الطيور تؤوب الى وكورها ، ويعود الإنســان الى بيته يبحث عن ملجأ يـأوي اليه وكأنه يخشى من شيء غريب. وبعد لحظـات يـرى الإنسـان الـذي كـان كتلة من النشاط ، قد تراخى على فراش نومه.

ولعلّ هذا التعبير يشـير الى التعبـير الـذي يحصل في الإنسان المؤمن ، فـان الـذي يهتـدي بـالقرآن كمن يعيش الصباح والنهـار فكله معرفة وحركة ونشـاط ، بينما يشـبه الكافر والضـال من انغمس في سـبات عميق ، في ظلمة ليل بهيم ، فكله سكون عن النشاط وخوف وجمود.

وبين هاتين الحالتين يجب على الإنسـان التحـرك نحو النشاط عبر الـوحي ، فالله في هـذه السـورة يحـدثنا عن القـرآن ولكنه يختـار ما يتناسب مع موضـوعها من آيـات الطبيعة.

 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً

حيث يشـــبّه ربنا الليل وكأنه لبـــاس يشـــمل ملايين البشر ، كما يغطي الطبيعة سهلها وجبلها ، برّها وبحرها.

 وَالنَّوْمَ سُباتاً

الســبات هو الانقطــاع عن العمل والحركــة. فــاذا تــوقفت الآلة عن العمل قيل لها ســبتت ، وســمي يــوم السبت كذلك لأن الماضين كانوا ينقطعـون عن العمل فيه ، وهكـذا تنقطع أعضــاء وجــوارح الإنســان عن النشــاط والحركة ليلا ، ولذا سمّي النوم سباتا.

﴿ **وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً** ﴾

فهو عكس الليل لأنه انبعاث وعمل.

[48] ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾

ان الإنسان ليفرح بالرياح وهي تقل له عـرف الـورود والاوكسـجين ، كما تحمل السـحب المليئة بـالمطر ، فهي مصدر بشارة وسرور له.

﴿ **وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً** ﴾

لقد أثبت العلم ان أفضل أنواع الميـاه هو مـاء المطر ، لان ما يـنزل من السـماء بالاضـافة الى كونه مـاء فانه يحمل الاوكســـجين النقي ، فهو نظيف ومنظّف ، كما هو ان نزوله يزيل الأمراض.

[49] ﴿ **لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** ﴾

ان التعابير القرآنية هنا إشارات الى رسالة الله ــ كما يبـدو ــ فالله الـذي يطهر الأرض بالمـاء الـذي ينزله من السماء يطهر القلب بالوحي.

﴿ **وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً** ﴾

خلق الله المــاء وأودعه الأرض ليســقي به الانعــام والناس.

[50] ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا** ﴾

فما ذا صرّف الله بينهم؟

قـال البعض ان هـذه العبـارة تـدل على تصـريف الله للسحاب ، ينزلها بإذنه على

المنـــاطق المختلفة من الأرض ، ولو لا ذلك لتجمعت في مكان واحد وأنـزلت كل حمولتها من المطر على بلد واحد حيث تفيض الميـاه ، بينما تبقى سـائر البلاد قاحلة لعـدم وصوله لها.

ولكن القـــرآن يقـــول : «**وَلَقَـــدْ صَـــرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا**» وكلمة صـرّفناه لا تـدل على السـحب بقـدر ما تدل على الأمثال التي ضربها آنفا.

والمعنى انّا صرفنا أمثالنا وكلماتنا فبيّناها للناس كافة ، وفي البلاد المختلفة أنزلنا كتابا من الله يحمل رســـالته للبشرية عبر رسول منه.

 فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً

وهنا نرى نـوع التشـابه والتنسـيق ، بين المطر الـذي يـنزل من السـماء ، وعن طريق توزيع القنـوات الطبيعية في الأرض يجري ليسقي الانعام والاناسي ، وبين الرسالة التي تهبط من السماء فتستقر في قلوب الناس.

وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُـلِّ قَرْيَـةٍ نَـذِيراً (51) فَلا تُطِـعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِـيراً (52) وَهُـوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَـلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُـوراً (53) وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (54) وَيَعْبُـــــدُونَ مِنْ دُونِ اللـــــهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُــرُّهُمْ وَكــانَ الْكــافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِــيراً (55) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (56) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْـرٍ إِلاَّ مَنْ شـاءَ أَنْ يَتَّخِـذَ إِلى رَبِّهِ سَـبِيلاً (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُـــوتُ وَسَـــبِّحْ بِحَمْــــدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (58)

53 [مرج] : أصل المرج الخلط ومرج أي خلط.

وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً

هدى من الآيات :

لم يخلق الله البشر عبثا ، ولم يــتركهم ســدى ، فلقد وفّر لهم ســبحانه جميع وســائل الهداية ، وعند ما تكــون الاكثرية هي الكــافرة ، فــان ذلك لا يــدل على انعــدام الفرصة امامهم ، بل لان الايمـان تكامل عظيم قلما يرتفع إليه إنســان. كما لا تــدل قلة المصــلحين الاجتمــاعيين أو المخترعين والعلماء على عدم أهمية العلم والاخـتراع ، أو الإصلاح الاجتماعي ، وانما هي مراتب عالية لا يصل لها الا القليل.

وان يرسل الله رســولا واحــدا للعــالم بأكمله لا يــدل على ضــآلة قيمة الرســالة عند الله حاشا ، بل العكس هو الصــحيح فلعظمتها اكتفى بشــخص واحد يبلغها البشــرية كلها. وكما تكفي الشــمس ان تكـون مصـباحا لكل الأرض والكواكب المحيطة بها ، فـان رســول الله (ص) يكفي ان يكون بشيرا لكل العالمين.

وبــالطبع لا يكـون ذلك الا إذا تسـلح بــالقرآن وتحـدى الكـــافرين دون طاعة لهم أو تنـــازل عن القيم ، فواحد يتسلح بالقرآن يمكنه الانتصار على الجاهلية العالمية

بأكملها ، ويـذكرنا الـرب بقدرته لعلّنا نخشى إنـذاره ونتبع النـذير المبعـوث من عنـده. انظـروا الى البحـرين كيف أرسل الله المياه فيهما من عذب فرات وملح أجاج وجعل بينهما حاجزا لكي لا يختلطا.

ومن مظـاهر قدرته خلق الإنسـان من المـاء وتنظيم حياته عبر جعله نسـبا يتصل بعضـهم ببعض عـبر الـولادة ، وصهرا يتكاملون بالزواج.

كذلك ينبغي ان نخلص له العبادة ونسـلم لمن أرسـله ، بينما يعبد الكفـار من دون الله أصـناما وأناسا لا ينفعـون من أطاعهم ، و لا يضرون من رفضـهم ، ويتظـاهرون ضد رسل الله ورسالاته.

وليس الرسول وكيلا عنهم انما هو مبشر ونذير ، وهو لا يطالب بـأجر لقـاء اتعابه وانما يسـعى لإسـعاد الإنسـان عبر هدايته الى السبيل السوي.

ولا يعتمد الرسول على قوة بشرية فانية ، انما يتوكل على الحي الذي لا يموت ، ويستمد منه القوة حين يسـبّح بحمده ، وهو وحده الذي يحاسب عباده ، وكفى به خبيرا.

بهـذه الصـفات ينعت القـرآن رسـول الله ، ويزيل الشـبهات الـتي ألقاها الشـيطان في قلـوب البسـطاء ليكفروا بالوحي.

بينات من الآيات :

الجهاد الكبير :

[51] **وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً**

ان الله قـادر على أن يبعث نـذيرا في كل قرية ، ولكنه بالحكمة جعله واحدا لكل

البشر ، وليس هذا دليل على عـدم عظمة النـذير ، ولا هو دليل أيضا على عدم أهمية الفئة القليلة الملتفة حوله من المؤمـنين ، بل لعله يـدل على العكس تماما .. وإذا كـان القلب طاهرا والأذن واعية يكفي نذير واحد للعالمين ، أما إذا كان في الآذان صمم وعلى القلوب رين فلا ينفع وجود المنذرين في كل قرية بل ولا في كل بيت.

[52] الكثـــير من المؤمـــنين يفقـــدون احساســـهم بشخصيتهم ، وثقتهم بذاتهم إذا وجدوا أنفسهم فئة قليلة ، فينهارون أمـام ضغوط الكفـار ، وهنا يحـذر الله الرسـول من هذه السلبية إذ يقول :

فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً

اي جاهد الكفّار بسـلاح القـرآن جهـادا لا هـوادة فيـه. وقد قال بعض المفسـرين ان الجهـاد الأكـبر هنا هو جهـاد الكلمة والحجة ، ولكن السياق لا يدل على هذا التفسـير ، لان التعبير في هذا المورد اشـمل من ان يـدل على جهـاد الكلمة فحسب ، لان المـؤمن حينما يـرفض طاعة الكفـار أو الاستسلام لأفكارهم وضغوطهم ، فذلك يجـره الخـوض المعارك معهم مما يجعله يدخل الصراع بجهاد أكبر ، ومن جميع الأنــواع وفي مختلف الجبهــات ، ولا بد ان يعــرف الكفار أن مخالفتهم للرسالة تعرضهم للخطر من موقعين ، من عند الله ومن عند رسوله والمؤمنين. فلا يحسبوا ان النعم التي خشوا زوالها بالايمان سوف تستمر لهم إن هم كفروا بـالوحي ، كلّا .. سـوف يعلن الرسـول جهـادا كبـيرا عليهم ســواء بالكلمة الصــاعقة أو بالســيف الصــارم أو بوسائل ضاغطة أخرى.

ونتسـاءل مـاذا تعـني كلمة «بـه» هنـا؟ الجـواب : أن القـرآن ذاته نهج الجهـاد الثقـافي والسياسي والاقتصـادي والعسكري ، فالجهاد يتم بالقرآن شاملا متكاملا مستمرا.

[53] ولقد حذّرنا الـرب نفسه ، وابلغنا واسع قدرته ، وذكّرنا بآياته في الخلـــق. أفلا نخشـاه؟! دعنا نقـرأ في كتـاب الطبيعة أسـماء ربنا العزيز المقتـــدر .. دعنا نخـــرق حجب الظـــاهر الى غيب الحقائق .. هذه المياه التي أقـرب ما تكـون الى الامـتزاج بها ، يجريها الرب في مجاريها بحرين مختلفين هـذا عـذب فـرات ، وهـذا ملح أجـاج ، ويجعل بينهما فاصلا يحجز هـذا عن ذاك. أو ليست تلك علامـــــات القـــدرة وشـــــواهد الحكمـة؟! فما أكـثر من يتحـدى ربا هـذه آياته وتلك هي أسماؤه الحسنى.

** وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً **

العـذب هو المـاء الحلو ، والفـرات هو أحلى الميـاه ، والملح هو الماء المالح ، والأجـاج هو أشد الميـاه ملوحـة. والـــبرزخ هو السد الـــذي يمنع المـــائين من الاختلاط ببعضهما.

[54] ** وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَـراً فَجَعَلَـهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً **

وكما جعل الله الاختلاف في الميـــاه ، جعل ذلك في بني البشر ، فالناس كلهم من مـاء واحد ، وارض واحـدة ، الا أنهم يختلفون بالنسب والصـهر عن بعضـهم ، فـالبعض ينتسب الى الآخرين عبر النسب كالأب والأخ والابن .. إلخ ، وبعضهم ينتسب للآخرين عبر التصاهر بالزواج.

[55] ** وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ **

وتسأل : وهل عبادة الإنسان للأصنام تضره أم لا؟

بالطبع أنها تضره ، ولكن القرآن يقـول : «**وَيَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللــهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُــرُّهُمْ**» ذلك ان ما يضر الإنسان عبادته للأصنام وليس الأصنام ذاتها ،

فالطغاة من الحكام ، والمترفون ، والمؤسسـات الثقافية المضـلة .. كل أولئك أصـنام ، والإنسـان هو الـذي يلحق الضـــرر بنفسه عند ما يخضع لهم ، ويؤيّد الشــــيطان والكفّار.

ولو لا خضوع البسطاء من الناس واستسلام أصـحاب المصـالح لما قـامت للظلم قائمـة. دعنا نقـرأ معا حـديثا حكيما في ذلك :

عن علي بن أبي حمـزة قـال : كـان لي صـديق من كتّاب بـني أميّة فقـال لي : اسـتأذن لي على أبي عبد الله فاسـتأذنت له ، فلمّا دخل سـلّم وجلس ثمّ قـال : جعلت فـداك إنّي كنت في ديـوان هـؤلاء القـوم ، فأصـبت من دنيـاهم مـالا كثـيرا وأغمضت في مطالبه ، فقـال أبو عبد الله (ع) : لو لا أنّ بني أمية وجدوا من يكتب لهم ، ويجبى لهم الفيء ، ويقاتل عنهم ، ويشهد جماعتهم ، لما سـلبونا حقّنا ، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شـيئا إلّا ما وقع في أيديهم ، فقـال الفـتى : جعلت فـداك فهل لي من مخرج منه؟ قـال : إن قلت لك تفعـل؟ قـال : أفعل ، قـال : أخـرج من جميع ما كسـبت في دواوينهم ، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ، ومن لم تعرف تصدّقت به ، وأنا أضـمن لك على الله الجنة ، قـال : فـأطرق الفـتى طويلا فقال : قد فعلت جعلت فداك. قال ابن أبي حمزة : فرجع الفـتى معنا إلى الكوفة فما تـرك شـيئا على وجه الأرض إلّا خرج منه حتّى ثيابه الّتي كانت على بدنه ، قـال : فقسمنا له قسمة ، واشترينا له ثيابا ، وبعثنا له بنفقة [1].

 وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً

ان من يعبد الطاغوت بخضـوعه يظـاهره ويعاونه ضد الحق ، والا فبمن اسـتطاع الطغـاة التسـلط على رقـاب الناس؟!

---

(1) بح 75 / ص 375.

1 ـ أليس بالصـحفيين المـأجورين وأمثـالهم ، ممن يتسـكعون على عتبـات القصـور من أجل فتـات الخـبز وفضـالة الطعـام ، ثم يلمعـون أوجه الطغـاة القبيحة بمقالاتهم السخيفة؟!

2 ـ أو ليس بـالجنود المجنـدة من الشـباب الـذين يصرّفون طاقاتهم في خدمة الطغـاة ، بـدلا من ان يكـون كل واحد منهم قائدا في مجتمعة؟!

3 ـ أو ليس بالموظفين الذين أذلّوا أنفسهم في دوائر السلطة كي يشبعوا بطونهم؟

4 ـ ثم الأهم من كل ذلك ، أليس بسـكوت النـاس عنهم ، وخنوعهم عن المواجهة والثورة ضدهم؟!

اذن فالجريمة ليست من الطغـاة وحـدهم ، بل للشعوب المستسلمة نصيب وافر من المسؤولية أيضا.

[56] الرسـول ينـذر ويبشر والنـاس يتحملـون مسـئوليتهم. وإذا سـاد الظلام أمة من النـاس ينتمـون ظاهرا الى رسالة الهية فلا يعني أبدا أن في رسـالات الله نقصا .. بل أنهم هم المسؤولون لأنهم تركـوا العمل الجـاد بها ، وتحمل مسئولية الثورة ضد الطغاة.

﴿ وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾

إذا تسـلط الطـاغوت ، فـان البعض يحـاول ان يلقي باللوم والمسؤولية على كاهل الحركة الاسـلامية العاملة ، ثم ينتظرها تخلصه من هذه الازمة كلّا وهذا خطأ.

فكما ليس من الصحيح ان ينتظر النـاس الرسـول أن يجاهد الطاغوت وحده ،

ليس من الصـحيح أيضا ان تنتظر الامة الاسـلامية اليـوم ، الطليعة الرســالية أن تقــوم بهــذا الــدور ، ذلك أن دور الرسل كما الحركات الرسالية هو قيادة النضال وتوجيهه ، لا القتال نيابة عن الناس ، كما كان بنو إسرائيل ينتظـرون من نـــبيّهم موسى (ع) فلما جــاءهم وحمّلهم مســئولية الجهـاد «**قـالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْـدِ ما جِئْتَنا**» [1].

فأعضاء الحركة الاسلامية يبذلون أقصى الجهود ، من كتابة ، وتوزيع ، ومــؤتمرات ، لفضح الطــواغيت بـــإبراز أعمــالهم الاجرامية ، متحملين في سـبيل ذلك التبعـات ، من السـجن والتعـذيب والاعـدام ، حـتى هتك الاعـراض والحرمـات ، ولكن لا يجـوز للنـاس ان يتفرجـوا وينتظـروا الانتصار.

لأن مسئولية الطليعة من حملة الرسالة هي مسئولية الرسول نفسها ، اي تبليغ الرسالة للناس وقيـادة المعركة وعلى الناس المقاومة والثورة ضد الفساد والانحراف.

[57] **قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً**

إن الرسل ومن يمثلهم عبر التاريخ لا يطالبون النـاس أجرا مقابل ما يقـدمون لهم من خدمة البشـارة والإنـذار ، هذا فيما يخص الناس.

[58] أما فيما يخص الرســول وحملة الرســالة فــان واجبهم الســير في الطريق رغم الصــعاب ، بالتوكل على الحي القيوم ، دون التفات لقلة الأنصار حـولهم ، أو مـدى الطاعة والرفض من قبل الناس.

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ

---

(1) الأعراف / 129.

فـاذا اعتمد البعض على قـوة بشـرية فـان المـؤمن يعتمد على الله الذي لا يموت وحده ، ولا يعتمد حتى على الأنصار والاصحاب ، فقد تزل قـدم هـؤلاء أو تعـثر فييـأس ويترك الجهاد.

 وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ

ان القيـادة أو الطليعة الرسـالية هم الاقلية في بـدء الانطلاق ، وهم الغرباء عن واقعهم ، إذ يشعرون بالوحشة وهيبة الطريق ، كما يتحسسون الفراغ الاجتماعي ، ولكي يقاوموا هذه السـلبيات فـان عليهم التعـويض عن كل ذلك بالارتباط المتين والعميق بالله سـبحانه وتعـالى ، لان ذلك يثلج صـدورهم ، ويسـكن روع قلـوبهم ، فيعطيهم الثبـات والطمأنينة.

 وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً

يعني ان الله قادر على إحصـاء ذنـوب الـذين يـتركون المؤمـنين الحـاملين للرسـالة ، فلا تشـغل الفئة المؤمنة نفسها بإحصاء سـلبيات وذنـوب الآخـرين من المخـالفين ، ولا تفكر في رفض النـــاس لها ولرســـالتها ، وانما عليها المضي قـدما على خطها ، تاركة ما يجـري حولها الى الله ، فهو الذي يحصي ذنوب الناس وكفى به خبيرا بها.

الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوى عَلَى الْعَـرْشِ الـرَّحْمنُ فَسْـئَلْ بِـهِ خَبِيراً (59) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (60) تَبارَكَ الَّذِي جَعَـلَ فِي السَّـماءِ بُرُوجـاً وَجَعَـلَ فِيها سِـراجاً وَقَمَـراً مُنِـيراً (61) وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ اللَّيْـلَ وَالنَّهـارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَـذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُـكُوراً (62) وَعِبـادُ الـــرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُـــونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنـــاً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُـونَ لِــرَبِّهِمْ سُــجَّداً وَقِيامــاً (64) وَالَّذِينَ يَقُولُــونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً

---

63 [هونا] : والهون مصدر الهين في السكينة والوقار.
65 [غراما] : الغرام هو أشد العذاب.

(65) إِنَّها سـاءَتْ مُسْـتَقَرًّا وَمُقامـاً (66) وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (67)

عباد الرحمن

هدى من الآيات :

في إطـار التـذكرة بالتوحيد الـذي هو قاعـدة الإيمـان بالرسالة يبيّن الدرس بعض أسماء ربنا ، وبالـذات أسـمي «الرحمن» و «تبارك».

ويتجلى اسم «الرحمن» في خلق السـموات والأرض وتدبير هما بالرغم من نفور الكفار من هـذا الاسم الكـريم ، ورفضـهم السـجود للـرب الـذي أحـاطت بهم رحمته ، وزعموا انهم لا يسجدون لمن يأمرهم الرسـول (اسـتهزاء به وتحديا له).

بينما يتجلى اسم «تبارك» في ذلك البناء المتين الذي تعالى فوقنا ، والسـراج المنـير الـذي تعلق به كالقنـديل ، والقمر المنير الذي زينه وفاض نـوره الهـادىء على الربايا والسهول.

وهكذا في توالي الليل والنهار ليكون فرصة لمن يريد ذكر الله ، أو أراد له شكورا.

إن أسماء الله تتجلى في أفئدة الذاكرين الشـاكرين ، فيكونون عباد الرحمن حقا. فـتراهم يمشـون على الأرض هونا لا أذلاء ولا متبخـترين ، ويواجهـون الجهل بالسـلام ، ويبيتون الليل بالتبتل ، ويتطلعـون لاتقـاء نـار جهنم اللاهبة البئيسة ، وإذا أنفقوا اقتصدوا ، فلم يبخلوا ولم يترفوا.

ويواصل الـدرس التـالي الحـديث عن سـائر صـفات هؤلاء الصالحين.

بينات من الآيات :

﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ :

[59] يحدثنا القـرآن الكـريم في هـذه المجموعة من الآيات عن أمرين متقاربين :

الأول : الايمان بالله.

الثـاني : كيف يتجلى الايمـان في سـلوك الإنسـان الصادق. لتوضيح هذا الأمر لا بـدّ أن نتـذكر أن هنـاك فرقا بين الايمان بالله وبين معرفته ــ حقا ــ لأن هنـاك درجـات في مسـيرة التوحيد وهنـاك مفارقـات ينبغي أن نعرفها وهي كما يلي :

1 ـ فقد يكون الايمان إجماليا ، كما لو عرف الإنسـان أن وراء الاكمة أشـجارا ، أو أن وراء الجبل غابة ، وربما يؤمن بذلك عن طريق العلم بكثافة الأمطـار وراء الأكمه ، أو وجـود الحيوانـات المختلفة الآتية من وراء الجبل ، أو عن طريق مخبر صادق يثق به.

وقد يكون الايمـان عرفانيا ، وذلك حينما يـدخل الغابة أو يشـرف عليها من قـريب ، ويـزداد هـذا العرفـان كلما أحاط بما في الغابة من جزئيات.

2 ـ الذين يؤمنون بالله عـبر آية واحـدة من آياته ، قد لا يندفعون إلى السلوك

المتكامل الــذي يصــوغ الايمــان العرفــاني به شخصــية المؤمنين. عبر معرفتهم بآيات الله المختلفة التي يرونها.

3 ـ إذا أراد الإنســان اكتشــاف حقيقة ايمانه ، وهل وصل إلى درجة العرفان ، أم لا يزال ايمانه بسيطا يخرجه عن حدود الجحـود والكفر فقط ، فـان عليه أن يبحث عن آثار الايمان الصـادق ، فـاذا كـانت موجـودة بصـورة كاملة على سلوكه وتصرفاته كان وإلا فلا.

لذا نجد القرآن يربط بين من يؤمن بالله إيمانا كاملا ـ والذي ينعكس في صورة توكل على الحي الـذي لا يمـوت ـ وبين سلوكيات عباد الرحمن كما تصفهم الآيات الكريمة.

4 ـ كلما عـرف الإنسـان ربه بـالتقرب إليه من خلال العبادة ، كلما عرف نفسه بصورة أكمل ، فهاتان معرفتان متقابلتـان ، وسـبب المقابلة إن الله هو خـالق الإنسـان ، فايمانه بالإله الخالق يدعوه للايمـان بالعبد المخلـوق. مما يجعله عارفا بمدى عبوديته وضـعفه ، أو محدوديته وضـيق أفقه ، وبين الأمـــــــرين (معرفة الله ، ومعرفة النفس) تتنــامى نحو التكامل الشخصــية الايمانية لــدى الإنســان المؤمن.

كذلك يبصـرنا القـرآن بآيـات ربنا المبثوثة في الآفـاق ذكرى من بعد ذكرى فيقول تعالى :

 الَّذِي خَلَقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

حيناماً يقف الإنسـان على ربـوة تل ، فـيرمي ببصـره نحو الأرض الممتـدة من تحته ، أو السـماء الواسـعة من فوقه ، فانه ينبهر بكل ذلك ، وهنا وفي لحظــات الانبهــار بالذات ، عليه أن يجعل الانبهـار سـبيلا إلى الايمـان بالله ، فكلما وجد عظمة وقدرة

وجمـــــــــالا وروعة تتجلى في الخلق ، كلما تعمق إيمانه بعظمة الخالق.

ولعـلّ خلق الله السـماوات والأرض في سـتة أيـام ، دليل على أنه يطورهما باسـتمرار ، حـتى وصـلت إلى ما هي عليه الآن ، وهذا لا يدل على عجز الله ، بل يشير إلى اســتمرار الهيمنة الالهية عليهما ، فلم يتركهما بعد الخلق لشأنهما سدى.

﴿ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

وعلى هـذا فهنـاك علاقة سـياقية بين كلمـتي «**فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ**» و «**ثُمَّ اسْـتَوى عَلَى الْعَـرْشِ**» حيث تشـير الآية إلى ان الذي خلق السماوات والأرض يشـرف عليهما ويدبر أمرهما.

و «**ثُمَّ اسْتَوى**» : أي هيمن على العــرش ، وهو رمز التدبير بعد التقدير والإمضاء بعد القضاء.

﴿ الرَّحْمنُ ﴾

تتكـــرر كلمة الـــرحمن في مواضع كثـــيرة من هـــذه السـورة ، ولعـلّ الحكمة في ذلك انّ الرسـالة الالهية هي أعظم منّة من ربنا علينا ، وانّ السبيل إلى الإيمان بها يمر عبر الإيمـان بـأن الله هو الـرحمن ، وأنّ آيـات رحمته في الخلق تجعلنا نثق بل نـوقن انه لن يـترك عبـاده في بـؤر الجهل والضـلالة. تتجـاذبهم شـهوات المـترفين ، ونـزوات المستكبرين.

إذا فلنؤمن برسالته التي يشكل إرسـالها أكـبر شـاهد على رحمته.

﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾

أي فاسأل بهذا الأمر (خلق السـماوات والأرض وعلى مراحل متتابعة

ومتكاملة) خبيرا ينبّؤك به ، وهو ــ كما نعـرف ــ من خلال الآية ، الله وجبرائيل (ع) فتكون هـذه الآية مختصة بـالنبي محمد (ص).

ولعـلّ المـراد من الخبـير كل عـالم من علمـاء الفلك والفيزياء والكيمياء وغيرهم ممن توصلوا إلى الاكتشـافات العلمية الـتي تعرفنا بآثـار رحمة ربنا سـبحانه ، وبالتـالي يكون هذا استشـهاد بـالعلم ، حيث يأخذ بأعنـاق المثقفين والمفكرين للايمان بآيات الله والاعتراف بالرسالة.

عند ما يتصور البشر ربه :

[60] يتســاءل الكفــار : «وما الــرحمن»؟ عند ما يؤمرون بالسجود له ظنّا منهم بأن الرسـول يريد من وراء ذلك تعظيم نفسه ، وهذا سبب رفضهم الخضوع لله.

 وَإِذا قِيـلَ لَهُمُ اسْـجُدُوا لِلـرَّحْمنِ قـالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا

أي هل تريد التأمر علينا بفرض السجود؟

إن المجتمع الجـاهلي القـائم في علاقاته الاجتماعية على أسس فاســدة ، كــالعنف والاســتغلال لا يمكنه أن يؤمن برحمانية الله ، وهو يحسب ان العلاقات القائمة في الكون تشبه العلاقات القائمة بين أبنـاء البشر ، فـالمجتمع الجــاهلي إذا تصــور الله فانما يتصــوره حسب مزاجه النفسي المستوحى من الخيال ، أو من الوضع الاجتماعي القائم.

فعند ما أراد المجتمع اليوناني تصور الله بادر مفكروه يضــعون آلهة من التماثيل الحجرية واللوحــات الفنية المتضاربة ، فلكلّ إله جيش وشعب ، وعنده حـدود وإقليم ، ويستخدم شعبه وجيشه في محاربة الآلهات الأخر.

وهذا الخيال يعكس التضارب القائم في ذلك المجتمع الاغـــريقي القـــديم ، فلأن وضـــعهم مليء بالصـــراع ، وعلاقـــاتهم مشـــحونة بالبغضـــاء ، تصـــوروا الله كـــذلك يشاركهم في المزاج والشعور (تعالى الله عما يصفون).

وهكذا كان يصـنع المجتمع العـربي قبل الإسـلام فكل حزب بما لديهم فرحون ، لذا

جاء في الحديث المروي عن الامام الصادق (ع) :

«**لو ان النملة تصورت ربها لتصورت له قرنين**»

فما دامت القضـية لا تتجـاوز التصـور ، فـان النملة تمتلك القـــدرة على تصـــور الـــرب ، ولكن من واقعها وشعورها.

وقد وقع بعض البســـطاء من المســـلمين في ذات الخطأ ، فقالوا : ان الله شخص عنده لحية بيضاء طويلة ، ويركب الحمار لينزل الى الأرض في ليالي الجمع ، فكـان بعضـــهم يضع حزمة علف على ســـطح بيته في كل ليلة جمعة ، حـتى يأكل ما فيها حمـار الله ، (سـبحانه وتعـالى عن الأمثال).

وسبب هذه التخيلات خضوع الإنسان لخياله المحـدود عند تصور الله ، فيتصوره تارة من واقعة وطبيعته كإنسان فيحسبه كذلك ، أو من واقع المجتمع وطبيعته تارة أخـرى ، فينعكس الوضع الاجتماعي على تصـوره لله أيضا ، فلأن علاقة المجتمع الجـــاهلي بـــالتجمع الايمـــاني مادية فهي صلفة ، فإنهم لم يكن بمقدورهم تصـور الرحمة صـفة من صـــفات الله ، فلا عجب ان يرفضـــوا أمر الرســـول لهم بالسجود للرحمن. فقالوا : «وما الرحمن»؟

فهذا اسم جديد على واقعهم ليس بعيدا أن يسـتغربوا منه ، فواقعهم مشبع بالخوف والإرهـاب وما الى ذلك من الصفات المشينة.

﴿ **وَزادَهُمْ نُفُوراً** ﴾

لم يكن أمر الرســـول لهم بالســـجود لله الا لجمع شتاتهم. كي تشرق عليهم شمس الرحمة ، وتلفهم غمامة اللطف الالهي ، ولكنهم لعمق الاحســـاس بالارهـــاب والخـوف وما أشـبه من الصـفات الرذيلة نفـروا حـتى من هذه الكلمة كما تنفر الإبل المذعورة.

ويعـبر هـذا النفـور عن مـدى الجهل الغـارقين فيه ، والذي لا يزال جاهليي العصر يغرقون فيه أيضا ، ولا فـرق بين الجاهليتين الا أن إحداهما حديثة والاخرى قديمة.

فلو نهض رسـالي يـدعو الشـرق الملحد ، والغـرب المشرك للسجود للرحمن ، واشـاعة السّـلام والعـدل في أرجـاء المعمـورة لـردوا «وما الـرحمن»؟ أيضا ، ﴿ **وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾.

من آيات الكون :

[61] ﴿ **تَبـارَكَ الَّذِي جَعَـلَ فِي السَّـماءِ بُرُوجـاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً** ﴾

ربما تشـــبه كلمة البركة كلمة التكامل في منطقنا الحديث ، فالمبارك يعني واسع الخير وثابتة ، أو المتكامل الذي ينمو ـ وتعالى الله عن النمو لأنه ـ «الكامل الـذي لا كمال بعده. إذ ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجـود ، ولا أمد ممدود» كما قال الامام علي (ع).

فما معـنى : «**تَبـارَكَ الَّذِي جَعَـلَ فِي السَّـماءِ بُرُوجاً**»؟

ان الذي اعطى البركة للسماء هو الذي يعطي البركة للإنسـان ، والـبروج هي المواقع الظـاهرة والمرتفعة في نفس الوقت ، وعادة ما يكون برج المدينة رمزها ،

والشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم بروج للسماء ، والذي جعل الشمس والقمر والـبروج هو صـاحب البركة ، فالاولى أن نتوجه اليه دون غيره لأنه الــرحمن ، فلما ذا لا نعرف هذه الصفة الحميدة من صفات ربنا؟

[62] **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً**

لقد جعل الله كلا من الليل والنهـــار يخلف أحـــدهما الآخر ، فلو دام الليل لانعـــدم المعــاش ، ولو دام النهــار لانعدمت الراحة.

ولكن متى يتذكر الإنسان؟ في الليل.

ومتى يحصل على النعم فيشكر الله؟ في النهار.

وكم هو جميل السياق إذ يقول : جعلنا الليل لمن أراد ان يذكر!

فحينما تهدأ الأصوات ، وتسكن الأحياء ، فيعم الصمت حيث النــاس كل آوى الى فــراش نومه ، فينبعث ضــمير المــؤمن حيّا ليناــجي ربه «**إِنَّ ناشِــئَةَ اللَّيْــلِ هِيَ أَشَــدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً**».

اما في النهـــار حيث ينهض الإنســـان من نومه طلبا للرزق والمعاش ، لا لكي يطغى وانما ليشكر ربه ، ويصل بوظـــائف النعم الـــتي وفرها له ، نجد انعكـــاس المعرفة الايمانية على ســلوك عبــاد الــرحمن الــذين يصــوغون به شخصيتهم من خلال الايمان العرفاني.

عباد الرحمن :

[63] ان لعباد الرحمن الذين تتجلى أســماء الله وفي طليعتها (الرحمن) على

افئدتهم وسلوكهم صفات حسان كثيرة أبرزها :

1 ـ التواضع :

﴿ وَعِبـادُ الـرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾

فعلاقتهم مع الطبيعة والنـــاس علاقة الرحمة ، لأنهم عبـاد الـرحمن ـــ ولا غرابة ـــ فقد انعكس اسم الـرحمن الالهي على شخصـيتهم فصـيغت بقـالب هـذا الإسـلام المقـدس ، وهـذا ما يـدعوهم للسـير هونا على الأرض ، مشـــية متواضـــعة لا كمشـــية المتكـــبرين على العبـــاد والمفســـدين في الأرض ، ولا كمشـــية الأذلاء والدونية ، لذلك جاء في الحديث في تفسير الآية :

«**يمشي بسـجيته الـتي جبّل عليها لا يتكلف ولا يتبختر**» [1]

فعبـاد الـرحمن يحبـون حـتى الأرض الـتي يضـعون اقدامهم عليها ، وكما يقول المعرّي :

خفف الوطء فما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد

ولما يتعـاملون به من خفة مع الأرض ، لا يسـحقون حتى النمل ، ولا يقتلون حتى النبتة الصغيرة ، ولا ينفـرون الحيوان ، بل يمشون عارفين بمواقع اقدامهم.

هـذا بالنسـبة للأرض ، أما بالنسـبة للمجتمع فـان علاقتهم علاقة رفق مع الآخـــرين ، وخلفية كل ذلك أنهم يتكيفون مع السنن والقوانين الالهية الثابتة ، في علاقاتهم مع الطبيعة والمجتمع ، مقتنعين بوجـود سـبل وأسـاليب ينبغي العمل وفقها ،

---

(1) المصدر / ص 26.

والســـير في اطارها للاســـتفادة من الامكانيـــات الهائلة المودعة من قبل الله في الطبيعة ، وينعكس ذلك أيضا على مـــواقفهم الاجتماعية والسياســـية ، فلأنها نابعة من فطرتهم النقية التي تـرفض التكلف والتبخـتر فانها مشـية معتدلة. لا تظاهر فيها ولا صخب. جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السّلام :

«**الائمة عليهم السّلام يمشون على الأرض هونا خوفا من عدوهم**» (1)

وهـذا خلاف ما يفعله الآخـرون ممن لا تشـملهم الآية الكريمة «**وَعِبادُ الـرَّحْمنِ**» فانا نجد علاقتهم مع الطبيعة والمجتمع علاقة قائمة على أسس فاســدة من الخشــونة والعنف ، واستغلال الناس ، وتوجههم منصرف الى التمرد على الانظمة والقوانين الطبيعية ، مما نـرى آثـار ذلك في إفساد العلاقات الاجتماعية ، وانتشار التوتر والحـروب بين الدول المختلفة.

2 ـ الرفق :

﴿ **وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً** ﴾

لأنّ علاقتهم علاقة السّـــلام والأمن فـــإنهم يجيبـــون الجاهليين ـ ممن يخـاطبونهم بالجهل ـ بقـولهم : سـلاما ، وقيل : ان المقصــود بالســلام ســلام الــوداع ، اي انهم ينصـرفون عن الجاهل بعد السّـلام عليه ، عند ما يحتكـون به دون مبادلته جهلا بجهل.

ولكن الأقرب الى قوله تعـالى «**قالُوا سَـلاماً**» انهم يبدءون كلامهم وعلاقاتهم مع النـاس عن طريق السّـلام ، وهو إبـــداء حالة من الأمن والعلاقة الايجابية مع الطـــرف الآخر.

---

(1) المصدر.

3 ـ قيام الليل :

[64] **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً**

قليل هم الـذين يحيـون ليلهم بالعبـادة ، مكـثرين من الصلاة والـدعاء تضـرعا لله وخوفا منـه. والنـاس في نـوم عميق ، والكثـير من النـاس من يطمح في الوصـول الى مستوى عباد الرحمن ، ولكن لا يستطيع فلما ذا؟

لأن هذا القسم من الناس يريدون إجبار أنفسهم على الفضائل وهي لا تأتي بالإكراه ، وانما بصـياغة الشخصـية ، فاذا لم تنعكس آيـات الـرحمن على سـلوك الإنسـان ، فلا ينمي نفسه بالسجود له ليلا لأنه سيرى نفسه عاجزا أمـام هجوم النوم ، أما عند ما تتجلى آيات الرحمن أمام ناظريه ، وتنعكس على سلوكه فتصوغ شخصيته ، آنئذ لا يسـتطيع النوم ليلا بل تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

ففي وقت متأخر من احدى ليالي صيف مضى ، كنت نائما على سـطح المـنزل مسـتلقيا على فراشي ولما يستول عليّ النوم بعد.

وكان صاحبي على مقربة مـني وعينـاه تحملقـان في آفاق السماء ، وكأنه أدرك عن طريق النجوم قـرب الفجر فرأيته ـ كمن لدغته حية ـ يقفز من فراشه قفـزا ، ويتوضأ بسرعة ليقف يصلي ، وهكذا هم عباد الرحمن.

فالأصل في كل فضـيلة معرفة الله وإصـلاح النفس ، فمن لا يعـرف الله ، ومن ثم لا يصـلح نفسه لا يحصل من الفضائل الاخـرى على شـيء ، إذ ليست المسـألة مسـألة تكلف بقدر ما هي سجية لقلب الإنسان.

4 ـ التقوى من النار :

[65] ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَا اصْـرِفْ عَنَّا عَـذابَ جَهَنَّمَ** ﴾

ان شـهيق جهنم وزفيرها لا يعـزب عن بـالهم طرفة عين أبـدا ، بل تتجسد صـور النـار أمـام أعينهم في كل لحظة ، فيقول أحدهم : الهي اصرف عـني عـذاب جهنم ، وكأنه يـرى نفسه ينصلي فيه ، أو لا يقـول تعـالى : «**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كـانَ عَلى رَبِّكَ حَتْمـاً مَقْضِـيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا**».

فكل إنسـان سـيمر من فـوق الصـراط على جهنم ، والعاقل من فتش عن سبيل للنجاة.

﴿ **إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً** ﴾

اي ان عذاب جهنم يلـزم الإنسـان الـذي يدخله ، وانه لخسارة كبري ، فليس الخسران الحقيقي خسـران الـدنيا بما فيها من لـذات ، وانما الخسـارة ان يخسر الإنسـان رحمة الله في يوم القيامة حيث المطاف الأخير.

[66] ﴿ **إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً** ﴾

فهي ليست مسـتقرا مرغوبا كي يقيم فيه الإنسـان ، وليست مكانا طيبا يصلح ان يستمر فيه.

5 ـ الاقتصاد في المعيشة :

[67] ﴿ **وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُـوا لَمْ يُسْـرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً** ﴾

الكثـــير من النـــاس من ينفق المـــال ، والقليل من يحصل على الثــواب ، والأقل من ينفقه كما يريد له الله ، وهم عبـاد الـرحمن حقا ، فانفـاقهم ليس بـدافع الـترف والشــهوة ، أو الريــاء والسـمعة ، وانما بـدافع الايمـان والعقل والارادة ، فلم يسرفوا ولم يقـتروا وكـان بين ذلك قواما.

فــبين هــذا وذاك ينفقــون وباعتــدال ما يقيمــون به حياتهم و حياة الآخرين.

وهكـذا يـروي العياشي يقـول : اسـتأذنت الرضا (ع) النفقة على العيال؟ فقال : «بين المكـروهين. قـال فقلت : جعلت فداك لا والله ما اعرف المكروهين ، فقـال : بلى ـ يرحمك الله ـ أما تعـرف ان الله تعـالى كـره الإسـراف وكـره الإقتـار فقـال : «**وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْـرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً**» [1].

و ضرب الامام الصادق عليه السّـلام مثلا لـذلك فأخذ قبضة من حصى وقبضه بيده فقـال : هـذا الإقتـار ـ الـذي ذكـــره الله عز وجل في كتابه ـــ ثم قبض قبضة أخـــرى فـأرخى كفه كلها ثم قـال : هـذا الإسـراف ثم أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها وقال : هذا القوام.

وتربط رواية ثالثة بين الإنفاق ومسـتوى المعيشة في المجتمع ، بينما نجد رواية رابعة : تجعل الإنفاق في سبيل قوام البدن وفيما يصح البدن إسرافا ـ مهما كـان ـ وتـأمر نصوص أخرى بضرورة التوسـعة على العيـال ، ونفهم من مجمـــوع النصـــوص انّ الإقتصـــاد في المعيشة يرتبط بمجموعة عوامل يحددها الشرع والعقل والعرف.

(1) المصدر / ص 28.

وَالَّذِينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللـهِ إِلهـاً آخَـرَ وَلا يَقْتُلُـونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللـهُ إِلاَّ بِـالْحَقِّ وَلا يَزْنُـونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثامـاً (68) يُضـاعَفْ لَـهُ الْعَـذابُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَيَخْلُـدْ فِيـهِ مُهانـاً (69) إِلاَّ مَنْ تـابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ عَمَلاً صـالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَـدِّلُ اللـهُ سَـيِّئاتِهِمْ حَسَـناتٍ وَكـانَ اللـهُ غَفُـوراً رَحِيمـاً (70) وَمَنْ تـابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتابـاً (71) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرامـاً (72) وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآيـاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِـرُّوا عَلَيْها صُـمًّا وَعُمْيانـــاً (73) وَالَّذِينَ يَقُولُـــونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُـرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74) أُوْلئِكَ يُجْـزَوْنَ الْغُرْفَـةَ بِما صَـبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خالِدِينَ

فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (76) قُلْ ما يَعْبَـؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُـونُ لِزامـاً (77)

---

77 [لزاما] : أي أنه واقع لا محالة.

عباد الرحمن بين السلوك والتطلعات

هدى من الآيات :

في الغالب تلخص الآيات الأخيرة من السورة أفكارها ، لتزيـــدها إيضـــاحا وتبيانا ، ولـــتزرع في نفس القـــارئ ، خلاصة مركزة عما مرّ الحديث عنه.

وفي نهاية ســـورة الفرقـــان الـــتي خصصت لبيـــان الرســـالة والـــوحي ، والايمـــان بهما ، يـــوجز لنا الله عـــدة موضوعات هامة ذكّرنا بها خلال السورة.

أولا : ليس الايمان بالرسالة كلمة تقـال ، انما هو وقر عظيم وموقف حاسم يشـعر كل فـراد من افـراد المجتمع بوطئه وخطورته.

ثانيا : ان المجتمع الـــذي تصـــنعه الرســـالة بعيد عن الســـلطة ، فلا يتســـلط فيه أحد على الآخر ، إذ لا خضـــوع لغير ولاية الله فيه ، اما الخضوع لولي أمر الله كالرســـول أو الامـــام أو الفقيه العـــادل العـــارف فحقيقته خضـــوع وتســـليم لله ســـبحانه. إذ لا يقـــدس المجتمع أشخاصـــهم ، وانما يقدس ويخضع للقيم التي يجسدونها.

ثالثا : ان هذا المجتمع تحكمه روح الاحـترام المتبـادل في العلاقة بين ابنائه ، فلا يقتلون النفس ولا يزنون.

وهنـــــاك علاقة بين قتل النفس من جهة ، والزنا من جهة أخـرى ، فكلاهما يعتـبر نوعا من الاعتـداء على كرامة الإنسـان ، وبالتـالي فكلاهما قتل للنفس كما سنوضح ذلك في البينات.

وان الذين يفضلون سـيادة سـلطة غـير الهية عليهم ، فلا يحترمون النفس البشرية ، ويفعلون الفاحشة سيلقون العذاب في الدنيا والآخرة ، إلى ان يتوبوا الى الله ربهم.

رابعا : في المجتمع الرحماني لا يظلم أحد أحدا أبدا.

وحتى لا يظلم الإنسان غيره ، فـان عليه الامتنـاع عن شهادة الزور ، وكثير من الذين يجدون جوا مناسـبا للظلم تدفعهم شهواتهم ومصالحهم لارتكاب الجريمة ، والاعتـداء على حقوق الآخرين ، أما في المجتمع الاسلامي فان الجو العـام ، والقـانون الالهي الحـاكم لا يشـجع على الظلم أو البغي ، فلو فتش ظـالم عمّن يشـهد في صـالحه فسـوف لن يبلغ مناه.

خامسا : الجدية من أهم مميزات المجتمع الايماني.

فهو بعيد عن اللغو ، الــذي يكــون عــاملا من عوامل الانحرافــات الاجتماعية الفكرية وغيرها ، كما اللامبـــالاة الـتي تعـني العبثية واللاهـدف ، فيجب ان يكـون المجتمع جـديّا في البحث عن اهدافه ، بعيـدا عن اللغو واللامبـالاة اللـــذان يجعلانه بعيـــدا عن الرحمانية ، قريبا من الجريمة والانحراف.

وهذا المجتمع هو الذاكر الـذي يتكامل بـذكره لله ، إذ يجعل ذكره لخالقه معراجا لسموه المعنوي والمـادي أيضا ، وبتعبير آخر هو الذي يجعله يعرج الى مستوى التحضر

والتقدم ، فيصنع بذلك حضـارة الايمـان ، كما صـنعها نـبي الله سليمان منذ قبل.

سادسا : ان صـفة التطلع من أبـرز سـمات المجتمع الاسلامي ، الذي يصفه القرآن في هذه السورة ، فبالرغم من اعتمـاد ابنائه على العناصر الفاضـلة من الاسـرة في تـربيتهم ، الا أنهم لا ينسـون تطلعـاتهم الاجتماعيـة. إذ يطمحـون لإمامة المتقين ، وتنتهي السـورة بـذكر الـدعاء الذي هو ردّ التحية من البشر لرسالة الرب سبحانه.

يعـــني إمامة أفضل طبقة وفئة في المجتمع ، فقد يطمح الإنسان ان يكـون إماما وفقط ، اما عبـاد الـرحمن فطمـوحهم قيـادة الطليعة في المجتمع ، وهـذا يـدل على التطلع الواسع في البعد المســتقبلي والحاضر لأبنـــاء المجتمع الإسلامي الرحماني.

فمن جهة يسـعون لصـياغة شخصـية أبنـائهم وفق المفـاهيم الصـادقة ، ليمتـدوا عـبر أولادهم كما أزواجهم عموديا في عمق الزمن.

ومن جهة أخرى فإنهم يسعون وجادين أيضا ليصـبحوا قـدوة لمن حـولهم من النـاس ، ليمتـدوا أفقيا عـبر أبنـاء المجتمع ، الـــذي يعيشـــون فيه وفي أوسع رقعة من المكان.

وهؤلاء بتطلعاتهم وسلوكهم هم الـذين سـيبنون حيـاة فاضلة في الـدنيا ، ويجـزون جـزاء حسـنا في الآخـرة ، إذ يأمر الله الملائكة والطبيعة ان يكونا مسـلّمين لهم ، وعند ما تكـون الملائكة والطبيعة معا مسـلمين لإنسـان ما ، فحينئذ لا يخشى هذا الإنسان من شيء ، لأنه يشعر وكـأن رب الطبيعة والملائكة وخالقها من جهة ، وذات الطبيعة والملائكة الموكلة بها من جهة أخرى ، يحبونه ويعينونه.

ذلك لان عباد الرحمن كـانوا مسـالمين مع أنفسـهم ، وقد علمـوا ان دورهم بنـاء إنسـان رسـالي فاضل انطلاقا من ذواتهم ، وأمة رسالية فاضلة انطلاقا من أسرتهم ،

وحضـــارة اســلامية متقدمة انطلاقا من مجتمعهم ، وكل ذلك في اطار السنن والقوانين الرسالية الصحيحة.

وعلى العكس في كل ذلك من يرتكبـــون الجـــرائم ويقترفون الآثام ، فيضـلوا أنفسـهم وأسـرهم ومجتمعهم ، ولا يصـلون الى اهـدافهم الـتي يطمحـون إليها ، فتكـون المعادلة عكســية إنســان منحــرف ، أمة متخلفة ، نهاية حضـارة أو مدنية ــ كما وصل الى هـذه النتيجة السـابقون من الأقوام ـ قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ* إِرَمَ ذاتِ الْعِمـادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَـقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ* وَثَمُـودَ الَّذِينَ جـابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ* فَــأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَســادَ* فَصَــبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ ﴾ [1].

سابعا : في نهاية هذه السورة لفتة غريبة.

فسورة الفرقان التي بدأت بـذكر القـرآن معـبرة عنه بالفرقـان ، أي المـيزان بين الحق والباطل ، نجـدها تنتهي بذكر الدعاء في قوله تعالى : ﴿ **قُـلْ ما يَعْبَـؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ** ﴾. فما هي العلاقة بين القرآن والدعاء؟

ربما يفسّر هذه العلاقة حديث شريف يقول :

«**إذا أردت ان يحـدثك الله فـاقرأ القـرآن ، وإذا أردت ان تحدث الله فاقرأ الدعاء**»

فقبل ان ينتظر الإنسـان رسـالة تـنزل من الله عليه ، يجب ان يبعث رسالة الى الله

---

(1) الفجر / 6 ـ 14.

عبر الدعاء ، فان الله يحب رسالة الإنسان ، ويستمع إليها ، فهو الــذي قــال : «**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْــطَرَّ إِذا دَعــاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**» وهو الذي قال : «**وَإِذا سَـأَلَكَ عِبـادِي عَنِّي فَإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذا دَعـانِ**» وهو الذي يقول : «لبيك عبدي» إذا دعاه داع.

بينات من الآيات :

الوجه الآخر للقتل :

[68] ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ** ﴾

اي لا يخضعون لسلطة مادية أخرى ، انما لله وحـده ، فهو صاحب السلطة المطلقة في منطقهم لا غير.

﴿ **وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللـهُ إِلَّا بِـالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾

يعــني لا يقتلــون النفس المحترمة ، ولا يرتكبــون فاحشة الزنى ، ولكن السـؤال لمـاذا جـاء ذكر الـزنى بعد قتل النفس؟!

الجواب أن قتل النفس نوعان :

1 ـ القتل عبر إزهاق الروح.

2 ـ القتل عـبر سـلب الـروح الانسـانية بسـوء التربية والتوجيه ، وأيضا بطمس العقل والارادة في نفس الإنسان ، فاذا سلب الإنسان عواطفه الحسنة وشخصـيته الايمانية فــان ذلك أشد عليه مما لو قتل بزهق روحه أو إهدار دمه.

ولقد جـاء في تفسـير الآية الكريمة «**مِنْ أَجْـلِ ذلِـكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ**

قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً». ان من قتلها بإضلالها فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها بهدايتها فكأنما أحيا الناس جميعا.

والذي يزني فيتسبب في مجيء أبناء زنى يتربون في الشوارع كأنما قتلهم ، لأنهم لن يجدوا اسرة تحتضنهم لتربيتهم ، مما قد يحولهم الى وحوش كاسرة على المجتمع ، إذ تموت الصفاة الخيرة والمواهب الفاضلة فيهم ، وتنمو مقابلها كل صفات الشر ، وهذا هو القتل المعنوي.

و عند ما يسأل رجل الامام الرضا (ع) أيهما أشد يا ابن رسول الله ، القتل أم الزنا؟ يجيبه الامام «الزنا أشد من القتل».

فيسأل الرجل يا ابن رسول الله ولم ذلك؟

فيجيب (ع) : ان من يولد بالزنا سيكون له أولاد آخرون.

وربما يكون هؤلاء جيل من المنحرفين ، بينما إذا أزهق الرجل روح آخر يكون بذلك قد أزهق روح شخص واحد أما الاول فقد قتل اجيالا.

﴿ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً** ﴾

من الطبيعي ان يلقى جزاء عمله ، و جاء في الحديث :

«انّ اثام واد من اودية جهنم من صفر مذاب ، قدامها حرة (اي ارض ذات أحجار سود) في جهنم يكون فيه من عبد غير الله تعالى ، ومن قتل النفس التي حرّم الله ، ويكون فيه الزناة ، ويضاعف لهم فيه العذاب» [1]

(1) نور الثقلين / ج 4 / ص 31.

[69] ﴿ يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً ﴾
فكل عمل يلحقه جزاء بقدره وعذاب بامتداده ، فلو كذب رجل على آخر سأل عن طريق فأرشده الى غيره تعمدا ، فانه سيجازى اولا على الكذب ، وثانيا على العذاب والنصب العملي الذي سيواجه المكذوب عليه ، ويكون الكاذب مسئولا لو أصاب هذا الإنسان شيء في طريقه.
ولعلّ هذا هو معنى مضاعفة العذاب.

التوبة قرار وعمل :

[70] ﴿ إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾
ان رحمة الله واسعة جدا ، فمهما فعل الإنسان من ذنوب كالزنا والقتل ، الا أنه سيجد باب الرحمة مفتوحا على مصراعيه للتائبين والمستغفرين ـ وليس هذا فحسب ـ بل الأعظم من ذلك ان الله يحول سيئات التائبين الى حسنات يثابون عليها ، ولعل سبب تحول السيئات الى حسنات ان التائب سيجعل تذكّره لها ، وندمه على فعلها منطلقا للتصحيح ، والمسارعة الى معرفة أكبر ، وايمان اعمق ، وكلما تذكر سيئة شعر بمسؤولية محوها ، وإبدالها بعمل صالح ، والشقي الشقي من حرم غفران الله بإصراره على الذنوب دون التوبة. إن ذنوب العباد مهما كبرت وكثرت لأصغر وأقل من رحمة الله. جاء في حديث مروي عن الامام الباقر عليه السّلام في تفسير الآية :
«**يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بموقف الحساب فيكون الله تعالى هو الذي يتولى حسابه لا يطلع على حسابه أحد من الناس فيعرفه بذنوبه ، حتى إذا أقرّ بسيئاته قال الله عز وجل للكتبة : بدّلوها حسنات وأظهروها للناس ،**

فيقول الناس حينئذ : ما كان لهذا العبد سيئة واحدة ، ثم يأمر الله به الى الجنة» الخبر [1]

حقا ان الأمل في رحمة الله ، يجعل المــؤمن يــزداد لربه حبــا. فيبتعد عن معاصــيه. لــذلك استفاضت آيــات القــرآن ونصــوص الســنة تؤكد رضــوان الله ، والحــديث التالي يعكس مـدى تعطف الـرب لعبـاده ، كما يـبيّن كيف تساهم معرفة هذه الحقيقة في إصلاح البشر ، يـروى عن الامام الرضا عليه السّلام : «قيل لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وســلم ــ هلك فلان ، يعمل من الــذنوب كيت وكيت فقـال رسـول الله (ص) بل قد نجى ، ولا يختم الله عمله الّا بالحسـنى ، وسـيمحو الله عنه السـيئات ويبـدّلها حسنات ، انه كان مرة يمر في طريق عرض له مؤمن قد انكشفت عورته وهو لا يشعر فسترها عليه ولم يخـبره بها مخافة ان يخجل ، ثم ان ذلك المـؤمن عرفه في مهـواه ، فقـال له : أجـزل الله لك الثـواب وأكـرم لك المـآب ، ولا ناقشك الحســاب ، فاســتجاب الله له فيه ، فهــذا العبد لا يختم له الا بخير بدعاء ذلك المؤمن ، فاتصل قول رســول الله بهذا الرجل ، فتاب وأناب ، وأقبل على طاعة الله عز وجل ، فلم يـأت عليه سـبعة أيـام حـتى أغـير على سـرح المدينة ، فوجه رســول الله في أثــرهم جماعة ــ ذلك الرجل أحدهم ـ فاستشهد فيهم» [2]

[71] ﴿ **وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُـوبُ إِلَى اللهِ مَتاباً** ﴾

يعني ان الذي يتوب ويعمل صـالحا ، فانما يتـوب الى الله الرحيم.

صفات عباد الرحمن :

1 ـ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ :

[72] ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** ﴾

---

(1) راجع المصدر / ص 34.
(2) المصدر / ص 35.

1 ـ ان عباد الرحمن لا يشــهدون بالباطل زورا ، ومن جـــــانب آخر لا يطلقـــــون الكلمة الا في وقتها ومحلها المناسب ، شعورا منهم بان الكلام هو من عمل الإنسان ، كما قال الرسول (ص) لاعـرابي سـأله وهل يحاسـبنا الله على ما نقول؟

قال (ص):

«**وهل يكب النـاس على منـاخرهم في النـار الا حصائد ألسنتهم**»

وفي حديث آخر عن الامام الصادق (ع) قال :

«**لو علم النـــاس ان كلامهم من عملهم لقللــوا الكلام**»

وفي بعض الروايات «انّ الزور هنا الغـنى» [1] و جـاء في حــديث آخر : «انه مجــالس الفســاق ولا يحضـــرون الباطل» و روى الامامان الباقر والصادق عليهما السّـلام ، عن عيسى بن مـــريم عليه السّـــلام «إيـــاكم ومجـــالس الخطائين» [2] و جاء في حديث رابع «ان هـؤلاء إذا ذكـروا الفرج كنوا عنه لعفّة ألسنتهم».

هكـــذا تتسع دلالة الآية لتشـــمل كل باطل ، فهم لا يشهدون لأنهم تـدبّروا في الحيـاة فعرفـوا انّ هنـاك هـدفا مقدسا لها ، فسعوا اليه ، فعزفت أنفسهم عن الباطل.

﴿ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾

2 ـ يمرون باللغو كراما :

فلا يتشدقون بالكلام الخاطئ أو غير الهادف ، وكذلك لا يشـــاركون في اجتماعـــات اللهو واللعب ، والضـــرب والرقص لان وقتهم اثمن من ذلك ، ولعلمهم

(1) الحديث المروي عن الامام الصادق عليه السّلام المصدر / ص 41.
(2) المصدر.

ان الحياة فرصة لا تتكرر ، فلا بدّ من اسـتغلالها ، بسـنينها وأيامها وسـاعاتها ودقائقها ، كل ذلك اتقـاء ليـوم الندامة على التفريط في فرصة العمر.

وهم يمــرون كراما على اللغو لأنهم يشــعرون انهم أكــرم من اللغو ، فكــرامتهم وشــرفهم يــدعوهم لتجنب مجالس اللهو.

3 ـ البصيرة والوعي :

[73] **وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِـرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً**

البصــيرة من الصــفات البــارزة لعبــاد الــرحمن. إذ يتفكرون في آيات الله الـتي تتلى عليهم بحثا عن الحقيقة ، وطمعا في البصـيرة ، متـأملين في شـؤون الحيـاة على ضــوئها ، عــاكفين على اســتنباط الانظمة والتشــريعات الاجتماعية والاقتصــادية ، والسياســية ، والتربوية وغيرها منها ، علما منهم بــأن من أنــزل الآيــات هو الــذي خلق الحياة ، وسن فيها القوانين والانظمة.

يبــدو ان تــرك اللغو يــوفر لهم فراغا كبــيرا. يملأونه بالنشاط الفكري الرشيد. جاء في دعاء مكارم الأخلاق :

«**اللهم اجعل ما يلقي الشـيطان في روعي من التمني والتظـني والحسد ، ذكـرا لعظمتك ، وتفكـرا في قـدرتك ، وتـدبيرا على عـدوك ، وما جـرى على لساني من نقطة فحش أو هجر ، أو شتم عرض ، أو شـهادة باطل ، أو اغتيــاب مــؤمن غــائب ، أو سب حاضر ، وما أشـــبه ذلك نطقا بالحمد لله ، وإغراقا في الثنــاء عليك ، وذهابا في تمجيــدك ، وشــكر لنعمتك ، واعترافا بإحسانك وإحصاء لمننك**».

وروى ابو بصير عن الامام الصادق عليه السّلام : في تفسير الآية هذه قال :

«**مستبصرين ليسوا بشكّاك**»

ولكن اين المسلمون الآن من هؤلاء؟!

فلو تطلعنا الى واقع الامة الاســـلامية لرأينا أكـــثر المســلمين ممن يخــرون على آيــات الله صــما وعميانا ، يرتلونها مبــدعين ، ولكنهم لا يفقهــون معانيها ولا يــدركون مــدلولاتها ، بل لا يتــدبرون فيها ليطبقوها على ســلوكهم ، ومن ثم على مجتمعهم.

4 ـ الطموح الكبير :

[74] ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً** ﴾

ان العلاقة بين طلب الأزواج والذرية الصــالحة ، وبين طلب الامامة والقيــادة لــدى عبــاد الــرحمن ، تتجلى في طمــوحهم نحو امتــداد رســالتهم في ذريتهم وأيضا فيمن يلتقــون بهم من النـــاس ، فيصـــبحون قـــدوة للمتقين ، والمتقون ـ بدورهم ـ طليعة المجتمع ، فهم يطمحــون ان يكونوا قدوة الطليعة وليس الطليعة فحسب.

وتـــدل الآية الكريمة على ما يحملـــون من روحية التنافس على الخير ، ففي المجتمع الرحماني يتطلع الكل لأن يصبح أفضل في مجال الخير والعمل.

وجــاء في أحــاديث أئمة آل الــبيت عليهم السّــلام ان الكلام إياهم عنى ، وهم تأويلها. و جاء في حديث شريف :

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام :

«**والله ما ســألت ربي ولــدا نضــير الوجه ، ولا ســألته ولــدا حسن القامة ، ولكن ســألت ربي ولــدا مطيعين لله خــائفين وجلين منه ، حــتى إذا نظــرت اليه وهو مطيع**

لله قرت به عيني قال : «واجعلني للمتقين إماما» قــال : نقتــدي بمن قبلنا من المتقين فيقتــدي المتقــون بنا من بعدنا» [1]

[75] ﴿ **أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً** ﴾

حيث يستقبلهم الله بغرفات مبنية من الذهب والفضة ، ومن الياقوت والدرّ ، ويلقّون فيها تحية وســلاما من الله وملائكته.

وتــوحي هــذه الآية الى فكــرة هامة وهي ، ان تحقيق الطمــوح وبلــوغ الاهــداف يحتــاج الى كثــير من الصــبر ، فالطموح الأجوف والتطلع الميت لا يجدي نفعا ، والإنسان لا يجــزى على تطلعه بمقــدار ما يجــزى على ســعيه في تحقيق ذلك التطلع وما نستوحيه من الآية ان الجزاء يكون على الصبر في سبيل الاهداف السامية.

[76] ﴿ **خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً** ﴾

5 ـ الدعاء معراج المؤمن :

[77] ﴿ **قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ** ﴾

الــدعاء هو جسر الارتبــاط مع الله ، ومما يمــيز عبــاد الــرحمن دعــاؤهم. فهم بجــانب العمل والســعي يهتمــون بالــدعاء ، ايمانا منهم بــأن توفيق الله أفضل من عملهم ، بل هو روح العمل التي توصله الى أبواب الجنة.

إذ لا فائــدة من عمل لا خشــوع لله فيه ، ومن طلب الحســـاب على عمله دون فضل الله خسر ، والرســـول الأعظم (ص) لا يــدخل الجنة بعمله ، وانما بفضل الله فلو حاسب الله الناس بأعمالهم ما دخل أحد الجنة.

---

(1) المصدر / ص 44.

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً ﴾

عند ما ينصـــرف النـــاس عن الله ، ولا يتوجهـــون له بالـدعاء والتضـرع ، فانه يـنزل عليهم العـذاب ، وكما في الحديث ان :

«**الصـــدقة تـــدفع البلاء والـــدعاء يـــرد القضـــاء المبرم**».

الفهرست

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان